

٩٥٢,٠٥٥

٤٠٠٠

محمد حسین قاسمی

الصدق بقوتہ

ابوبکر



دارالمعارف

الصَّالِحِينَ
أَبُو بَكْرٍ

الصدق أبو بكر

لو كنت متخذاً من العبادِ خليلاً
لا اتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً.

حديث

محمد بن عبد الله

الطبعة الثامنة



دارالمعارف

ميشة الرقابة الادارية	
المكتبة	
رقم التصنيف :	٩٤٤
القسم :	٥
ثمان الكتاب :	٥٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ .

سجل المراجع

المراجع العربية

- الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي .
جامع البيان في تفسير القرآن : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
تاريخ الرسل والملوك : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
تاريخ يعقوبي : لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي .
سيرة سيدنا محمد رسول الله : لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام .
الطبقات الكبير : لمحمد بن سعد كاتب الواقدي .
تاريخ ابن خلدون : لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون .
الكامل في التاريخ : لعز الدين أبي الحسين علي محمد بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير .
وفيات الأعيان : لابن خلكان ، شمس الدين أبي العباس أحمد بن إبراهيم بن علي بن أبي بكر الشافعي .
فتوح البلدان : لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري .
فتوح الشام : لمحمد بن عمر الواقدي .
فتوح الشام : لأبي إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري .
الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية : للسيد أحمد بن السيد زيني دحلان .
الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني : علي بن الحسين القرشي الأموي .
الإمامة والسياسة : لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري .
عيون الأخبار :
المعارف :
الإعلام بأعلام بيت الله الحرام : لقطب الدين محمد بن أحمد المكي الحنفي المعروف بالنهرواني .
مروج الذهب ومعادن الجوهر : لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي .
الإتقان في علوم القرآن : لخلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي .
كتاب المصاحف : لأبي داود الحافظ أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني .
تاريخ القرآن : لأبي عبد الله الزنجاني .
أشهر مشاهير الإسلام : للسيد رفيق العظم .
بيت الصديق : للسيد محمد توفيق البكري .
فجر الإسلام : للأستاذ أحمد أمين .
خلفاء محمد : للأستاذ عمر أبي النصر .
عمرو بن العاص : للأستاذ حسن إبراهيم حسن .
دائرة المعارف الإسلامية : للأستاذ محمد فريد وجدي .
دائرة معارف القرن العشرين : للأستاذ محمد فريد وجدي .

المراجع الأجنبية

Annals of the Early Caliphate	<i>By Sir William Muir</i>
Successors of Mahomet	<i>By Washington Irving</i>
The Early Caliphate	<i>By Maulana Mohammed Ali</i>
Mohammedanism	<i>By C. Snouk Hurgronje</i>
History of the Arabians	<i>By Abbé de Marigny</i>
The Arab Conquest of Egypt	<i>By Alfred J. Butler.</i>
The Early Development of Mohammedanism	<i>By D.S. 'Margoliouth</i>
Essai sur l'Histoire des Arabes	<i>Par Caussin de Perceval</i>
Le Monde Musluman et Byzantin	<i>Par Gaudfroy-Demombynes</i>
Historians History of the World.	
Encyclopedia Britannica.	
Dictionnaire Larousse.	

تقديم

يؤرخ العالم الإسلامى كله بهجرة النبي العربى من مكة إلى المدينة .
والسر فى اختيار هذا الحادث العظيم مبدأً للتاريخ الإسلامى أنه مبدأ نصر الله
رسوله على الذين حاربوا دعوته فى البلد الحرام ثم مكروا به ليقتلوه . وكان
الصدّيق أبو بكر هو وحده صاحب رسول الله فى هذه الهجرة . ولما مرض
رسول الله مرضه الأخير ، فلم يقو على الصلاة بالمسلمين : أمر أبا بكر أن يقوم
فى الصلاة بهم مقامه ، ولم يرض أن يقوم عمر بن الخطاب هذا المقام .

ولنما اختار النبي أبا بكر ليصحبه فى الهجرة ، وليصلى بالمسلمين مكانه ،
لأن أبا بكر كان أول المسلمين إيماناً بالله ورسوله ، وأكثرهم فى سبيل إيمانه
تضحية : ولأنه حرص منذ أسلم على معاونة النبي فى الدعوة لدين الله وفى الدفاع
عن المسلمين ، ولأنه كان يؤثر النبي على نفسه ، ويقف إلى جانبه فى كل
موقف ؛ ثم إنه كان ، إلى قوة إيمانه ، من أدنى الناس إلى كمال الخلق ، ومن
أحب الناس إلى الناس وأكثرهم إلفاً لهم ومودة .

اختيار النبي
الصدّيق فى الهجرة
والصلاة بالمسلمين

لا عجب ، وذلك بعض شأنه ، أن يبايعه المسلمون خليفة لرسول الله .
ولا عجب ، وتلك مواقفه ، أن ينصر الإسلام وينشر ظل الله فى الأرض ،
فيكون التاريخ له مبدأ التاريخ للإمبراطورية الإسلامية التى امتدت من بعد
فى الشرق وفى الغرب ، إلى الهند والصين فى آسيا ، وإلى مراكش والأندلس
فى أفريقية وأوربا ، وإلى وجهت الحضارة الإنسانية وجهة لا يزال العالم متأثراً
بها إلى اليوم .

ما أغرانى
بالتفكير فى
دراسة
الإمبراطورية

ولقد جال بخاطرى ، مذ فرغت من كتابي « حياة محمد » و « فى منزل
الوحي » ، أن أقوم بدراسات فى تاريخ هذه الإمبراطورية الإسلامية ، وفى
أسباب عظمتها وانحلالها . ولنما أغرانى بالتفكير فى هذا الأمر أن الإمبراطورية
الإسلامية كانت أثراً لتعاليم النبي العربى وسنته . أما وقد درست حياته صلى الله

عليه وسلم ، ورأيت نتائج هذه الدراسة جديرة بأن تهدي الإنسانية طريقها إلى الحضارة التي تنشدها ، فإن في دراسة هذه الإمبراطورية وأطوارها ما يزيدنا قدراً للتأسي بالرسول وتعاليمه ، وما ييسر لنا حظاً جديداً من العلم بهذه الحياة الباهرة الجلال يزيد العلماء اقتناعاً بما دعوت إليه من إمعان البحث فيما تنطوي عليه من حقائق نفسية ، وأخرى روحية ، ما يزال العلم يقف بوسائله حائراً دونها ، لا يستطيع أن يثبتها بأدلتها ، ولا يستطيع مع ذلك أن ينفيها ، وهي من بعد قيام سعادة الإنسان في الحياة ومقوم سلوكه فيها .

وأغرائي بهذا التفكير كذلك ما أعتقده من أن معرفة الماضي هي وحدها التي تطوع لنا تصوير المستقبل وتوجيه جهودنا أثناءه إلى الغاية الجديرة بالإنسانية . فالماضي والحاضر والمستقبل وحدة لا سبيل إلى انفصامها . ومعرفة الماضي هي وسيلتنا لتشخيص الحاضر ، ولتنظيم المستقبل ؛ كما أن معرفة الطبيب ماضى مريضه خير وسائل التشخيص والعلاج .

والحاضر الذي تمخضت عنه الإمبراطورية الإسلامية يتناول بنوع خاص كل الشعوب التي تتكلم العربية ، وتؤمن لذلك بأنها تمت لأهل شبه الجزيرة بصلة ونسب . ومصر مركز الدائرة من هذه الشعوب : تمتد حولها فلسطين وسوريا والعراق إلى الشرق ، وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش إلى الغرب . ويتناول هذا الحاضر بنوع عام جميع الشعوب التي تدين بالإسلام في آسيا وأفريقيا وأوروبا . لا جرم وماضى الإمبراطورية الإسلامية يربط على الزمان هذه الأمم والشعوب كافة أن تكون دراسته موضع عنايتها جميعاً ، وأن يرى كل منها صورته إلى أربعمئة وألف سنة خلت ماثلة في هذه الدراسة ، وأن يتعرف من طريقها الأسباب التي أدت إلى ما أصاب هذه الصورة من شوه أو فساد ، وأن يلتمس الوسيلة من طريق هذا التعرف لرد الصورة إلى جلالها الأول وبهائها المضيء .

وإني لأفكر في هذه الأمور وفيما يتصل بها إذ رغب إلى جماعة ممن أبدوا الرضا عن « حياة محمد » أن أتناول حياة خلفائه الأولين بالبحث ، وأن أفرد لطائفة من أبطال المسلمين في العهد الأول تراجم مستفيضة ، أسجل في كل

واحدة منها سيرة واحد من هؤلاء الأبطال . ولئن أَرْضَى مطلب هؤلاء الأصحاب
نفسى وتملق رضاي عنها لقد أشفقت عليها مما طلبوا ؛ فهو أمر يقصر دون إتمامه
الجهد ، وتنوء بإحسانه جماعة متضافرة .

ما جعلنى أبداً
بسيرة الصديق

وكانت الترجمة لعمر بن الخطاب ، مما أكثر الحديث فيه قوم رأوا سيرة
الفاروق غرة في جبين التاريخ الإسلامى . قلت عند ذلك فى نفسى : ومالى
لا أبداً بسيرة الصديق فأدرُسها وأعرضها على النحو الذى عرضت به « حياة
محمد » ! لقد كان أبو بكر صفيّ محمد وخليله ، وكان أكثر أصحابه اتصالاً
به ، وكان لذلك أكثرهم تتبعاً لتعاليمه وامثالاً إياها . وهو بعدُ رجل رقيق
الخلق ، رضى النفس ، وإليه ينتسب عشرات الألوف ومئاتها من المسلمين
المنتشرين فى أنحاء الأرض . ثم إنه ، إلى رفقته ورقته ، هو الخليفة الأول ،
وهو الذى أقر الإسلام حين حاول المرتدون من العرب أن يقوّضوا ركنه أو يثلموا
متنه ، كما أنه هو الذى مهدّ للفتح وللإمبراطورية . فلعلنى ، إذا وفقت لتدوين
سيرته على النحو الذى أرجو ، أكون قد عبّدت الطريق لكتابة تاريخ هذه
الإمبراطورية كله أو بعضه ، فأبلغ بذلك ما يريد الله أن أبلغه من هذا الغرض
العظيم ، وأمهد السبيل لمن شاء أن يتمه أو يأخذ فيه من جديد على نحو أدنى
إلى الكمال .

ولو أتى قرّى بى الجهد عند سيرة أبى بكر لكفانى ذلك ولا غتبطت به .
وحسبك أن تتلو ما حدث فى عهد الخليفة الأول لتسكن إليه وتستقر غنده . إن
فيما رواه المؤرخون من وقائع هذا العهد لما ينطوى على عظمة نفسية تثير الدهشة ،
بل الإعجاب ، بل الإكبار والإجلال ، وأخشى أن أقول إنها تدعو إلى
التقديس . أنت لا ترى هذه المعانى مصوّرة فى أى من الكتب الأولى ؛ لكن
روايتها للحوادث تبرزها وإن لم تنطق بها ، وتجلوها بينة واضحة وإن لم تذكرها
ولم تحدث عنها .

فهذا الرجل الوديع السمع الأسيف السريع إلى التأثير وإلى مشاركة البائس
فى بؤسه ، والضعيف فى ضعفه ، تنطوى نفسه على قوة هائلة لا تعرف
التردد ولا الإحجام ، وعلى قدرة ممتازة فى بناء الرجال ، وفى إبراز ملكاتهم

ومواهبهم . وفي دفعهم إلى ميادين الخير العام ينفقون فيها كل ما آتاهم الله من قوة ومقدرة .

أين كانت هذه العبقرية التي انطوت عليها نفس أبي بكر أثناء حياة الرسول ؟

عدت بالذاكرة إلى سيرة أبي بكر قبل خلافته ، واستحضرت مواقفه من رسول الله ، فبدت لي في ثوب جديد من الجلال تحيط بها هالة من عظمة تواضعت إلى جانب عظمة الرسول وجلاله ؛ لكنها برزت أمامي بكل بهائها وجلالها حين قرنت صاحبها إلى سائر أصحاب رسول الله ومن اتبعه من المسلمين . فأين مواقفهم ، على جلالها وعظمتها ، من مواقفه أول الرسالة ، وحين كانت قريش تنال رسول الله بالإساءة والأذى ، وحين كان حديث الإسراء . وأول الهجرة ، وفي مكافحة دسائس اليهود بيثرب ؟ !! إن كل موقف من هذه المواقف لكفيل وحده بأن يؤرخ لرجل وأن يثبت اسمه في كتاب الخلود . وعظمة أبي بكر مع ذلك هي العظمة الصامته التي تأبى أن تتحدث عن نفسها ؛ لأنها عظمة الروح وعظمة الإيمان الحق بالله وبما أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

حسن رأيه
وبعد نظره

ثم ماذا !! ثم إن رواية الحوادث في عهد أبي بكر تشهد له بحسن الرأي وبعد النظر . فهو حين يفكر في غزو الفرس وفي غزو الروم لأول ما اطمأن إلى موقف المسلمين من حروب الردة في بلاد العرب ، قد رأى في مبدأ المساواة الذي جاء الإسلام به قوة جديدة لا تستطيع فارس ولا تستطيع بزنطية أن تواجهها . فهذا المبدأ جدير بأن تهوى إليه نفوس الناس جميعاً في هاتين الإمبراطوريتين اللتين قامتا على حكم الفرد وعلى نظام الطوائف وعلى التفاوت بين الناس . ليكون لكل من الإمبراطوريتين ما تشاء من عدد وعدة ؛ فإن فكرة المساواة والعدل أقوى من كل قوة . والحكم القائم على أساس هذه الفكرة جدير بأن يكسب الناس إليه ما كان الإنصاف أساسه . لذلك لم يصد أبا بكر عن غزو العراق وغزو الشام ما كان من اختلاف طائفة من كبار الصحابة معه في الرأي ، بل أمر بهذا الغزو مطمئناً إلى أن الله معينه وناصره . ولذلك نصح

إلى من بعثهم على رأس هذا الغزو أن يتمسكوا بالمساواة وبالإنصاف والعدل لا يحيدون عنها قيد أنملة .

تتجلى هذه المعاني واضحة كل الوضوح من خلال الحوادث التي رواها المؤرخون الأولون عن هذا العهد القصير العظيم الذي تولى الصديق فيه أمر المسلمين ، ويزيد ما كتبه المستشرقون بعض هذه المعاني وضوحاً بما أوردته كتبهم من ملاحظات ، وما حاولت أن تفسر به بعض الحوادث .

وهذه المعاني هي التي تجعل هذا العهد القصير خليقاً أن يفرد له سفر مستقل يصور ذاتيته الخاصة وتكوينه التام .

وأنا أقصد ما أقول حين أذكر أن عهد الصديق له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام فهو ، على اتصاله بعهد الرسول قبله وبعهد عمر بعده ، يمتاز بطابع يشخصه . فعهد الرسول كان عهد وحى من عند الله ، أكمل الله به للناس دينهم ، وأتم عليهم نعمته ، ورضى لهم الإسلام ديناً . وعهد عمر كان عهد تنظيم للحكم الذي استقرت قواعده ، وللإمبراطورية التي تفتحت أبوابها . أما عهد أبي بكر فكان فترة الانتقال العصبية الدقيقة التي تربط بين هذين العهدين ، وتتميز مع ذلك عن كل منهما ، بل تتميز عن كل عهد عرفه الناس في تاريخ الحكم واستقراره ، وفي تاريخ الأديان وانتشارها .

في هذه الفترة الدقيقة صادفت أبا بكر صعاباً بلغت من الشدة أن أثارت مخاوف المسلمين جميعاً في أول عهده . فلما تغلب بفضل إيمانه عليها ، وأمدّه الله بالتوفيق والنصر فيما تلاها ، تولى عمر بن الخطاب سياسة المسلمين ، فدبر أمورهم ، وأقام بينهم عدلاً وطّد قواعد ملكهم ، وجعل دول العالم تدين طائعة لسلطانهم .

أثارت الصعاب التي صادفت أبا بكر مخاوف المسلمين . ذلك لأن الوحدة العربية التي تمت في عهد الرسول لم تلبث أن اضطربت حين وفاته . بل لقد بدأت تُنذر هذا الاضطراب قبل أن يختار الله رسوله إليه . تنبأ مسيلمة بن حبيب باليمامة وبعث رسله إلى النبي بالمدينة يقولون له إن مسيلمة نبي مثله ، « وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قریشاً قوم لا يعدلون » .

تغلبه على ما
صادفه من
صعاب

وتنبأ الأسود العنسي باليمن وادعى السحر ، وجعل يدعو الناس إليه خفية ، حتى إذا عظم أمره سار من الجنوب وطرده عمال محمد ، وتقدم إلى نجران ونشر في تلك الأصقاع سلطانه ؛ وبعث محمد إلى عماله باليمن كي يحيطوا بالأسود أو يقتلوه . هذا إلى أن العرب الذين آمنوا بالتوحيد ونبذوا عبادة الأوثان لم يدر بخاطر أحدهم أن تعقب وحدتهم الدينية وحدة سياسية ؛ بل إن كثيراً منهم راجعهم الحنين إلى عقائدهم الأولى ، فلم يلبثوا حين علموا بوفاة رسول الله أن ارتدوا عن دين الله ، وأن أعلن أكثر القبائل عدم الإذعان لسلطان المدينة ، وعدوا الزكاة إتاوة مفروضة فامتنعوا من أدائها .

الثورة في بلاد
العرب وحروب
الردة

استطارت هذه الثورة عقب وفاة الرسول في بلاد العرب جميعاً بسرعة مروعة كما تستطير النار في الهشيم . وبلغت أنباؤها أهل المدينة ممن حول أبي بكر بعد أن بايعوه ، فتولاهم الدهش واختلفوا ما يصنعون . وكان رأى قوم ؛ بينهم عمر بن الخطاب ، ألا يقاتلوا الذين منعوا الزكاة ما داموا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ولعلمهم أرادوا بذلك ألا يزيدوا عدد عدوهم فيتغلب عليهم ، ولم يعدهم الله ما وعد رسوله من النصر ، وليس ينزل الوحي على أحد منهم بعد أن اختار الله إليه خاتم الأنبياء والمرسلين . لكن أبا بكر أصر على قتال من منعوا الزكاة كما أصر على قتال من ارتدوا ، فكانت حروب الردة التي استطالت عاماً وبعض عام .

ولم تكن حروب الردة غزوات اشتبك فيها بضع مئين من جيش الخليفة وبضع مئين من خصومه ، بل كانت بعضها طاحنة اشترك فيها عشرات الألوف من كل جانب ، وقتل فيها المئات بل الألوف من هؤلاء ومن أولئك ، ثم كان لها في تاريخ الإسلام أثر حاسم . ولو أن أبا بكر نزل على رأى من لم يريدوا هذه الحروب لساد الاضطراب بلاد العرب ، ولما قامت الإمبراطورية الإسلامية . ولو أن جيوش أبي بكر لم تنتصر في هذه الحروب لكانت العاقبة أدهى وأمر ، ولتغير في الحالين مجرى التاريخ في العالم كله . لذلك لا يكون غالياً من يقول إن أبا بكر ، بموقفه من ردة العرب ، وبانتصاره فيها ، قد وجه تاريخ العالم ، وكان يد الله في بعث الحضارة الإنسانية خلقاً جديداً .

آثار انتصاره
في حروب الردة

فلولا انتصار أبي بكر في حروب الردة لما بدأ غزو العراق وغزو الشام ، ولما سارت جيوش المسلمين مظفّرة تفتح الإمبراطوريتين الرومية والفارسية لتقيم الإمبراطورية الإسلامية على أنقاضهما ، ولتُحِلَّ الحضارة الإسلامية محل حضارتيهما . ولولا حروب الردة ، واستشهاد من استشهد من الصحابة لإحراز النصر فيها ، لخيف ألا يسارع عمر فيشير على أبي بكر بجمع القرآن . وهذا الجمع هو الذي أدى إلى توحيد القراءة بلغة مُصَرَّ في عهد عثمان ، فظل كتاب الله الكريم أساساً ثابتاً لكلمة الحق ، ودعامة متينة للحضارة الإسلامية . ولولا نصر الله المسلمين في حروب الردة لخيف ألا يقر أبو بكر نظام الحكم في المدينة ليقيمه عمر من بعده على أساس من الشورى ، سنده العدل والرحمة ، ولُحِمته البر والتقوى .

هذه أحداث جليلة تمت في فترة قصيرة لم تعدْ سبعة وعشرين شهراً . ولعل قصر هذه الفترة هو الذي دعا بعضهم إلى أن يتخطاها إلى عهد عمر ، ظناً منهم أن أشهراً معدودات لا تتسع لعظائم تغير وجه العالم. ولو أن هؤلاء ذكروا أن الثورات التي نقلت الإنسانية أطواراً تمت كلها في مثل هذه الفترة ، وأن العالم جعل يمثّل مبادئ هذه الثورات بعد ذلك شيئاً فشيئاً ويفيد منها لرقّ الإنسانية في توجهها إلى الكمال ، لما سارعوا إلى الانتقال من عهد الثورة الروحية التي أعلنها رسول الله في العالم كله إلى الإمبراطورية المترامية الأطراف التي دانت لهذه الثورة ، دون أن يقفوا ملياً عند هذه الفترة التي حاول العرب فيها أن يقوموا برد الفعل في وجه ما جاء محمد به ، شأنهم في ذلك شأن الناس في كل زمان ومكان ، إذ يحاربون المبادئ الجديدة ، يحاولون إطفاء نورها . ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

اتصال عظمته
في الخلافة
بعظمته في
الصحة

كيف استطاع أبو بكر أن يواجه الصعاب التي استفتحت عهده ، وأن يثبت لها ويتغلب عليها ، وأن يبدأ التمهيد للفتح وللإمبراطورية وهذه الصعاب قائمة ؟ لقد كان لصفاته الذاتية أثر كبير في ذلك لا ريب . لكن هذه الصفات وحدها ما كانت لتبلغ به ما بلغ لولا صحبته الرسول عشرين سنة كاملة . ولذا يُجمع المؤرخون على أن عظمة الصديق في خلافته تتصل بعظمته في صحبة

الرسول أوثق اتصال . فهو قد أُشرب أثناء هذه الصحبة روح الدين الذي جاء به محمد ، وأدرك مقاصده وأغراضه كاملة إدراك إلهام لا يتطرق إليه الخطأ ولا الريب . وما أُشربه وأدركه بإلهامه أن الإيمان قوة لا يغلبها غالب ما تنزه المؤمن عن كل غرض إلا ابتغاء الحق لوجه الحق وحده . هذه حقيقة روحية أدركها كثيرون في عصور شتى ، لكنهم أدركوها بعقولهم . أما أبو بكر فأدركها بقلبه ، ورآها بعينه ماثلة في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عمله .

أثر التأسي فيه
وما استلهمه

وهذا الإيمان الصادق بالحق هو الذي دفعه ليخالف أصحابه في أمر المرتدين ، ويُصرّ على قتالهم وإن خرج إليهم وحده . وما له لا يفعل وقد رأى النبي يقف وحيداً يدعو إلى الله بمكة فيخالفه أهل مكة جميعاً ، ثم يغرونه بالمال والملك وعظمة الجاه ، ثم يحاربونه يبتغون بذلك أن يصدوه عن الحق الذي يدعو إليه . فلا يفتّر عن أن يقول : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ؛ على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته ! » . وماله لا يفعل وقد رأى النبي في أعقاب أحد ، وبعد أن انتصرت قريش على جيوش المسلمين فيها ، يرتدّ لغده فيمن بقي من المسلمين ممن شهد أحداً ، ويتعقب قريشاً ، وينزل حمراء الأسد ويقيم بها ثلاثة أيام ، يوقد النار طول ليله ، حتى تزعزعت همة قريش وانصرفت إلى مكة ، وقد استرد المسلمون من مكانتهم ما زعزعتهم أحد !

ثم ماله لا يفعل وقد رأى النبي يقف صبح حنين في عدد قليل من أصحابه ينادي في جيش المسلمين إذ يولون الأدبار : « أين أيها الناس ، أين ! » . وهذه الألوف المؤلفة تفرّ تولّاها الفرع . فلما عرف الناس موقف النبي وسمعوا نداء العباس : « يا معشر الأنصار الذين آوّا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، إن محمداً حيٌّ فهللوا » . تصايحوا من كل جانب : « لبيك ، لبيك » ، وارتدوا إلى المعركة مستبسلين !

أي تأسّ كهذا التأسي يُلهم المرء أن الإيمان قوة لا يغلبها غالب ما تنزه المؤمن عن كل غرض إلا ابتغاء الحق لوجه الحق وحده ! ! وأي رجل له من الإيمان ما لأبي بكر لا يضاعف تأسيه بالرسول قوة نفسه فيجعله من عناصر الوجود الحاسمة القاهرة . هذه هي القوة الروحية التي لا سلطان لشيء في الحياة عليها ،

والتي لا تعرف الضعف ولا التردد ، ولا يغلبها لذلك غالب !

القوة الروحية
للإيمان

وهذه الأسوة الروحية التي التمسها أبو بكر في رسول الله . والتي جعلت للمسلمين الغالب على المرتدين من سائر العرب . قد دفعت إلى نفوس المسلمين جميعاً حمية سمت بهم إلى الإيمان بأنهم لا غالب لهم من دون الله . وحببت إليهم الاستشهاد في سبيل الحق ، وجعلتهم يرون هذا الاستشهاد نصراً دونه كل نصر . وأنت ستقرأ في هذا الكتاب من آيات ذلك ما قلّ في التاريخ نظيره . لقد كان المسلمون في عهد رسول الله مطمئنين إلى النصر ؛ لأن الله وعد به رسوله . فكان يمدّه بالملائكة . وكان يوحى إليه ما يحقق وعده جل ثناؤه . أما في عهد أبي بكر ، وقد انتهى الوحي باختيار الله إليه رسوله . فقد أصبح الإيمان وحده ، وأصبح التأسي برسول الله وبخليفته في السمو بهذا الإيمان إلى ما فوق كل اعتبار في هذه الحياة الدنيا ، وأصبح الاستشهاد في سبيل هذا الإيمان . سرّ القوة ، وسرّ النصر ، وسرّ الرقي بما تنطوي عليه نفوسنا من معان إنسانية رفيعة إلى غاية الكمال الإنساني .

هذه حقيقة روحية استلهمها الصديق من تأسيه بالنبي ، فجلتها لنا أعمال المسلمين في خلافته وبتوجيهه على نحو من الوضوح يجعلنا نلمسها وكأنها أمر مادي تقع عليه الحواس بمقدار ما تتمثله الروح ونحن نلمس هذه الحقيقة الروحية في حروب الردّة كما نلمسها في فتح العراق وفي فتح الشام . فلولا هذا الإيمان ما استطاع المسلمون : على قلتهم ، أن يُتموا في عهد الخليفة الأول ما تم من جلائل الأعمال ، وما مهّد للإمبراطورية الإسلامية العظيمة .

الحقيقة الاجتماعية
بعد الحقيقة
الروحية

وقد استلهم أبو بكر من تأسيه بالرسول ، إلى جانب هذه الحقيقة الروحية ، حقيقة اجتماعية بعيدة الأثر في حياة الأمم . فكل أمة تعتزّ بنفسها . وتطمئن إلى قوتها ، وتشعر بأن عليها رسالة واجبة الأداء للعالم . وبأن العالم يجب أن يسمع لهذه الرسالة — مثل هذه الأمة لا يقف في سبيلها سلطان وإن عظم ، ولا تصدها عن أداء رسالتها قوة من القوى .

وتضافر هاتين الحقيقتين ، الروحية والاجتماعية . قد كان في كل العصور

والأهم أساساً لفوز الشعوب التي تندفع متأثرة بسلطانها ولنجاح الرسالة التي تدعو هذه الشعوب لها .

والأمر كذلك بخاصة إذا قامت هذه الرسالة على أساس من الدعوة إلى نيل الظلم ، والحرص على عدل قوامه المساواة الصحيحة بين الناس . ولطالما قامت إمبراطوريات على هذا الأساس في مختلف حقب التاريخ ، ولطالما تداعت إمبراطوريات بعد قيامها لأنها حادت عن هذه الطريق ، فاتخذ خصومها انحرافها عنها وسيلة لمناوأتها ومقاومتها .

والمساواة سدى الإسلام ، وهو لذلك إمبراطوري السحمة . هذه حقيقة ندركها اليوم بعقولنا كما أدركها كثير من سبقونا بعقولهم ، ثم لم يستطيعوا ولم نستطع أن نحفظ بالإمبراطورية الإسلامية في العالم لظروف خاصة بنا أو خارجة عن إرادتنا . أما أبوبكر فأدركها بإلهامه وآمن بها عن يقين ، فدفع المسلمين لتنفيذها ، فأقروها في العالم فاستقرت أجيالاً وقرونًا .

أدرك وآمن ان
الإسلام دين
المساواة

أدرك أبو بكر بإلهامه أن الإسلام في صفاء جوهره دين مساواة بين الناس جميعاً . فالدعوة به لم توجه إلى قوم بعينهم ، وإنما وجهت إلى الناس كافة . وقد اصطفى رسول الله في حياته موالى رفعهم إلى أعز مكانة وأسمائها ، كما أقر جماعة من العجم على حكم العرب . فسلمان الفارسي كان من خاصته المقربين . وزيد بن حارثة ، مولاه الذي اشترته خديجة ثم وهبته له فأعتقه وتبناه ، كان القائد في غزوة مؤتة كما كان على رأس أعمال كثيرة قبلها . وأسامة ابنه هو الذي عقد له الرسول قبيل مرضه الأخير لواء جيش يضم جيلة المهاجرين والأنصار ، ومن بينهم أبو بكر وعمر ؛ وقد أقر صلى الله عليه وسلم بازان الفارسي على حكم اليمن . ولم يكن الناس يتفاوتون عند رسول الله لعروبته ولا لمكانة قبائلهم ، وإنما كانوا يتفاوتون بأعمالهم . وكان من أصحاب مشورة رسول الله ومن أولى الرأي بين المسلمين شبان أبرزهم إلى الصف الأول حسن إيمانهم وجميل بلائهم في سبيل الله . وكانت سيرة رسول الله هذه بعض ما أمر الله به في كتابه ، إذ فاضل بين الناس بالتقوى ، وإذا جعل جزاءهم رهنًا بعملهم ، وإذا رفع بعضهم فوق بعض درجات بهذا العمل وهذه التقوى . لا جرم ، وتلك سنة

رسول الله، أن يخفف العرب من غُلُوءِ نُعْرَتِهِم الجَنَسِيَّةِ، وإن أقاموا على اعتزازهم بها، وإن جعلوا اصطفاء الله نبيه من بينهم حجتهم على سمو مكانتها . ولا جَرَمَ أن يتخذ أبو بكر من هذه المساواة الإسلامية بين الناس وبين الأجناس سنَّته ، فتكون القوة التي تنهزم أمامها جيوش الفرس وجيوش الروم .

وأن الإسلام
إمبراطوري في
جوهره

وأدرك أبو بكر بإلهامه أن الإسلام إمبراطوري في جوهره ؛ فالدعوة إليه لم تنحصر في العرب ، بل هي دعوة إلى الحق موجهة إلى الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها . أما وذلك مداها ، وقد وجه النبي رسله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى دين الله ، فحق على كل من آمن بهذا الدين أن يدعو إليه ، وأن ينشر كلمته هدى للناس ورحمة . ولكل مسلم في رسول الله أسوة حسنة . لقد أذاع رسول الله الدعوة في الناس على اختلاف أجناسهم . فلينشر خلفاؤه هذه الدعوة في أنحاء الأرض جميعاً ، وليجاهدوا في سبيل حريتها ، لا يستكرونها أحداً ولا يقبلون من أحد أن يصدّهم عن الحق الذي اهتدوا إليه . وليجعلوا العالم كله ميدان دعوتهم إلى هذا الحق وإن أصابهم في سبيل الله ما أصابهم ؛ فإن استشهدوا فلهم عند الله جزاء الشهداء .

هذه المبادئ الجوهرية التي قامت دعوة النبي العربي على أساسها ، والتي أدركها أبو بكر أدق الإدراك بإلهامه لما كان من صحبته رسول الله وتشبعه بتعاليمه ، هي التي طوّعت للصدّيق أن يذل ما استفتح عهده من صعاب وأن يتغلب عليها ، وهي التي أسرعت بالإمبراطورية الإسلامية إلى أنحاء العالم وأظلت أمماً كثيرة منه بلوائها . ولقد ظلت هذه الأمم أجيالاً متعاقبة ناهضة بعبء الحضارة في العالم ، ثم أدركها الهَرَم الذي يدرك الأمم والإمبراطوريات ؛ ثم تولتها السنّة الطويلة التي تقابل موت الأفراد .

إلام يرجع
ما أصاب
الإمبراطورية
الإسلامية من
انحلال ؟

أف يرجع هذا الهرم ثم هذه السنّة الطويلة إلى أن المبادئ الجوهرية تبين فسادها ، أم يرجعان إلى أن الأمم التي انحلت عن الإمبراطورية الإسلامية جمّدت هذه المبادئ وأخذت بنقيضها فأصابها الهرم والاضمحلال بصنيعها ؟! ذلك كل تاريخ الإمبراطورية الإسلامية في قيامها وعظمتها وتدهورها . وهو

تاريخ جدير بأن يدون على طريقة من البحث العالمى الوثيق الذى لا يعرف التعصب ولا يرضاه ، والذى هربى إلى تحليل الحوادث وردّها إلى أسبابها تحليلًا يقره العقل ويتفق لذلك وما ركب فى الطبيعة الإنسانية من نزوع روحى إلى الكمال ، ومن تشبث مع ذلك بأهداب هذه الحياة الدنيا تدعوننا إليه أهواؤنا وشهواتنا ، فتحول بيننا وبين إدراك الغاية التى نبغى من هذا الكمال .

لا أرانى فى حاجة إلى أن أقول إن هذا الهرم وهذه السنّة يرجعان إلى جمود الأمم التى انحلت عن الإمبراطورية الإسلامية للمبادئ الجوهرية التى قامت هذه الإمبراطورية على أساسها ، مبادئ الإسلام فى صفاء جوهره . ذلك أمر يلمسه المحقق المنصف لتاريخ هذه الإمبراطورية ويراه فى أطواره المتصلة منذ بدأ الخلاف بين المسلمين من أهل شبه الجزيرة إلى أن جسّمت الفرقة بين العرب والعجم شقة هذا الخلاف وفتحت به الأبواب واسعة للتدهور والانحلال .

ليس يتسع هذا التقديم لتفصيل هذا الأمر ولا لإجماله . فحسبى هذه الإشارة إليه . ولأقف هنا فى حدود العهد القصير العظيم ، عهد الصديق أبى بكر . ولأسجل ما كنت أشعر به من فيض المسرة حين تأريخى له . وأكبر رجائى أن أكون فيما كتبت عنه قد أرضيت فى نفسى حب الحق ، وبلغت بعض ما أردت من رسم الصورة التى حاولتها دقيقة ، فيها من الحياة ما يبعث الماضى مجلّواً على صفحة الحاضر . وأقول بعض ما أردت ، لأننى كنت أحس دائماً أن هذه الصورة ينقصها شيء غير قليل من الكمال لم يتسن لى أن أصل إليه لأسباب مختلفة .

غبطى بتأريخى
للصديق

وإننى لتضاعف غبطتى لو أن كتابى هذا نقل إلى نفس قارئه صورة واضحة من عهد الصديق خايل النبى العربى وصفية . قد يشوب مطمعى هذا بعض الغلو . فلعهد الصديق . كما قدمت ، صورة خاصة تامة التكوين يستشفها الإنسان من خلال ما كتب عنه ويتصورها فى كمال بهائها . لكن البلوغ بصورة ما حدّ الكمال محتاج إلى جهد متصل يتعاقب على الأجيال . ويتناوله التمحيص من نواحيه المختلفة . ولم يبذل من الجهد فى أمر الصديق وعهده ما يدنى من هذا الكمال ؛ فهو لا يزال مفتقراً إلى جهود جديدة يتضافر فيها

حاجة عهده
إلى الجهود
لاضطراب
المراجع فيه

البحث والتمحيص مع الموازنة بالعصر الذى عاش الصديق فيه . وبجياة الأمم صاحبة الأثر فى هذا العصر . ولست فى ريب من أن هذه الجهود ستبذل عما قريب : وستعاون على تمام الصورة التى تظهر هذا العهد واضحاً ، مجلوة بينة تفاصيله .

وعهد الصديق أحوج إلى هذا الجهد من غيره من العهود . فالمراجع العربية القديمة التى تتحدث عنه يشوبها اضطراب يجعل تتبع الحوادث المروية فيها عسيراً بعض الأحيان كل العسر . ثم إنها كثيراً ما تثبت روايات هى أدنى إلى الخرافة منها إلى التاريخ . وقد يجد الإنسان فى موازنة بعض هذه المراجع ببعض ما يعينه على تمحيص الحوادث ، لكنها تتواتر روايتها أحياناً لحوادث يقف الإنسان منها موقف الحيرة . فلا يسعه إلا أن يشبها مع الإشارة إلى ما يخالجه من الريبة فيها .

عذر المؤرخين
عمافى رواياتهم
من اضطراب

وإنى لأجد للمؤرخين الأولين أبلغ العذر عما شاب رواياتهم من اضطراب كان له أثره فى جهود من بعدهم إلى عصرنا الحاضر . فهذه الفترة التى تولى الصديق فيها أمر المسلمين كانت فترة جهاد أى جهاد ، حمل فيها كل من آمن بالله ورسوله عبثاً عظيماً لتأييد الدعوة إلى دين الله وما جاء به رسوله من عنده . اندفع هؤلاء جميعاً إلى ميادين النضال ، يجاهدون فى سبيل الله ، يقتلون ويُقتلون ، مستهينين بالحياة ونعمائها ، مؤثرين البأساء ، صابرين على الضراء ، واهبين أنفسهم لله ، لا يبتغون عن جهادهم أجراً إلا مثوبته جل شأنه . لم يكن يوم من أيامهم ينقضى فى طمأنينة أو أمن . ولم يكن أحد منهم يفكر فى أمسه لأن غده يطالبه بأكثر مما عمل فى ذلك الأمس . لذلك لم يفرغ أحد لتدوين ما حوته هذه الفترة من جسام الحوادث تدويناً منظماً ، وإنما تناقل الناس من بعد أنباءها يرويها بعضهم لبعض ، ويتناقلها بعضهم عن بعض ، ثم لا يروونها ويتناقلونها بمثل ما يروون به ما حدث فى عهد الرسول من تقديس وإجلال . وكيف يفعلون وقد كانوا فى شغل متصل بالفتح وتنظيم الإمبراطورية التى تزداد كل يوم فسحة وسعة !! لذلك كان لابد لمؤرخ هذا العهد من قلب الروايات وموازنتها واقتناص الحقيقة من خلالها . وهذا جهد شاق

حاوله الأقدمون على طريقتهم . ومع تقديرنا لجهدهم وإكبارنا لشأنهم ، فإنهم لم يُبرزوا عهد الصدّيق وحكمه في صورة يجلو وضوحها ما انطوى عليه من قوة تقف النظر وتبهر اللب وتثير في النفس غاية الإعجاب .

وحسبك أن ترجع إلى سجل المراجع التي أخذنا عنها هذا الكتاب ، وأن تتلو فصوله لتقدر مبلغ الدقة فيما نقوله عن المتقدم منها . فبعض هذه المراجع لا يتعرض ، إلا لماماً ، لأمر جلية الخطر ترويه المراجع الأخرى مفصلة أدق التفصيل . فالطبري وابن الأثير والبلاذري لا يكادون يتعرضون لجمع القرآن ؛ وجمع القرآن من جلائل الأعمال التي ازدان بها عهد الصدّيق ، إن لم يكن أجملها . وما يتعرض له هؤلاء المؤرخون من رواية الحوادث عن حروب الردّة وعن فتح العراق ثم فتح الشام يقع عليه الخلاف بينهم ، بل ترد الروايات المختلفة في أمره في الكتاب الواحد من كتبهم ، حتى ليحار الإنسان أي الروايات يأخذ وأيها يدع . والخلاف على الزمن الذي حدثت فيه الوقائع لا يقل عن الخلاف في تصوير الوقائع جسامه . وكثيراً ما يكون تحديد التاريخ لبعض هذه الوقائع مغامرة لا تستند إلى أساس يمكن الاعتماد عليه في شيء من الدقة . ونسبة بعض الحوادث إلى بعض محير كذلك . فالطبري يروي أن حروب الردّة وقعت في السنة الحادية عشرة للهجرة ، وأن فتح العراق تم في السنة الثانية عشرة ، وأن فتح الشام تم في السنة الثالثة عشرة . وأنت تكاد تظن إذ تقرأ هذا التعاقب الزمني أن فتح العراق لم يبدأ إلا بعد الفراغ من حروب الردّة ، وأن فتح الشام لم يبدأ إلا بعد أن استقر الأمر في العراق . لكن شيئاً من التدقيق في مراجعة الحوادث ووقوعها لا يلبث أن يملك على الريبة في هذا التعاقب . فإذا زدت في التدقيق تبينت أن فتح العراق بدأ وحروب الردّة لا تزال قائمة ، وأن فتح الشام بدأ في أعقاب حروب الردّة وجيوش خالد بن الوليد لا تزال تعالج إقرار السكينة في العراق وتتوقع غزوات فيه جديدة .

من أمثلة
الاضطراب في
المراجع

تعذر تتبع
الحوادث في
تسلسلها
التاريخي

ولا يقف مثار الحيرة عند هذا ، فكثيراً ما يتعذر تتبع الحوادث في تسلسلها الجغرافي . بل إن بعض الروايات ليتنافى مع هذا التسلسل . دغ عنك تغير أسماء الأماكن وما في تشابه بعضها من مثار جديد للحيرة . ولقد طبع بعض المستشرقين

وفي تسلسلها
الجغرافي

خرائط الإدريسي القديمة كما رسمها ، وشفعوها بخرائط رسموها على النحو المؤلف لنا ، فسهّل ذلك علينا معرفة الأماكن ومواقع بعضها من بعض . ولئن يسّر ذلك لنا أن نحقق ما كان عسيراً تحقيقه فيما مضى ، لقد أثار الريب في بعض الروايات حتى ليتعذر تصديقها . لذلك وقف بعض المؤرخين لعهد أبي بكر مترددين لا يكدّون يصدّقون ما يقرءون . وكأنما صرف ذلك كله غير واحد ممن أرادوا التأريخ للإسلام عن التصدي لهذه الأمور ، فاكتفوا من عهد أبي بكر بإلمامات لا تصوره صورة كاملة تبرز كل ما لهذا العهد من جلال ، وما له في تاريخ الإسلام وفي قيام الإمبراطورية الإسلامية من أثر حاسم .

أضف إلى هذا الاضطراب في المراجع أنها لا تتحدث عن الصديق أيام خلافته ما تتحدث عن خالد بن الوليد وعن القواد الذين دخلوا الشام وأقاموا به حتى جاءهم خالد من العراق ففتح وإياهم دمشق وهدم بعقريته الحربية كل قوة معنوية للروم . وأنت إذ تقرأ هذه المراجع يكاد يخيل إليك أن أبا بكر قد أقام بالمدينة لا يشغله أمر عن العبادة . وهذا خطأ فاحش . فكل ما تم في عهد الصديق كان الصديق روجه ومصدره . أشرنا إلى ما كان بينه وبين عمر وطائفة من المسلمين من خلاف على قتال المرتدين ومن منعوا الزكاة ، وإلى أنه تشبث بقتالهم ولو خرج إلى هذا القتال وحده . وسرى حين تتلو فصول هذا الكتاب أنه هو الذي دفع خالد بن الوليد ليسيّر إلى العراق يعزز قوات المشنّى بن حارثة الشيباني ، وأنه هو الذي دعا العرب في أنحاء شبه الجزيرة إلى فتح الشام . فلما أبطأ أبو عبيدة ومن معه من القواد عن التقدم فيه أمدّهم هو بخالد بن الوليد . وفي أثناء ذلك كان هو الذي ينظم بيت المال ، ويقسم النىء بين المسلمين ، ويولى العمال ويهيمن على أعمالهم . وقد بلغ به هذا التفرغ لشئون الدولة أن انقطع عن التفكير في كل شيء سواها من أموره الخاصة ومن أمور أهله وعياله . وهذا التفرغ التام لشئون الدولة ، دقيقتها وجليلها ، هو الذى طوّع له أن يتم في فترة وجيزة ما لا يتمه غيره في سنوات ، بل ما قل أن يتمه غيره .

ولعل سبباً آخر كان ذا أثر فيما قدمنا عن موقف الرواة والمؤرخين من أبي بكر وعهده ؛ فهم قد حسبوا أن صحبته الرسول عشرين سنة كاملة ،

قلة ما يرد في
المراجع عن
الصديق مع أنه
روح عصره

واصطفاه صلى الله عليه وسلم إياه حتى ليقول : « لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لا اتخذت أباً بكر خليلاً » - حسبوا أن هذا وذاك أجلّ من كل ماتم في خلافته . ولا مِرْيَة في أن مكانة الصديق من رسول الله لها في تقديرنا جميعاً أجلُّ أثر وأعظمُ مقام . لكن خلافة الصديق كانت حَلَقَة أتمّت هذا الأثر الجليل وتوجّهته .

لم يكن عمل الصديق في خلافته أقلّ جلالاً من صحبته رسول الله . بل إنه كان في عهد الرسول ثانی اثنين : أولهما صنيّ الله لنبوته ومن خصّه الله برسالته وأوحى إليه كتابه بينات من الهدى والفرقان . فالعبء الذي حمّله أبو بكر أيام الرسالة كان عبء التابع المؤمن الذي لم تتلجج قوة إيمانه بالله ورسوله . أما العبء الذي حمّله بعد أن اختار الله رسوله إليه فحمّله على أنه أول رجل في المسلمين وخليفة رسول الله بينهم . لم يكن فيه تابعاً يدلي بالمشورة . بل كان متبوعاً يشير أصحابه عليه كما كان يشير هو ومن معه على رسول الله . وقد حمل هذا العبء بإيمان وأمانة وصدق ، جزاه الله وجزى المسلمين عنه أحسن الجزاء . فإذا كان صدق أبي بكر في صحبة رسول الله من أسمى مظاهر العظمة الإنسانية القائمة على دعامة متينة من الإيمان السليم ، فتجرّد أبي بكر في خلافته للدفاع عن دين الله وللدعوة إليه ولإقامة الإمبراطورية الإسلامية لا يقل في جلال سموه عن صحبته الرسول وإيمانه الصادق به وبكل ما أوحاه الله إليه . وتاريخ خلافته جدير لذلك بأن يفصّل أدق التفاصيل .

ليس عمله في
الخلافة بأقل من
الصحبة

هذا الاضطراب في المراجع ، وهذا التأثير في تصوير عهد الخليفة الأول بعوامل لا يقرّ النقد التاريخي الكثير منها ، قد كان له ما رأيت من أثر في كتب المتقدمين ، ثم كان له أثره فيما تلا ذلك من جهود من أخذوا عنهم وحاولوا أن يستنبطوا صورة الحقيقة كاملة من كتبهم .

أثر اضطراب
المراجع في
المؤرخين

ولقد بلغ هذا التأثير ببعض المتأخرين أن جعلهم لا يقفون عند عهد أبي بكر إلا لِمَاماً ثم يتخطونه إلى عهد عمر فيطيلون الوقوف عنده . بل لقد يبلغ الأمر ببعضهم أن يوازن بين عهد أبي بكر وعهد عمر ليفاضل بينهما . وهذه مفاضلة لا موضع لها بين رجلين بلغ كل منهما من مراتب العظمة ما قلّ أن يبلغه سياسي

أو حاكم لأمة في تاريخ العالم كله . ولقد كان عهد عمر من أعظم عهود الإسلام لا ريب . فيه استقرت قواعد الإمبراطورية ، واستتب نظام الحكم ، ورفّ لواء الإسلام على مصر وغير مصر من البلاد التي اعتزّ بها الروم واعتزّ بها الفُرس . لكن هذا العهد الفاروق العظيم مدين لعهد الصديق ومتمّ له كدّين خلافة الصديق لعهد الرسول وإتمامها له .

على أن الدراسات التي تمّت والكتب التي وضعت عن أبي بكر وعهده جهود المستشرقين ومؤرخي المسلمين في العصور الأخيرة كانت أدنى إلى الدقة والإنصاف . ومن الحق على أن أشيد بما كان للمستشرقين من فضل سبق إلى هذه الدقة وإلى هذا الإنصاف ، على تحيز بعضهم تحيزاً دفعت إليه العاطفة الدينية . فقد صنّف « الأب ماريني » كتابه عن « خلفاء محمد » في القرن الثامن عشر ؛ وصنّف « كوسان برسفال » مؤلفه « رسالة في تاريخ العرب » في أوائل القرن التاسع عشر ؛ وكتاب « السير وليم ميور » عن « الخلافة الأولى » يرجع إلى سنة ١٨٨٣ . وفي أثناء ذلك ، وإلى وقتنا الحاضر ، لم يبرح المستشرقون في ألمانيا وإنجلترا وإيطاليا وفرنسا وغيرها من الدول يمحسون العهود الإسلامية المختلفة تمحيصهم غيرها من عصور التاريخ في مختلف أنحاء العالم .

أما وقد ذكرت جهود المستشرقين ، فمن الحق على أن أذكر جهود المؤرخين المسلمين والعرب ، وما كان من إنصافهم عهد الصديق ومحاولتهم الدقة في أمره .

أرخ السيد رفيق العظم لهذا العهد منذ بضع عشرات من السنين في الجزء الأول من كتابه « أشهر مشاهير الإسلام » ؛ وكان متأثراً بطريقة الأقدمين في كثير من مواقفه . وتحدّث المرحوم الشيخ محمد الحضري فقال في ختام محاضرة له : « إنا نقول في ذلك قولاً صريحاً : لولا أبو بكر وعزيمته القوية . بعد معونة الله وتأييده ، ما كان تاريخ المسلمين يسير سيره الذي عرف . حصل ذلك في وقت استولى فيه الدهول على أفئدة المسلمين كافة حتى أقوامهم شكيمة وأشدّهم قلباً » .

وأفرد الأستاذ عمر أبو النصر الجزء الأول من كتابه « خلفاء محمد »

للصديق وعهده . كذلك تحدث المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار وغيره من المؤرخين عن هذا العهد حديثاً جديراً بالتقدير .

أمل

والآن ، وقد وفقني الله لوضع هذا الكتاب ، فهل تتيح لي الأقدار أن أردفه بآخر عن عهد عمر ، وبثالث وبرابع حتى أتم ما دار بخاطري أن أقوم به من دراسات في تاريخ الإمبرطورية الإسلامية ؟ ذلك أمر علمه عند ربي . لقد استقرّ مني العزم أن أدون لعهد عمر . لكن بين العزم والتنفيذ مدّى أرجو الله أن ييسره لي ، مع صدق يقيني بقوله تعالى :

«وَلَا تَقُولَنَّ لِّشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » .

وأختم هذا التقديم بالضراعة إلى الله أن يوفق العلماء والباحثين لمتابعة البحث في حياة الصديق وفي عهد خلافته ، حتى تمّ ببحوثهم الصورة التي حاولت أن أجعلها في هذا الكتاب . وأحمد الله لما صادفني من التوفيق فيما حاولت . من الله الهدى ، وبه التوفيق ، وإليه يرجع الأمر كله .

محمد بن عبد الله

الفصل الأول

أبو بكر في حياة النبي

ليس فيما انحدر إلينا من الروايات عن نشأة أبي بكر الأولى ما يعاون على تعرف شخصيته في هذا الطّور من حياته . فما يروى عن طفولته وعن صباه لا غناء فيه . وما يروى عن أبيه وعن أمه لا يعدو ذكر اسميهما ، وذكر ما كان من أبيه بعد أن أصبح أبو بكر رجلاً من كبار المسلمين له في حياة أبيه أثر ، ولا أثر لأبيه في حياته . وإنما يعنى المؤرخون من أمره بذكر قبيلته ومكانتها من قريش ، شأنهم في ذلك كشأنهم في غيره مما يتصل بتاريخ العرب ؛ إذ يرون في نسبتهم إلى قبيلة من القبائل ما يفسّر بعض طباعهم وأخلاقهم . وقد يكون ذلك حسناً ، وقد يراه المؤمنون بمبدأ الوراثية صالحاً لتحقيق مذهبهم ، وإن رأى غيرهم من المبالغة في تقديره ما يصرفهم عن الدقة في تمحيصه .

وأبو بكر من قبيلة تَيْم بن مُرّة بن كعب ؛ فهو يلتقى في نسبه بالنبي ويرتفع إلى عدنان . وكان لكل من القبائل المقيمة بمكة اختصاص بأمر يتصل أو لا يتصل بمناصب الكعبة . فكان لبني عبد مناف السّقاية والرّقادة ، ولبنو عبد الدار اللّواء والحِجَابَة والنّدوة ، وذلك قبل أن يولد هاشم جدّ النبي . أما قيادة الجيوش فكانت لبني مخزوم أجداد خالد بن الوليد ، وكانت الديات والمغارم لتيّم بن مرة . وقد آل أمر الديات في الجاهلية إلى أبي بكر حين اشتد ساعده فتولى الزعامة في قبيلته ؛ لذلك كان إذا احتمل شيئاً منها فسأل قريشاً صدّقه وأمضوا حمالة من نهض معه ، وإن احتملها غيره خذلوه .

وقد رُوِيَ في الإشادة بذكر تيم ومكانتها من قبائل العرب روايات تقصها كتب المتأخرين . ذكروا أن المنذر بن ماء السماء طلب امرأ القيس بن حُجر الكندي فأجاره المُعَلَّى التيمي ؛ فقال امرؤ القيس في ذلك :

أقرّ حشّاً امرئ القيس بن حُجرٍ بنو تيمٍ ، مصابيحُ الظلام

ولهذا البيت سمي بنو تيم « مصابيح الظلام » .

على أن ما تنسبه الروايات المختلفة لبنى تيم من الصفات لا يختلف عما ينسب لغيرها من القبائل ، ولا يميزها لذلك بطابع خاص يفيد المؤرخ أو يدل على صفة بذاتها فيمن ينسب إليها . فهذه الروايات تنسب إلى تيم من صفات الشجاعة والكرم والمروءة والنجدة وحماية الجار وما إليها ما تشترك القبائل العربية التي تعيش تحت سماء الجزيرة في التمدح به والانتساب إليه .

لهذا لم يقف مؤرخو أبي بكر عند قبيلته أكثر مما ذكرت ؛ وإنما بدءوا روايتهم بذكره وذكر أبويه ، ثم تخطوا طفولته وصباه إلى شبابه وإلى ما كان يزاوله فيه من عمل . ذكروا أن اسمه عبد الله بن أبي قحافة ، وأن أبا قحافة أبوه واسمه عثمان بن عامر ، وأن أم الخير أمه واسمها سلمى بنت صخر بن عامر . وروى أنه كان يدعى قبل الإسلام عبد الكعبة ، فلما أسلم دعاه رسول الله عبد الله . وقيل إنه كان يسمى عتيقاً ؛ لأنه لم يكن يعيش لأمه ولد ، فنذرت أمه إن وُلِدَ لها ولدٌ أن تسميه عبد الكعبة ، وتتصدق به عليها . فلما عاش أبو بكر وشبَّ سمي عتيقاً ، كأنه أعتق من الموت . على أن الرواة يذهبون إلى أن عتيقاً لم يكن اسمه وإنما كان لقباً غلب عليه لبياض لونه . وتذهب رواية أخرى إلى أن عائشة ابنته سئلت : لم سمي أبو بكر عتيقاً ؟ فقالت : نظر إليه رسول الله فقال : هذا عتيق الله من النار . أولأن أبا بكر أقبل يوماً ومعه طائفة من أصحابه فقال رسول الله : « من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى هذا » . أما كُنية أبي بكر التي لزمته حياته فلم تذكر الروايات سببها ، وإن ذكر بعض المتأخرين استنباطاً أنه كُنيَ بها لأنه بكر بالإسلام قبل غيره .

اسمه ولقبه
وكنيته

— وقد عاش أبو بكر في طفولته وصباه عيش أمثاله بمكة . فلما تخطى الصبا إلى الشباب عمل في التجارة بزازاً يبيع الثياب ، فوفَّق كل التوفيق . وقد تزوج صدر شبابه من قُتَيْبَةَ بنت عبد العزَّى ، فولدت له عبد الله وأسماء . وأسماء هي التي لقبت من بعد ذات النطاقين . وتزوج بعد قُتَيْبَةَ أم رومان بنت عامر بن عُوَيْمِر ، فاستولدها عبد الرحمن وعائشة . ثم تزوج بالمدينة من حبيبة بنت خارجة ، ثم من أسماء بنت عُمَيْسٍ فولدت له محمداً . وكانت تجارته أثناء ذلك تزداد سعة وتزیده ربحاً وثراء .

صباه وشبابه

ولعل شخصه وخلقه كانا من أسباب نجاحه في هذه التجارة ، فقد كان أبيض اللون ، نحيفاً ، خفيف العارضين ، معروق الوجه ، غائر العينين ، ناثئ الجبهة ، عارى الأشاجع . كذلك وصفته ابنته عائشة أم المؤمنين . وكان رجلاً رضى الخلق . رقيق الطبع ، رزيناً ، لا يغلبه الهوى ولا تملكه الشهوة . وكان لرزاقته وحسن رأيه ورجاحة عقله ، لا يشارك قومه في كثير من عقائدهم وعاداتهم . ذكرت عائشة أنه لم يشرب خمرأ في جاهلية ولا إسلام ، هذا على ما كان من حب أهل مكة الخمر وإدمانهم لها . وكان نسابة . حسن الحديث ، لطيف المعاشرة . وصفه ابن هشام صاحب السيرة فقال : « كان أبو بكر رجلاً مألماً لقومه . محبباً سهلاً . وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته » .

حب بمكة
واتصاله بمحمد

وكان يعيش بمكة في الحى الذى تعيش فيه خديجة بنت خويلد ، ويعيش فيه التجار النابهون الذين تذهب تجارتهم في رحلتى الشتاء والصيف إلى الشام وإلى اليمن . ومقامه بهذا الحى هو الذى ربط بينه وبين محمد بروابط الألفة بعد أن تزوج محمد من خديجة وانتقل إلى دارها . وكان أبو بكر يصغرُ محمداً بسنتين وأشهر . وأكبر الظن أن التقارب في السن والاشتراك في العمل والاتفاق في سكة النفس ورضا الخلق ، وفي الرغبة عما تُزاول قريش من عادات وعقائد — أكبر الظن أن هذا كله كان ذا أثر في مودة محمد وأبي بكر مودة يختلف الرواة إلى أى حد توثقت عراها قبل أن يبعث محمد رسولا . فقد ذكر بعضهم أنها كانت وثيقة العرى قبل البعث ، وأن توثق عراها كان ذا أثر في سبق أبي بكر إلى الإسلام . أما غير هؤلاء فيذكرون أن صلة الرجلين لم تتوثق إلا من بعد . وأن مودتهما الأولى كانت مودة جوار وتوافق في الميول ليس غير . ولعل أصحاب هذا الرأي يؤيدونه بما عُرف من حب محمد العزلة والانقطاع عن الناس سنوات طويلة قبل بعثه . فلما بعثه الله واختاره لرسالته ذكر أبا بكر ورجاحة عقله ، فتحدث إليه ودعاه إلى الواحد الأحد ، ولم يتردد أبو بكر أن أجاب داعي الله . ومن يومئذ توثقت الصلة بين الرجلين . ثم زادها صدق أبي بكر

في الإيمان بمحمد ورسالته متانة وقوة . كانت عائشة تقول : « ما عَقَلْتُ أَبَوَيَّ إِلَّا وهما يدينان الدين . وما مر علينا يوم قطُّ إِلَّا ورسول الله يأتينا فيه بُكْرَةً وعَشِيَّةً » .

ومنذ اليوم الأول شارك أبو بكر محمدًا في الدعوة لدين الله . وكان إلفُ قومه إياه وحبُّهم الجلوس إليه والاستماع لحديثه ، ذا أثر في استجابة المسلمين الأولين لهذه الدعوة . فقد تابع أبا بكر على الإسلام عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير ابن العوام . كما أسلم من بعدهم ، بدعوة أبي بكر ، أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره من أهل مكة هـ

عدم تردده في قبول الدعوة ، وسببه

وقد يعجب الإنسان كيف لا يتردد أبو بكر في قبول الدعوة إلى الإسلام أول ما وجهها محمد إليه ، وكيف يبلغ من عدم تردده أن يقول عنه رسول الله من بعد : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إِلَّا كانت عنده فيه كِبوة ، ونظر وتردد ، إِلَّا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما عكسَم^(١) حين ذكرته له وما تردد فيه » . وليس كل العجب أن محمدًا ذكر له التوحيد ودعاه إليه فاستجاب له . بل أكبر العجب أن محمدًا قص عليه حديث حِراء والوحى الذى نزل عليه ، فلم يتردد في تصديقه . وإنما يزيل عجبنا ، أو يخفف منه ، أن أبا بكر كان من حكماء مكة الذين يرون عبادة الأصنام حقاً وميئساً ، وأنه كان يعرف من أمر محمد وأمانته وصدقه ورُجحان عقله ما لم يدع في نفسه موضعاً للريبة فيما قص عليه مما رأى وسمع ، وبخاصة لأنه رأى في هذا الذى قصه الرسول عليه ما يتفق وموجب الحكمة وما لا يتردد العقل في تصديقه والأخذ به . على أن ما يزول من عجبنا لا يغير من تقديرنا جرأة أبي بكر في إقدامه ومجاوزته المعروف للناس في موقف دعا غيره ممن وجهت الدعوة إليهم للنظر والتردد والتماس الأناة والروية . وجرأة أبي بكر وإقدامه أجدر بالتقدير لأنه كان تاجراً تقتضيه تجارته الحساب لصلاته بالناس وعدم مواجهتهم بما يخالف مألوف آرائهم وعقائدهم خشية ما يجره ذلك على معاملاته من سيئ الأثر . فما أكثر الذين لا يؤمنون بالكثير من آراء الناس ويرونها ميئاً باطلا وحديث خرافة ، ثم يكتُمون

جرأته في قبول الإسلام وفي الدعوة إليه

ذلك أويتظاهرون بنقيضه التماساً للعافية ، وجرأً للمنفعة ، وحرصاً على ما بينهم وبين الناس من تجارة . وأنت لا تجد هذا النفاق في سواد الناس وعامتهم ما تجده في الخاصة والمثقفين منهم ، بل إنك لتجده فيمن نصبوا أنفسهم لزعامة الناس والإبانة لهم عن وجه الحق في الحياة . لا جرم ، وقد كان موقف أبي بكر منذ اللحظة الأولى ما ذكره رسول الله ، أن يكون موضع التقدير غاية التقدير ، والإعجاب غاية الإعجاب .

وقيام أبي بكر بالدعوة إلى الإسلام أدعى إلى العجب . فلعل تاجراً مثله يقتنع بصدق محمد قد كان يقتنع بتصديقه سرّاً ولا يظهر الناس على شيء من أمره حتى تظل تجارته متصلة . ولعل محمداً كان يقتنع منه بذلك ويحمده له . فأما أن يظهر أبو بكر إسلامه ، وأن يدعو إلى الله ورسوله وأن يصل من دعوته إلى إقناع المسلمين الأولين بتصديق محمد ومتابعته على دينه ، فذلك ما لا عهد للناس به إلا فيمن سمّت أنفسهم إلى حيث تقدّر الحق لذاته ، وترتفع به فوق منافع الحياة ، وترى في تأييده والدعوة إليه ما يُصغر من شأن الدنيا وعرضها وإن عظم . ولقد كان ذلك شأن أبي بكر في صحبته محمداً منذ أسلم إلى أن اختار الله محمداً ، وإلى أن توفي أبو بكر من بعده ١١

وإني لأذكر ما كان لإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب من أثر في توطيد كلمة الإسلام ، وكيف أيد الله بهما دين الحق ، لما عُرِف عنهما من قوة بأس ، ومضاء عزم ، وصلابة تخيف من يناوئهما ، ثم أذكر الصديق وإسلامه فلا أتردد في القول بأنه أول من أيد الله به دينه . فهذا الرجل الرضى النفس ، الوديع الخلق ، الرقيق الطبع ، حتى لتسرع الدمعة إلى عينه لمراى الألم يصيب غيره ، قد بلغت قوة إيمانه بالدين الحديد ، وبالرسول الذى جاء به من عند الله مبلغاً لا تدانيه قوة ولا يتغلب عليه سلطان . وهل كقوة الإيمان في الحياة شيء ! وهل كسلطانه في الحياة سلطان ^{الله} والذين يحسبون أن قوة البطش وسلطان البأس هما في الحياة الأثر البالغ يتورطون في أفحش الخطأ . فالنفس الراضية المطمئنة إلى إيمانها بالحق ، الداعية إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، المتخذة من وداعة الخلق ، ورقة الطبع ، ومشاركة الضعيف والبائس في ألم البؤس والضعف وسائل دعوتها ، هذه النفس أجدر أن تبلغ من غابتها ما تريلا ،

الصديق أول من
أيد الله به دينه

لأنها تندمج في غيرها من النفوس فتطبعها بطابعها وتصوغها على غرارها. ولقد كان ذلك أثره - رضى الله عنه - في السنوات الأولى من الدعوة المحمدية ، وبقى ذلك أثره إلى أن تولى الخلافة وإلى أن مات .

فهو لم يقف من تأييد الدعوة عند التحدث إلى أصحابه وإقناعهم بها . ولم يكفه أن يبذل للضعفاء والبائسين من رضا نفسه ووداعة خلقه ما يعزيهم عما كان خصوم الدعوة يُرهقونهم به من أذى وتعذيب ، بل كان ينفق من ماله ، وكان يصطفى بهذه النفقة أولئك الضعفاء والبائسين ممن هداهم الله إلى الحق فأذاقهم أعداء الحق الضر وابتلوهم بألوان البأساء . وحسبك أن تعلم أنه كان له يوم أسلم أربعون ألف درهم مدخرة من ربح تجارته ، وأنه أقام بعد إسلامه يتجر فيجنى وافر الربح ، فلما هاجر إلى المدينة بعد عشر سنوات لم يكن له من ذلك كله غير خمسة آلاف درهم . أما سائر ما كان عنده وما ادخره من بعد ، فقد ذهب في سبيل الدعوة إلى الله والدعوة لدينه ولرسوله . وأيسر ذلك ما افتدى به الضعفاء والأرقاء الذين أسلموا ، فعذبهم سادتهم بإسلامهم ، وأذاقوهم الهُون ألوانا .

إنفاقه من ماله
لحماية الضعفاء

رأى أبو بكر يوماً بلالاً الحبشى قد ألقاه سيده على الرمل في لظى الشمس ، ووضع حجراً على صدره وتركه ليموت لأنه أسلم . ولم يزد بلال وهو في هذه الحال على أن يكرر : «أحدٌ أحدٌ» . عند ذلك اشتراه أبو بكر وأعتقه . وعذَّب عامر بن فهيرة . فاصطفاه أبو بكر راعياً لأغنامه . واشترى كثيراً كذلك من الموالى الذين يعذبون ، رجالاً ونساءً وأعتقهم

على أن أبا بكر لم يسلم من أذى قريش ، كما لم يسلم محمد من هذا الأذى على رغم مكانته من قومه ومنع بنى هاشم له . ولم ير أبو بكر قريشاً تؤذى محمداً إلا وقف دونه وعرض حياته للذود عنه . روى ابن هشام أن شراً ما نالت قريش من رسول الله قد كان بعد أن عاب دينهم وسب آلهم . فقد اجتمعوا في الحِجر يوماً « فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم . وما بلغكم عنه ، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه . فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول

مواقفه في
ماصرة النبي

كذا وكذا ؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم أنا الذى أقول ذلك . فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه ، فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ! ثم انصرفوا عنه . فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط .

وليس هذا الموقف شيئاً إلى جانب غيره من المواقف التى تجلّى فيها إيمان أبى بكر بمحمد وبرسالته إيماناً لا يلبس ولا يتزعزع . وهذا الإيمان هو الذى جعل غير واحد من المستشرقين يتراجع دون اتهام النبى بما يتّهمه به غلاتهم . فما كان أبو بكر فى رزاقته ورجاحة عقله ليصل إلى هذا الإيمان لو لم ينتزه كل عمل من أعمال الرسول عن كل شبهة ، وبخاصة فى ذلك الوقت الذى كان الرسول فيه موضع الاضطهاد من قومه . وهذا الإيمان الذى امتلأت به نفس أبى بكر هو الذى وقى الإسلام أن ينصرف الناس عنه عندما حدّثهم رسول الله بحديث الإسراء .

فقد تحدث محمد إلى أهل مكة بأن الله أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأنه صلّى هناك ، وسخّر المشركون من هذا الحديث ، وساور الريب فيه طائفة ممن أسلموا ، وقال يومئذ غير واحد : هذا والله الأمر البين ! والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة شهراً مقبلة ، أذهب محمد ذلك فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! ! وارتد كثير ممن أسلموا وتردد كثيرون وذهبوا إلى أبى بكر لما يعلمونه من إيمانه وصحبته محمداً ، فذكروا له ما يقوله عن الإسراء . قال أبو بكر وقد تولاه الدهش لما سمع : « إنكم تكذبون عليه » . قالوا : « بلى ، ها هو ذاك فى المسجد يحدث الناس » . قال أبو بكر : « والله لئن كان قد قاله لقد صدق ! إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السما إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » . وجاء أبو بكر إلى المسجد واستمع إلى النبى يصف بيت المقدس ، وكان أبو بكر قد جاءه ، فلما أتم النبى صفة المسجد الأقصى قال أبو بكر : « صدقت يا رسول الله » . ومن يومئذ دعا محمد أبا بكر بالصديق ﷺ

الصديق أبو بكر

موقفه من حديث
الإسراء

أفخطر ببالك يوماً أن تسأل : متى لو أن أبا بكر ارتاب كما ارتاب غيره في حديث الرسول عن الإسراء ، فما عسى أن يحدث من أثر هذه الريبة في حياة الدين الناشئ ؟ وهل قدّرت ما قد يؤدي ذلك إليه من تضاعف عدد المرتدين ، ومن بلبلة العقيدة في نفس غيرهم من المسلمين ؟ وهل ذكرت كيف ثبتت إجابة أبي بكر عقائد الكثيرين ، وكيف حفظت للإسلام يومئذ مكانته ؟ إن كنت قد سألت وقدّرت وذكرت فلا ريب أنك لم تتردد من بعد في الحكم بأن الإيمان الصادق أقوى سلطاناً في الحياة من قوى البطش والبأس جميعاً ، وأن كلفة أبي بكر هذه كانت بعض عناية الله بدينه الحق ، وأنها نصرته وأيدته أكثر مما أيدته قوة حمزة وعمر من قبل ، وهي لذلك حقيقة بأن تجعل لأبي بكر في تاريخ الإسلام المكان الذي جعله الرسول له حين قال : « لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » .

وكلمة أبي بكر في الإسراء تدلُّ على إدراك تام للوحي والرسالة لا يؤثاه كثيرون ، وتريك حكمة الله في أن يختاره الرسول صفية يوم اصطفى الله رسوله ليلبغ الناس رسالته . وهي كذلك الحجة البالغة على أن الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، يخلد أثرها على الزمان بفضل الله ، فلا سلطان للزمان عليه ولا يأتي عليه النسيان .

أقام أبو بكر من بعد حديث الإسراء يرعى تجارته في حدود ما تحتاج إليه من جهد العارف بمدخلها ومخارجها ، وينفق جلّ وقته في صحبة الرسول ، وفي حماية الضعفاء الذين أسلموا ، وفي دفع أذى قريش عنهم ، وفي دعوة من تلين قلوبهم للإسلام . هذا وقريش تشتد في أذى النبي وفي أذى أبي بكر وسائر المسلمين . ولم يدر بخاطر الصدّيق أن يهاجر مع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً إلى الله بدينهم^(١) ، بل ظل مع محمد بمكة يجاهد معه في سبيل

ما كان يقوم به بعد الإسراء

(١) تجرى رواية بأنه خرج مع المهاجرين إلى الحبشة فلقية ابن الدغنة فقال له : « ويلك لا تهاجر . إنك تصل الرحم ، وتصديق الحديث ، وتكسب المعدوم ، وتمين على نوائب الدهر » . وأجازه ، وأجازت قريش جواره . وأقام أبو بكر بمكة وأقام بفناء داره مسجداً يصلي فيه ويقرأ القرآن . فخافت قريش أن يفتن نساءها وصبيانها فشكوه إلى ابن الدغنة فرد أبو بكر جواره وظل بمكة معرضاً للأذى .

الدعوة إلى دين الله ويتلقى عنه ما يوحى الله إليه ليذيعه في الناس ، ويبذل من رضا نفسه ومن طيبة خلقه ومن حرّ ماله كل ما يستطيع بذله ، لخير من أسلم ، ولهداية من لم يسلم .

وما كان أحوج المسلمين بمكة يومئذ إلى هذا الجهد وإلى هذه الرعاية من أبي بكر ! فقد كان محمد يتلقى وحى ربه . وكان قد يش من استجابة أهل مكة لدعوته ، فوجّه همّه إلى القبائل يعرض نفسه عليها ويدعوها إلى الله ، وقد ذهب إلى الطائف يستنصر أهلها فردّوه ردّاً غير جميل وكان في اتصاله بربه دائم التفكير في رسالته والدعوة إليها وفي الوسيلة لنجاح هذه الدعوة . هذا إلى أن قریشاً لم تسكت قط عنه ولم تنقطع عن مناوآته . إزاء ذلك كله أخذ أبو بكر نفسه بالتفكير في أمر المسلمين المقيمين بمكة ، وفي تنظيم الوسائل للسهر على طمأنينتهم ،

اتصاله بالمسلمين
وبغير المسلمين
لدفع أذى قریش

ولئن لم تذكر كتب السيرة ولم يذكر من أرخوا لأبي بكر من عمله في ذلك ما فيه غناء ، إننى مع هذا لترسم في نفسى صورة واضحة من عنايته ومن اتصاله الدائم بحمزة وبعمرو وبعثمان وبكل ذى رأى في المسلمين أو سلطان لدفع أذى قریش عن الضعفاء الذين أسلموا . بل إننى لأتصور ما كان من اتصاله بغير المسلمين ممن أقاموا على دينهم ثم كانوا لا يرون أنه من الحق لقریش أن تناوئ من لا يقرها على عقيدتها في الأصنام وعبادتها . ولقد رأينا في سيرة الرسول كثيرين من هؤلاء قاموا يدفعون عن المسلمين أذى قریش ؛ ورأينا الذين قاموا في نقض الصحيفة إذ تعاهدت قریش على مقاطعة محمد وأصحابه وعلى محاصرتهم حتى احتسّموا ثلاث سنوات تبعاعاً في شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة ، لا يتصلون بالناس ولا يتحدثون إليهم إلا في الأشهر الحرم . وبقينى أن أبا بكر قد كان له في تحريك هؤلاء الذين لم يتابعوا محمداً على دينه ، والذين غضبوا مع ذلك لما يصيبه من أذى قریش ، أثر بالغ أدركه برفقه وحسن حديثه وجميل عشرته .

وما قام به أبو بكر من حماية المسلمين إبتان نشأة الدين هو الذى زاده من محمد قريباً ، وهو الذى ربط بين الرجلين برابطة إخاء في الإيمان جعلت

محمدًا يصطفيه خليلًا . فلما أذن الله لدينه أن ينتصر بقوة أهل يثرب بعد بيعتي العقبة ، أذن محمد لأصحابه في أن يهاجروا إليها ، كما أذن لهم من قبل في أن يهاجروا إلى الحبشة . ولم تعرف قريش أيهاجر محمد مع أصحابه إلى يثرب ، أم يظل بمكة كما ظل بها حين هجرة المسلمين إلى الحبشة . أعرف أبو بكر من مقصد محمد ما لم تعرف قريش ؟ كل ما يروى عن ذلك أن أبا بكر استأذن محمدًا في الهجرة فقال له : « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا » ولم يزد على ذلك .

إعداده للهجرة
ثم الهجرة

ها هنا تبدأ صفحة أخرى من صحف الإيمان القوى الراسخ بالله ورسوله . فقد كان أبو بكر يعلم أن قريشًا قامت ، منذ عرفت بهجرة المسلمين إلى يثرب ، ترد كل من استطاعت رده منهم إلى مكة ، لتفتنه عن دينه ، وتعذبه وتنكّل به . ثم إنه علم أن المشركين اجتمعوا بدار الندوة يأتمرون بمحمد ليقتلوه . فإن هو صاحب محمدًا في هجرته فأقدمت قريش على قتل الرسول قتلت أبا بكر لا محالة معه . مع ذلك لم يتردد حين استمهله محمد ، بل شاعت الغبطة في أنحاء نفسه وأيقن أنه إن يهاجر مع الرسول يجعل الله له بذلك من الفضل والفخر ما لا يعد له فضل ولا فخر ، وإن يُقتل معه فإنما هو الاستشهاد الذي يُجزى صاحبه جنة الخلد .

ومن يومئذ أعدّ أبو بكر راحلتين وأقام ينتظر مصيره ومصير صاحبه . وإنه لفي بيته ذات مساء إذ أقبل محمد كدأبه كل مساء ، وأخبره أن الله أذن له في الهجرة إلى يثرب . ورغب الصديق إلى رسول الله أن يكون رفيقه في الهجرة ، فأجابه إلى ما طلب . وعاد محمد إلى بيته وفتيان قريش يحاصرونه مخافة أن يفرّ . وأسرّ محمد إلى عليّ بن أبي طالب أن يتسجّى ببردّه الحضرمي الأخضر وأن ينام في فراشه ، ففعل ، فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج في غفلة من فتية قريش إلى دار أبي بكر ، فإذا هو يقظ ينتظره . وخرج الرجلان من خوخة في ظهر الدار وانطلقا جنوبًا إلى غار ثور فاختربا فيه .

أطلقت قريش فتيانها في كل واد وفي كل جبل ، يبحثون عن محمد ليقتلوه

فلما بلغوا ثوراً تسلقه أحدهم إلى الغار ، لعله أن يعثر به . وتصيب أبو بكر عرقاً حين سمع تناديههم ، وأمسك أنفاسه وبقى لا حراك به وسلم لله أمره . أما محمد فظل فيما كان فيه من ذكر الله والصلاة له ، واقترب أبو بكر من صاحبه وألصق به نفسه ، فهمس محمد في أذنه : « لا تحزن ، إن الله معنا » .

وأدار الفتى القرشي بصره فيما حول الغار فرأى العنكبوت نسجت على فؤوته ، فانصرف يقول لأصحابه الذين سألوه ماله لم يذهب إليه : « إن عليه العنكبوت من قبل أن يولد محمد » . وانصرف الفتية قافلين يعضون البنان ندماً . فلما بعدوا نادى محمد : « الحمد لله ، الله أكبر » وازداد أبو بكر بما رأى إيماناً وثباتاً .

إلام يرجع فزع
الصديق حين
كانا في الغار؟

أفكان فزع أبي بكر حتى ليتصبب منه العرق ويمسك أنفاسه ويلتصق برسول الله بعض ما دعا إليه حب الحياة والحرص عليها ، فهو يخشى على نفسه أن يصيبه المكروه ؟ أم أنه لم يفكر في نفسه ما فكر في رسول الله ، وأنه كان يودّ أن يفقد رسول الله بنفسه إن استطاع ؟ روى ابن هشام عن الحسن ابن أبي الحسن البصري قال : « انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلاً ؛ فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار لينظر فيه سبع أو حيّة ، يتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه » وذلك كان شأنه في تلك اللحظة الدقيقة من حياته حين كان يسمع إلى فتیان قریش ، فيهمس في أذن النبي : « لو بصر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا » . لم يكن يفكر فيما قد يصيبه ، وإنما يفكر في رسول الله وفي مصير الدين الذي يدعو إليه بأمر ربه لو أن هؤلاء الفتیان ظفروا به فقتلوه بل لعله لم يفكر في شيء بذاته تلك اللحظة ، وإنما كان شأنه شأن الأم تخشى الخطر على ابنها ، فهي ترتجف وتفرع ويتولاها الهلع ثم لا يساعفها عقلها برأى أو تفكير ، فإذا دنا الخطر منها ألقت بنفسها في وجهه تريد أن تصدّه أو تموت دونه . أم أن أبا بكر كان أشد من هذه الأم هلعاً وأكثر منها استهانة بالخطر إذا أقبل ؛ لأن إيمانه بالله ورسوله كان أقوى من حب الحياة ومن فطرة الأمومة ومن كل

ما تحسه نفوسنا أو يدور بخواطرنا . وما بالك بإيمان تجسم أمامه في رسول الله فتجسمت معه كل المعاني المقدسة في أعظم صورها قدسية وأسمائها روحانية ! أتصور الساعة أبا بكر في مجلسه ورسول الله إلى جانبه ، وأصور الخطر محدقاً عليهما فلا يسعني خيالي بمثال يبرز كل ما في هذه الصورة الفذة من حياة لا نظير لها في كل صور الحياة .

قص التاريخ نبأ أشخاص وهبوا أنفسهم فداء زعيم من الزعماء أو ملك من الملوك . وفي عصرنا اليوم زعماء يقدسهم الناس ، فهم أحب إليهم من أنفسهم . لكن موقف أبي بكر بالغار يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، وهو لذلك جدير بالتحليل يقوم به أشد علماء النفس دقة ، وأكثرهم في التصوير براعة . فأين إيمان الناس بالزعماء أو بالملوك من إيمان الصديق بالرسول الذي اصطفاه الله فأوحى إليه دينه الحق ! ! وأين لذلك افتداء الناس ملوكهم وزعماءهم مما جال بخاطر الصديق في هذه اللحظة التي خشي فيها الخطر على حياة الرسول ثم كان أشد خشية ألا يدفع الخطر دافع ؟ ! ! هذا مقام من السمو لا سبيل للرقى إلى تصويره ؛ ولذا أمسك كتّاب السيرة عن الحديث فيه أو كادوا .

أين افتداء الملوك
والزعماء من
افتداء رسول الله

وسكن الناس عن الرجلين وتولاهم اليأس من العثور عليهما ، فخرجا من مخبئهما وارتحلا ، يواجهان ما في الطريق من أخطار لا تقل عما تعرضا له بالغار . وحمل أبو بكر ما بقي له من ربح تجارته خمسة آلاف درهم . فلما بلغا المدينة وتلقى الناس رسول الله ببشر دونه كل بشر ، بدأ أبو بكر حياته فيها كأى رجل من المهاجرين ، وإن ظلمت له مكانته من رسول الله ، مكانة الخليل والصديق والوزير المشير .

ونزل أبو بكر بالسُّنْح من ضواحي المدينة على خارجة بن زيد من بني الحارث من الخزرج . فلما آخى النبي بين المهاجرين والأنصار كان أبو بكر وخارجة أخوين . وأدرك أبا بكر أهله وأبناؤه الذين كانوا بمكة ، فاستعان بهم على الحياة . فقد عملت أسرته - كما عملت أسرة عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب - في الزراعة في أراضي الأنصار مزارعة مع مُلاكها . ولعل خارجة ابن زيد كان من هؤلاء الملاك ؛ فقد توثقت الصلة بينه وبين أبي بكر من بعد ، فتزوج ابنته حبيبة وجاءت منه بأم كلثوم وكانت حبيبة حاملاً بها حين وفاته .

أبو بكر بالمدينة

ولم تقم أسرة أبي بكر معه بدار خارجه بن زيد بالسُّنْح ، بل أقامت أم رومان وابنتها عائشة وسائر أبناء أبي بكر بالمدينة ، بدار تجاور دار أبي أيوب الأنصاري حيث نزل النبي . وكان هو يتردد عليهم ، جاعلا معظم إقامته بالسُّنْح مع زوجه الجديدة .

وبعد قليل من مقامه بالمدينة أصابته الحمى التي أصابت أكثر الذين هاجروا إليها من أهل مكة ، بسبب ما بين موطنهم ومهجرهم من تفاوت في الهواء ؛ فهواء مكة صحراوي جاف ، وهواء المدينة رطب لكثرة ما فيها من مياه وزروع . يروى عن عائشة أن أباهما أصابه من هذه الحمى رهق حتى كان يهذى لشدة ما نزل به منها .

فلما اطمأن إلى موطنه الجديد ، وإلى كدح أهله كدحاً أغناه عن الأنصار وجهه كل همه إلى معاونة الرسول في تثبيت دعوته وتوطيد مركز المسلمين ، لا يألو في ذلك جهداً ولا يضمن بتضحية .

ولقد كان الغضب لا يعرف إلى هذا الرجل الوادع سبيلا إلا حين يرى خصوم الدعوة من اليهود والمنافقين يسخرون منها و يكيّدون لها . كان رسول الله قد عقد بين اليهود والمسلمين عهداً أن يكون لكل حرية الدعوة إلى دينه ، وأن يباشر من شعائره ما يشاء . وكانت اليهود قد حسبت أول الأمر أنها قادرة على أن تكسب المسلمين من أهل مكة ليكونوا عوناً لهم على الأوس والخزرج . فلما سقط في أيديهم وعجزوا عن التفرقة بين المهاجرين والأنصار ، بدعوا يكيّدون للمسلمين ويسخرون من دينهم . اجتمع رهط من يهود على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأخبارهم ، ودخل عليهم أبو بكر فرآهم كذلك ، فقال لفنحاص : « ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ! فوالله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل » . قال فنحاص وعلى شفثيه ابتسامة السخر والتهكم : « والله ، يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقر ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا . وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى . ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ويعطيناه

غضب الصديق
على فنحاص

ولو كان غنيًا عنّا ما أعطانا » . وإنما يشير فنحاص بعبارته هذه إلى قوله تعالى :
 « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » .
 فلما رأى أبو بكر أن الرجل يستهزئ بقول الله ووحيه إلى نبيه ، لم يملك
 نفسه أن ضرب وجهه فنحاص ضرباً شديداً وقال : « والذي نفسي بيده لولا
 العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك أي عدو الله ! » .

أليس عجباً أن تكون في أبي بكر هذه الحدة وهو من هو لين طبع ورقة
 خلُق ووداعة نفس ، وأن تكون فيه وقد جاوز الخمسين

وهذه الغضبة على فنحاص تذكرنا بغضبة مثلها ، كانت له قبلها بأكثر من
 عشر سنين . ذلك حين غلبت الفرس الروم ، والفرس مجوس ، والروم أهل
 كتاب . فقد حزن المسلمون لتهمكم المشركين بهم وزعمهم أن الروم غلبت لأنهم
 أهل كتاب مثلهم . وتحدث مشرك في الأمر أمام أبي بكر وألح في الحديث ،
 فاغتاظ أبو بكر وراهنه عشرة جمال على أن تغلب الروم المجوس قبل عام .
 ذلك يدل على أنه لم يكن شيء في الحياة يثير ثائرة أبي بكر أو يهيج غضبه
 إلا ما اتصل بعقيدته وبإيمانه الصادق بالله ورسوله . كان هذا دأبه وهو في
 الأربعين وظل هذا دأبه حين جاوز الخمسين ، وحين تولى الخلافة من بعد ودبر
 أمر المسلمين .

وهذا الإيمان الصادق قد ملك على أبي بكر كل مشاعره في كل أطوار
 حياته منذ اتبع الرسول . وأنت تستطيع أن تفسر كل أحواله النفسية وكل
 أعماله وتصرفاته إذا نظرت إليها من هذه الناحية المعنوية . أما ما خلاها فقد
 كان ضعيف الأثر عنده ؛ فلا تجارته ، ولا أسرته ، ولا أهواؤه ، ولا شيء
 مما يتأثر به الناس في الحياة ومما كان يتأثر به كثير من المسلمين في ذلك العهد ،
 قد كان ذا سلطان عليه . بل كان قابه ، وكان عقله ، وكانت روحه ، خالصة
 كلها لله ورسوله ، وكانت كلها الإيمان الذي بلغ من مراتب الإيمان عليها ،
 مراتب الصديقين ، وحسن ذلك مقاماً !

سلطان الإيمان
على أبي بكر

انظر إليه بعد ذلك في غزوة بدر : عدل المكيون صفوفهم ، وعدل النبي
 صفوف المسلمين للقتال ، وبنى المسلمون عريشاً للنبي في المؤخرة ، بإشارة

موقف الرسول
في غزوة بدر

سعد بن معاذ ، حتى إذا لم يكن النصر في جانبهم لحق رسول الله بالمدينة ، وأقام أبو بكر مع النبي في العريش يرقب معه سير المعركة . فلما ابتدأت ، ورأى محمد كثرة عدوه وقلة رجاله ، استقبل القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه ، وجعل يَسْنِدُهُ ما وعده ، ويهتف به أن يتم له النصر ويقول : « اللهم هذه قریش قد أنت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ! اللهم فنصرك الذي وعدتني ! اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » وما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه ؛ ولم يطمئن حتى خفق خفقة من نَعَّاس رأى خلالها نصر الله ، وانتبه من بعدها مستبشراً ، وخرج إلى الناس يحرضهم ويقول لهم : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

موقف الصديق
في بدر

كان هذا موقف الرسول : لم يطمئن إلى انتصار رجاله القليلين على أعدائه الكثيرين ، حتى اتصلت روحه بسر من ربه أراه النصر ، وكشف أمامه حجب هذا اليوم الحاسم في حياة الإسلام . أما أبو بكر فظل إلى جانب الرسول ممتلئاً إيماناً بأن الله لا ريب ناصر دينه ، ممتلئاً مع إيمانه بالنصر إعجاباً بالرسول في مناجاة ربه ، وإشفاقاً على الرسول لشدة خوفه من مصير ذلك اليوم . وهذا ما دعاه ، والرسول يهتف وينادي ويناشد ويستنجز ربه ما وعده ، ويكرر ذلك ويعيده حتى سقط رداؤه ، أن يُهيب به وهو يرد الرداء على منكبيه : يا نبي الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك ! » .

حب الرحمة
والحق مجتَمعين
في قلبه

ألف الناس في كثير من المؤمنين بعقيدة لا يمارون فيها ولا يداجون ، أن يبلغ منهم التعصب لعقيدتهم مبلغاً يجعلهم أشداء لا يهنون ، غلاظاً لا يلينون . بل إن منهم لكثيرين لا يطيقون النظر إلى وجوه من يخالفونهم في هذه العقيدة . هؤلاء يرون أن الإيمان الحق يقتضيهم هذا التعصب وهذه الشدة والغلظة . أما الصديق فكان ، على جلال إيمانه وعظم تعصبه لهذا الإيمان وشدة فيه شدة لا تهن ولا تردد ، بعيداً عن الغلظة ، قريباً إلى اللين ، عفواً عند القدرة ، محسناً متى تم لإيمانه النصر ، بذلك جمع في قلبه بين مبدئين من أسمى

المبادئ الإنسانية ؛ حب الحق ، والرحمة . ففي سبيل الحق كان يستهين بكل شيء ، وبالحياة قبل كل شيء . فإذا علّست كلمة الحق ، غلب فيه جانب الرحمة ، وانقلب مؤمناً بها لإيمانه من قبلُ بالحق ، ضعيفاً لها حتى لتذرف عينه الدمع ترسله مدراراً .

تم النصر للمسلمين في بدر فرجعوا إلى المدينة ومعهم أسرى قريش . وكان هؤلاء يطمعون في الحياة ، وفي العود إلى مكة ، وإن أغلوا الفداء . لكنهم كانوا يخشون شدة محمد وبطشه بهم بعد الذي أذاقوه وأصحابه سنواتٍ مُقامه بينهم . قال بعضهم لبعض : « لو بعثنا إلى أبي بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا ، وأكثرهم رحمة وعطفاً ، ولا نعلم أحداً آثرَ عند محمد منه » . وبعثوا إلى أبي بكر فقالوا له : « يا أبا بكر إن فينا الآباء ، والإخوان ، والعمومة ، وبنى العمومة ؛ وأبعدنا قريب . كلم صاحبك يمنّ علينا أو يفادنا » . فوعدهم خيراً . وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم ، فتحدثوا إليه بمثل حديثهم لأبي بكر ، فنظر إليهم شزراً ولم يجب . وأقام أبو بكر نفسه شفيح هؤلاء القرشيين المشركين عند رسول الله ، فجعل يستعطفه عليهم ويُلين قلبه لهم ، ويدفع حجج عمر في الشدة بهم ، ويذكر ما بينهم وبين النبي من قرابة . وهو إنما صنع ما صنع من ذلك لما فطر عليه من طيبة القلب والإيمان بالرحمة كإيمانه بالحق والعدل . ولعله كان يرى بعين بصيرته أن لسلطان الرحمة الغلبَ آخر الأمر ، وأن الناس ينزلون على حكم صاحبها وعلى عقيدته ما رأوا رحمة إنسانية سامية ، مبرأة من الضعف ، منزّهة عن الهوى ، لا تحركها في النفس إلا القوة والقدرة ، وإلا سلطان الإنسان على نفسه سلطاناً يكبح من بطش القوة ويُلين من عسف القدرة .

موقفه من
أسرى بدر

كانت غزوة بدر مبدأ حياة جديدة للمسلمين ، وكانت كذلك مبدأ اتجاه جديد في حياة أبي بكر . بدأ المسلمون ينظّمون سياستهم إزاء قريش وإزاء من ناوهم من القبائل المحيطة بهم ، وبدأ أبو بكر يشغل مع النبي بهذا التنظيم أضعاف شغله بحماية المسلمين أيام مُقامه بمكة . فقد كان المسلمون جميعاً يعلمون أن قريشاً لن يهدأ لها بال حتى تأخذ بثأرها من بدر ؛ وكانوا يعلمون

اتجاه حياة
بعد بدر

أنهم في حاجة إلى حماية دعوتهم الناشئة ، وإلى دفع كل معتد عليهم . فلا بد من التقدير لذلك كله ، وتدبير الأمر له . وما كان لأبي بكر ، وموقفه من رسول الله ما رأيت ، أن يشغل نفسه من بعد بغير هذا التقدير والتدبير ، حتى لا تكون فتنة داخلية في المدينة بتحريض اليهود والمنافقين ، وحتى لا يغزو المدينة غاز من الخارج .

كان هو وعمر
وزيري الرسول

والحق أن نصر المسلمين ببدر قد أعزّ كذمتهم ، فحرك في نفوس منافسيهم حقداً عليهم أيّ حق . حرك في نفوس اليهود حفاظ كانت ساكنة ، وحرك في قلوب القبائل المجاورة للمدينة مخاوف كانت مطمئنة . ولم يكن بدّ ، لاتقاء ما ينجم عن هذا وذاك ، من سياسة حكيمة ، وتقدير دقيق ، ومشاورة متصلة بين النبي وأصحابه . وقد اتخذ النبي من أبي بكر وعمر وزيرين يمحص على ضوء ما بينهم من تباين في الطبع مع صدق في إخلاص المشورة ، ما ينظم به سياسته الناشئة . هذا مع مشاورته غيرهما من سائر المسلمين ، مشاورة كان لها أثرها الكبير في جمع الكلمة ، وفي توزيع التبعة على الجميع ، توزيعاً يُشعِر كل واحد بأن عليه منها قسطاً ونصيباً .

وكان من أثر ما تحرك من حفاظ اليهود أن حاصر المسلمون منهم بني قيسنق وأجلوهم عن المدينة . وكان من أثر ما تحرك من مخاوف القبائل أن جعل المحيطون بالمدينة منهم يجتمعون للاعتداء عليها ، فإذا سمعوا بخروج محمد إليهم ولّوا فراراً وملئت قلوبهم رعباً .

موقفه في غزوة
أحد

وكانت هذه الأنباء تصل مكة ، فلا تصد قريشاً عن التفكير في الثار لبدر . ولقد ذهبت تلتمس هذا الثار ، فالتقت بالمسلمين عند أحد ، فدارت الدائرة وجه النهار عليها ؛ لكن مصير اليوم تغير حين خالف رماة المسلمين أمر النبي ، وتركوا مواقفهم وانطلقوا يغمون مع الغانمين . فقد اهتبل خالد بن الوليد الفرصة فأوقعت قريش بالمسلمين فاضطربوا ؛ وأصيب النبي بحجارة كان المشركون يقذفونها ، فوقع لشقيقه وأصيب في وجهه ، وتنادت قريش أنه مات . ولولا أن أحاط به من أبطال المسلمين من افتدوه بأنفسهم وأرواحهم ، لكان لله في خلقه من يومئذ شأن غير هذا الشأن . ومن يومئذ صار أبو بكر أكثر

ملازمة للنبي في غزواته وحين مقامه بالمدينة .

وأنت تذكر أن حياة المسلمين ، إلى أن استقر لهم الأمر بعد فتح مكة وإسلام ثقيف بالطائف ، قد كانت حياة غزو ، ودفعاً للغزو ، أو استعاباً . لدفعه . دع عنك الغزوات الصغرى التي كانت أدنى إلى المناوشات . فقد كان اليهود ، وعلى رأسهم حِيَّيُّ بن أخطب ، لا يفتأون يؤلبون على المسلمين . وكانت قريش تبذل جهد الطاقة لإضعافهم والقضاء على سلطانهم . فكانت غزوات بني النَّضِيرِ والحندق وبني قُرَيْظَةَ وما تخللها من الغزوات ، أثر سياسة اليهود ، وحقد قريش .

صار أبو بكر أكثر ملازمة للنبي في هذه المواقف والمواقع جميعاً ، وهو أشد ما يكون برسائله إيماناً وتصديقاً . فلما اطمأن رسول الله إلى منعة المدينة وآن له أن يوجه خطته توجيهاً جديداً يمهّد الله به لإكمال دينه ، كان لأبي بكر مواقف زادت المسلمين اقتناعاً بأنه الرجل الذي يلي رسول الله مكانة من نفوسهم ، وسموا في تقديرهم .

بعد ست سنوات من هجرة المسلمين إلى المدينة أذن محمد في الناس بالحج إلى البيت العتيق . وبلغ قريشاً مسيرة القوم ، فأقسموا لا يدخل محمد مكة عليهم عنوة . وأقام محمد وأصحابه بالحدَيْبِيَّةِ بظاهر مكة ، وهو مستمسك بالسلام ، رافض كل دعوة إلى منازلة قريش ، معلن أنه جاء حاجاً ولم يجرّ غزياً . وتبادل مع قريش الرسل ، وانتهى الأمر بينه وبينهم إلى عهد رضى به أن يرجع عنهم عامه ، وأن يعود إليهم العام الذي يليه .

موقفه في
الحديبية

غضب كثير من المسلمين ، بينهم عمر بن الخطاب ، لتراجعهم ورجوعهم ، ورأوا في هذا العهد إعطاءً للدنيّة في دينهم . أما أبو بكر فأمن وصدّق بحكمة رسول الله . فلما نزلت سورة الفتح آمن الناس جميعاً بأن عهد الحديبية كان فتحاً مبيناً ، وبأن أبا بكر كان الصدّيق في هذه ، كما كان في غيرها من مواقفه //

كانت الدعوة الإسلامية تزداد على الأيام كمالاً ، وكان المسلمون بالمدينة يزدادون بذلك بأساً وقوة . وكان من مظاهر قوتهم أن حاصروا اليهود في خَيْبَرَ وفدّك وتيماء ، وأخضعوهم لسلطانهم ، تمهيداً لإجلالهم عن بلاد

ازدياد قوة
المسلمين وإقبال
الوفود

العرب ، ثم كان من مظاهر قوتهم وكمال الدعوة أن أرسل محمد إلى الملوك والأمراء بفارس ، وُبَزَنْطِيَّة ، ومصر ، والحيرة ، واليمن ، وما جاور بلاد العرب أو دخل فيها من الإمارات ، يدعوهم إلى الإسلام . فأما المظهر الأسنى لهذا الكمال وهذه القوة ، فذلك فتح مكة ، وحصار الطائف . بهذا كله تألَّق نور الدين الحديد في شبه الجزيرة ، وجاوزها إلى الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين كانتا قابضتين على ناصية العالم في ذلك العصر : الروم ، وفارس ، وبذلك اطمأن الرسول والمسلمون إلى نصر الله ، وإن استمسكوا بخُطَّة الحذر ، حتى لا يدهمهم من أية ناحية من يحاول أن يُغشِّي هذا النور أو أن يضعف سلطانه .

وحين رأت العرب هذه القوة جاءت وفودهم تترى من أنحاء شبه الجزيرة ، تألق نور الإسلام تعلن إيمانها بالدين الحديد . أليس هذا الداعي إليه قد كان وحيداً فريداً ، وما هو ذا قد انتصر على اليهود ، وعلى النصارى ، وعلى المجوس ، وعلى المشركين !! وهل ينتصر إلا الحق ! وهل آية أدل على أن دعوته هي الحق الخالص من انتصاره على هؤلاء جميعاً ، وهو لا يبتغي عليهم سلطاناً ، ولا يطلب إليهم إلا أن يؤمنوا بالله ، وأن يعملوا الصالحات !! هذا منطق إنساني أقره الناس في كل زمن وآمنوا به أينما وجدوا . وهو منطق يقره العقل ما أثبتت السنون قوة حجته فلم يغلبه غالب .

وأذن الله أن يتم المسلمون فروض دينه . والحج تمام هذه الفروض . لكن تتابع الوفود لم يتح لرسول الله أن يغادر المدينة إلى بيت الله الحرام . لذلك أمر أبا بكر أن يحج بالناس ، فخرج في ثلاثمائة من المسلمين ، حجّوا وطافوا وسعّوا . وفي هذا الحج أعلن على بن أبي طالب إلى الناس - أو أعلن أبو بكر في رواية أخرى - أن لا يحج بعد ذلك العام مشرك . ثم أجتل الناس أربعة أشهر ، ليرجع كل قوم إلى مآمنهم وبلادهم . ومن يومئذ إلى اليوم ، وإلى ما يشاء الله ، لم يحج إلى البيت الحرام مشرك ، ولن يحج إليه مشرك .

وفي السنة العاشرة من الهجرة ، حج رسول الله حَجَّة الوداع ، وحج أبو بكر معه / وسار صلى الله عليه وسلم ، وصحبه نساؤه جميعاً ، وتبعه من حجة الوداع ثم بعث أسامة

العرب مائة ألف أو يزيدون . ولم يطل مقام النبي بالمدينة بعد عوده من الحج ، حتى أمر بتجهيز جيش لجب إلى الشام ، جعل فيه المهاجرين الأولين ، ومنهم أبو بكر وعمر . وعسكر هذا الجيش بالحرف ، ثم تراهي إليه أن رسول الله مرض ، فلم يتحرك إلى غرضه ؛ لأن المرض اشتد بالنبي شدة أثارت مخاوف الناس عليه .

ولما ثقل عليه المرض أمر أن يصلي أبو بكر بالناس . روى عن عائشة أنها قالت : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . قلت يا رسول الله : إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت عمر ! قال : مروا أبا بكر يصلي بالناس فقلت لحفصة : قولي له إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت عمر ! فقالت له حفصة ، فقال : إنكن لأنتن صواحب يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس ! فقالت حفصة لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيراً » .

النبي يأمر أن
يصلي أبو بكر
بالناس

وصلى أبو بكر بالناس كأمر النبي . وإنه لغائب يوماً إذ دعا بلال إلى الصلاة ونادى عمر أن يصلي بالناس . وكان عمر جهير الصوت ، فلما كبر في المسجد سمعه محمد من بيت عائشة ، فقال : « فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون » . ولقد ظن بعضهم أن النبي استخلف أبا بكر من بعده بما أنه قد أمره بالصلاة مكانه ؛ فالصلاة بالناس أول مظهر للقيام مقام رسول الله ﷺ

وفي أثناء هذا المرض خرج محمد إلى المسلمين يوماً بالمسجد ، وقال فيما قاله لهم : « إن عبداً من عباد الله خيرته الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله » ، ثم أمسك . وقد أدرك أبو بكر أن النبي إنما يعنى نفسه ، فأجهش بالبكاء وقال : « نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » ، وأمر محمد أن تقفل أبواب المسجد إلا باب أبي بكر ، ثم قال مشيراً إلى الصديق : « إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه . وإني لو كنت متخذاً من

خليل رسول الله

العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده ۞

وفي اليوم الذي قبض فيه النبي خرج ساعة الصبح إلى المسجد ، معتمداً على عليّ بن أبي طالب والفضل بن العباس ، وكان أبو بكر يصلّي ساعتئذ بالناس . فلما رأى الناس النبي فرحوا وتفرّجوا ، فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم . وأحسّ أبو بكر أنهم لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ، فتأخر عن مكانه ، فأومأ إليه النبي : أن كما أنت ، وجلس رسول الله عن يسار أبي بكر فصلّي قاعداً .

وعاد النبي بعد هذه الصلاة إلى دار عائشة . لكنه ما لبث أن عاودته الحمى ، فدعا بإناء فيه ماء بارد جعل يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه . وبعد سويعة من ذلك اختار الرفيق الأعلى ، واختار ما عند الله .

وترك رسول الله هذه الحياة الدنيا ، وقد أكمل الله للناس دينهم ، وأتم عليهم نعمته . فماذا يصنع العرب من بعده ؟ إنه لم يستخلف خليفة ؛ ولم يضع للحكم نظاماً مفصلاً . فليجتهدوا ، ولكل مجتهد نصيب .

الفصل الثاني

بيعة أبي بكر

ذهول المسلمين
بعد وفاة النبي

اختار الله رسوله إلى جواره في الثاني عشر من ربيع الأول عام ١١ للهجرة (الثالث من شهر يونيو سنة ٦٣٢ للميلاد) . وكان صلى الله عليه وسلم صبح ذلك اليوم قد شعر بشيء من العافية من مرضه ، فخرج من بيت عائشة إلى المسجد ، وتحدث إلى المسلمين ، ودعا لأسامة بن زيد بالخير ، وأمره أن يسير لغزو الروم . فلما تطاير إلى الناس أن رسول الله قد مات بعد سويغات من جلوسه بينهم وحديثه إليهم تولاهم الدهول ، وقام عمر بن الخطاب فيهم خطيباً ينفي الخبر ، ويذكر أن رسول الله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . وانطلق عمر يهدّد القائلين بوفاة الرسول ويذكر أنه صلى الله عليه وسلم سيرجع إليهم فيقطع أيديهم وأرجلهم .

موقف أبي بكر
من وفاة النبي

وكان أبو بكر قد ذهب إلى داره بالسُّنْح من ضواحي المدينة بعد أن عاد النبي عليه السلام من المسجد إلى دار عائشة . فلما نما في الناس نبأ وفاته ذهب في أثر الصديق من أبلغه إياه فكرّ راجعاً ، فبصر بالمسلمين وبعمر يخطبهم ، فلم يقف بل قصد إلى بيت عائشة حيث ألقى النبي صلى الله عليه وسلم مسجتي في ناحية من البيت ، فكشف عن وجهه وجعل يقبله ويقول : « ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً ! » ، وخرج إلى الناس فقام فيهم فقال : « أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » . ثم تلا قوله تعالى : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » . فلما سمع عمر هذه الآية خرّ إلى الأرض ما تحمله رجلاه ، وأيقن أن رسول الله قد مات . ووجم الناس لما سمعوا ولما رأوا ، وأقاموا في ذهولهم لا يدرون ما يصنعون .

تصوير ناحية
من نفسيته

نقف هنيهة ها هنا لنصور ناحية من نفسية أبي بكر يدل عليها موقفه هذا أبلغ الدلالة . فلو أن رجلاً من المسلمين جاز أن يبلغ منه الجزع لوفاة الرسول ما بلغ من عمر ، لكان ذلك الرجل أبا بكر ؛ فهو صفيُّ النبي وخليله ، ومن أثره في كل موقف على نفسه . وهو الذي أجهش بالبكاء لقول رسول الله : « إن عبداً من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » . وهو الذي قال حين سمع هذه الكلمة والعبرة تخنقه : « نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » . لكن جزعه لوفاة الرسول لم يُذهله ما أذهل عمر . وهو لم يلبث حين أيقن أن الله اختار رسوله إليه ، أن خرج إلى الناس وخطبهم بما قرأت .

وهذه الكلمات التي ألقاها عليهم ، وهذه الآية التي تلاها من القرآن لإقناعهم ، تدل على قوة في مواجهة الحقائق تنأى بصاحبها عن أن يذهله نبأ فاجع كموت رسول الله . وقد اقترنت هذه القوة النفسية بصفة أخرى زادت بها جلالاً ومهابة ، هي بُعدُ النظر إلى المستقبل . وهاتان الصفتان تثيران العجب من رجل كله الرفق والرقّة ، وكاه التقديس لمحمد والمحبة له أكثر من حبه الحياة وما فيها .

قوته النفسية
وبعد نظره
إلى المستقبل

وهذه القوة النفسية البالغة التي كانت سند أبي بكر في هذه الساعة العصيبة الرهيبة ، ساعة فجعية المسلمين لفقد نبي الله ورسوله ، هي التي كانت سنده في الساعات الكثيرة العصيبة التي مرّت من بعده وبالمسلمين ، وهي التي وقّت المسلمين ووقت الإسلام فتنة لولاها لتعرضوا لحزن لا يعلم إلا الله ما كان يصيبهم ويصيب النشأة الجديدة من جرائها

لم يكن عمر والمسلمون الذين أحاطوا به واستراحوا إلى قوله إن النبي لم يمت ، إلا الذين أذهلهم النبأ عن التفكير فيما وراءه . أما الذين أيقنوا بحقيقة هذا النبأ أول ما عرفوا به ، فلم يشنّهم الحزن عن هذا التفكير . فقد آل أمر المدينة إلى الرسول بعد أن استقر بها ، وبعد أن تم لدينه السلطان فيها . فلمن عسى أن ينتقل هذا الأمر من بعده ، وقد امتد سلطان الرسول على سائر العرب بعد أن دانوا بالإسلام ، وبعد أن ارتضى الكتابيون الذين أقاموا على دينهم أن يدفعوا الجزية ؟ ترى أیظل للمدينة هذا السلطان ؟ وإن ظل لها فلمن من أهلها يؤول ؟ .

لمن عسى أن
ينتقل الأمر من
بعد الرسول

موجدة الأنصار
على المهاجرين

الأنصار وعطاء
المؤلفة قلوبهم

لقد كان الأنصار من أهل المدينة يجدون على المهاجرين أنهم آوهم ونصروهم أول ما جاءوا إليهم ضيوفًا مع الرسول ، فلما اطمأنوا أرادوا أن يستأثروا بالأمر دونهم . كانت هذه روحهم في عهد النبي ، فكان من الطبيعي أن تظهر واضحة حين وفاته ؛ بل لقد ظهرت في حياة الرسول بعد فتح مكة وغزاة حنين والطائف . فقد أجزل محمد العطاء من فيء هذه الغزاة إلى المؤلفة قلوبهم من أهل مكة . فلما رأى الأنصار ذلك تحدث فيه بعضهم إلى بعض وقال قائل منهم : لقي والله رسول الله قومه . فلما بلغت هذه المقالة النبي طلب إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج أن يجمعهم إليه ، فلما اجتمعوا قال لهم : « يا معشر الأنصار ، ما قاله بلغتنى عنكم ، وجدّة وجدتموها في أنفسكم ! ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم ؟ » . وأطرق الأنصار لما سمعوا ، وكان كل جوابهم : « بلى ! الله ورسوله أمنٌ وأفضل » . وسألهم النبي : « ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ! » . فظلوا مطرّقين ولم يزيدوا على أن قالوا : « بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المنُّ والفضل » .

هنالك تولى محمد الجواب عنهم فقال : « أما والله لو شتم لقلتم فلصدّ قتم ولصدّ قتم : أتيتنا مكذباً فصدّقناك ، ومخذولاً فنصرناك وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك » قال هذه العبارة والتأثر باد عليه ، ثم أردف : « أوجدتم ، يا معشر الأنصار في لُعاة من الدنيا تألفت بها قومًا لمُسلموا ووُكلتكم إلى إسلامكم !! ألا ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم !! فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » . ولقد بلغ من تأثر الأنصار بهذه العبارة التي صدرت من أعماق قلب النبي ، فقالها وكله العطف والمحبة لأولئك الذين بايعوه ونصروه وأعزّوه أن بكوا وقالوا : « رضينا برسول الله قِسْماً وحظاً » .

الأنصار حين
فتح مكة

ولم يكن فيء حُسنٍ وعطاء المؤلفة قلوبهم أول ما أثار المخاوف في نفوس الأنصار ، بل ثارت مخاوفهم قبل ذلك وعلى أثر فتح مكة ، حين رأوا النبي

يقوم على الصفا ويدعو ، وحين رأوه يحطم الأصنام ويتم في يوم واحد ما دعا إليه منذ عشرين سنة . فقد خيّل إليهم أنه تارك المدينة فعائد إلى وطنه الأول . وقال بعضهم لبعض : «أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبأده لمقيم بها ؟ » . فلما اتصل بمحمد نبأ مخافتهم قال : « معاذ الله . المحيا محياكم ، والممات مماتكم » .
 طبعي ذلك كان شعور الأنصار أن يسرعوا إلى التفكير في أمر مدينتهم أول ما عرفوا أن النبي مات . تُرى أیظل أمر هذه المدينة وأمر العرب إلى المهاجرين الذين أقاموا ضعافاً بمكة لا مأوى لهم ولا نصير حتى أعزتهم المدينة ، أم يكون الأمر لأهل هذه المدينة الذين قال فيهم الرسول إنه أتاهم مكذباً فصدّ قوه ، ومخذولاً فنصروه ، وطريداً فأووه ، وعائلاً فأسوّه ؟ تحدث بعض الأنصار إلى بعض في هذا ، وتداعوا إلى سقيفة بنی ساعدة . وكان سعد بن عبادة مريضاً في داره فأخرجوه إليهم ليكون صاحب الرأي فيهم . وأصغى سعد إلى حديثهم ، ثم قال لابنه أو لبعض بني عمه : « إني لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم كلامي ، ولكن تلقّ مني قولي فأسمعهم » ، ثم جعل يتكلم فينقل الرجل إلى الحاضرين كلامه . قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « يا معشر الأنصار ، إن لكم لسابقة في الدين ، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب . إن محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ؛ وما كانوا يقدرّون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يُعزّوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عُمّوا به . فلما أراد لكم ربكم الفضيحة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوّه منكم ، وأثقله على عدوّه من غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً ، وحتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ ، وبكم قرير عين ؛ فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دون الناس » .

الأنصار في
سقيفة بنی
ساعدة

خطبة سعد بن
عبادة في الأنصار

سمع الحاضرون مقالة سعد ثم أجابوه بأجمعهم : « وفقت في الرأي ، وأصبت في القول ، ولن نعدو ما رأيت . نوليك هذا الأمر ؛ فإنك فينا متقنّع ، ولصالح المؤمنين رضا » .

أفكان هذا الإجماع صريحاً قوياً صادراً عن عزيمة لا تهن ولا تكبو ؟
لو أنه كان كذلك لأسرع القوم إلى بيعة سعد بن عباد ، ولدعوا الناس إلى
متابعتهم على بيعته . ولكن القوم ما لبثوا أن ترادوا الكلام بينهم قبل أن يُقبل
أحد على بيعة سعد : قال قائل منهم : « فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا :
نحن المهاجرون ، وصحابة رسول الله الأولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام
تُنازعوننا هذا الأمر بعده ؟ » . وأنصت الحاضرون إلى هذا القول ، ورأوا فيه
من الحق ما حسبه بعضهم لا يدفع . هنالك قالت طائفة منهم : « فإننا نقول
إذن منا أميرٌ ومنكم أمير . ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً » .

ولم يخف على ابن عباد ما تنطوى عليه هذه المقالة من تردد يقعد هذا أول الوهن
بصاحبه دون غايته ؛ لذلك قال حين سمعها : « هذا أول الوهن » . ولعله إنما
رآها أول الوهن أن رأى الذين يقولونها من بني الأوس . فما كان بنو الخزرج
ليقولوا مثلها وهو رئيسهم الذي يرشحونه لولاية الأمر من بعد الرسول . والأوس
والخزرج كانوا دائماً على خلاف بينهم ، منذ نزل أجدادهم الأولون المدينة قادمين
من اليمن حين هجرة الأزدي إلى الشمال . فقد ألقي هؤلاء الأجداد اليهود بالمدينة
فخضعوا لسلطانهم زمنًا ، ثم ثاروا بهم وأنزلوهم عن مكان السلطان منهم . ومن
يومئذ نشبت بين القبيلتين خصومة طالما ردت السلطان لليهود . ورأى الفريقان
ما يحجره ذلك عليهم من ضعف ، فهموا أن يولوا عليهم أحدهم عبد الله بن محمد
من الخزرج ، بعد أن أفنت وقعة بُعات الكثيرين منهم ، وأعات كلمة
إسرائيل بينهم . وإنهم لذلك إذ قدم منهم جماعة مكة حاجتين ، فتعرض
لهم النبي يدعوهم إلى الله ، وقال بعضهم لبعض : « والله إنه للنبي الذي تواعدكم به
يهود ، فلا يسبقنكم إليه » . ثم أجابوا دعوته ، وأسلموا وقالوا له : « إنا
تركنا قومنا — أي الأوس والخزرج — ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ،
فعسى أن يجمعك الله بهم ؛ وإن يجمعهم عليك فلا رجل أعز منك » وعاد
هؤلاء إلى المدينة ، فأنبثوا قومهم بما رأوا ، فكان ذلك مقدمة بيعة العقبة الكبرى ،
ومقدمة هجرة الرسول إلى المدينة ، وبدء انتشار الإسلام فيها .

جمع الدين الحديد كلمة المؤمنين به ، ثم زادهم التفافهم حول النبي إزاء

ومودة . بذلك ضعف سلطان اليهود ضعفاً مهتداً لجلالهم من بعد عن المدينة وعن بلاد العرب جميعاً . على أنه بقيت مع ذلك في نفوس الأوس والخزرج آثار من خصومتهم الأولى ، كانت تبدو كلما حركها من اليهود أو المنافقين من ادعى الإسلام باطلاً ليفرق بين أهله . وذلك ما يدعو إلى الظن بأن سعد بن عبادة لم يقل حين نظر إلى القوم في السقيفة يستمعون إلى من يقول : منا أمير ومن قريش أمير : « هذا أول الوهن » إلا لأن أصحاب هذه المقالة كانوا من بني الأوس .

بينما كان الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتداولون أمرهم بينهم يريدون أن ينفردوا بالسلطان على العرب ، كان عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وطائفة من كبار المسلمين ومن سوادهم يتحدثون بالمسجد عن وفاة الرسول ، وكان أبو بكر وعلي بن أبي طالب وأهل بيت النبي يحيطون بجثمانه ويعدون العدة لتجهيزه ودفنه . وبدأ ابن الخطاب مذ أيقن بوفاة النبي يفكر فيما عسى أن يكون الأمر من بعده . ولم يدُرْ بخلفه أن الأنصار سبقوه إلى هذا التفكير ، أو أنهم يريدون أن يستبدوا بالأمر دون الناس . قال ابن سعد في الطبقات : « أتى عمرُ أبا عبيدة بن الجراح ، فقال : ابسط يدك فلأبايعك ، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله . فقال أبو عبيدة لعمر : ما رأيت لك فتهمة^(١) قبلها منذ أسلمت . أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين » وإنهم لفي هذا الحديث إذ جاءهم نبأ الأنصار واجتماعهم في سقيفة بني ساعدة . فأرسل عمر إلى أبي بكر في بيت عائشة أن اخرج إلينا ، فأجاب أبو بكر الرسول : « إني مشغول » . فرد عمر رسوله يقول لأبي بكر : « إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره » .

حديث عمر
ابن الخطاب
وأبي عبيدة
ابن الجراح عن
الخليفة

وخرج أبو بكر إلى عمر وقد تولاه العجب ، أيّ أمر يمكن أن يدعى إليه فيصرفه عن جهاز رسول الله ! قال عمر : « أمّا علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة ، وأحسنهم مقالة من يقول منا أمير ومن قريش أمير ! ! » ولم يتردد أبو بكر حين سمع ذلك

أبو بكر وعمر
وأبو عبيدة
يذهبون إلى
سقيفة بني ساعدة

أن مضى مع عمر مسرعين إلى السقيفة ومعهما أبو عبيدة بن الجراح . وكيف يتردد
والأمر أمر المسلمين ومصيرهم ، بل أمر هذا الدين الذى أوحى إلى محمد ومصيره !
إن حول جثمان الرسول أهله يقومون بما يجب لجهازه ودفنه ، فلينطلق مع صاحبيه
إلى السقيفة ، فذلك واجب عليه لله ورسوله لا يستطيع غيره أن ينهض به .
وهو لم يتخل يوماً عن أداء الواجب والنهوض بأجسم التبعات وإن اقتضاه ذلك
بذل ماله ونفسه .

مضى ثلاثة الرجال لم يشنهم أن لقيهم عاصم بن عدى وعويم بن ساعدة
فقالا لهم : ارجعوا فإنه لا يكون ما تريدون . فلما قالوا : « يا معشر المهاجرين ،
لا تأتوهم واقضوا أمركم » قال عمر : « والله لنأتينهم » .

اجتماع السقيفة
وعظيم خطره

وبلغ الثلاثة السقيفة والأنصار لا يزالون فى حوارهم لم يبايعوا سعداً
ولم يقطعوا فى ولاية الأمر برأى . ودهش الأنصار حين رأوهم فأمسكوا عن
القول ، وكأنما سقط فى أيديهم . وسأل عمر بن الخطاب عن رجل مزمل بين
ظهرانبيهم من هو ، فأجابوا : هذا سعد بن عباد به وجع . وجلس أبو بكر
وصاحبا بين القوم وكل تتمشى فى نفسه هواجس يسأل نفسه عم يسفر
هذا الاجتماع ؟

والحق أنه كان اجتماعاً جليل الخطر فى حياة الإسلام الناشئ . ولولا
ما أبدى أبو بكر فى هذا الاجتماع من قوة الحزم وصلابة الإرادة لأوشك هذا
الدين الجديد أن يثور الخلاف عليه فى موطنه كما ثار فى مواطن أخرى
من بلاد العرب ، وأن يثور وجثمان صاحب الرسالة ما يزال فى بيته لم يثو
فى قبره .

أرأيت لو أن الأنصار أضروا على أن يستبدوا بالأمر دون الناس استجابة
لدعاء سعد بن عباد ولم ترض قريش أن يكون غيرها الأمر ، فأى مسرح
للثورة كانت تصبح مدينة الرسول ! ولأية ثورة جائحة مسلحة وجيش أسامة فى
أحشائها فيه المهاجرون وفيه الأنصار وكلهم مدجج بسلاحه قد لبس درعه
واتخذ للقتال عدته !! ولو أن المهاجرين الذين ذهبوا إلى السقيفة كانوا غير
أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ممن ليس لهم فى نفوس المسلمين جميعاً ما لوزيرى

رسول الله ولأمين الأمة من مكانة ، لشجر الخلاف بينهم وبين الأنصار ،
ولخيف على جماعة المسلمين من الاختلاف وما يجر إليه ، ولكان لذلك أثره الذي
لا يفكر اليوم فيه مؤرخ ، ولما وقف الأكثرون من اجتماع السقيفة عند رواية
الحوادث وذكر الخطب التي تبودلت وما تم على أثرها من بيعة أبي بكر . أما
الذين يقدرّون الحوادث قدرها ، فيرون لهذا الاجتماع التاريخي من الأثر في
حياة الإسلام ما كان لبيعة العقبة الكبرى ، وما كان لهجرة الرسول من مكة إلى
المدينة ، ويرون فيما كان من أبي بكر وحسن تصرفه في الموقف عمل الرجل
السياسي ، بل رجل الدولة البعيد مرمى النظر ، والذي يقدر النتائج ويرتب
للاحتمالات ، ويوجه كل جهده إلى الغرض الذي يريد أن يحقق به أعظم الخير
ويتقى به كل ضرر أو أذى .

ألفنا في حياتنا الحاضرة عبارات يصور بها الساسة أحوالا أو أعمالا يحسبونها
بدعاً لم يسبقهم إليه في التاريخ أحد . ومن مألوف ما نسمع في هذا الزمن
عبارة « الهجوم السلمي » . وهذا الهجوم السلمي لم يكن مجهولاً في العصور
الماضية . بل هذا الهجوم هو ما لجأ إليه أبو بكر وأتمة صاحبه في ذلك الاجتماع
التاريخي الجليل الخطر .

أبو بكر يبدأ
الهجوم السلمي

لما اطمأن بالمهاجرين الثلاثة المجلس خرج الأنصار من صمتهم وزايلتهم
دهشتهم ، ولم يخف أشدهم حماسة حرصهم على أن يكون الأمر من بعد
الرسول لهم . قال عمر : « وكنت قد زويت^(١) كلاماً أردت أن أقوم به فيهم ،
فلما أن دفعت إليهم ذهبت لأبتدئ المنطق ، فقال لي أبو بكر : رويداً
حتى أتكلم ثم انطق بعد بما أحببت » . إنما خشى أبو بكر شدة عمر في
القول وليس الموقف موقف شدة أو عنف بل موقف سياسة وحسن مدخل .
نهض أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه وذكر رسول الله وما جاء به من رسالة
التوحيد ثم قال :

« . . . عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين
الأولين من قومه بتصديقه ، والإيمان به ، والمؤاساة له ، والصبر معه ، على شدة

خطبته الأولى
في الأنصار

(١) زويت : جمعت . ويروى « زورت » .

أذى قومهم لهم ، وتكذيبهم إياهم ، وكلّ الناس مخالف لهم زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ، وشَنَفَ^(١) الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم . فهم أول من عبد الله في الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم .

« وأنتم يا معشر الأنصار ، من لا يُنكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تُفتاتون بمشورة ، ولا تُقضى دونكم الأمور » .

نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور . ما أقرب هذا القول من رأى الأنصار الذين قالوا : منا أمير ومن المهاجرين أمير . وهذا القول أدخل في باب النظام وأدنى إلى أن تسير الأمور سيرة صلاح وإصلاح . هذا حق . ولعل أبا بكر قصد إليه فكان قصده حسن السياسة وبعد النظر . ولعل الأوس الذين كانوا ينفسون على الخزرج قد استراحوا إليه . ولعل كثيرين من بنى الخزرج أنفسهم لم ينفروا منه . فهذا أبو بكر لم يرد للمهاجرين أن يستبدوا بالأمر دون الناس كما فعل سعد بن عباد . بل جعل الأنصار وزراء فأشركهم في الأمر ولم يشرك غيرهم ، وإن كان من غيرهم في بعض أنحاء شبه الجزيرة من هم أكثر قوة وأعز نفراً . وهو إنما أشركهم على الأساس الذي جعل به الإمارة للمهاجرين : مقامهم في السبق إلى نصر الرسول وتأيينه .

لا جرم إذن أن يستريح الجميع إلى هذا القول ، فهو عدل كل العدل ، وأساسه الحق كل الحق .

رد الأنصار على
أبي بكر

ورأى الذين أخذت منهم الحماسة للأنصار مأخذها ما ترك كلام أبي بكر في نفوس أهل السقيفة ، وخشوا أن ينفض إجماعهم الأول وأن يغصبهم المهاجرون الأمر ويستأثروا بالسلطان دونهم ، هنالك قام أحدهم فقال : « أما بعد ، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام . وأنتم يا معشر المهاجرين رهط

(١) الشنف : البغض .

منا وقد دَفَّتْ دافَّةً من قومكم وإذا هم يريدون أن يختزلونا^(١) من أصلنا ويغصبونا الأمر « ولم يرض أبو بكر أن يذر مقامه بعد هذا الذي سمع ، فتوجه كره أخرى للأنصار فقال : « أيها الناس ؟ نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة في العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقد منا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) ، فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في النِّىء ، وأنصارنا على العدو . أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً ؛ فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء » .

لن تعرف السرب
هذا الأمر إلا
لهذا الحى من
قريش

كرر أبو بكر هذه الكلمة الأخيرة التى تركت من الأثر في النفوس أول ما قيلت ما توجَّس غلاة الأنصار معه خيفة ، فقام الحباب بن المنذر ابن الجموح فقال :

« يا معشر الأنصار ! املكوا عليكم أمركم ، فإن الناس في فيئكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم . أنتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون . فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقض عليكم أمركم . أبى هؤلاء إلا ما سمعتم . فمنا أمير ومنكم أمير » .

تخرج الموقف
بين المهاجرين
والأنصار

لم يكد الحباب يفرغ من حديثه حتى نهض عمر بن الخطاب ، وكان قد أمسك قبل ذلك عن الكلام طوعاً لأبى بكر ، فقال : « هيهات لا يجتمع اثنان في قَرَن . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبييها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تُتولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مُدَلِّ بباطل ، أو متجانف لإثم ، أو متورط في هلكة ! » .

(١) أن يختزلونا : أن يقتطعوننا ويذهبوا بنا منفردين .

وأجاب الحباب عمر : « يا معشر الأنصار ! املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر . فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور . فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين . أنا جُدَّ يَلُها المحكك وعُدَّ يَتقها المُرَجَّب ! أما والله إن شتم لنعيدنها جُدَّة ! » .

قال عمر وقد سمع لهذا النذير : « إذن يقتلك الله » وأجاب الحباب : « بل إياك يقتل » .

هاتان العبارتان الأخيرتان نذير شر . ولو أن الحباب كانت في جانبه كثرة الأنصار لكان أيسر ما ينشأ عنها أن يضجوا وأن يسرعوا إلى نصرته بالإقبال على مبايعة سعد بن عباد ، وليفعل المهاجرون بعد ذلك ما يشاءون . ولعل طائفة منهم قد تغامزت بذلك أو بشيء يشبهه يكون جواباً لهذا الحوار العنيف بين عمر والحباب . بل لقد ذكر الطبري أن الحباب انتضى سيفه وهو يتكلم ، فضرب عمر يده فسقط السيف ، فأخذه عمر ثم وثب على سعد بن عباد . على أن أبا عبيدة بن الجراح تدخل في الأمر وكان قد لزم الصمت إلى تلك اللحظة ، فقال موجهاً حديثه إلى أهل المدينة : « يا معشر الأنصار ! كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغير » .

وانتهز بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير من زعماء الخزرج هذه الكامة الحكيمة من أبي عبيدة فقام بين قومه وقال :

« إنا والله وإن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا . فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي من الدنيا عَرَضاً ؛ فإن الله وليّ النعمة علينا بذلك . ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قریش وقومه أحق به وأولى . وإيمُ الله لا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبداً . فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » .

وأجال أبو بكر بصره في الأنصار ليرى ما تركت مقالة بشير من الأثر

تدخل أبي عبيدة
لتسكين الحدة

مقالة بشير بن
النعمان الخزرجي

فيهم ، فآلئى الأوس وكأنما يهمس بعضهم فى أذن بعض وآلئى بنى الخزرج يبدو على الكثير منهم أن قول بشير أقنعهم ، فأيقن أن الأمر قد استوى وأن اللحظة لحظة الفصل فلا ينبغى أن ترك . وإذ كان جالساً بين عمر وأبى عبيدة فقد أخذ بيد كل منهما ، وقال يدعو الأنصار إلى الجماعة ويحذرهم الفرقة ثم أردف : « هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شتم فبايعوا » .

هنالك كثر اللفظ وخيف الاختلاف . أبايعون عمر وهو على ما هو عليه من شدة ، وهو مع ذلك وزير النبى وأبو حفصة أم المؤمنين ! أم يبايعون أبا عبيدة ولم يكن له إلى يومئذ فى المسلمين ما كان لعمر من كلمة ومقام ! لكن عمر لم يدع لهذا الخلاف أن تنبت شجرته ؛ فقد نادى بصوته الجمهورى : « ابسط يدك يا أبا بكر » . وبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول : « ألم يأمر النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ! فأنت خليفة الله . فنحن نبايعك لنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » .

عمر وأبو عبيدة
يبايعان أبا بكر

وبايع أبو عبيدة وهو يقول : « إنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين . فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ! » وإن عمر وأبا عبيدة يبايعان أبا بكر إذ أسرع بشير بن سعد فبايعهم .

بشير بن سعد
يبايع أبا بكر

عند ذلك ناداه الحُبَّاب بن المنذر : يا بشير بن سعد ، عقلت . ما أحوجك إلى ما صنعت ! أنفست الإمارة على ابن عمك ! (يقصد ابن عبادة) .

قال بشير : لا والله ! ولكى كرهت أن أنزع قومًا حقًا جعله الله لهم .

والتفت أسيد بن حضير زعيم الأوس إلى قومه وهم ينظرون إلى ما صنع بشير بن سعد وقال لهم : « والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبًا أبدًا . قوموا فبايعوا أبا بكر » . وقام الأوس فبايعوا أبا بكر . ثم قام من الخزرج من اطمأنوا إلى كلام بشير يبايعون مسرعين ، حتى ضاق بهم المكان من السقيفة . وكاد الناس فى تكاثرهم على البيعة يطئون سعد بن عبادة . فقال ناس من أصحابه :

الأوس والخزرج
يبايعون بيعة
السقيفة

سعد بن عباد
يأبى أن يبايع

اتقوا سعداً لا تطئوه . قال عمر : اقتلوه قتله الله ! ووجه إلى سعد كلاماً عنيفاً . فقال له أبو بكر : « مهلاً يا عمر ! الرفق ها هنا أبلغ » . وحمل سعداً أصحابه فأدخلوه داره حيث بقى أياماً ثم قيل له : « أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك » . وأبى سعد أن يبايع وقال : « أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتي من نبل ، وأخضب سنان رمحي ، وأضربكم بسيفي ما مآكته يدي ، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي ، فلا أفعل » . فلما اتصل هذا الحديث بأبى بكر قال له عمر : « لا تدعه حتى يبايع » . وخالف بشير رأى عمر فقال : « إنه قد لجج وأبى ، وليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه ؛ فليس تركه بضاركم ، إنما هو رجل واحد » .

وسمع أبو بكر إلى رأى بشير وأجازه ، وتركوا سعداً ، فكان لا يصلّى بصلاتهم ، ويحج ولا يفيض بإفاضتهم . وأقام على ذلك حتى مات أبو بكر .

تمت بيعة أبى بكر بالسقيفة وجثمان النبي لا يزال فى بيته من حوله أهله : على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب ومن اشترك معهم فى جهازه ، وعلى مقربة منهم فى المسجد طائفة من المهاجرين . وتمت هذه البيعة كما رأيت فى أحوال جعلت بعض الرواة ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه قال : إنها كانت فلتة . فأما غير هؤلاء الرواة فيرى أن أبى بكر وعمر وأبا عبيدة ذهبوا على اتفاق بينهم أن يكون الأمر لأبى بكر . وأما هاتين الروايتين فالذى لا مزية فيه أن ما تم فى السقيفة قد وفى الإسلام الناشئ فتنة ليس يعلم إلا الله ما كان يحدث فيها ، وقد مهّد للقضاء على كل خلاف بين المسلمين ، كما مهّد للسياسة التى رسمها الرسول أن تنجح النجاح الذى مهّد للإمبراطورية الإسلامية من بعد ، والذى أذاع دين الله بفضل منه جل شأنه فى مشارق الأرض ومغاربها .

أثر بيعة السقيفة

ومن يوم السقيفة لم يبق للأنصار فى ولاية أمر المسلمين مطمع أو مأرب . فقد كانت بيعة عمر بن الخطاب ، ثم بيعة عثمان بن عفان ، ثم كان الخلاف بين على ومعاوية ، ولم يكن للأنصار من ذلك كله إلا نصيب سائر العرب .

وكأنما آمنوا بما قال أبو بكر من أن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش . بل كفاهم من بعد ذلك أن عاشوا فى كنف المهاجرين مطمئنين إلى وصية رسول الله فى مرضه الأخير حين قال : « يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتى التى أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن سيئهم » .

لم يلبث أبو بكر وسائر من كانوا بالسقيفة حين تمت البيعة أن عادوا إلى المسجد والوقت مساء والمسلمون مع ذلك يتلقفون الأنباء من بيت عائشة عن جهاز الرسول . وفى الغد من بعد ذلك اليوم جلس أبو بكر فى المسجد ، فقام عمر يعتذر عما تحدث به إلى المسلمين بالأمس من أن النبى لم يمت فقال : « إني قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدت فى كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهدته إلى رسول الله ، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا . وإن الله قد أبى فيكم كتابه الذى هدى به رسوله . فإن اعتصمتم به هداكم الله كما هداه به . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوا » . فبايع الناس جميعاً بيعة العامة بعد بيعة الخاصة بالسقيفة .

بيعة العامة

وقام أبو بكر بعد أن تمت البيعة وألقى فى الناس خطاباً كان أول حديث له فى خلافته ، ثم كان آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب . قال رضى الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد ، أيها الناس ! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله . والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله »

أول خطاب
للخليفة الأول

هل تخلف عن
بيعة أبي بكر أحد
من المهاجرين؟

المتخلفون في
رواية اليعقوبي

رواية الحواريين
أبي بكر والعباس
ابن عبد المطلب

أفكانت بيعة العامة هذه بيعة إجماع من المسلمين لم يتخلف عنها أحد ما تخلف سعد بن عباد عن بيعة الخاصة بالسقيفة ؟ المشهور أن طائفة من كبار المهاجرين تخلفوا عنها ، وأن عليّ بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب من بني هاشم كانا من المتخلفين . ذكر اليعقوبي أنه قد « تخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع عليّ بن أبي طالب ، منهم العباس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، والزبير بن العوام بن العاص ، وخالد بن سعيد ، والمقداد بن عمرو ، وسامان الفارسي ، وأبو ذرّ الغفاري ، وعمار بن ياسر ، والبراء بن عازب ، وأبيّ بن كعب » وأن أبا بكر شاور عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة في أمرهم ، فأشاروا عليه أن ياتي العباس بن عبد المطلب وأن يجعل له في الأمر نصيباً يكون له ولعقبه من بعده ، فيقع الخلاف بذلك بينه وبين ابن أخيه عليّ بن أبي طالب ، فيكون ذلك حجة لأبي بكر وأصحابه على عليّ . وقد فعل أبو بكر ما أشاروا به ، وقال للعباس في حديث طويل : « ولقد جئناك ونحن نريد أن يكون لك في هذا الأمر نصيب يكون لك ويكون لمن بعدك من عقبك إذ كنت عم رسول الله » . ورد العباس هذا العرض بعد حديث أورده اليعقوبي كذلك : « إن كان هذا الأمر لنا فلا نرضى ببعضه دون بعض » .

رواية الاجتماع
في دار فاطمة
بنت الرسول

وفي رواية ذكرها اليعقوبي ، وذكرها غيره من المؤرخين ، ولا يزال لها الشهرة ، أن جماعة من المهاجرين والأنصار اجتمعوا مع عليّ بن أبي طالب في دار فاطمة بنت رسول الله يدعون إلى مبايعته ، وبينهم خالد بن سعيد يقول : « فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك » . وبلغ أبا بكر وعمر اجتماعهم بدار فاطمة ، فأتيا في جماعة حتى هجموا الدار . وخرج عليّ ومعه السيف ، فلقى عمر فصارع فصصره وكسر سيفه ودخلوا الدار . فخرجت فاطمة وقالت : « والله لتخرجنّ أو لأكشفنّ شعري ولأعجنّ إلى الله » ، فخرجوا وخرج من كان في الدار ، وأقام القوم أياماً ثم جعل الواحد بعد الواحد يبايع ، ولم يبايع عليّ إلا بعد وفاة فاطمة ، أي بعد ستة أشهر ، وقيل في رواية إنه بايع بعد أربعين يوماً . ويروى أن عمر بن الخطاب جمع الخطب حول دار فاطمة وأراد

أن يُحرقها أو يبايع عليّ أبا بكر .

وأشهر الروايات في تخلف عليّ وبنى هاشم وأكثرها ذبوعاً ما أورده ابن قتيبة في «الإمامة والسياسة» وما شاكلة من روايات من عاصره أو تأخر عنه ، وهي تجرى بأن عمر بن الخطاب ذهب في عصابة إلى بنى هاشم بعد أن تمت البيعة لأبي بكر ، وطلب إليهم أن يخرجوا فيبايعوا كما بايع الناس ، وكان بنو هاشم في بيت عليّ . وقد أبوا وأبى من كان معهم أن يجيبوا دعوة عمر ، بل خرج الزبير بن العوام إلى عمر وأصحابه بالسيف . فقال عمر لأصحابه : عليكم بالرجل فخذوه ، فأخذوا السيف من يده ، فانطلق فبايع . وقيل لعليّ بن أبي طالب : بايع أبا بكر ، فقال : « لا أبايعكم وأنا أحق بهذا الأمر منكم وأنتم أولى بالبيعة لي . أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليه بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً . أستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم ليمّا كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة وسلّموا إليكم الإمارة ! فإذا احتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار . نحن أولى برسول الله حيّاً وميتاً ، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون » .

أشهر الروايات
في تخلف عليّ
وبنى هاشم في
البيعة

قال عمر : « إنك لست متروكاً حتى تبايع ! »

وأجاب عليّ في حرارة وقوة : « احسبُ حلباً لك شطره ، وشُدّ له اليوم يردده عليك غداً . والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه » .

وخشى أبو بكر أن يبلغ الحوار بهما إلى العنف ، فتدخل بين الرجلين وقال : « فإن لم تبايع فلا أكرهك » .

وتوجه أبو عبيدة بن الجراح إلى عليّ متلطفاً فقال : « يا ابن عم ، إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور . ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشدّ احتمالا واستطلاعاً ، فسلّم لأبي بكر هذا الأمر ؛ فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليف وحقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك » .

هنا ثار ثائر على وقال : « الله الله يا معشر المهاجرين ! لا تُخرجوا سلطان محمد في العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، وتدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه . فوالله ، يا معشر المهاجرين ، لنحن أحق الناس به لأننا أهل البيت . ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية . والله إنه لفينا ، فلا تتسبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعدا » .

وكان بشير بن سعد حاضراً هذا القول فيما يروى رواته ، فلما سمعه قال : « لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علي قبل بيعتها لأبى بكر ما اختلفت عليك » .

خرج عليّ مُحْنَنَقًا غاضبًا ، فذهب إلى فاطمة فخرج بها من دارها فحملها على دابة ليلاً فأخذ يطوف بها مجالس الأنصار تسألهم النصرة ، فكانوا يقولون : « يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل . ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به » .
ويجيبهم عليّ وقد زاده هذا الجواب غضبًا :

« أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه ! » . وترد فاطمة : « ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له . ولقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه وطالبهم » .

إنكار هذه
الرواية والقول
بأن أبا بكر
بويع بإجماع

هذا هو المشهور عن موقف عليّ بن أبي طالب وأصحابه منبيعة أبي بكر . وينكر بعض المؤرخين هذا المشهور من تخلف بنى هاشم أو غيرهم من المهاجرين إنكاراً صريحاً ! ويدكرون أن أبا بكر بويع بعد السقيفة بإجماع لم يتوقعه أحد . روى الطبري حديثاً بإسناده أن سعيد بن زيد سئل : أشهدت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قيل : فتي بويع أبو بكر ؟ قال : يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة . قيل . أخالف عليه أحد ؟ قال : لا ، إلا مرتد أو من قد كاد أن يرتد لولا أن الله عز وجل تنقذهم من الأنصار . قيل : فهل قعد أحد من المهاجرين ؟ قال : لا ، تنابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوه .

الصديق أبو بكر

وفي رواية أن عليّ بن أبي طالب كان في بيته إذ جاءه من أنبأه أن أبا بكر قد جلس للبيعة ، فخرج في قميص له ما عليه إزار ولا رداء عَجِلًا كراهية أن يبطل عنها حتى بايعه ، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأثاه فتجلله ولزم مجلسه .

رواية وسط بين
الروايتين

وتجربى بعض الروايات في أمر عليّ وبيعته مجرى وسطًا بين ما قدّمنا . من ذلك ما قيل من أن أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير ، فدعا به فجاء فقال له : ابن عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريّه ، أردت أن تشق عصا المسلمين ! فقال : لا تريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه . ثم نظر في وجوه القوم فلم ير عليًا ، فدعا به فجاء فقال له : ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين فقال : لا تريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه .

ما يقال عن
موقف بنى أمية

وتذهب طائفة من الروايات إلى أن بنى أمية هم الذين أرادوا أن يثيروا الثائرة بين بنى هاشم وأبي بكر . قيل لما اجتمع الناس علىبيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول : والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلادّم . يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم ؟ ! أين المستضعفان ! أين الأذلاءن عليّ والعباس ! وأنشد يتمثل :

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلاءن عيّر الحى والوتيد
هذا على الخسف محبوس برُمته وذا يُشجّ فلا يبكى له أحد

على أن الروايات التى ذكرت هذا الحديث لأبى سفيان تكاد تُجمع على أن عليًا أبى أن يتابعه ، وأنه قال له : « إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة . وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرًّا » ، أو قال له : « يا أبا سفيان ، طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئًا . إنى وجدت أبا بكر لها أهلا » .

* * *

والذين ينفون تخلف عليّ عن البيعة يذهبون إلى أن روايات تخلفه قد وضعت من بعد ، ويرجحون أنها وضعت في عهد العباسيين لغايات سياسية ، ويقولون إنها استندت إلى واقعة متفق على صحتها ، ولكنها لا تتصل بالبيعة في

مطالبة العباس
وفاطمة بميراثهما
من النبي

قابل ولا كثير . هذه الواقعة أن فاطمة ابنة النبي والعباس عمه أتيا أبا بكر بعد استخلافه يطلبان ميراثهما من رسول الله في أرض فدك وفي سهمه من خيبر . فقال لهما أبو بكر : « أما إني سمعت رسول الله يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة . إنما يأكل أهل محمد في هذا المال . وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » . فغضبت فاطمة لذلك وهجرت أبا بكر فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت ، فدفنها على ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر . وقد مكثت فاطمة ستة أشهر بعد وفاة أبيها . وكان على يغضب أبا بكر غضباً لها . فلما ماتت مال إلى مصالحته وصالحه .

هذا حديث فاطمة وعلي ومقاطعتهم أبا بكر بعد بيعته . أما ما يضاف إلى هذا الحديث من أن علياً امتنع من البيعة إلى أن ماتت فاطمة ، وأن أبا بكر ذهب بعد ذلك إليه في منزله فألقاه في بيت بني هاشم ، وأن علياً قام حينذاك وقال : إنه لم يمنعنا من أن نبايعك إلا أنا كنا نرى لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا ، وأن أبا بكر ذكر في جوابه : « والله ما ألوت في هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم غير الخير » -- أما ما يضاف من ذلك كله فيردّه من ينفون تخلف علي عن البيعة بأن الحديث لم يتخط هذه الأموال ، وأن فاطمة والعباس ما كانا ليطالبا أبا بكر بها قبل أن يبايعه المسلمون جميعاً بالخلافة ، لأنه لم يكن له قبل ذلك في أمرها رأى .

يرجح أكثر الذين ينفون التخلف عن البيعة أن روايات هذا التخلف وضعت في عهد العباسيين لغايات سياسية ؛ أما سائرهم فيرجحون أنها وضعت قبل ذلك ، ومنذ اختلف بنو هاشم وبنو أمية على الأمر إبان حروب علي ومعاوية .

وهؤلاء يقولون إن امتداد الفتح إلى العراق وفارس أدّى بجماعة من الفرس لا بتداع هذه الأقاويل . وقد استجمعت هذه الجماعة من الفرس بعد انتصار الأمويين وأقامت في استجمامها تتحين الفرص حتى تهيأت لأبي مسلم الخراساني ، فكان من أمره وأمر الباسيين ما كان .

فأما الذين يقولون بتخلف علي وبني هاشم عن البيعة أربعين يوماً أو ستة

حجة القائلين
بتخلف على ومن
معه عن البيعة

أشهر ، وقولهم هو المشهور كما قدّمنا ، فيستندون إلى ما سبق من الروايات ،
وإلى أن عليّاً والذين تخلفوا معه لم يشتركوا في جيش أسامة ، مع ما كان لعليّ
من شجاعة وبأس في القتال اشتهر بهما في غزوات النبي واشتهر بهما من بعد
في جميع أدوار حياته . وهم يردّون قول الذين ينفون التخلف عن البيعة بأن
حجة المهاجرين على الأنصار في ولاية الأمر كانت أنهم أدنى صلة بالنبي ، وأن
العرب لا تعرف إلا قريشاً لأنهم سدة الكعبة والذين شخص إليهم أبصار
الناس جميعاً من أهل شبه الجزيرة . وهذه الحجة هي بذاتها سند بنى هاشم
في التقدم على غيرهم لخلافة رسول الله ، فلا غرو أن يستمسكوا بها وأن يؤدي
ذلك إلى تخلفهم عن بيعة أبي بكر . وذلك ما فعل عليّ ، وتلك كانت حجته
وحجّة أصحابه . فإذا هم رضوا البيعة من بعد فإنما فعلوا حتى لا تكون فتنة تفسد
إجماع المسلمين ، وبخاصة بعد أن ظهرت في العرب الردة ، وبعد أن انتقض
العرب على سلطان المدينة انتقاضاً أوشك أن يهدد انتشار الدين الذي جاء به
محمد من عند الله .

لم يثر أحد
بخلافة أبي بكر

على رغم هذا الخلاف بين الرواة في أمر البيعة واشتراك بنى هاشم وسائر
المهاجرين فيها أو تخلف جماعة منهم عنها ، فالاتفاق تام على أن أبا بكر
ولى الأمر بعد الرسول غير منازع منذ اليوم الأول . ولم يذكر أحد من القائلين
بالتخلف عن بيعته أن واحداً من بنى هاشم أو غيرهم حاول أن يثير ثائرة
مسلّحة ، أو همّ بمناهضة الخليفة الأول . . . أفكان ذلك لمكانة أبي بكر
من رسول الله ، حتى قال : لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر
خليلاً ، أم كان لصحبته رسول الله في الهجرة ولما تحلّى به من فضائل وما
كان له في نصر الرسول من مواقف ، أم كان لأن رسول الله أنابه عنه في
الصلاة أثناء مرضه الأخير ؟

أيّاً كان السبب الذي دعا المسلمين لبيعة أبي بكر بالخلافة يوم وفاة النبي ،
فالثابت أنه لم يناهضه أحد ولم ينضم إلى من تخلف عن بيعته أحد . وذلك
ينهض دليلاً على أن المسلمين الأولين تصوروا الخلافة بغير ما تصورها خلفهم
من بعد منذ الدولة الأموية ، وأنهم كانوا أدنى في تصورها إلى معاني الحياة
العربية البحتة القريية منهم ، والتي كانت معروفة في أنحاء شبه الجزيرة قبل مبعث

النبي عليه السلام . فلما اتسعت رقعة الفتح الإسلامي واختلط العرب بغيرهم من أهل الأمم التي فتحوا ، تغير تصور المسلمين لفكرة الخلافة تبعاً لهذا الاختلاط ولهذا السعة في المملكة الإسلامية .

الخلافة في
المصور العربي

تصور المسلمون الخلافة تصوراً عربياً بحتاً . فالتفق عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُوصَ بالخلافة لأحد . وما حدث يوم الوفاة من تنازع الأنصار والمهاجرين في سقيفة بني ساعدة ، وما لعله حدث من خلاف بين بني هاشم وسائر المهاجرين بعد بيعة العامة ، لا يذر محلاً للشبهة في أن أهل المدينة اجتهدوا في أمر الخلافة عند اختيار الخليفة الأول ، وأنه لم يكن لذلك سند في كتاب ولا سنة ؛ فاختر المقيمون بالمدينة من رأوه أصح المسلمين لتولي أمورهم . ولو أن الأمر امتد إلى ما وراء المدينة من قبائل العرب لكان الشأن غير ما كان ، ولا كانت بيعة أبي بكر فلتة موفقة ، على حد تعبير عمر بن الخطاب .

ولم تكن السنة التي اتبعت في اختيار أبي بكر هي التي اتبعت في اختيار الخليفين من بعده : عمر وعثمان . فقد أوصى أبو بكر قبل وفاته باختيار عمر ابن الخطاب ، ثم جعل عمر الخلافة من بعده في ستة ذكركم بأسمائهم وترك لهم أمر اختيار أحدهم . فلما كان مقتل عثمان وما حدث على أثره من خلاف بين علي ومعاوية ، استتب الأمر للأمويين يتوارثه الأبناء عن الآباء . أما تلك رواية الحوادث فلا محل للقول بأن لولاية الأمر في الإسلام نظاماً مقررأ ، وإنما هو اجتهد أممته الأحداث في أحوال الجماعة الإسلامية المتغيرة وأملت على صور مختلفة تلائم تغير هذه الأحوال .

نظام الحكم
في الإسلام

وكان النظام الذي سار عليه أبو بكر عربياً بحتاً كذلك . وكان لاتصاله الزمني الوثيق بعهد النبي ، ولاتصال الصديق نفسه بالرسول وتأثره به على النحو الذي سبق تصويره ، أثر فيه لم يلبث أن تغير من بعد بحكم الأحوال وبحكم امتداد الفتح الإسلامي . وقد ظل هذا التغير في نظام الحكم يجاري البيئة التي يقوم فيها ، حتى لم يكن ثمة وجه للشبه بين العهد العباسي في أوج مجده ، وعهد الخليفة الأول أبي بكر ولا بينه وبين عهود عمر وعثمان وعلي .

وعهد أبي بكر يكاد يكون فريداً في نوعه ؛ فهو الاتصال الطبيعي لعهد

الرسول في السياسة الدينية ، وفي السياسة الزمنية . صحيح أن الدين كان قد كمل ، ولم يبق لأحد أن يغير فيه أو ينسخ منه . لكن العرب ما لبثت حين مات النبي أن فكَّرت في الردة ، وأن ارتد الكثير من قبائلها ؛ فلم يكن لأبي بكر بدءٌ من أن يضع لتلافي هذا الأمر الخطير خطةً ينفذها . وكان النبي قد بدأ مع الدول التي تجاوره سياسة تتصل بدعوته ؛ فلم يكن لأبي بكر مفرٌّ من متابعتها .

كيف فعل في هذه وفي تلك ؟ ذلك ما سنفصله من بعدُ .

الفصل الثالث

العرب حين وفاة النبي

بينما يختلف أهل المدينة ثم يتفقون علىبيعة أبي بكر إذا النعاة يسرعون إلى القبائل يحملون إليها النبأ بوفاة النبي . والواقع أنه لم يَسِرْ نبأ في بلاد العرب بسرعة البرق ما سار النبأ بوفاة رسول الله . ولم يلبث العرب حين ذاع النبأ فيهم أن اشرأبت أعناقهم من كل صوب يريدون أن يلقوا عن عواتقهم سلطان المدينة ، وأن يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل مبعث محمد إليهم وانتشار أمره فيهم . لذلك ارتد العرب في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، وشرأبت اليهودية والنصرانية ، وكثر أعداء المسلمين ؛ فأصبح هؤلاء لفقد نبيهم كالغنىم في الليلة المطيرة الشاتية .

لقد رأيت ما نجم بالمدينة بين المهاجرين والأنصار من نزاع على خلافة الرسول . ولولا حكمة أبي بكر وعمر وما أَرَادَهُ الله لدينه من النصر لما انحسم النزاع كما انحسم ، ولما انتهى إلى النتيجة الموفقة التي انتهى إليها .

ولم يكن ما حدث بالمدينة بالشئ المذكور إذا قيس بما حدث بغيرها ؛ فقد هم أهل مكة أنفسهم بالردة عن الإسلام حتى خافهم عَتَّاب بن أُسَيْد عامل رسول الله على أمّ القرى فتواري منهم . ولولا أن قام فيهم سُهَيْل بن عمرو فقال لهم بعد أن ذكر وفاة النبي : « إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه » لترددوا في موقفهم . على أن سهيلاً أضاف إلى هذا الإرهاب ترغيباً كان له أثره . أضاف : « والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ولعل هذه الكلمة كانت أقوى أثراً في نفوسهم من التهديد ، وكانت لذلك سبب رجوعهم عن ردّتهم . فقد رأوا الأمر بالمدينة آلاً إلى أبي بكر وإلى أبناء مكة من قريش ، فاطمأنوا إلى ما ذكره سهيل من حديث رسول الله ، واستمسكوا بالإسلام وأقاموا عليه .

وهَمَّتْ ثَقِيفٌ بالطائف أن ترتد ، فقام عثمان بن أبي العاص عامل النبي

عليهم فقال : « يا أبناء ثقيف . كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من ارتد » .
 وذكرت ثقيف موقف النبي منها بعد حُنين ، وذكرت ما بينها وبين مكة
 من أواصر النسب والقربى ، فاستمسكت بالإسلام . ولعل قيام أبي بكر بالخلافة
 ونهوض أهل مكة إلى جانبه في أمرها . قد كان له من الأثر في ثقيف مثل
 ما كان له في أمّ القرى .

موقف ثقيف
 بالطائف

كذلك ثبتت القبائل المقيمة بين مكة والمدينة والطائف على إسلامها .
 ثبتت عليه مُزَيِّنَةُ وَغِفَّارٌ وَجُهَيْنَةُ وَبَلَى وَأَشْجَعُ وَأَسْلَمُ وَخَزَاعَةُ . أما سائر
 العرب فاضطرب أمرهم ، فارتد منهم من كان عهدهم بالإسلام قريباً ، ومن لم
 تكن نفوسهم قد أُشْرِبَتْ تعاليمه ، وتبلبلت عقائد سائرهم ، ثم كان خيبرهم من
 بقى على الإسلام ولم يرض مع ذلك عن بقاء السلطان لأهل المدينة مهاجرينهم
 والأنصار . وهؤلاء رأوا في أداء الزكاة جزيةً تفرضها المدينة عليهم ، وتأبأها
 نفوسهم التي ألقت الاستقلال عن كل سلطان . وهم إنما أدّوها منذ أسلموا إلى
 الرسول الذي يوحى إليه ، والذي اصطفاه الله من بين عباده نبياً . أمّا وقد
 اختار النبي جوار ربه ، فأهل المدينة جميعاً لا يفضلونهم في شيء ، وليس لهم
 ما كان للنبي من حق في المطالبة بها .

موقف سائر
 العرب

كانت القبائل التي أبت إيتاء الزكاة هي القبائل القريبة من المدينة من
 عَبَسَ وَذُبْيَانٍ وَمَنْ انْضَمَّ إِلَيْهِمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَمَنْ غَطَفَانُ وَفَزَارَةُ . أما الذين
 قَصَصَتْ ديارهم عن المدينة فكانوا أكثر إلحاحاً في ردتهم ، وكان أكثرهم
 يتابعون رجالاً منهم ادّعَوْا النبوة ، كطُلَيْحَةَ فِي بَنِي أَسَدَ ، وَسَجَّاحَ فِي بَنِي
 تَمِيمَ ، وَمُسَيَّلِمَةَ فِي الْيَمَامَةِ ، وَذِي التَّاجِ لَقِيْطَ بْنَ مَالِكٍ فِي عُمَيْيَانَ . هذا إلى
 ما كان من اتباع طائفة كبيرة من أهل اليمن للأسود العنسي ، ومتابعتهم
 إياه إلى حين مقتله ، ثم إمعانهم بعد ذلك في الفتنة والانتقاض إلى آخر
 حروب الردة .

وليست ترجع هذه الصورة في انتقاض الحواضر والبادي على سلطان قریش
 وفي ردتها عن الإسلام إلى موقعها الجغرافي من المدينة وكفى ، بل ترجع كذلك

الموامل التي
 أدت إلى
 الانتقاض والردة

إلى عوامل عربية وأخرى أجنبية ، بدت آثارها وبرزت في الفترة الأخيرة من حياة الرسول .

فالإسلام لم ينتشر ولم يستقر في الأصقاع النائية عن مكة والمدينة من شبه الجزيرة إلا بعد فتح مكة وغزاة حنين وحصار الطائف . أما إلى ذلك العهد فقد ظل نشاط رسول الله محصوراً في المنطقة المحيطة بالمدينتين المقدستين . لم يخرج الإسلام عن حدود مكة إلا قبيل الهجرة إلى يثرب . ومن بعد الهجرة ظلت جهود النبي سنوات متعاقبة موجهة إلى كفالة الحرية للدعوة الإسلامية في موطنها الجديد . فلما قضى المسلمون على سلطان اليهود بيثرب ، ثم لما فتحوا مكة ، بدأ العرب يدينون بدين الحق ، وأقبلت الوفود تترى من أنحاء شبه الجزيرة تعلن إسلامها ، وجعل النبي يبعث إليهم عمالاً يفقهونهم في الدين ويحبون منهم الصدقات .

طبيعياً ألا يتأصل الدين في نفوس هذه القبائل ما تأصل في نفوس أهل مكة والمدينة ، وفي نفوس العرب القرييين منهما . لقد اقتضى استقرار الإسلام في منبته عشرين سنة كاملة ، جاهده خصومه أثناءها أشد الجهاد ، وناصبوه عداوة اتصت على السنين ، ثم كان من أثرها أن انتصر على خصومه ، وأن ثبتت تعاليمه في نفوس العرب الذين اتصلوا برسول الله وبأصحابه من أهل مكة والطائف والمدينة وما جاورها من البلاد والقبائل . أمّا من نأى عن هذه البقعة التي شهدت نشاط محمد سنوات تباعاً ، داعياً إلى الله وإلى دين الله ، فلم يتأثر بتعاليم هذا الدين الجديد ما تأثرت ؛ ولذلك انتقض على الدين وعلى أهله ، وحاول الرجوع إلى استقلاله السياسي وإلى استقلاله الديني .

ولم تكن العوامل الأجنبية أقل أثراً في هذا الانتقاض من العامل الجغرافي . العوامل الأجنبية لقد كانت مكة والمدينة وما جاورهما من القبائل بعيدة عن الإذعان لنير الفرس والروم المتحكمين يومذاك في شئون العالم . أمّا شمال شبه الجزيرة المتصل بالشام ، وجنوب شبه الجزيرة المتصل بالفرس والقريب من الحبشة ، فكانا متأثرين بسلطان هاتين الإمبراطوريتين ، بل كانت فيهما مناطق نفوذ لهما ، وإمارات تابعة لحكهما . فلا عجب إذن أن يحاول أصحاب هذا النفوذ وهذا

الحكم مناوأة الدين الحديد بشتى الأساليب : بالدعاية السياسية للاستقلال الذاتي ، وبالدعاية الدينية للمسيحية تارة ، ولليهودية ثانية ، وللوثنية العربية تارة ثالثة .

كان نشاط هذه العوامل كلها واضح الأثر لأول ما انتشر الخبر بوفاة النبي ؛ وكان هذا النشاط بادياً في شيء من الحذر قبل وفاته . وسترى من أثر ذلك في غضون هذا الكتاب ما لا يدع لديك مجالاً للشك فيه . وقد أقامت هذه العوامل الجغرافية والأجنبية لنفسها منطقاً يغري بالتصديق بها والانضواء تحت لوائها ، وهذا المنطق الذي أذاعه الدعاة بين مختلف القبائل هو الذي دعاهم للانتفاض والفتنة .

قال الذين أبوا أداء الزكاة فيما بينهم : إذا كان المهاجرون والأنصار قد اختلفوا في ولاية الأمر ، وكان رسول الله قد قبض ولم يوص بمن يخافه ، فخليق بنا أن نحفظ باستقلالنا احتفاظاً بالإسلام ديننا ، وأن يكون لنا ما جعله المهاجرون والأنصار لأنفسهم من حق في اختيار من يقوم مقام رسول الله فينا . أمّا أن ندعن لأبي بكر أو لغير أبي بكر فليس ذلك من الدين ولا من كتاب الله في شيء ، وإنما تجب الطاعة علينا لمن نؤليه نحن أمورنا .

منطق المرتدين
والذين أبوا
أداء الزكاة

ولعل الذين حدثتهم أنفسهم بمثل ذلك أن يكون لهم من العذر عنه أن رسول الله أقر لمدن العرب ولقبائلها حظاً من الاستقلال الذاتي طوع لأهلها أن يفكروا في استرداد هذا الاستقلال كاملاً بعد وفاته . فهو قد أبقى بدهان عامل الفرس على أرض اليمن في ملكه حين أعلن بدهان إسلامه وألقى نير المجوس . وهو قد ترك لسائر الأمراء ، في البحرين وفي حضرموت وفي غيرها ، ما كان لهم من سلطان بعد أن آمنوا بالله ورسوله . وكان أمره أن توزع الزكاة التي تجبي من بعض هذه الأنحاء على الفقراء من أهلها . ولم يفرض الإسلام الجزية إلا على أهل الكتاب . والعرب مسلمون كأهل المدينة ، فما لهم يؤدّون الزكاة لصاحب السلطان في المدينة !! وما لهم لا تبقى صلتهم بالمدينة صلة وحدة في الدين لا شأن لها بسياسة الحكم !! وإذا كان لأهل المدينة من السابقة في الإسلام ما يجعلهم أدرى بفروضه وتعاليمه ، فحسبهم أن يبعثوا إلى سائر

البلاد والقبائل من يفقههم في الدين على ما كان يصنع رسول الله، وأن يكونوا وإياهم أشبه شيء بعصبة أم إسلامية . لا تبغى إحداها على الأخرى ، ولا تلتمس الوسيلة للاعتداء على استقلالها .

دار هذا التفكير بخواطر بعض القبائل القريبة من المدينة ومكة والطائف . أما أهل اليمن وما حاذاها من جنوب شبه الجزيرة ، وأما سائر الأصقاع البعيدة عن منزل الإسلام ، فإنما أسلم الكثير من أهلها لكباراً لسلطان محمد الذي امتد في سنوات قليلة حتى جاور الروم والفرس في ملكيهما ، فكان امتداده السريع معجزة بهرت الأنظار ، وأخذت بالألباب ، وجعلت الوفود من كل القبائل تُقبل إلى المدينة ترى معلنةً إلى النبي إسلامها وإسلام القبائل التي تنتمي إليها . أمّا وقد ذاع فيها النبأ بوفاة النبي فلا عجب أن يتزلزل إيمانها وأن ترتد عن دين طراً عليها ، بل لا عجب أن تثور بهذا الدين وأن تتابع الذين يُدّعون فيها نار الفتنة باسم العصبية والنصرة العربية .

وقد خُدع هؤلاء أوّل ما قام فيهم من يدعى النبوة منهم ويزعم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد . خُدعوا عن الإسلام بعد قليل من إقبالهم عليه ؛ بل خُدع بعضهم عنه والنبي ما يزال بين أظهر العرب لم يختَر جوار ربه . سمع كثير من بني أسد لطلحة بن عديّ النبوة ، وأيدّ زعمه بالتنبؤ بموقع الماء في يوم كان قومه فيه يسرون ويكاد الظمأ يقتلهم . وسمع كثير من بني حنيفة لمسيلمة حين بعث اثنين من رجاله إلى محمد يبلغانه أن مسيلمة نبيٌّ مثله ، وأن له نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قریشاً قوم لا يعدلون . وسمع أهل اليمن للأسود العنسيّ ذي الحمار حين تولّى أمر اليمن وطردها عمّال النبي . على أن رسول الله لم يُعبر هؤلاء المدعين كثيراً من عنايته ، ثقة منه بأن قوة الحق في دين الله كفيّلة بإظهار كذبهم ، وبأن إيمان المؤمنين بالله كفيّلة بالقضاء عليهم .

الأسود العنسي
وتنبؤ

وكان هؤلاء المدّعون للنبوة يشعرون بموقفهم ذاك من رسول الله ، فلم يثر به أحد منهم ثورة الأسود العنسيّ ذي الحمار . فقد قيل إنه تنبأ وظهر أمره وقتل في عهد الرسول . على أن جماعة من المؤرّخين يذكرون أنه سلك مسلك زميليه فصبر حتى قبض النبي ، ثم قام بالثورة على الإسلام . يقول اليعقوبيّ

في تاريخه : « أما الأسود بن عنزة العنسيّ فقد كان تنبأ على عهد رسول الله . فلما بويج أبو بكر ظهر أمره واتّبعه على ذلك قوم ، فقتله قيس بن مكشوح السُرّاديّ وفيروز الديلميّ ، دخلا عليه منزله وهو سكران فقتلاه » . ويقول الطبري في إحدى الروايات : « فأولّ حرب كانت في الردّة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كانت حرب العنسيّ . وكانت حرب العنسي باليمن » .

لم تكن شبه الجزيرة إذاً هادئة مطمئنة في العهد الأخير من حياة الرسول ، ولم تكن كلها قد سكنت واستقرت تحت لواء واحد ودين واحد . بل كانت أسباب الفتنة تضطرم تحت ثراها ، ونذُرُ الثورة تتبدّى في جوها ؛ وكانت بوادر الانتفاض في الشمال الشرقي وفي الجنوب كله تتأجج ناراً لا يسكّن من انتشارها إلا القوة الروحية التي أمدّها الله بها رسوله ، وإلا النصر الذي كان يلزم أعلامه . بل إن هذا النصر لم يُسكت مسيلمة ولا أسكت الأسود العنسيّ عن القيام في قومهما يزعمان النبوة ، ليكون لبني حنيفة ولليمن وغيرهم من العرب أن يدّعوا لأنفسهم ما تدّعيه قريش لنفسها . ولولا حكمة رسول الله وحسن رأيه وبعد نظره وفضل الله عليه وعلى الإسلام لحيف أن تتلظى الفتنة وأن يصلّي العرب جميعاً نارها في حياته .

حال اليمن قبيل
فتنة العنسي

وأغلب الظن أن فتنة العنسيّ قامت في آخر عهد الرسول ، وسواء أصبح ذلك أم صح أنها قامت في عهد أبي بكر ، فإن لقصة هذه الثورة على ما يرويها المؤرخون طرافة تستوقف النظر وتكشف عن جوانب من النفس الإنسانية تدعو إلى التفكير . فقد بعث رسول الله بين رسله إلى الملوك رسولا إلى كسرى عاهل الفرس يدعوه إلى الإسلام ، فلما تُرْجِمَ له كتاب النبيّ استشاط غيظاً وأرسل إلى بازان^(١) عامله على اليمن يأمره بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذي بالحجاز . وكانت الروم في ذلك الوقت قد غلبت كسرى ووهنت من أمره . فلما تناول بازان رسالة سيّده بعث بها إلى محمد ، فردّ محمد عليه ينبئه بأن شيرويه خلف أباه كسرى ، ويدعوه إلى الإسلام وأن يَبْقَى عاملاً له على اليمن . وكانت أنباء الفتنة في فارس واعتلاء شيرويه عرشها وانتصار الروم عليها قد

(١) بازان أو بدهان على اختلاف في رواية الاسم .

اتصلت ببازان ؛ لذلك أسرع إلى تلبية دعوة محمد ، وأقام هذا الفارسيّ عاملاً للنبي العربي على أهل اليمن ، بعد أن كان عامل الفرس عليها .

ومات بازان ، فقسّم رسول الله سلطانه بين أشخاص عدّة ، منهم شهّر ابن بازان الذي تولّى أمر صنّعاء وما جاورها ، ومنهم أشخاص من أهل اليمن ، وآخرون من رجاله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . وأن هؤلاء الولاة لينظّم كل منهم أمر ولايته إذ جاءتهم كتب من الأسود العنسيّ يُنذّره فيها أن يردّوا ما بأيديهم فهو أولى به . وكانت تلك أوّل ظاهرة لفتنته .

وكان الأسود كاهنًا يقيم بجنوب اليمن ، وكان مشعبذاً يصطنع فنوناً من الحيل ويستهوئ الجماهير بعباراته . واقعد تنبأ ولقب نفسه رَحْمَانِ اليمن ، أى الذى ينطق باسم الرحمان ، كما لقّب مسيلمة نفسه رَحْمَانِ اليمامة^(١) . وكان يزعم أن له شيطاناً يظهره على كل شيء ، ويظهره على خُطَط أعدائه . وكان يقيم بكهف خبّان من بلاد مَذْحِج . وقد هوت إليه جماعة كبيرة من العوام سُحِرَتْ بحديثه ، وفُتِنَتْ بما يزعم من حديث شيطانه .

نهض الأسود على رأس هذه الجماعة. بعد أن أعلن الفتنة ، وسار إلى نَجْرَان فأجلى عنها خالد بن سعيد وعمر بن حزم أميري المسلمين عليها . وانضم من أهل نجران إلى الأسود مَنْ بهرهم انتصاره ، وساروا معه إلى صنّعاء حيث لقي شهر بن بازان فقتله وهزم جنده . عند ذلك فرّ المسلمون المقيمون بصنّعاء وفي مقدمتهم مُعَاذ بن جبل ؛ ولحق خالد بن سعيد وعمر بن حزم بالمدينة . وتمّ للأسود الغلب ، وصار إليه ملك اليمن ، وأسلم الناس لأمره ورأيه ، ودانت له البوادي والخواضر ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف إلى البحرين والأحساء إلى عدن .

(١) فى لسان العرب أن الرحمن على فعلان لأن معناه الكثرة . وهو اسم الله لا يكون صفة لغيره كالرحيم . وفى اللسان أيضاً أن الرحمن عبراني والرحيم عربي . ويذكر بعض المستشرقين أن الرحمن اسم الإله فى الجنوب من شبه جزيرة العرب قبل الإسلام وجد فى نصوصهم ، وأنه لم يكن معروفاً عند أهل الحجاز .

ولقد تعجب إذ تعلم أن الأسود لقي شهر بن بازان بصنعاء وليس معه إلا سبعمائة فارس ، منهم من خرج معه من مَذْحِجٍ ومنهم من انضم إليه من نجران . وبهذا العدد القليل انتصر هذا الكاهن المشعبد على أهل هذه الأصقاع واستطار أمره بينهم كالحريق ، ولم تجد قوة منهم إلى مقاومته سبيلاً . ولعلك إن تلتمس لذلك تأويلاً تجده في أن هذه البلاد كانت خاضعة لفارس ، ثم خضعت من بعدهم للمسلمين من أهل الحجاز . وأنت تعرف ما كان بين اليمن والحجاز من خصومة ترجع إلى أقدم الحقب . فلما قام هذا العنسي يسترد اليمن لأهل اليمن لم يجد من يقاومه ، ولم يجد الفرس أنصار شهر وأبيه ، ولا وجد المسلمون أبناء الحجاز نصيراً من أهل البلاد يدفع عنهم كيد الأسود وشعبذته . ولعلك واجد هذا التأويل كذلك في أن هذه البلاد كانت مسرحاً لأديان مختلفة ، كانت فيها اليهودية ، والنصرانية ، والمجوسية ؛ وكانت هذه الأديان تجاور فيها أصنام العرب وعبادتها ، ثم كان الإسلام الحديث بين هؤلاء اليمنيين لما تقوّ في نفوسهم أصوله . فلما قام ذلك المتنبي فيهم يدعوهم إليه ويهيب بقوميتهم ويزعم أنه يطرد الأجانب من بلادهم ، أسرعوا إليه ملبين دعوته ؛ فلم يكن أمام المسلمين إلا الفرار ، ولم يكن أمام البقية الباقية من الفرس إلا الإذعان أو الموت .

العوامل التي أدت
إلى فتنة العنسي

باغت هذه الأنباء محمداً بالمدينة وهو يعيدُ العُدَّةَ لغزو الروم ، وللانتقام من مؤتة ، تعزيزاً لهذا الجانب المحفوف بالخطر من جوانب شبه جزيرة العرب ؛ وكان لذلك يجهز جيش أسامة . أفيسرف هذا الجيش إلى اليمن يسكن ثائرتها ، ويردّ على المسلمين هيبتهم ؟ ! أم يستعين على هذا الأسود بمن كان باليمن من المسلمين ، فإن قدروا عليه فذاك ، وإلا كان انتصار جيوش المسلمين على الروم ، والروم قد غلبوا الفرس من زمن غير بعيد ، جديراً بأن يعيد الأمر في شبه الجزيرة إلى نصابه ؛ فإن لم يعد وجه محمد جيشه ليقمع الأسود وغير الأسود من الخارجين عليه ؟ ! هذا الرأي الأخير هو ما اطمأن محمد إليه . لذلك بعث رسوله وبر بن يحنس بكتاب إلى زعماء المسلمين في اليمن يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض في الحرب ، والقضاء على الأسود إما غيلة وإما مصادمة ، وأن

مواقف رسول الله
من فتنة العنسي

يستعينوا على ذلك بمن يرون عنده نجدةً ودينًا . واكتفى محمد من أمر اليمن بهذا وجعل كل همه لتنظيم جيش أسامة والتغلب على الروم .

ومرض رسول الله من بعد ذلك مرضاً وقف بسببه جيش أسامة عن المسير . أما الأسود العنسي فأخذ يستمتع بنصره وينظم ملكه ، يقيم القواد على الجيوش والعمال على الإمارات ؛ بذلك ثبت ملكه ، واستغلظ أمره ، ودانت له سواحل اليمن إلى عدن ، كما دانت له الجبال والبادى من صنعاء إلى الطائف .

وزير
الأسود
وزوجه وقائد جنده

واستعمل الأسود على جنده قيس بن عبد يغوث ، وجعل وزيره فيروز وداذويه الفارسيين . ثم إنه تزوج أراد امرأة شهر بن بازان ، وكانت ابنة عم فيروز . بهذا وبذلك انضم العرب والفرس إلى لوائه . فلما رأى من تعاظم شأنه ما رأى خيّل إليه أنه دانت له الأرض ، فلم يبق له إلا أن يأمر فيطاع .

بدء الانتقاض
على الأسود

على أن الدوامل التي أدّت إلى انتصاره قد تضافرت من بعد على الائتثار به . وذلك أنه لما استغلظ أمره وأثخن في الأرض استخف بقيس وبفيروز وداذويه ، وجعل يرى في الأخيرين وفي سائر الفرس من تنطوى أضالعهم على المكر به .

وعرفت امرأته الفارسية ذلك منه ، فثار في عروقها دم قومها ، وتحركت في نفسها عوامل الحقد على الكاهن القبيح ، قاتل زوجها الشاب الفارسي الذي كانت تحبه من أعماق قلبها . ولقد استطاعت بسجيّتها النسوية أن تخفي ذلك عنه ، وأن تسخو في البذل له من أنوثتها سخاء جعله يركن إليها ويطمع في وفائها له . لكنه شعر بأن الرجال الذين حوله ، وزيره وقائد جيشه ، لا يضمرون له من الولاء ما يراه حقاً عليهم لولى نعمتهم . وإذا كان الجيش أشد ما يُحذَرُ ويخاف فقد دعا إليه قيس بن عبد يغوث وأنبأه أن شيطانه أوحى إليه يقول : « عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل ، وصار في العز مثلك ، مال ميل عدوك ، وحاول ملكك ، وأضمر على الغدر » . وأجاب قيس : « كذب وذى الحمار ، لأنك أعظم في نفسي وأجلّ عندى من أن أحدث بك نفسى » . وأجال الأسود في قيس نظره من مفرق رأسه إلى أخمصه ، وقال له :

« ما أجفاك ! أتكذب الملك ! قد صدق الملك وعرفت الآن أنك تائب مما اطلع عليه منك » .

وخرج قيس من عنده وكله الريبة فيما يُضسر له ، ولقى فيروز ودادويه فذكر لهما ما جرى بينه وبين الأسود وسألهما رأيهما فقالا : نحن في حذر . وإنهم لفي ذلك إذ أرسل الأسود إليهما يحذرهما مما يأتمران مع أصحابهما به . وخرجا من عنده ولقيا قيساً وهم جميعاً في ارتياب وعلى خطر عظيم .

المؤامرة للقضاء
على العنسى

واتصل نبأ ما يجري ببلاط ذى الخمار بمن بقى من المسلمين باليمن أو على مقربة منها ، وذكروا رسالة النبي لهم ، فأرسلوا إلى قيس وأصحابه أنهم وإيائهم على رأى واحد فى أمر الأسود . وعرف المسلمون الذين أقاموا بنجران وبغيرها من تلك الأنحاء سرّاً من هذه الأنباء ، فكتبوا إلى زملائهم القريبيين من الأسود أنهم ورجالهم طوع أمرهم فى قتاله . واستمهلهم زملاؤهم وطلبوا إليهم أن يلزموا أماكنهم ، وألا يقوموا بأمر يدعو لريبة فيهم أو ينبّه أصحاب الأسود لهم .

وإنما كان ذلك رأى المقيمين على مقربة من الأسود لأنهم رأوا أخذه غيلةً أدنى إلى النجاح من محاربته . فقد دخلت آزاد زوجه فى مؤامرتهم وإن تظاهرت له بالحب أعظم الحب . وطوّع لها اتصاها بفيروز ودادويه وقيس أن تدبّر وإياهم أمر اغتياله . دلتهم على حجرة نومه ، وأظهرتهم على أن القصر الذى تقيم به معه حوله الحرس من كل ناحية إلا من خلف هذه الحجرة ؛ فلينبهوها إذا كان الليل ، وليدخلوا من النقب ، وليقتلوا غريمهم ؛ فإن يفعلوا فقد تخلّصوا وخلّصوها منه .

اشتراك زوجه
فى المؤامرة

وقد فعلوا . فلما كان الفجر تنادوا بشعارهم الذى اتّفقوا مع أصحابهم عليه ، ثم نادوا بأذان الإسلام وقالوا : نشهد أن محمداً رسول الله ، وأن عبهلة — وهو اسم الأسود العنسى — كذاب ، وألقوا إليهم رأسه . وأحاط بهم حرس القصر ، وتنادى الناس فى المدينة فخرجوا فى عماية الصبح ، واضطرب الأمر ، ثم استقر على أن يتولاه قيس وفيروز ودادويه . وكان لآزاد فى استقراره كما كان لها فى اضطرابه من قبل أكبر الأثر .

مقتل الأسود
العنسى

أفقتل العنسيّ قبل موت الرسول أم بعده ؟ ذلك ما اختلف فيه . وقد ذكرنا رواية اليعقوبي من قبل . أما الطبري وابن الأثير فيذكران أنه مات قبل أن يختار رسول الله الرفيق الأعلى ، وأنه صلى الله عليه وسلم أوحى ذلك إليه ليلة حدوثه فتال : « قُتل العنسيّ » ، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين . قيل من قتله ؟ قال : « قتله فيروز » .

والرواية الأخرى تذهب إلى أن موت العنسي لم يصل النبأ به إلى المدينة إلا بعد أن قبض رسول الله ، وأنه كان أول بشارة أتت أبا بكر وهو بالمدينة . وتجرى الرواية بأن فيروز قال : « لَمَّا قَتَلْنَا الْأَسْوَدَ عَادَ أَمْرُنَا كَمَا كَانَ ، إِلَى مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فَصَلَّيْنَا بِنَا وَنَحْنُ رَاجُونَ مُؤْمَلُونَ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ نَكْرَهُهُ إِلَّا تِلْكَ الْخَيُْولُ مِنْ أَصْحَابِ الْأَسْوَدِ . ثُمَّ جَاءَ مَوْتُ النَّبِيِّ فَانْتَقَضَتِ الْأُمُورُ وَاضْطَرَبَتِ الْأَرْضُ » .

كيف اضطربت ، ولماذا اضطربت ؟ تفصيل ذلك لا يدخل في نطاق هذا الفصل ، وحسبنا ما أجملنا عنه في أوله . وسنتناول حوادثه في موضعها من جهاد أبي بكر أهل الردّة .

وإنما أفضنا في حديث عبهلة وثورته بالمسلمين في اليمن لتواتر الروايات بأنه قام بهذه الثورة في عهد الرسول . فأما ما كان من أمر اليمن على عهد أبي بكر فيتخطى العنسي وثورته ومقتله ، ويتناول ما تم بعد ذلك من أحداث تفصلها في موضعها .

كانت ثورة اليمن هذه أعنف مظاهر الانتفاض على الدين الجديد في بلاد
تلقى الجنوب
كله بنذر الثورة
العرب حين وفاة النبي . لكن اليمامة وما حاذى الخليج الفارسي من القبائل قد كان يتلظى بنذر الثورة في هذا العهد كذلك ، فكان المسلمون فيه على حذر يلجئون إلى المصانة حيناً وإلى البطش حيناً آخر ، ليظل سلطانهم قائماً وكلمتهم مسموعة . ولا عجب أن يكون ذلك أمر حواضر وبوادٍ تبعد عن منزل الوحي بمكة والمدينة ، وتتصل بالفرس وتبادلهم التجارة وتقرّ لهم بتفوق الحضارة . بل لا عجب أن تكون للفرس يد خفية في تحريك هذه الحواضر والبادي لتنتفض على الدين الجديد والسلطان الناشئ .

تنبؤ مسيلمة
ابن حبيب باليماة

أشرنا إلى بعث مسيلمة بن حبيب من بنى حنيفة رسولين إلى محمد بالمدينة يحملان رسالة جاء فيها : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . سلام عليكم ، أما بعد فأني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا لنصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم لا يعدلون » . وسأل النبي الرسولين حين سمع الكتاب : فما تقولان ؟ قالا : نقول كما قال . فنظر إليهما مغضباً وقال : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما . ثم كتب إلى مسيلمة : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده المتقين » .

لم يتغفل رسول الله عما تنطوى عليه رسالة مسيلمة من نذير . لذلك بعث من المسلمين نهراً الرحال ، وكان قد فقه الدين ، ليشغب على مسيلمة ، وليفقه المسلمين من أهل اليمامة في الإسلام . وسرى من بعد كيف انضم نهرا إلى مسيلمة ، وكيف شهد بأنه شريك محمد في الرسالة . بذلك ازداد مسيلمة نفوذاً وازداد ادعاؤه انتشاراً . وتجاوبت باليماة أصداء انتصار العنسي باليمن فقوى تجاوبها ساعد مسيلمة وفيت في أعضاد المسلمين . لكن رسول الله لم يتجه بسياسته إلى قمع هذه الفتنة قبل استفحالها ، موقناً أن الله ناصره على الروم في الشمال ، وأن انتصاره عليهم سيكون له الأثر الحاسم في القضاء على أسباب الانتفاض والثورة الداخلية في أنحاء بلاد العرب .

سياسة رسول
الله إزاء الفتنة

فقد كانت سياسته صلى الله عليه وسلم متجهة إلى حماية التخوم العربية في الشمال من عدوان هيرقل ورجاله عليها . فهيرقل هو الذي دحر الإمبراطورية الفارسية ، وهو الذي رد الصليب الأعظم إلى بيت المقدس ، وهو الذي تخشى صولته . وقد ارتد جيش المسلمين في مؤتة فلم يقوَ على قتال الروم وإن لم ينهزم أمامهم . وكانت تبوك غزوة موفقة ، لكنها لم تبعده المخاوف من انحدار الروم إلى بلاد العرب . فإذا استطاعت قوات المسلمين أن تظهر على الروم في غزاة حاسمة قوى ذلك من عزم المنتشرين منهم في قبائل العرب ، فلا يلبث كل منتفض عليهم أن يرجع عن انتفاضه ، وأن يسلم المقادة إليهم طائعاً أو كارهاً . وكيف لا يفعل وقد تغلغل المسلمون في أنحاء شبه الجزيرة من

الشمال إلى الجنوب ، وصاروا قوة يحسب حسابها ؛ فلم يقرّ مسيلمة في اليمامة ، ولا لقيط في عُمَآن ، ولا طُلَيْحَة في بني أسد ، أن يناصبوها العداوة في جهر وإعلان .

تربص المتنبيين
بالمسلمين

لكن لقيطاً وطُلَيْحَة كانا كسيلمة يتربّصان لإعلان عصيانهما أن تدور الدوائر على المسلمين . وأقام هؤلاء الثلاثة كلٌّ في ناحيته ينشر دعوته في غير ضجة أو جلبة ، ودون أن يطعن على النبي الهاشمي أو ينتقص من رسالته . وإنما كانت دعواهم أنه نبي ، وأنهم أنبياء مثله ، بعث في قومه وبعث كلٌّ منهم في قومه ، وأنهم يريدون لأقوامهم الهدى كما يريد هو لقومه الهدى . وبوسائل تنقصها جرأة الأسود العنسي وإن لم ينقصها دهاؤه هيئتوا حول المسلمين المقيمين بين أظهرهم جوّاً قلق وتربّص ، تتلظى نيران الفتنة تحت رماده ريثما تتقد فيه .

ولم يكد النبأ بوفاة الرسول ينتشر في بلاد العرب حتى بدأت تُنذر هذه الفتنة تتحرك في كل أنحاء شبه الجزيرة . وقد تحركت في صور مختلفة وألوان متباينة تباين العوامل التي أثارتها . وسنفصل ذلك من بعد في وضوح وجلاء . لكننا نقف من حديث هؤلاء المتنبيين وتربصهم بالإسلام عند أمور لها بالعرب حين وفاة النبي أوثق اتصال :

العرب وفتنة
المتنبيين

أول هذه الأمور أن رسول الله قبض وبوادر الفتنة تجري تُنذرُها في جو شبه الجزيرة ، بل يوشك قسم كبير منها أن يضطرب أشد اضطراب . فقد رأيت كيف استغلظ أمر الأسود وامتد ملكه من أقصى الجنوب عند حضرموت إلى مكة والطائف ، ثم رأيت كيف تربص مسيلمة وطُلَيْحَة بالمسلمين . وهذه الربوع التي أعلنت العصيان على دين محمد وسلطانته كانت أكثر بلاد شبه الجزيرة حضارة وأضخمها ثروة ، كما كانت أكثرها ببلاد الفرس اتصالاً .

فلا عجب وذلك شأنها أن يلفت انتقاضها نظر الخليفة الأول ، وأن يطيل تفكيره في تدبير سياستها ، ليعيدها إلى حظيرة الإسلام ، وليقر فيها الأمن والسلام .

والأمر الثاني الذى تدل عليه فتنة الأسود وتربص مسيلمة وطليحة أن الاضطراب الدينى باغ بين القوم فى ذلك العصر أن سهّل تحريك النفوس باسمه ، ولم يكن ذلك يرجع إلى تعصب الناس لدين من الأديان ، بل كان يرجع على العكس إلى عدم استقرار العقيدة فى النفوس استقرار طمأنينة وسكينة . فالنصرانية واليهودية والمجوسية والأصنام كانت كلها تتجاوز ، وكان لكل منها أنصار ظاهرون أو مستترون ؛ لكنها كانت جميعاً موضع الجدل : أيها الحق ، وأيها أدنى إلى تحقيق الخير والسعادة للناس ، وهذا هو ما سهّل على الذين ادّعوا النبوة أن يطالعوا الناس بمزاعمهم ، وأن يخدعهم بألوان من المظاهر يتخذونها آيات صدقهم . وبهذه الوسيلة استطاع المتنبيون أن يجمعوا حولهم من الأتباع ما جمعوا ، وأن يُحرزوا أول أمرهم من النجاح ما أحرزوا .

تحريك
الاضطراب باسم
الدين ، وسببه

ولم يكن ادّعاء النبوة وتصديق الناس هذا الادعاء هو العنصر الجوهرى فى نجاح هؤلاء المدّعين . فقد رأيت أن الأسود اعتمد على عوامل أخرى ، فى مقدمتها برّمْ أهل اليمن بالفرس كبرمهم بأهل الحجاز . وسترى من ذلك فى أمر مسيلمة وطليحة ما يؤيد قولنا كل التأييد . ولو أن الإسلام كان قد استقر فى النفوس وبلغ منها مبلغ العقيدة والإيمان لما قامت لواحد من هؤلاء المدّعين قائمة . فللعقيدة المتأصاة سلطان على النفوس قل أن يغلبه سلطان . لكن أهل هذه الأصقاع لم يكونوا قد آمنوا وإن كانوا قد أسلموا ، فالما أتيح لهم أن يخلعوا إسلامهم باسم القومية أو باسم غيرها لم يصدّهم عن ذلك إيمان حق ، فاندفعوا وراء الأسود وغير الأسود من المتنبيين .

العامل الوطنى
من أسباب
الاضطراب

ويزيد رأينا هذا تأييداً ما كان من بقاء مكة والطائف على الإسلام . صحيح أن أهل اليمن بدأ فيهم الإسلام واطمأن إلى السلطان الحاكم منذ دان بازان بدين الحق ، وكان ذلك قبل أن يطمئن الإسلام إلى سلطان الحاكم بمكة والطائف . لكن قيام رسول الله بمكة سنوات الدعوة الأولى ، وهى تزيد على عشر ، واتصاله بالطائف وأهلها أثناء ذلك ، ترك من الأثر الدينى فى نفوس المكيين والثقفيين ما لم يتركه إسلام بازان والفرس المحيطين به فى اليمن . وتعاليم

رسول الله كانت أبقى أثراً في مكة والطائف ، حتى مع ثورتها عليه ، من تعاليم
مُعاذ بن جبل باليمن وإن تمتع من حماية بازان بما تمتع به .

أثر فتنه العنسي
في البلاد المحيطة
باليمن

الأمر الثالث الذي نستخلصه ، أن فتنه اليمن شجعت اليمامة وشجعت
بنى أسد على القيام بفتنتهم إثر وفاة النبي ؛ فقد كان طليحة ومسيامة يخشيان
قوة المسلمين ويريان أن لا قبَل لهما بمقاومتها ، ولذلك لم يثورا بها ولم يخرججا
عليها . فلما اجتراً الأسود على رفع لواء العصيان ولقي من النجاح ما لقي وأثار
مخاوف المسلمين ، امتدت عدوى الجرأة منه إلى طليحة وإلى مسيامة ، ثم
زادها جرأة أن اختار النبي الرفيق الأعلى . ولو أن الأسود لم يقم قومته ولم يعلن
فتنته لبقى الآخرون على استحياء في إعلان فتنتهما ، ولما جرؤ واحد منهما على
مواجهة سلطان المسلمين .

ولم يقض موت الأسود على أسباب الفتنة التي كانت تتلظى يومئذ في أنحاء
شبه الجزيرة ، بل بقيت أسباب هذه الفتنة تضطرم ويزداد اضطرامها حتى
اندلعت بوفاة الرسول .

رأى المستشرقين
في الفتنة، وسببها

ويعمل بعض المستشرقين. هذه الظاهرة في بلاد العرب لذلك العهد بما كان
بين أهلها من تباين في نوع الحياة قل أن يجد الإنسان له في غير هذه البلاد
نظيراً ، وبما أدى هذا التباين إليه على حِقَب التاريخ من خصومات لم تهدأ .
فحياة الحضر وحياة البدو تتجاوران في هذا المحيط تجاوراً عجيباً . وبين البداوة
والحضارة من التباين ما يجعل الوحدة القومية لبلاد ذلك شأنها أمراً غير ميسور .
ثم إن حياة البداوة تجعل الإذعان لحاكم على النحو الذي يفهمه أهل الحضر
مستحيلاً أو يشبه المستحيل . فالبدوي لا يعدل باستقلاله الفردي شيئاً ، والقبيلة
البادية ترى في استقلالها حياتها ، وترى كل تحيف من هذا الاستقلال عدواناً
عليها لا بد من دفعه . وقد كان هذا وما يتصل به سبب الخصومة التي تأصلت
على الزمان بين اليمن وأهل الشمال .

والمستشرقون الذين يبدون هذا الرأي يذهبون إلى أن هذا التباين في طباع
أهل البادية وأهل الحضر ، وما جرّ إليه من خصومة بين الشمال والجنوب .
كان له أثر بالغ في اضطراب العرب قبيل وفاة النبي وفي السنة الأولى من خلافة أبي بكر .

فالإسلام دين توحيد في العقيدة ، وبذلك قضى على عبادة الأصنام ، فامتد الإيمان بالله الواحد الأحد إلى أنحاء بلاد العرب جميعاً . أو لا يخشى العرب أن يمتد الأمر من وحدة الإيمان بالله إلى وحدة سياسية تجنى على استقلال أهل البادية وتثير الحصومات القديمة ؟ ! ذلك ما دار بخواطرهم فيما يرى هؤلاء المستشرقون ، وذلك ما أدى إلى انتقاض اليمن وغير اليمن في ذلك العهد .

وسواء أصبح هذا التعليل أم لم يصح ، فلسنا نستطيع أن نتجاهل العامل الأجنبي في تحريك البواعث التي أدت إلى انتقاض العرب وردتهم . لقد رأى عاهل الفرس وإمبراطور الروم في رسالة محمد إليهما وإلى غيرهما من الملوك والأمراء ليدينوا بالإسلام ما جعلهما يعملان على إيقاظ نار الفتنة في بلاد ليس بها من أسباب الوحدة غير الدين الجديد يجمع كلمتها ويضعاف قوتها . ولا شيء كالفتنة يضعضع العزائم ويفت في أعضاد الأمم .

أثر العامل
الأجنبي في إيقاظ
الفتنة

وأياً كانت الأسباب التي أدت إلى فتنة العنسي ، ثم إلى فتنة طليحة وفتنة مسيلمة ، وإلى انتقاض العرب على سلطان المسلمين حتى فيما جاور المدينة ، فإن الأمر الثابت أن وفاة النبي بعثت كل أسباب الفتنة من مرقدتها .

انتقاض العرب
على النبي

كيف دبّر أبو بكر لمواجهة هذه الفتنة والقضاء عليها ؟ وكيف استطاع أن يتغلب على عوامل الفتنة وأن يجمع كلمة العرب ؟ وكيف مهد للإمبراطورية الإسلامية كي يقيمها خلفاؤه على أقوى دعامة وأمن أساس ؟

ذلك كل عهده ، وفي هذا الكتاب حديثه

الفصل الرابع بعث أسامة

لم تكن نذر الانتفاض في بلاد العرب لتخفى على أبى بكر وأصحابه من المهاجرين والأنصار بالمدينة . وكيف تخفى عليهم وقد كان ما شجر بينهم في سقيفة بني ساعدة جديراً بأن ينبههم إلى خطرها ؟ ! أفيلقى خليفة رسول الله كل باله إليها ، ويعدل عن سياسة رسول الله في شأنها ؟ أم تراه يجرى على خطة الرسول في تأمين التخوم بين العرب والروم ، تاركاً أمر هذه الفتنة الداخلية إلى تطور الحوادث ؟ .

لقد كان أول أمر أصدره بعد أن تمت له البيعة بالخلافة أن قال :
« لَيْتَمَّ بَعَثْتُ أُسَامَةَ » .
أول أمر أصدره الخليفة الأول

وأسامة هو قائد الجيش الذى أمر النبي بتجهيزه من جيلة المسلمين مهاجريهم والأنصار لغزو الروم ، بعد الذى كان بينهم وبين المسلمين في مؤتة وفي تبوك . ذلك أنه ، عليه السلام ، كان يخشى دائماً أن يدهم الروم المسلمين ، متأثرين بما بين الدين الناشئ ودينهم المسيحى من خلاف ، متأثرين أكثر من ذلك بتحريض اليهود الذين نزحوا إلى فلسطين بعد أن أجلاهم النبي عن المدينة ، وعن تيماء ، وفدك ، وعن أكثر المواطن التى كانوا يقيمون بها . ولعل ما حدث بمؤتة وتبوك جعله يضاعف العناية بحماية التخوم العربية الرومية . فقد سار جيش المسلمين إلى مؤتة فاستشهد من قواده زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ، ثم داود بن الوليد بالجيش حتى عاد به إلى المدينة سليماً وإن لم ينتصر . وقد سار عليه السلام على رأس المسلمين إلى تبوك ، فكانت مسيرته نذيراً حمل خصومه على التراجع إلى ما وراء حدودهم دون قتال . لا عجب وقد أثارت هاتان الغزوتان الثارات بين المسلمين والروم أن يجهز النبي جيش أسامة بن زيد بن حارثة ، وأن يكون تجهيز

هذا الجيش بعض سياسته في تأمين تخوم شبه الجزيرة من الروم ذوى البأس في ذلك العهد .

وكان أسامة حداثاً لمّا يبلغ العشرين . وإنما ولاّه رسول الله على الجيش ليجعل له من فخار النصر ما يجزى به استشهاد أبيه بمؤتة ، وما يعود الشباب الاضطلاع بجسام التّبيعات . ولقد أمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والدّآروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عماية الصبح ، وأن يسمعن فيهم قتلا ، وأن يحرقهم بالنار ، وأن يتم ذلك دِراكاً حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فإذا تم له النصر فليسرع بالعودة غانماً مظفراً .

وصية رسول الله
إلى أسامة بن زيد

تذمر كثيرون منذ اليوم الأول من تعيين حداث كأسامة على رأس جيش يضم جليّة المهاجرين والأنصار وتحدثوا في ذلك . صحيح أن أسامة كان موضع عطف النبي منذ طفولته ، وأنه لُقّب لذلك « حِبّ النبي وابن حِبّه » . ولقد بلغ من إعزاز النبي إياه أن أردفه وراءه عند ذهابه إلى مكة في العام الثامن للهجرة وأدخله معه الكعبة . وصحيح أن أسامة كان الشجاعة والإقدام منذ نشأته ، حتى لقد انضم إلى جيش المسلمين في طريقهم إلى أحد ، وإنما أعيد إلى المدينة قبل الموقعة لصغر سنه . ثم إنه أبلى من بعد في حُنَيْن أحسن البلاء وثبت فيها ثبات الأبطال الصناديد . لكن المتذمرين كانوا يرون ذلك شيئاً ، وتولّى إمارة جيش فيه أبو بكر وعمر وكبار المسلمين شيئاً آخر . ولقد بلغ تذمرهم النبي وهو في مرضه الأخير وجيش أسامة مقيم بالجُرُف يتأهب للمسير ، فأمر نساءه فأراقوا عليه سبع قِرب من ماء حتى تنزل عنه الحمى ، ثم خرج إلى المسجد وقال بعد أن حمّد الله وصلّى على أصحاب أحد : « أيها الناس ، أنفذوا بسعث أسامة . فلعمري لئن قلت في إمارته لقد قلت في إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق بالإمارة وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

حب النبي لأسامة
ابن زيد

تذمر كثيرون
لتوليته إمارة
الجيش

ولما اشتد المرض بالرسول لم يتحرك جيش أسامة من الجُرُف . روى عن أسامة أنه قال : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله وقد أصمّت فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على ، فأعرف أنه يدعو لي » . وفي

ساعة الصبحو الذى سبق وفاة الرسول صبح يوم الوفاة استأذنه أسامة في السير بالجيش فأذن له . لكن حدوث الوفاة بعد سويقات ردَّ أسامة والجيش إلى المدينة كرتة أخرى ، ثم كان أسامة مع أهل البيت الذين تولوا جهاز الدفن ، فكان هو وشُقْران مولى النبي يصبان الماء على جثمانه وعلى يغسله وعليه قميصه .

تصميم أبي بكر
على بعث أسامة

فاما أمر أبو بكر بإنفاذ بعث أسامة بعد أن تمت بيعته عاد المسلمون إلى تدميرهم وأخذوا يلتمسون الوسيلة للخلاص من موقف لم يرضوا عنه ، ورأى بعضهم ما كان من خلاف بين المهاجرين والأنصار على الخلافة ، وما ترمى إلى المدينة من أنباء العرب واليهود والنصارى وتحفزهم بعد موت النبي للوثبة بالمسلمين وبتدينهم ، فقالوا يوجهون الكلام إلى أبي بكر : « إن هؤلاء جُلَّ المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغي أن تفرق عنك جماعة المسلمين » . قال أبو بكر : « والذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تَسْخَطُنِي لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق في القُرَى غيري لأنفذته » .

وقيل إن أسامة لما رأى ما عليه الناس طلب إلى عمر بن الخطاب أن يرجع إلى أبي بكر فيستأذنه في أن يعود بالجيش ليكون عوناً على المشركين فلا يَتَسَخَطُونُ المسلمين . وقالت الأنصار لعمر : « فإن أبي إلا أن نمضي ، فأبلغه عنا واطلب إليه أن يولّي أمرنا رجلاً أقدم سنّاً من أسامة » . وأبلغ ابن الخطاب أبا بكر رسالة أسامة ، فلم يلبث حين سمعها أن ثار ثائرة وقال : « لو خَطِفَتْنِي الكلاب والذئاب لم أردّ قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » . أمّا رسالة الأنصار أن يولى عليهم رجلاً أقدم سنّاً من أسامة فقد وثب لها أبو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر وقال مغضباً : « ثَكِلَتِكَ أُمُكْ وعدمتك يا ابن الخطّاب ! . استعماه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ! » . ورجع عمر إلى الناس فسألوه عما صنع فقال : « امضوا ، ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله » .

هذا الحديث في رواياته المختلفة يَصَوِّرُ لنا سياسة أبي بكر أول ما تولى

« لا أدع أمراً
يصنعه رسول الله
إلا صنعته »

الخلافة . وهذه السياسة تتلخص في قوله لفاطمة ابنة رسول الله حين طالبتة بميراثها عن أبيها : « إني والله ما أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » . وهو قد أعلنها إلى الناس ساعة قال لهم : « لَيْسَتْ بَعَثُ أَسَامة . أَلَا لَا يَسْبِقُنَّ بِالْمَدِينَةِ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِ أَسَامة إِلَّا خَرَجَ إِلَى عَسْكَرِهِ بِالْجُرُفِ » . فقد وقف بينهم خطيباً بعد أن ردّ المعارضين منهم وقال : « يأيتها الناس ، إنما أنا مثلكم ، وإني لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطبق . إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات . وإنما أنا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ . فَإِنْ اسْتَقَمْتُ فَتَابِعُونِي ، وَإِنْ زُغْتُ فَقَوِّمُونِي . وَإِنْ رَسُولُ اللَّهِ قُبِضَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ ضَرْبَةِ سَوْطٍ فَمَا دُونَهَا . أَلَا وَإِنْ لِي شَيْطَانًا يَعْتَرِينِي ، فَإِذَا أَتَانِي فَاجْتَنِبُونِي . . . » ثم حثهم على العمل الصالح قبل أن يجيء أجلهم ، وأن يعتبروا بالآباء والإخوان ، وألا يغبطوا الأحياء إلا بما يغبطون به الأموات .

إنما أنا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ ، ولن أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته ؛ هذه سياسة الخليفة الأول . ولأبي بكر أكثر من كل إنسان أن يتخذها سياسته . فهو قد صحب رسول الله على ما رأيت منذ بعث إلى أن اختاره الله إليه . ثم إنه كان يؤمن بالله ورسوله إيماناً لا يكبو ولا يتزعزع ، وكان لاتصاله القلبي والروحي برسول الله يعرف من أمره ما لا يعرفه غيره . وهو وحده الذي قال فيه قبل يومين اثنين من وفاته : « إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه . وإني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » . وأنت قد رأيت من صحبته وإخائه وإيمانه في حياة النبي ما لم يباغحه عمر ولا علي ولا أحد غيرهما من أمس المسلمين به صلى الله عليه وسلم صلةً وقربى . فلا جرم كان أتباعه النبي اتباعاً صحيحاً صادراً عن إيمان وبينه ؛ إيمان يجعاه مطمئناً إلى أنه لن يُخطئ ما اتبع الرسول ، وبينه تجعله يسلك الطريق التي يرى أن الرسول كان لا ريب يسلكها .

أبو بكر يشيع
جيش أسامة

سمع الناس مقالة عمر بعد عوده إليهم بالجُرُف يبلغهم رسالة أبي بكر ،

فلم يكن لهم إلا الإذعان لأمر الخليفة طوعاً أو كرهاً . وخرج أبو بكر بعد ذلك حتى جاء العسكر ، فأشخصهم وشيَّعهم وهو ماش وأسامه راكب ليزيدهم لإمارة أسامة إذعاناً وتسليماً . وكأنما غلب أسامة الحياء أن يرى هذا الشيخ الوقور صاحب رسول الله وخليفته على المسلمين يسير إلى جانبه ، ودابته من ورائه يقودها عبد الرحمن بن عوف ، فقال : « يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن » ، قال أبو بكر : « والله لا تنزل ووالله لا أركب وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ! » . فلما آن له أن يودع الجيش قال لأسامة : « إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل » فأذن أسامة لعمر أن يدع الجيش وأن يرجع مع أبي بكر .

لعمر ما عسى أن يقول المتذمرون بعد هذا الصنيع وقد بايعوا أبا بكر بالأمس ليسيلى أمر المسلمين جلياه ودقيقه ! . والذين أذعنوا من قبل كرهاً لم يسعهم بعد هذا التصرف الحكيم إلا أن يرضوا أو يتعرضوا للقاله ويشتهموا بالأثرة . وكثيراً ما كان للخوف من رأى الغير فينا وحكمه علينا سلطاناً على تصرفاتنا وأعمالنا يعدل سلطان اقناعنا الذاتي ، وإن اختلفت البواعث وتباينت النيات .

وصية الصديق
لجيش أسامة

وآن لأبي بكر أن يودع الجيش ، فوقف في رجاله خطيباً وقال : « أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلُّوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له . وسوف تقدّمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقّون أقواماً قد فحسوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفّقوهم بالسيف خفّقاً . اندفعوا باسم الله ، أقناكم الله بالطعن والطاعون » .

وقال لأسامة وهو يوشك أن يتحرك بالجيش : « اصنع ما أمرك به نبي الله صلى الله عليه وسلم . ابدأ ببلاذ قضاة ، ثم ائت آبل ، ولا تقصّر في شيء »

من أمر رسول الله ، ولا تعجلنَّ لِمَا خَلَّفْتَ عَنْ عَهْدِهِ .

مسيرة الجيش
إلى البلقاء

وسار الجيش وعاد أبو بكر وعمر بن الخطاب إلى المدينة . سار هذا الجيش وقائده الشاب على رأسه يقطع البعيد ويتخطى المفاوز في هذه الأيام الشديدة القَيْظ من شهر يُونِيَّة . وبعد عشرين يوماً من مسيرته بلغ البلقاء حيث تقع مُؤْتَةٌ ، وحيث استشهد زيد بن حارثة وصاحبه جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة . هناك نزل أسامة بعسكره فأغار على آبل ، وبث خيوله في قبائل قضاة ، وقضى على كل من وقف في وجهه من أعداء الله وأعداء رسوله قضاءً لا يعرف هوادة ولا رحمة . وكان شعار المسلمين وصيحتهم في الحرب ذلك اليوم : « يا منصور أُميت » .

قضاء أسامة
على أعداء الله
ورسوله

قتل المسلمون أثناء هذه الغزاة ، وأسروا ، وأحرقوا الثرى التي قاومتهم ، وغنموا ما شاء الله أن يغنموا . بذلك انتقم أسامة لأبيه وللمسلمين في مؤتة ، وبذلك نفذ أمر رسول الله أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عمية الصبح ، وأن يُمنع فيهم قتلاً ، وأن يُحرقهم بالنار ، وقد أتم ذلك دِراكًا فلم تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فلما أتمه عاد بالجيش مظفراً إلى المدينة ممتطياً الجواد الذي مات أبوه عليه .

عود أسامة ظافراً
إلى المدينة

عاد بالجيش الظافر إلى المدينة ، لم يُغْرِه النصر باقتفاء أثر أعدائه أو باقتحام تخوم الروم والتوغل في ديارهم . وعاد وقد زادت حداثة سنه في جلال انتصاره ، وجعلت المهاجرين والأنصار الذين تدمروا من قبل لإمارته يحدثون مفاخرين بحسن بلائه وعظيم إقدامه ، ويرددون مؤمنين قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه خلّيق للإمارة ، وإن كان أبوه نخليقاً لها » .

ولم يتدرّ بخاطر أحد من أمراء الجيش الظافر أن يدفع أسامة لاقتفاء أثر عدوه . ذلك أن السياسة التي جرى عليها رسول الله والتي كانت ماثلة في نفوس المسلمين جميعاً ، كانت تقف عند تأمين التخوم بين العرب والروم ، فلا يحدث الروم أنفسهم بغزو العرب انتقاماً لليهود أو غير اليهود ممن كانوا يأترون بالمسلمين .

وكان ذلك طبيعياً ، إذ كان الروم لا يزال اسمهم يزلزل الشعوب بسعة

إمبراطوريتهم ونفوذ سلطانهم ؛ لم يغير من ذلك ما كان بينهم وبين العرب من نزاع كانوا فيه أصحاب الكلمة العليا إلى السنوات الأخيرة من حياة النبي . ألم يذهب دحية الكلبي بكتاب رسول الله إلى هِرَقْل ، وهِرَقْل في أوج نصره ، في السنة السابعة من الهجرة ، أي قبل وفاة النبي بسنوات ثلاث ، فرأى من قوة الروم وبأسهم ما رأى ! أو لم يذهب اليهود في هذه السنة السابعة إلى فلسطين بعد هزيمتهم في خيبر وفي فُدك وتيماء ، وقلوبهم كلها الحفيظة على محمد وعلى من اتبعه ، يأتُمرون لتأليب الروم عليهم كيما يقاتلوهم ويظفروا بهم كما قاتلوا الفرس وظفروا بها . لا جرم إذن أن يقف المسلمون من سياستهم عند حماية تخومهم من اعتداء الروم ، وأن يكرُّ أسامة ، بعد أن تم له النصر على أعدائه ، راجعاً إلى المدينة ليقف إلى جانب أبي بكر والمسلمون معه ، دون أن يدور غزو الروم بخاطره أو خواطرهم ، ودون أن يتوقع أحد منهم أن هذا الغزو سيبدأ بعد سنتين اثنتين ، يَبْدُوهُ أبو بكر بحكم الحوادث ثم يُتِمَّهُ خلفاؤه ، فيكون فيه القضاء على هذه الإمبراطورية الرومية التي ظلت قروناً مرهوبة الجانب تعنو لكامتها الجباه وتتصدع من هول بأسها العروش .

أبو بكر يتلقى
أسامة بظاهر
المدينة

عاد أسامة إذن بالجيش الظافر ، وبلغ ظاهر المدينة ، فتلقاه أبو بكر ، وكان قد خرج في جماعة من كبار المهاجرين والأنصار للقاءه وكلهم فرح وتهلل ؛ وتلقاه أهل المدينة الذين خفوا في أثر أبي بكر وأصحابه بصيحات السرور والإعجاب والتقدير لبسالته وبسالة جيشه . ودخل أسامة المدينة تحيط به هالة من فخار النصر ، فقصده من فوره إلى المسجد حيث صلى شكرياً لله على ما أنعم عليه وعلى المسلمين . وكانت عودة الجيش إلى المدينة بعد أربعين ، وقيل سبعين ، يوماً من مغادرته إياها .

يحاول بعض المستشرقين أن يهوتوا من أمر هذه الغزوة وأن يصغروا من شأنها ، مع ما كان من اغتباط المسلمين بها وإكبارهم للذين تم لهم النصر فيها . يقول المستشرق « فَمَكَّا » محرر فصل أسامة في دائرة المعارف الإسلامية : « وقد بعث انتصار أسامة البِشْرَ في نفوس أهل المدينة بعد أن أحزنتهم حروب الردة ، وأصبح لانتصاره من الخطر ما لا يتفق مع قيمته الحقة ، بل عُدَّ

فما بعد فاتحة للحملة التي وجهت لغزو الشام . وصحيح أن هذه الغزوة ليست جسيمة بالقياس إلى ما نعرف من غزوات اليوم ، وليست جسيمة بالقياس إلى بعض الغزوات التي تمت في ذلك الحين . فقد اكتفى أسامة منها بأن دهم القبائل التي فجأها وأن غنم منها دون أن يلقى جيش الروم . لكن الأمر الذي لا ريب فيه أنها كانت بعيدة الأثر في حياة المسلمين ، وفي حياة العرب الذين فكروا في الثورة بهم ، وفي حياة الروم الذين تمتد بلادهم على حدودهم . قال أعداؤهم من العرب الذين تسامعوا بهذه الغزوة « لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تُغير على مَنْ بَعُد عنهم من القبائل القوية » . وانزعج هيرقل حين بلغته أنباء هذه الغزوة فبعث جيشاً قوياً عسكرياً بالبقاء . وتلك الحجة البالغة على أن الروم والعرب جميعاً حسبوا حساب المسلمين بعد هذه الغزاة التي جعلت عرب الشمال ، فيما خلا دومة الجندل ، لا يلحون في التحرش بالمدينة والانتقاض عليها .

أثر هذا الغزو
في العرب وفي
الروم

على أن الأمر لم يكن كذلك فيما سوى الشمال من أنحاء شبه الجزيرة . رأيت من قبل أن قبائل في سائر أنحائها نزلت إلى العصيان في السنوات الأخيرة من حياة النبي ، ورأيت أن جماعة من أهل هذه القبائل ادّعوا النبوة . ولولا الفرع الذي كان يتولى هذه القبائل ويتولى المتنبيين فيها بسبب ما كان النبي يأخذهم به من حزم وما كان المسلمون يبدونه من بأس وقوة لإيمان ، إذن لسرت روح الانتقاض في أنحاء كثيرة . فلما اختار محمد جوار ربه ارتدّت العرب إمّا عامة ، وإما خاصة في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشترأبت اليهود والنصارى ، واضطرب المسلمون لفقد نبيهم ولقتلتهم وكثرة عدوهم . فلم يكن بدّ من سياسة حكيمة حازمة تردّ الأمر إلى نصابه ، وتنصر دين الله في إبان نشأته .

ردة العرب إمّا
عامة وإما خاصة

وهذا ما صنع أبو بكر حين جرّد أبطال المسلمين لحروب الردّة ، وللقضاء على الثائرين بدين الله وبخليفة رسوله .

الفصل الخامس

قتال من منعوا الزكاة

بينما كان أسامة في طريقه إلى تخوم الروم ، كان النبأ بوفاة النبي يدفع العرب إلى الثورة بسلطان المدينة. زادت ثورة اليمن ضراماً على الرغم من قتل العنسي ، وبدأ مسيلمة في بني حنيفة وطليحة في بني أسد يدعوان الناس إلى التصديق بنبوتهما ويسلقيان من النجاح ما جعل عيينة بن حصن يقول عن طليحة : « نبي من الحليفين - يعني أسداً وغطفان - أحب إلينا من نبي من قريش . وقد مات محمد وطليحة حي » .

بوادر أنباء الردة

جاءت الرسل بهذه الأنباء وبما هو شر منها . لأبي بكر أول ما استخلف . فلما بسطوا أمامه الأمر قال لهم : « لا تبرحوا حتى تجيء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم وأمر من انتقاض الأمور » . ولم يلبثوا أن قدمت كتب أمراء النبي في الأنحاء المختلفة من شبه الجزيرة بانتقاض عام أو بانتقاض خاص . ولم تخف هذه الكتب ما كان من اعتداء المنتقضين على من بقي على إسلامه بين أظهرهم . وكذلك تضرمت الأرض حول أبي بكر ناراً ؛ فكان لا بد من معالجة هذه الحال التي لم ير المسلمون مثلاً منذ فتحت مكة وأسلمت ثقيف .

وكان هذا الاضطراب الذي أصاب العرب قد انتهى بقوم إلى أن يرددوا عن الإسلام ، في حين بقي آخرون على إسلامهم ثم أبوا أداء الزكاة لأبي بكر / وسواء أكان إباؤهم أداءها راجعاً إلى حرص الناس على المال وتحايلهم على التحلل من بذله كتحايلهم على اقتناصه وإمساكه ، وذهابهم في هذا وفي ذاك إلى حد التضحية بالحياة في سبيله ، أم كان راجعاً إلى عدهم إياها إتاوة لم يبق بمد وفاة رسول الله ما يسوغ دفعها لمن اختاره أهل المدينة أميراً عليهم ، فإنهم أضربوا عن أدائها وأعلنوا أنهم لن ينزلوا على حكم أبي بكر في أمرها .

القبائل التي أبت أداء الزكاة

كان ذلك شأن القريين من المدينة من قبائل عبس وذبيان بنوع خاص .

فماذا عسى أن يصنع المسلمون معهم ؟ ليس من اليسير مقاتلتهم بعد أن أنفذ أبو بكر بعث أسامة فلم يبق بالمدينة جيش يدفع عنها . أيرضون منهم أن يمنعوا الزكاة ، وبذلك يستميلونهم إليهم لعلهم يجدون منهم عوناً على الذين نكثوا أيمانهم وارتدوا عن إسلامهم ؟ أم يحاربونهم فيزيدون بذلك عدد عدوهم ، وقد لا يكون لهم في غيبة الجيش بحريهم قبيل ؟ .

جمع أبو بكر كبار الصحابة يستشيرهم في قتال الذين منعوا الزكاة . وكان رأى عمر بن الخطاب وطائفة من المسلمين معه ألا يقاتلوا قوماً يؤمنون بالله ورسوله ، وأن يستعينوا بهم على عدوهم . ولعل أصحاب هذا الرأى كانوا كثرة الحاضرين في حين كان الذين أشاروا بالقتال هم القلة وأغلب الظن أن المجادلة بين القوم في هذا الأمر البالغ الخطر طالت واحتدمت أيما احتدام . فقد اضطّر أبو بكر أن يتدخل بنفسه فيها يؤيد القلة ؛ ولقد اشتد في تأييد رأيه في ذلك المقام ، يدل على ذلك قوله : « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » . ولم يشن هذا المقال عمر عن أن يرى ما في القتال من تحريض المسلمين لخطر تخشى مغيبته ، فقال في شيء من الحدة : « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » .

عمر بن الخطاب
وطائفة معه
يشيرون بعدم
قتالهم

لم يتريث أبو بكر ولم يتردد في إجابة عمر فقال : « والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال ، » وقد قال : « إلا بحقها » . ويتم الرواة هذا الحديث بأن عمر قال من بعد : « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

بذكرنا هذا الحديث بما دار بين رسول الله ووفد ثقيف حين أقبلوا من الطائف يعلنون استعدادهم للإسلام ويطلبون إليه أن يعفيهم من الصلاة ؛ فقد أبى محمد يومئذ أن يجيبهم إلى ما طلبوا من ذلك وقال : « إنه لا خير في دين لا صلاة فيه » . ولعل أبا بكر قصد إلى مثل ذلك حين قال : « والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

جموع من منعوا
الزكاة ووفدهم
إلى المدينة

بعثت عَبَسَ وذُبيان ومن انضم إليهم من بنى كنانة ومن غَطَفَانٍ وفَزَارَةَ جموعاً منهم أقامت على مقربة من المدينة . ثم إن هذه الجموع انشطرت فرقتين : أقامت إحداهما بالأبرق من الربذة ، وسارت الأخرى إلى ذى القصة أقرب مَحَلَّة من المدينة على طريق نجد . وأرسل رؤساء هذه الجموع وفوداً منهم إلى المدينة نزلوا على وجوه الناس وتحملوا بهم على أبي بكر على أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة ، فكان جواب أبي بكر ما رأيت : « والله لو منعوني عِقَلاً بلخاهدتهم عليه » .

أوامر أبي بكر
لأهل المدينة

ورجعت هذه الوفود إلى من بعثهم بعد ما اطلعوا على عورة المدينة وعرفوا أنها مكشوفة ليس بها من يدفع عنها . وأدرك أبو بكر منهم ذلك ، فجمع الناس وقال لهم : « إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وإنكم لا تدرون أليلاً تُثَوِّتُونَ أو نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد . وقد كان القوم يأملون أن تقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبينا عليهم ونبذنا عهدهم . فاستعدوا وأعدوا » ثم إنه دعا إليه علياً والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وجعلهم على مداخل المدينة ، وأمر سائر الناس أن يكونوا بالمسجد في عُدَّة القتال .

أول معركة في
عهد أبي بكر

ولم يخطئُ أبا بكر حَدْسُهُ ؛ فلم يلبث أهل المدينة إلا ثلاثاً ، حتى زحف عاينهم مانعو الزكاة يريدون أن يضعضعوا من عزمتهم للقتال ، فيتجاوز الخليفة عن هذا الفرض من فروض الإسلام . وأحسَّ العَبَسُ المقيمون على مداخل المدينة مأثى القوم ، فنبهوا علياً والزبير وطلحة وابن مسعود ومن معهم من الرجال . وأرسل هؤلاء إلى أبي بكر بالخبر ، فأجابهم أن الزموا أما كنكم ، وخرج في أهل المسجد على الإبل حتى بلغهم ، ثم خرجوا جميعاً يواجهون هؤلاء الذين يريدون أن يلبسوا الليل للغدر بهم . ولم يكن يدور بخواطر أهل هذه القبائل أن سيقاومهم أحد بعد الذي عرفوا من أمر المدينة وأهلها . فلما فاجأهم أبو بكر ومن معه أخذوا فولتوا الأدبار ، فاتبعهم المسلمون حتى ذى حساً ؛ وكانت القبائل قد تركت في هذه المحلة مدداً من الرجال لعلهم يحتاجون إليهم . وشعر هذا المدد بمجىء القوم منهزمين واتباع المسلمين إياهم ، فوقف دون هؤلاء وأولئك ، ودار بين الفريقين في غسق الليل قتال لم يتكشف لأحد الصديق أبو بكر

منهم أثره . وكان الذين أقاموا بذي حُسًا من أهل القبائل قد جاءوا بأنحاء^(١) نفخوها وربطوها بالحبال وضربوها بأرجلهم في وجوه الإبل التي امتطأها رجال المدينة . ولم تكن هذه الإبل إبل حرب ألقيت مكاييد القتال ؛ ولذلك نفرت براكبيها مرتدة حتى دخلت بهم المدينة .

فرحت عبس وذبيان ومن ناصرهم بفرار المسلمين وظنوا بهم الوهن ، وبعثوا إلى من بذي القصة ينبئونهم بما حدث . وأقبل أهل ذى القصة عليهم وتبادلوا وإياهم الرأي ألا يذروا المدينة حتى يوادعهم أبو بكر على ما أرادوا . أما أبو بكر والمسلمون معه فلم يغمض لهم تلك الليلة جفن ، بل بات يتهيأ ويعبثهم . فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج يمشى على رأسهم ، وقد جعل لهم ميمنة وميسرة وساقة . وأغدقوا جميعاً السير ، فما طلع الفجر حتى كانوا مع العدو في صعيد واحد دون أن يسمع العدو لهم همساً ولا حساً . وكيف يسمع وقد اطمأن إلى انتصاره وبات ناعم الجفن بنوم هانئ . ووضع المسلمون السيوف في القوم ، فهبوا فزعين يقاتلون . ولكن هيهات ! لقد أمعن رجال أبي بكر فيهم قتلاً وهم في عماية الصبح يضطرب حابلهم بنابلهم بهرودز قرن الشمس وهم يولون الأدبار منهزمين لا يلوون على شيء . واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة وهم يفرون أمامه فرار النعام . عند ذلك تركهم ونزل بعسكره في منازلهم من هذه المحلة ، ثم جعل بها النعمان بن مقرن صاحب ميمنته وجعل معه عدداً يدفع به الذين أرادوا على الصديق نصراً فخذلوا ، وعزاً فذلوا .

تراجع المسلمين
إلى المدينة

انتصارهم الحاسم
صبح اليوم نفسه

هنا يقف الإنسان خاشعاً مملّكاً الإعجاب بأبي بكر وبإيمانه وثباته وحزمه . فذلك موقف يذكرنا بمواقف الرسول عليه السلام . وإن لهذه الغزوة الأولى من غزوات أبي بكر لجلالا ما أشبهه بجلال غزوة بدر . ووقف المسلمون يوم بدر ومحمد على رأسهم وعددهم لا يزيد على ثلاثمائة يقاتلون المشركين من أهل مكة وعددهم يزيد على ألف . وهنا وقف أهل المدينة ، ومنهم المقاتل ومنهم غير المقاتل ، وأبو بكر على رأسهم ، وهم قلة أمام هذه الجموع الغفيرة من عبس وذبيان وغطفان وغيرهم من القبائل . ويومئذ تحصن محمد بإيمانه وإيمان

(١) الأنحاء : جمع نحى : وهى أوعية من جلود .

أصحابه وبنصر الله إياهم على المشركين . وهنا تحصن أبو بكر بإيمانه وإيمان أصحابه فانتصر كما انتصر الرسول ، ثم كان لنصره الأثر البالغ في حياة المسلمين .

على أن ما يملك الإنسان من الإعجاب بأبي بكر في هذا الموقف لا يشوبه من العجب شيء . فقد آلى الصديق على نفسه منذ اللحظة الأولى ألا يدع شيئاً كان يصنعه رسول الله إلا صنعه . أمّا ذلك عزمه الذي لا يحيد عنه ، فلا عجب أن يأبى المساومة في أمر يتصل بما فرض الله في كتابه ، وأن يذكر كلما طلب إليه أحد أن ينزل عن شيء لم يكن رسول الله ليرضى أن ينزل عنه ، هذه الكرامة الخالدة على الزمن من كلمات رسول الله : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . هذا ما صنع أبو بكر حين تحدث إليه أصحابه في العدول عن بعث أسامة . وهذا كان موقفه حين تحدثوا إليه فيما يطلب العرب من منع الزكاة . وذلك هو الإيمان الصادق الذي لا يغلبه في الحياة غالب ؛ لأنه يستهين بالموت ويسمو لذلك على كل ما في الحياة .

وهذا الإيمان الصادق الذي لا يغلبه الموت ولا يغلبه زخرف هذه الحياة الدنيا هو الذي حفظ الإسلام في صفائه وكماله في ذلك الوقت الدقيق الذي كان يومئذ يتخطاه .

ولأنك لنى حل أن تسأل نفسك : ترى ما كان عسى أن يؤول إليه أمر المسلمين لو أن أبا بكر قبل مشورة عمر وأصحابه في شأن الذين طلبوا منع الزكاة ووادع هؤلاء الطالبين على ذلك ؟ ولا إخالني في حاجة إلى أن أدلك على الجواب فأنت تعرفه كما أعرفه كانت قبائل كثيرة من العرب إلى ذلك الوقت ما تزال قريبة عهد بالجاهلية وبالوثنية . فلو أن أبا بكر رضى النزول عن فرض من فروض الدين لاتصلت المساومات ، ولوجد طليحة ومسيامة وغيرهما من المتنبيين الوسيلة للتشكيك فيما جاء محمد به من عند ربه ثم لوجدوا من هذه القبائل القريبة العهد بالجاهلية مصدقاً لهم ومطيعاً ، بل مؤمناً بهم يموت في سبيلهم وينصرهم على دين الحق .

أثر هذا النصر
في المسلمين من
مختلف القبائل

وأنت تستطيع أن تقدر ما كان لحزم أبي بكر ثم لانتصاره بذى القصة من أثر حين تعلم أن المشركين من بنى ذبيان وعبس وثبوا على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة . هذه الظاهرة التي دفع إليها الغضب والشعور بالذلة والانتقام الوضع قد زادت انتصار المسلمين جلالاً وزادت المسلمين ثباتاً على دينهم في كل قبيلة ، وجعلتهم يهرعون بالزكاة يؤدونها إلى خليفة رسول الله . لقد رأوا أبا بكر يغلب هؤلاء المرتدين بقوة إيمانه ، في حين كان جيشه مع أسامة على تخوم الروم فأيقنوا أن الغلب لدين الحق والإيمان به ، وأن الانتقام الوضع الذي لحأت القبائل إليه لن يمحو عنها عار هزيمتها ، وأنها ستدفع ثمن هذا الانتقام غالياً .

وكيف لهم أن يرتابوا وقد حلف أبو بكر ليقتلن في كل قبيلة من المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة . وهو لا محالة فاعل متى عاد أسامة وآن لجيش المسلمين أن يأخذ هؤلاء الآثمين بذنوبهم .

هرع المسلمون من كل قبيلة يؤدون الزكاة إلى خليفة رسول الله على أثر انتصاره بذى القصة . وكان أول الذين أقبلوا يؤدون الزكاة صفوان والزبير قان من رؤساء بنى تميم ، وعدي بن حاتم الطائي عن قومه من طي . واستقبل الناس هؤلاء السفراء عن عشائرتهم في بيشر أي بشر وكان الناس يقول بعضهم لبعض إذا طلع أحدهم : هذا نذير ، فيقول أبو بكر : « بل هو بشير ، وهو حام ليس بوان » . ويجيب الناس أبا بكر يقولون : « طالما بشرت بالخير !!! » .

أهل القبائل
يؤدون الزكاة
لأبي بكر

لم يكن أبو بكر غالياً إذ دعا هؤلاء حمّة ومبشرين بالخير . فقد كان المسلمون بالمدينة وفيما جاورها في حاجة يومئذ إلى سند يشد أزهرهم بعد الذي رأوا من خطر يوشك أن يهدّ كيانه . روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله منّ علينا بأبي بكر . أجمعنا على ألا نقاتل على ابنة مسخاض وابنة لسبون ، وأن نعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم . فوالله ما رضى منهم إلا بالخطّة المخزية أو الحرب المجاية . فأما الخطّة المخزية فأن يُقِرُّوا بأن

من قُتِل منهم في النار ومَنْ قُتِل منا في الجنة ، وأن يَدُوا قتلانا ، وأن نغْم ما أخذنا منهم ، وأن ما أخذوا منا مردود علينا . وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم » .

عود أسامة من
أرض الروم

وإن الناس لفي طمأنينتهم بالمدينة إلى نصر الله أبا بكر ، وقد جاء إليهم المسلمون من مختلف القبائل بالزكاة ، إذ أقبل أسامة عائداً من أرض الروم غانماً مظفراً يسوق أمامه غنائمه ويلحق به جيشه ، ويستقبلهم أبو بكر وكبار الصحابة بالجُرف ، ويحفّ الناس بهم في أثر الصديق وأصحابه ينشدون من حولهم أغاني العزة والنصر . وذهب أسامة من فوره إلى المسجد ، فركز اللواء الذي عقده له رسول الله ، وصلى شكراً لله على ما نصره وأعزّ بجيش المسلمين كلمة الحق ودين الهدى .

ما هذا كله ؟ ! أليست هي المعجزة أراد الله أن يتم بها النصر لدينه ! وهل تتضافر الأقدار بمحض المصادفة هذا التضافر الذي دوى في أنحاء شبه الجزيرة ، فشد من عزائم المسلمين في كل قبيلة ، ورفع من رءوسهم في وجه عدوهم فما يدرى مرتد ما يقول لهم ! . .

أبو بكر يخرج
كرة أخرى لقتال
من منعوا الزكاة

ورأى أبو بكر في حصافته ودقة تقديره الأمور ألا يُريح أعداءه وأن يضاعف ذلّتهم ، فقال لأسامة وجنده : استريحوا وأريحوا ظهوركم . ثم استخلف أسامة على المدينة ، ونادى في رجاله الأولين بالخروج معه إلى ذى القصة . وناشده المسلمون قائلين : « ننشذك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك ، فإنك إن تُصَبّ لم يكن للناس نظام ، ومُقامك أشد على العدو ، فابعث رجلاً ، فإن أصيب أمّرت آخر » . لكن أبا بكر كان إذا اعتزم أمراً لم يرجع عنه ؛ لذلك قال لهم : « لا ! والله لا أفعل ، ولأواسينكم بنفسى » . وخرج ومن حوله الميمنة والميسرة والساقة ، كما خرج من قبل ، حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق فيما وراء ذى القصة . هناك قاتل عبساً وبني ذبيان وبني بكر فغلبهم وأجلاهم عن مواقعهم . وكانت الأبرق في ملك بني ذبيان . فلما جدّوا عنها أعلن أبو بكر أنها أصبحت في ملكه وملك أصحابه . وقال : « حرام على بني ذبيان أن يملكوا هذه البلاد وقد غنمناها الله » .

وبقيت هذه الأماكن من بعدُ يحتلها المسلمون ، فلم يرض أبو بكر أن يردها إلى بني ثعلبة حين جاءوا إليه بعد أن استقرت الأمور يريدون العود فيها إلى منازلهم .

تمت هزيمة الثائرين الذين أرادوا أن يمنعوا الزكاة . وتمت هذه المرة والمدينة في منعة أي منعة بجيش أسامة ، وفي رخاء بما جاء به من الغنائم ، وبما حُمِلَ إليها من زكاة المسلمين الذين آتوا الزكاة منذ انتصر خليفة رسول الله .

أما آن لبني ذبيان وعبس وغطفان وبني بكر وغيرهم من القبائل القريبة من المدينة أن ترجع عن انتقامها ، وأن تدعن لأبي بكر وتعلن الإسلام لأمر الله وخليفة رسول الله ؟ لقد تحطمت الثورة التي قام بها العنسي في اليمن . ولقد انتصر المسلمون على تخوم الروم . ولقد بدا أبو بكر في ثوب من قوة الإيمان لا غالب له . وهذه القبائل كانت إلى أن اختار الله إليه رسوله مُسلمة صادقة في دينها ، فخير لها أن تعود إلى حظيرة الإسلام وأن تمد يدها إلى الصديق بالطاعة . وأن تكون معه على عدو الله وعدوه . ذلك ما يوجب العقل وما يقضى به منطق الحوادث . فأولئك المسلمون من المهاجرين والأنصار هم الذين تغلبوا على أهل شبه الجزيرة جميعاً بقوة إيمانهم ؛ وهم اليوم في قوة لم تكن لهم أيام بدْر والغزوات الأولى في عهد الرسول . فمكة معهم ، والطائف معهم ، وسلطانهم معترف به في مختلف البقاع . ثم إن من أهل هذه القبائل الثائرة بأبي بكر مسلمين إن استطاعت القبائل أن تفتن بعضهم فلا سلطان لها على الأعزة منهم ، مخافة الثارات والفتن التي تنجم عن تعصب البطون والأفخاذ لذوى المكانة فيها . أفأذعن لحكم العقل وسمعت لحجة المنطق ؟ .

كلا ! بل أخذتها العزة بالإثم ، وغرها بالله الغرور ، وصدق عليها المثل : العناد يورث الكفر . لذلك جلت عن مواطنها وانحازت إلى طليحة بن خويلد المتنبئ في بني أسد وكفرت بنعمة الله عليها بالإسلام . ولم يستطع المؤمنون الذين أقاموا على دين الله بينها أن يقاوموا عنادها وكفرها ، فترح منهم من نزع معها كارهاً برماً لا يملك من أمر نفسه شيئاً . وقَوَّى انحيازها طليحة ومُسيلمة

انحياز المنهزمين
إلى طليحة في
بني أسد

وقوى روح التمرد في اليمن . لذلك بقي أبو بكر في موقفه الأول من العزم على مقاتلتهم حتى يتم أمر ربك . ولو أن هذه القبائل أذعنت لحكم العقل وأصاحت لإملاء المنطق لضضع أمرها من عزم طليحة وأشباهه ، ولأسرعت شبه الجزيرة إلى حمى الإسلام والسلام .

موقف القبائل
من أبي بكر
وموقفه منها

ولست تجد تعليلاً لهذا العناد ولهذا الانقلاب عن الإسلام إلا ما قدّ منا من تعصب القبائل وحرصها البدوي على سلطانها ، ومن المغالاة في ذلك إلى حد لا يكبح من جماحه غير البأس . فإذا كانت قد رُدَّتْ على أعقابها حين حاولت مهاجمة المدينة ، أو كانت قد أجليت عن بعض منازلها من بعد ، فطبيعتها البدوية تدعوها إلى الثأر لنفسها . ولتثار لنفسها انضمت إلى بني أسد وإلى طليحة ، لعلها تجد في عونها ما يرفع عنها عار الذلة ، وما يرد إليها شيئاً من الكرامة .

فأما أبو بكر فكان قد سما فوق الاعتبارات القَبَلِيَّة وما يتصل بها ، وتوجه بكل قلبه ورأيه وعزيمته إلى تنفيذ الخُطَّة التي رسمها رسول الله . تلك سياسته التي أعلنها يوم بويج ، والتي سار عليها إلى أن لقي ربه .

الفصل السادس

التهيؤ لحروب الردة

هزم أبو بكر عبساً وذبيان وبنى بكر ومن انضم إليهم وأجلاهم عن مواقعهم بالأبرق ، فانحازوا إلى طليحة بن خويلد الأسدي ببزاحة . وقد أعلن أبو بكر أن الله غنمه هذه البلاد فلن يردّها إلى أصحابها ، وأنه جعل الأبرق لحلول المسلمين ، وأرعى سائر بلاد الرّبذة الناس وجعلها صدقات للذين آمنوا ورجع الصديق إلى المدينة وهو يفكر في الوسيلة التي يقضى بها على الذين ارتدوا عن الإسلام القضاء المبرم . فما كان ليذرهم في شتّى الأنحاء من شبه الجزيرة يشورون به وبدين الله ، وما كان ليصالحهم أو يوادعهم قبل أن يثوبوا إلى الله وأن يرجعوا مسلمين .

توزيع الجند
أولية لقتال
المرتدين

وأقام بالمدينة ، حتى إذا اطمأن إلى أن جيش أسامة جسمٌ خرج به إلى ذى القصة فوزع الجند أحد عشر لواءً جعل على كل لواء منها أميراً ، ثم أصدر إلى كل منهم أمره أن يستنفر من يمر به من المسلمين أولى القوة وأن يسير لقتال المرتدين * .

* وزع أبو بكر هذه الأولوية توزيعاً يجعلها تتناسب في عددها وفي إمارتها مع قوة القبائل التي وجهها إليها ، وبلغ إلحاح هذه القبائل في الردة . لذلك وجه خالد بن الوليد على رأس اللواء الأول لقتال طليحة بن خويلد في بني أسد ، فإذا فرغ منه صار إلى مالك بن نويرة زعيم بني تميم بالبطاح . وبنو أسد وبنو ميم كانوا أقرب القبائل المرتدة إلى المدينة ، فكان طبيعياً أن يبدأ المسلمون بهم لتفت هزيمتهم في أعضاد غيرهم . وخالد أجدر القواد بأن يعقد النصر له لواءه .

وجعل أبو بكر عكرمة بن أبي جهل على اللواء الثاني ووجهه لقتال مسيلمة في بني حنيفة بإيالة . ثم جعل شرحبيل بن حسنة على اللواء الثالث وأمره بمعاونة عكرمة على مسيلمة . فإذا فرغ منه لحق شرحبيل بقضاة مدداً لعمر بن العاص . وقد استعصت إيالة على عكرمة وعلى شرحبيل ثم كان خالد بن الوليد هو الذي قضى على الردة فيها بعد أن قتل مسيلمة في غزوة عقرباء .

وعقد أبو بكر للمهاجر بن أبي أمية المخزومي إمارة اللواء الرابع لقتال جنود العنسي باليمن ولقتال عمرو بن معدى كرب الزبيدي وقيس بن مكشوح المرادي ورجالهما ، فإذا فرغ منهم =

احتفظ أبو بكر للمدينة بقوة تحميها كانت دون الأولوية عدداً . ذلك أن المدينة كانت يومذاك بمأمن من غارة المغير ، وكانت في رخاء زاد أهلها اطمئناناً للحياة . وكيف لقبيلة أن تُغير عليها والغارات توجه منها إلى كل صوب ، وقد تداول سمع الناس من أنباء جندها المظفر وماله من الأيد والبسالة ما جعل دفع هذا الجند غاية ما يطمع فيه الثائرون بها ! .

ومن يومئذ أقام أبو بكر بالمدينة لم يبرحها . ولم يكن ذلك رغبة منه عن مشاركة المسلمين في مواقعهم ، بل لأن المدينة أصبحت مكان القيادة العامة للجند كله ، والمرجع الذي تصدر منه الأوامر بالتحرك من مكان إلى آخر . فقد كان مما أمر به أبو بكر قواده ألا ينتقل أحدهم من حرب جماعة تغلب عليها إلى مواجهة أخرى لمقاتلتها حتى يستأذنه ؛ وذلك إيماناً منه بأن وحدة القيادة في الحرب بعض ما تقضى به السياسة الحكيمة ، وما يكفل الغلب والفوز .

أبو بكر بالمدينة
مركز القيادة
العامة

وقد لاحظ جماعة من الأنصار أن أبا بكر جعل الأولوية للمهاجرين ولم يجعل لهم منها نصيباً . وهو إنما فعل هذا ليبقى أهل المدينة على قوات الدفاع عنها ؛ فهم أعلم بأمرها ، وأحرص من غيرهم على الذود عن حياضها . أما ما ظنه بعضهم من أنه استبقاهم حذراً منهم بعد الذي أبدوه في سقيفة بني ساعدة فلا مسوغ له . فهذه الأولوية إنما عقدت لقتال المرتدين . ولم يكن الأنصار دون المهاجرين إيماناً بالله ورسوله ، فالحذر من ناحيتهم في هذا القتال

اختياره أمراء
الألوية من
المهاجرين

= قصد إلى كندة وحضرموت يقاتل الأشعث بن قيس والمرتدين معه . أما اللواء الخامس فوجهه إلى تهامة اليمن وجعل عليه سويد بن مقرن الأوسي .

وعقد إمارة اللواء السادس للعلاء بن الحضرمي لقتال الحطيم بن ضبيعة أخى بني قيس بن ثعلبة والمرتدين معه بالبحرين . ووجه حذيفة بن محسن الغلفاني من حمير على رأس اللواء السابع لقتال ذي التاج لقيط بن مالك الأزدي المتنبئ في عمان . وكانت وجهة اللواء الثامن وعليه عرفة بن هرة إلى مهرة . كان طبعياً أن توجه هذه الأولوية إلى الجنوب لبأس أهله وإلحاحهم في الردة . أما الشمال من شبه الجزيرة فتوجهت إليه ألوية ثلاثة ، على أحدها عمرو بن العاص لقتال قضاة ، وعلى الثاني معن ابن حاجر السلمي لقتال بني سليم ومن معهم من هوازن ، وعلى الثالث خالد بن سعيد بن العاص لاستبراء مشارف الشام . .

لا مسوّغ له . ولو أن مثل هذا التأويل ساغ في شأن الأنصار لساغ كذلك في شأن كبار المهاجرين أمثال عليّ ، وطلحة ، والزبير ، ممن أقاموا كما أقام عمر بن الخطاب بالمدينة ليشيروا على أبي بكر ، فيكون مركز القيادة العامة قويّاً بهم وبما يضعون من خُطَط ويدبّرون من أمور .

أبو بكر فوق
الشبهات

وممّ كان أبو بكر يحذّر أو يخشى ؟ إنه لم يتول الخلافة رغبة منه فيها ، بل لأن أولى الرأى بالمدينة رأوه أصلحهم لها . ولقد أبدى منذ تولّاها من التقدير لأعبائها ما يشهد بأنه قبلها مضحياً في سبيل الله . كان مما قاله وهو يخطب الناس بعد قليل من تمام بيعته : « أما بعد ، فإنّي وَلَّيْتُ هذا الأمر وأنا له كاره . والله لوددت أن بعضكم كفانيه ! » . وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك » . فرجع الناس زعوسهم دهشاً فقال : « مالكم أيها الناس ! إنكم لطمعّانون عَجِلُونَ . إن من الملوك من إذا ملك زهّده الله فيما بيده ، ورغّبهُ فيما بيد غيره . . . فهو كالسراب الخادع ، جَدَلِ الظاهر ، حزين الباطن » وكان منزل أبي بكر بالسُّنَح عند زوجته حبيبة بنت خارجة منزلاً بدويّاً صغيراً لم يغيّر منه ولا غيّر من منزله بالمدينة بعد ما بويع ، بل أقام به ستة أشهر يغدو على رجله من السُّنَح إلى المدينة ، وربما ركب فرساً له . وكان يتّجّر في الثياب فلما رأى أعباء الدولة أشق من أن تتفق والتجارة قال : « لا والله ما يصلح أمر الناس والتجارة ! وما يصلح لهم إلا التفرغ والنظر في شأنهم . ولا بد لعيالي ما يصلحهم » . وترك التجارة ووظّف له من بيت مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله . فلما حضرته الوفاة قال : « رُدُّوا ما عندنا من مال المسلمين فإنّي لا أصيب من هذا المال شيئاً ، وإنّ أرضي بمكان كذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم » . قال عمر بن الخطاب وهو يستولى على هذه الأرض بعد ما استخلف : « لقد أتعب أبو بكر منّ بعده » .

رجل ذلك شأنه مِمّ يحذّر ! وما كان عسى أن يحذر يوم عقد الألوية الأحد عشر وكانت مكانته قد توطدت بين المسلمين ، بل بين العرب جميعاً ، بما أبدى من حزم وحسن رأى وصدق إيمان وحرص على التضحية كانت كلها بعض صفاته في جميع أدوار حياته ، ثم بلغت أوج قوتها وصفائها في هذه

الآونة التي جلّ الشيب فيها رأسه بعد أن تخطى الستين وتولى خلافة رسول الله . لذلك لم يخامر أحداً الرب في مقاصده ، ولم يتردد أحد في تنفيذ ما أمر به .

ولقد كان اللواء الذي عقده لخالد بن الوليد أمنع الألوية الأحد عشر وأقواها ، وكان به خيرة المقاتلة من المهاجرين والأنصار . ولعل خالداً هو الذي اختارهم . وسرى من بعد أنهم أبْلَتُوا في حروب الردّة خير بلاء ، ثم كان لهم في حروب العراق والشام بلاء لا تُبْلِيه الأيام ، ولا يجنى عليه النسيان .

لواء خالد بن الوليد

ولا عجب أن يكون ذلك شأن لواء على رأسه خالد بن الوليد . فقد كان خالدٌ عبقريةً في الحرب لا يغلب . آتاه الله موهبتها ، كما آتى هذه الموهبة الإسكندر الأكبر ، وجنكيزخان ، ويوليوس قيصر ، وهانيبال ، وزابليون . كان بطلاً مقداماً وفارساً مغامراً ، ثم كان له من سلامة الحكم وسرعته ما يجنبه كل خطر للمغامرة أو الإقدام . وكان مداوراً في الحرب أهدم سرها ، وتجلّى له ما جل ودق من أمرها . وكان الناس جميعاً يشهدون له بهذا ، وقد سمّاه رسول الله « سيف الله » حين تولى أمر الجيش « بمؤتة » بعد مقتل زيد بن حارثة ، وجعفر ابن أبي طالب وعبد الله بن رواحة ، فداور به في وجه الروم ثم ارتد به سالماً لم ينتصر ولم يلحقه عار الهزيمة . وبقي خالد سيف الله في كل وقائعه إلى أن مات .

خالد بن الوليد
عبقرى الحرب
وسيف الله

وكان خالد قبل إسلامه بطل قريش المغوار وفارسها المَعْلَم . لذلك كان في وقائع بدرٍ وأحُدٍ والحنديق على جيش المشركين . وكان له من صفات الجندی خشونة في الطبع ، وميل إلى الشدة والبطش ، وتسرع لولا سلامة حكمه لأضرّ به . من ثمّ كان لا يهاب الأقران ولا يخشى أحداً . لما ذهب رسول الله إلى مكة في عمرة القضاء بعد عهد الحُدَيْبِيَّةِ ثم عاد إلى المدينة ، وقف خالد ابن الوليد في جمع من قريش يقول : « لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين . فحق على كل ذي لب أن يتبعه » . ودار لذلك بينه وبين عِكْرِمَةَ بن أبي جهل حوارٌ لم يبلغ العنف

فيه مبلغاً تخشى مغيبته . ولم يكن أبو سفيان حاضراً هذا الاجتماع . فلما بلغه إسلام خالد بعث في طلبه وسأله : أحق ما بلغه عنه ؟ أجابه خالد أنه حق ، وأنه أسلم ، وشهد برسالة محمد ؛ فغضب أبو سفيان وقال : « واللات والعزى لو أعلم أن الذي تقول حقٌ لبدأت بك قبل محمد » . وكان جواب خالد في حدة المعتز بنفسه : « فوالله إنه لحقٌ على رَغْمٍ من رَغْمٍ » .

ولحق خالد بالمدينة ، فلم يلبث أن سميت مكانته بين المسلمين بوصفه محارباً . فلما كانت مؤتة كان سيف الله فيها ، ثم كان سيف الله من بعد ؛ فتح الله به العراق والشام ، وأذل به فارس والروم الإمبراطوريتين العظيمتين صاحبتى الأمر والنهى في شئون العالم يومئذ . فلا عجب أن يختاره أبو بكر أميراً على لوائه الأمان . ولا عجب أن يكون لخالد في حروب الردة وما تلاها ما سنقص عليك نبأه من بعد .

المهجوم السلمي
الذي سبق
حروب الردة

هل سير أبو بكر هذه الألوية الأحد عشر للقتال أول ما تم تجهيزها ؟ وهل سيرها كلها دفعة واحدة ؟ ذلك ما يذكره بعض الرواة وإن دللت الوقائع على خلافه . لكنه على كل حال لم يسير أولها حتى بدأ بهجوم سلمى مهتد به لها خير تمهيد . فقد أذاع في الناس من أهل شبه الجزيرة جميعاً كتاباً تحدث فيه إلى من بلغه هذا الكتاب من عامة أو خاصة ، أقام على الإسلام أو رجع عنه . وقد بدأ هذا الكتاب بحمد الله والثناء عليه ، وذكر بعثه محمداً بالحق من عنده بشيراً ونذيراً ، ثم أشار إلى وفاة رسول الله بعد أن بلغ ما أمره الله أن يبلغه للناس ، وأن الله قد بين ذلك لأهل الإسلام فقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » . وقال : « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَئِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ » . وقال : للمؤمنين : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .

وإنما أراد الصديق بذكر هذه الآيات أن يدفع بها ما ثار من الفتنة بقول

الذين قالوا : لو أن محمداً كان رسولا حقاً مامات . وبعد أن فرغ من ذلك ومن الإيصاء بتقوى الله والاعتصام بدينه قال : «وقد بلغنى رجوعُ مَنْ رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به، اغتراراً بالله عز وجل، وجهالة لأمره، وإجابة للشيطان . . وإني قد أنفذت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله . فمن استجاب وأقرّ وكفّ وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى ، أن يقاتله على ذلك ، ولا يُبقي على أحد منهم قَدَرٌ عليه ، وأن يُحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ، ويسبي النساء والذراري ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام . فمن آمن فهو خير له ، ومن تركه فلن يُعجزَ الله . وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم . والداعية الأذان » . لذلك كان المسلمون إذا أذّنوا فأذّن الناس كفّوا عنهم ، وإن لم يؤذّنوا سألوهم ما هم عليه ، فإن أبوا عاجلوهم .

كتاب الصديق
إلى المرتدين

أذاع أبو بكر هذه الرسالة في مختلف الأنحاء من شبه الجزيرة . وإنما ابتغى بها أن يدع للمترددين فرصة للتفكير ؛ فإنه قد انساق كثيرون وراء الدعاة مخافة ما يصيبهم إذا أقاموا على إسلامهم . فإذا رأوا أنفسهم بين قوتين مالت نفوسهم إلى إسلامها ، أو أمسكوا على الأقل عن نصره زعماء الردة . بذلك تُحقّق دماء ، وبه يتضعضع عزم كثيرين فلا يقاومون . وسرى أن هذا الأثر الذي قصد إليه أبو بكر من هجومه السلمي قد تحقق منه حظٌ عظيم .

على أن أبا بكر لم يقصد من هجومه ذاك مداورة يقف عندها ، فإن أنتجت أثرها فذاك ، وإن لم تنتجها التمس وسيلة غيرها لهجوم سلمي آخر . كلا ! بل لقد كان جاداً كل الجدة في كل كلمة من كلمات كتابه ، وفي كل صورة من صور التهديد التي ذكرها فيه . فهو لم يلبث حين أتم هذا الكتاب يُعذّر فيه للمترددين ويُنذرهم أن كتب إلى أمراء الألوية عهداً لقتال مَنْ رجع عن الإسلام أن يجاهدوهم بعد أن يُعذّروا إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام . فإن أجابوا الأمير على جند المسلمين أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم

جد الصديق في
هجومه السلمي

حتى يقرّوا له ، ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم ، فيأخذ ما عليهم ، ويعطيهم ما لهم ، ولا يُنظرهم . ومن يجب الدعوة لم يكن لأحد عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعدُ فيما استسرّ به . أما من لم يجب داعى الله فليقتل وليقتل حيث كان ، ولا يقبل منه إلا الإسلام ، وليقتل بالسلاح والنيران .

سياسته ، وتأويل
حزم أبي بكر في
تنفيذها

بهذين الكتابين وبالألوية التي عقدها أبو بكر تمّ التجهيز لحروب الردّة . وأنت ترى في هذا كاله صورة صحيحة للسياسة الحازمة التي اتبعها أبو بكر في خلافته . وقد يحسبها البعض عجباً من أبي بكر مع ما عرف عنه من لين الطبع ودماثة الخلق والحرص على تأليف القلوب بالحسنى . لكنها ليست عجيبة ألبتة وإيمان الصديق بالله ورسوله لم يعرف التردد يوماً إليه سبيلاً . والطبائع الرفيقة تأبى العنف ولا تميل إلى الشدة في مألوف ما بين الناس من تجارة الحياة . فأما إن اتصل الأمر بشيء يؤمن أصحاب هذه الطبائع به ، فلن تقاس بشدتهم شدة ولا بقوتهم قوة . وكأنما رُكِّب في الفطرة الإنسانية مقدارٌ من الشدة واللين يتقارب قدره في كل فرد من الناس جميعاً ، ثم يتفاوتون في تقدير الأوقات والمناسبات التي تجب فيها الشدة أو يجب فيها اللين . فمنهم من تغلب الشدة طبعه أكثر الوقت ، فإذا رأته حسبته لا يابن أبداً . ومنهم من تغلب الرقة طبعه أكثر الوقت ، فإذا رأته حسبته لا يشتد أبداً . والواقع أنك ترى من تغلب الشدة طبعه يابن أحياناً ، فإذا به يبلغ في رفته وفي لينه حدّاً لا يجده الإنسان فيمن ألف منهم لين الجانب ورقة الطبع . والذين تغلبهم الرقة معظم الوقت وتبلغ حدّ التأم للغير والبكاء لشقائه ، يصلون من البأس والبهش أحياناً إلى حد لا يجده الإنسان فيمن كانت الشدة بعض طبعهم .

أفكان يظن أحدٌ أن يقف أبو بكر من بعث أسامة ذلك الموقف الحاسم مخالفاً كبار المسلمين ، مهاجريهم والأنصار ؛ أو أن يشتد في أمر الذين منعوا الزكاة لا يصدده عن قتالهم غياب جيش المسلمين عن المدينة ؟ ! وسترى له من بعد مواقف كهذه تثير عجبك وإعجابك لبأس رجل كله الرقة والرفق ولين الجانب .

وقد بيّنا تأويل ذلك من قبل حين تحدثنا عن إيمان الصديق بالله ورسوله .

كان هذا الإيمان عنده هو الحق لا حق غيره ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكان حقاً كله ، فصلّله الله في كتابه الذى أوحاه إلى محمد عبده ورسوله . فإذا جاز أن يساوم الناس بعضهم بعضاً على أمر فى الحياة ، فلن تتناول المساومة هذا الحق المتصل بالله جل شأنه ، والذى لا يملك أحد من أمره إلا التسليم به والإذعان له . فمن حدثته نفسه بالخروج عليه فلا شأن لأبى بكر معه إلا أن يقاتله حتى يرده إلى الحق أو يقتله . وهو يقاتله ولو كان الصديق وحده ، ولو لم يبق فى القرى غيره . كذلك كان فى أمر من منعوا الزكاة . فأحرر به أن يكونه فى أمر من تمت ردتهم أو حدثتهم أنفسهم أن يؤمنوا برسول غير محمد رسول الله .

آن لأبى بكر بعد أن تم التهيؤ لقتال المرتدين أن يبدأ هذه الحرب الحاسمة فى حياة الإسلام . فقد كانت حرباً حاسمة لا ريب . ولئن لم ينتصر المسلمون فيها ليكون ذلك النذير بعود العرب إلى جاهليتهم الأولى . لكن الله جل ثناؤه قدّر أن يُظهر دينه على الدين كله ، وجعل أبا بكر آية له تطالع الناس بما أراد وقدّر . لذلك لم يعرف تاريخ الإسلام ولن يعرف حروب ردة كالتى واجهها أبو بكر فتغلّب بإيمانه عليها ، ثم كانت طليعة انتشار الإسلام فى الخافقين .

حروب الردة
حاسمة فى حياة
الإسلام

الفصل السابع

طليحة وغزوة البزاحة

باعث عبس وذبيان وبنو بكر ومن آزرهم في مهاجمة المدينة بعار الهزيمة ، فانحازت إلى طُلَيْحَة بن خُوَيْلِد الأسدي . وانضم إلى هؤلاء قبائل طيء وغطفان وسُلَيْم وما جاورها من أهل البادية الواقعة شرق المدينة وإلى شمالها الشرق . وكانوا جميعاً يقرلون ما يقرله عُسَيْبَة بن حِصْن ومن معه من بني فزارة : « نبي من الخليفين - يعنون أسداً وغطفان - أحب إلينا من نبي من قريش . وقد مات محمد وطليحة حي » .

ولم يكن هؤلاء في ريب من أن أبا بكر سيتجهز لهم ويحاربهم . لكنهم أصرّوا على مناهضته ، وعلى متابعة طليحة ، تمرداً على سلطان المدينة ، وحرصاً على استقلالهم ، واستكباراً أن يؤثّروا الزكاة ، إذ هم يرونها إتاوة يؤديها التابع للمتبوع . وكان طليحة يقيم بسميراء ، ثم انتقل منها إلى بزاحة بحسبها أمتع موقعاً وخيراً في الحرب مكاناً .

تنبؤ طليحة بن
خويلد الأسدي

وطليحة لم يتنبأ بعد موت رسول الله ، بل تنبأ في العهد الأخير من حياته ، شأنه في ذلك شأن الأسود العنسي ومُسيلمة . وهو لم يدعُ العرب إلى العودة لعبادة الأصنام ، كما لم يدعُهم غيره من المتنبيين إلى العودة لعبادتها . لقد قضى محمد على هذه الوثنية في بلاد العرب قضاءً مبرماً ، فامتدت دعوة التوحيد إلى أنحاء شبه الجزيرة جميعاً ، واستقرت في النفوس استقراراً جعل التفكير في الأصنام ضرباً من الهذيان يستحي منه كل إنسان . وإنما زعم أولئك المتنبيون أنهم يوحى إليهم كما يوحى إلى محمد ، وأن الملك يأتيهم من السماء كما يأتي محمد . وقد حاول بعضهم محاكاة القرآن فيما أوهم أنه يوحى إليه ، وحفظت الروايات لنا صوراً لما زعموا من ذلك يصعب القطع بصحة نسبتها . فهي من السخف بحيث يتعذر على أي إنسان أن يتصور كيف يرضى متنبئٌ إذاعتها باسمه في الناس ، وكيف يُقبل الناس عليه أو يتبعونه حين يروونه ينسب هذا الهذر إلى

الوحي ويدعى أنه من كلام رب العالمين . وحسبُك أن تتلو ما قيل أن طليحة زعم أنه أوحى إليه لترتاب في أن يدعيه رجل تجتمع العرب حوله ، ثم يكون له من بعد في الإسلام مواقف لا يزال يحفظها التاريخ عن وقائع الفتح في إبان عهد عمر بن الخطاب . ومما تذكر الروايات عما زعم طليحة أنه أوحى إليه قوله : « والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، قد صُمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام » .

ما يزعم طليحة أنه يوحى إليه

لقد طالما قرأنا عن سجع الكُهَّان في الجاهلية . وكلنا نذكر أن قريشاً حاربت محمداً بأنه كاهن ، وبأن ما يوحى إليه هو بعض هذا السجع . ولقد استبان لمن عاصروا النبي أن هذه الدعاية هُراء حين توجَّه إلى القرآن ، ثم استبان للعرب وللناس جميعاً أن القرآن معجزة محمد ، لن يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ولقد كان طليحة كاهناً ، كما كان العنسي كاهناً . أفهذا السجع الذي ادَّعَوْه وحيّاً كان من سجع الكهان ؟ ! لئن صح ذلك لقد كان هؤلاء الكهان طرازاً من المشعبدن أعجب طراز ، ولقد كان ما ينسب إليهم من الحكمة مما يزرى بالحكمة .

وسواء أصبحت نسبة هذه الأقوال إلى طليحة أم لم تصح فإنه قام يدعو إلى آراء لم يحفظ لنا التاريخ منها شيئاً يذكر . وكل ما يحدثنا به أنه أنكر الركوع والسجود في الصلاة ، وقال إن الله لم يأمر أن تمرغوا وجوهكم في التراب ، أو أن تقوسوا ظهوركم في الصلاة . فإن يكن ما نسب إليه من ذلك صحيحاً فلعله نقله عن الصلاة عند المسيحيين . وإنما ترجع قلّة ما بقي لنا من آثار طليحة ومُسَيْلِمة وأضرابهما إلى مثل السبب الذي ترجع إليه قلة ما لدينا عن الأصنام ؛ فقد عفى المسلمون الأولون على ذلك كله ، ولم يفكر أحد منهم في تدوينه أو روايته ، ولم يدون من بعد إلا ما عدّ تدوينه تأييداً للدين القيم . وأنت تعرف أن المسلمين لم يدونوا في الصدر الأول شيئاً إلا ما كان من جمع أبي بكر كتاب الله . فأما جمع السنة والحديث فقد حدث بعد القرن الأول ، وقد اقتضى العاملين عليه من المشقة ما لم يهونه إلا عظيم الرجاء في مشيئة الله عنه . فلا عجب وذلك هو الشأن أن تخامرنا الريبة في كثير من الروايات عن طليحة

موقف المسلمين من آثار المتنبيين

وغيره من المتنبيين ، وبخاصة إذا لم تتفق هذه الروايات والمعروف من حياة العرب في حضرهم وبدوهم ، ولم تتسق مع ما يتصل بها من الأحداث والشئون .

محمد يأمر بقتال
المرتدين في بني
أسد

تنبأ طليحة في بني أسد ، كما تنبأ الأسود في اليمن ومسيلمة في اليمامة ، في حياة النبي . هناك وجه محمد ضرار بن الأزور إلى عماله على بني أسد يأمرهم بالقيام على كل من ارتد . ونزل المسلمون وآرِدات ، ونزل طليحة وبنوه سَمِراء . وكان عدد المسلمين يزداد ، وعدد المرتدين ينقص ، لتواتر الأنباء عن نصر المسلمين في شتّى الميادين ، حتى هم ضرار بالسير إلى طليحة لمقاتلته . ولقد سبقه أحد المسلمين يريد أن يُريح من هذا المتنبي فصر به بالسلاح فنبأ عنه ولم يُصبه . وأسرع المحيطون بطليحة فأذاعوا هذا الأمر في الناس وجعلوا يقولون إن السلاح لا يجوز في نبيّهم . وأن المسلمين ليتجهّزوا لمواجهة هذا الموقف إذ جاءهم النبا بوفاة رسول الله ، فاضطربوا وتناقص عددهم ، وهرع الكثيرون منهم إلى طليحة يتابعونه ويؤيدونه . فلما انحازت إليه عَشِيرَتُهم وذبيان بعد أن هزمهم أبو بكر بندي القصّة اسغلظ أمره وظنّ أن لن يغلب .

عيينة بن حصن
الفزاري يؤيد
طليحة

اجتمع إلى عبس وذبيان من القبائل ما زاد طليحة قوة . ذلك أن أسداً وغطفان وطيشاً كان بينهما حلف في الجاهلية من قبل أن يُبعث رسول الله ، ثم إن أسداً وغطفان اجتمعتا على طي فأجلوها عن ديارها ، وانقطع بذلك ما بينهما وبينهما . فلما مات رسول الله قام عيينة بن حصن الفزاري في غطفان فقال : « ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد . وأنا لحجّد الحلف الذي كان بيننا في القديم وتتابع طليحة . والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش . وقد مات محمد وبقي طليحة » . وتابع عيينة قومه على رأيه ، فاشتدت بهم شوكة المرتدين حتى فرّ من كان بينهم من المسلمين إلى المدينة .

اجتمعت هذه القبائل في بزاخة معلنة ردتها وخروجها على سلطان المدينة . وتهايا أبو بكر فعقد الألوية لقتالهم ، وبعث إليهم ، كما بعث إلى غيرهم من أهل شبه الجزيرة ، بكتابه يهددهم فيه بالقتال والقتل إن لم يعودوا إلى حظيرة الإسلام .

وكان خالد بن الوليد هو الموكل بطليحة وبمالك بن نويرة من بعد . فهل أسرع بالسير إليه ليناجزه وليناجز معه كل هذه القبائل ؟ كلا ! بل أذاع أبو بكر أنه خارج بنفسه على رأس جيش إلى خيبر حتى يلاقى خالداً فيُعينه على جموع المرتدين . ثم إنه طلب إلى عدى بن حاتم ، وكان قد جاء بالزكاة إلى المدينة كما أسلفنا ، أن يذهب إلى قومه طيء يخوفهم عاقبة أمرهم إذا أصرروا على ردتهم . ولم يقصد خالد إلى البزاة من فوره ، بل جنح إلى أجا وأظهر أنه خارج إلى خيبر لينضم إلى جيش الخليفة ثم ينصب الجيشان على البزاة . وبلغ عدى قومه وقد ذاعت هذه الأنباء في الناس .

سياسة أبي بكر
التفريق بين طيء
وجلفاتها

وتحدث عدى إلى بني طيء يدعوهم ليرجعوا إلى الإسلام ، وليكونوا مع أبي بكر صفاً قالوا : « لا نتابع أبا الفصيل أبداً » . وأبا الفصيل كنية أراد خصوم الصديق أن يسخروا بها من كنيته أبي بكر . هنالك قال عدى : « لقد أتاكم قوم ليسبيحن حرمةكم ، ولتكنننه بالفحل الأكبر ، فشأنكم به » . وذكر لهم من عدة المسلمين وعُدّدهم ما روعهم وأفزعهم وأراهم الفصيل فحلا حقاً . وأنى لهم أن يرتابوا في حديث عدى وقد هزم أبو بكر عبساً وذبيان ومن ناصرهما حين كانت جيوشه بعيدة عنه على تخوم الروم ! وفيهم يقاتلون أبا بكر وعدى لا يطلب إليهم إلا أن يقيموا على ما كانوا عليه في عهد الرسول !! وهل تراهم يعرضون أنفسهم وأبناءهم ونساءهم لما عُرِف عن خالد من شدة وقسوة لغير شيء إلا أن يستبدلوا طليحة بأبي بكر !! .

تحدث بعضهم إلى بعض في هذا ، فرأوا أن عدياً على الحق ، وأنه يخلص لهم الرأي ويصدقهم النصيحة . عند ذلك توجهوا إليه بالقول : « إذن فاستقبل الجيش فسنهنهه عنا حتى نستخرج من لِحق بالبزاة منا ؛ فإننا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم وارتهنهم » . وفرح عدى بما بلغ من إقناعهم ، وكرّر راجعاً إلى السنح فاستقبل خالد وقال له : « يا خالد ! أمسيك عنى ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل لتضرب بهم عدوك ، وذلك خير لك من أن تسعججهم إلى النار وتشتغل بهم » . ولم يكن خالد ليخفى عليه ، وهو الخبير النابغة في الحرب ، أن انسلاخ طيء عن طليحة يضعفه ويفت

في عضده . لذلك أمسك ثلاثة أيام عن السير ، في حين عاد عديٌّ إلى قومه طييء تتسلخ عن طليحة وتعود إلى طليحة وتقاتل مع خالد بن الوليد

فألفاهم أرسلوا إلى إخوانهم بالبزاحة أن يأتوهم مدداً يعاونهم على جند المسلمين قبل أن يهاجموا طليحة . وراقت هذه الحجّة طليحة ، فتركهم ينصرفون إلى طييء . فلما تحدثوا إلى قومهم وتحدث إليهم قومهم برأى عديٌّ اقتنعوا وعاد عديٌّ بإسلامهم إلى خالد .

وارتحل خالد نحو الأنسر يريد جديلة . وتعرض له عديٌّ كرةً أخرى فقال له : « إن طيئاً كالطائر ، وإن جديلةً أحد جناحي طييء ، فأجئني أياماً لعل الله أن ينتقد جديلة كما انتقد الغوث » . ولم يتردد خالد في إجابته إلى ما طلب ، فذهب إلى جديلة ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، فجاء خالد بإسلامهم ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب . يقول المؤرخون : فكان عديٌّ خير مولود ولد في أرض طييء وأعظمه عليهم بركة .

بلغت أنباء طييء وجديلة طليحة وهو فيمن بقي معه بالبزاحة . ولست في حاجة إلى أن أذكر ما وهنت هذه الأنباء من عزمه وأضعفت من قوته . لكنه أصرّ مع ذلك على موقف المقاومة إذا هوجم . وما كان له أن يفعل غير ذلك ، وإلى جانبه عيينة بن حصنٍ على رأس سبعمائة من فزارة ، وهو أشد الناس حنقاً على أبي بكر وحرصاً على توهين سلطان المسلمين . فعيينة هو الذي كان على رأس فزارة في غزوة الأحزاب ، وكان صاحب كتيبة من الكتائب الثلاث التي حاولت مهاجمة المدينة بعد اتفاق الأحزاب مع بني قُريظَة . ثم إنه هو الذي أراد الإغارة على المدينة بعد قليل من هزيمة الأحزاب ، فصدّه رسول الله ، وحماه على الفرار في غزاة ذي قرد . فإن يكن قد أسلم بعد موافقه تلك ، فإنما أسلم مُدْعِناً للقوة التي لا تُغلب . أما وقد قبض الله رسوله إليه فلن يرضى عن سلطان أبي بكر . لن يستطيع طليحة إذن أن يرجع عن نبوته بعد أن غادرته طييء وجديلة وهو يعلم أن رجوعه يقلب عليه عيينة ويثير عليه كل من حوله . ويعرض حياته للخطر . فليُقيم حيث هو : ولينتظر خالد بن الوليد ومن معه . ثم ليكن الأمر بعد ذلك ما يكون .

وآن لخالد أن يتحرك لمقاتلة المرتدين ، فأرسل طليعةً له عكاشة بن

طلیعة خالد بن الولید لقتال طلیعة الشوكة . ولقی عكاشة وثابت حبیلاً^(١) أخا طلیعة . فلما بلغ مقتله طلیعة خرج مع أخیه الآخر سلمة ينظران ویسألان . ولم یُمهّل سلمةُ ثابتاً حين رآه أن قتله . وثبت عكاشة لطلیعة ، فاستعان بأخیه سلمة وقتلا عكاشة ، ثم رجعا أدراجهما .

طلیعة خالد بن الولید لقتال طلیعة تقتل أخاه حبلاً

وأقبل خالد بن الولید بالناس ، فلما رأوا صاحبیهم قتیلین جزعوا وقالوا : سیّدنا من سادات المسلمین وفارسان من فرسانهم ! ورأى خالد ما بأصحابه من الجزع فآثر ألا یواجه بهم عدوهم حتی تطمئن نفوسهم . لذلك انحرف بهم إلى طیی ، واستنفر بمعونة عدیّ كل من استطاع أن یستنفره من رجالها . ورأى المسلمون عددهم یزداد وقوتهم تتضاعف بهذا العدد ، فطابت بالحرب نفوسهم ، فسار بهم خالد إلى بزاخة لیقضى على طلیعة غیر وان ولا متردد .

وكانت قیس وبنو أسد متجهزین حول طلیعة للقتال . قال قوم من الطائیین الذین انضموا إلى جنود خالد : سألنا خالداً أن نکفیه قیساً فإن بنی أسد حلفاؤنا . فقال : والله ما قیس بأوهن الشوکتین ، اصمدوا إلى أىّ القبیلتین أحببتم . فقال عدیّ : لو ترك هذا الدین أسرتی الأدنی فالأدنی من قومی لجاهدتهم علیه ، أفأنا أمتنع عن جهاد بنی أسد لحلیفهم ! لا لعمر الله لا أفعل ! فقال له خالد : إن جهاد الفریقین جمیعاً جهاد . لا تخالف رأى أصحابک ، امض إلى أحد الفریقین ، وامض بهم إلى القوم الذین هم لقتالهم أنشط . وكذلك قاتلت طیی قیساً ، وقاتل سائر المسلمین بنی أسد .

الطائیون یقاتلون قیساً

وكان عیینة بن حصن هو الذى یقود المعركة فی جانب طلیعة فی حين كان طلیعة یقیم فی بیت من الشّعر ملتفّاً فی کساء له یتنبأ للناس . فلما حمى وطیس الحرب ورأى عیینة قوة خالد والمسلمین کرّ على طلیعة یسأله : هل جاءک جبریل بعد ؟ قال : لا . فرجع عیینة فقاتل ، حتی إذا ازداد وطیس الحرب ضراماً کرّ راجعاً إلى طلیعة یقول : لا أبالك ! أجاءک جبریل بعد ؟ قال :

عیينة بن حصن یقود المرتدین وطلیعة یتنبأ لهم

(١) هكذا فی کتاب الکامل لابن الأثیر ، ولكن الذى فی الطبری والقاموس وغیرهما أن حبلاً هو ابن سلمة بن خویلد ، فهو ابن أخی طلیعة لا أخوه .

لا والله . قال عيينة : حتى متى ! والله لقد بلغ منا . ثم إنه رجع إلى الوطيس فرأى خيل خالد تكاد تحيط به وبأصحابه ، فرجع إلى طليحة فنزعاً يكرر : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : نعم . قال : فماذا قال لك ؟ قال طليحة : إنه قال لي : « إن لك رحماً كرحاه ، وحديثاً لا تنساه » . ولم يمالك عيينة حين سمع الهذر أن صالح : قد علم الله أن سيكون -ديث لا تنساه . ثم نادى في قومه : انصرفوا يا بني فزارة فإنه كذاب ! .

وانصرف الناس يُولُّون الأدبار . ومرو قوم بطليحة ينادونه : ماذا تأمرنا ؟ هزيمة طليحة وجيشه
وكان طليحة قد أعد فرسه عنده وهياً بعيداً لامراته النّوّار . فلما بصّر بالناس يغشونه وينادونه قام فوثب على فرسه ثم حمل امرأته ونجا بها ، وهو يقول : « من استطاع أن يفعل منكم مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل » .

كانت هذه خاتمة المقاومة التي حاول هذا المتنبئ أن يثبت بها لأبي بكر ، طليحة يفر إلى الشام ويعود إلى الإسلام
بل كانت هذه خاتمة نبوته ؛ فقد لحق بالشام وكذبه من قالوا من قبل بنبوته . واستقر المقام بطليحة في كلب فنزل بها ، وعاد إلى الإسلام حين بلغه أن القبائل التي تابعت قد عادت إلى الدين القيم . وخرج بعد ذلك إلى مكة معتمراً في خلافة أبي بكر ، فمرّ بجنابات المدينة ، فذكر بعضهم لأبي بكر مكانه ؛ فقال : « ما أصنع به ! خلّوا عنه فقد هداه الله للإسلام » .

ولما استخلف عمر بن الخطاب أتى طليحة يبّايعه ؛ فقال له عمر : أنت قاتل عكاشة وثابت ! والله لا أحبك أبداً ! قال : يا أمير المؤمنين ، ما يهلك من رجلين أكرمهما الله بيدي ولم يُهِنِّي بأيديهما ؛ فرضى عمر ببيعتة ، ثم قال له : يا خُدّاع ما بقي من كهانتك ؟ قال : نفخة أو نفختان . ثم رجع إلى قومه فأقام بينهم ، حتى خرج إلى العراق فأبلى بها مع المسلمين أحسن بلاء .

انصرف عيينة بن حصن في قومه من بني فزارة وأعلن على ملأ من الناس أن طليحة كذاب . وفرّ طليحة على فرسه واصططحب امرأته النّوّار ونصح للناس أن يفرّوا . أفكان ذلك آخر النضال بين خالد بن الوليد والقبائل التي وقفت في صف طليحة ، وبينه وبين القبائل المرتدة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ؟ قد يتبادر ذلك إلى الذهن ، وبخاصة إذا عرفت أن بني أسد قوم طليحة عادوا إلى الإسلام ولم يكن قد أصيب في القتال منهم أحد . لكن الواقع أن خالداً

خالديتي بالبزاخة
يقاتل فلول
القبائل المرتدة

بقي في عسكره بالبزاخة شهراً كاملاً ، وأنه قاتل من فلول القبائل مَنْ بقي على رِدَّتِه ، ومن اجتمع حول أم زِمْل يمالئها على عصيان أبي بكر وعلى الردة ؛ كما قتل من اعتدى على المسلمين بالقتل ، وبعث إلى المدينة بمن خرجوا على خليفة الرسول أمثال قُرّة بن هُبَيْرَة ، والفجاءة السُّلَمي ، وأبو شَجَرَة بن عبد العُزَي السُّلَمي . فدخلوها أسرى حتى أنفذ أبو بكر فيهم أمره .

السبب في إصرار
هذه القبائل
على ردتها

يحمل بنا قبل أن نقص نبأ أم زِمْل وسائر المرتدين من فلول جيش طُليحة ، أن نقف هنيهة وأن نسأل : ما بال هؤلاء القوم لم يرجعوا إلى الإسلام كما رجع بنو أسد قوم طليحة وأعرف الناس به ؟ ! أفلا يقتضيهما العقل بعد ما تبينوا كذبه أن يكونوا مع المؤمنين بنبوّة محمد ورسالته ؟ لقد أسلفنا جواباً على مثل هذا السؤال . فأكثر هؤلاء العرب إنما أذعنوا لنبوّة محمد ولم يؤمنوا بها . وكثير منهم من رأى عبادة الأصنام هزواً فعدل عنها إلى عبادة الواحد الأحد . لكنهم رأوا فيما فرضه عليهم محمد من التكاليف بحكم هذه العبادة ما لا تطمئن إليه طبائعهم ، فرأوا أن من الحق لهم أن يتحللوا منه . وقد صارحوا أبا بكر بهذا في أمر الزكاة ؛ لأن حب الناس المال أقوى في نفوسهم من كل شيء غيره . لكنهم كانوا يودون لو تحللوا من الصلاة ومن سائر التكاليف التي فرضها الإسلام عليهم . وهم إنما اتبعوا طُليحة ، واتبعوا مسيلمة ، واتبعوا غير هذين ، ليحطوا عن عواقبهم ما فرضه الإسلام عليهم . فإذا ثبتوا بعد فرار طليحة وأرادوا مواجهة خالد فذلك لأنهم يأملون في نصر يجعل أبا بكر يصالحهم على النزول عن بعض هذه التكاليف ويحقق لهم ما كانوا يرجونه من مصانعة طُليحة .

وثَمَّ سبب آخر يتصل بنفسية البدو والأعراب ومن إليهم جعلهم لا ينفضون بفرار طليحة . فقد كانت بينهم وبين المهاجرين والأنصار ثارات قديمة من عهد الرسول تناسوها حين تغلب الرسول عليهم فأذعنوا لسلطانه وأظهروا الرضا بأمره . وإنما كان شأنهم في ذلك شأن المغلوب يرضى كارهاً ، فإذا أتيحت له فرصة للثأر اقتنصها ولم يفتها . وهذه فرصة تهيأت لتعيد للأذهان يوم الأحزاب وغزوة الخندق . ولقد كانت المدينة مُوشكة أن تفتح أبوابها للأحزاب لولا الريح الصرصر العاتية التي جعلتهم يولون منها فراراً ويمتلئون رعباً . فليتهبلوا

هذه الفرصة التي أتاحها المقادير لمواجهة خالد وليثبتوا له ، لعلمهم يكونون أحسن حفظاً مما كانوا على عهد محمد ، ولعلمهم يستعيدون لقبائل البادية ذلك الاستقلال العزيز عليهم بعد أن تقلص ظله أو كاد .

ولو أن القبائل كلها حركتها هذه العواطف البدوية لدقّ موقف خالد والذين معه . لكنك قد رأيت طيشاً تنحاز مع من انحاز إلى طليحة ، ثم لا تلبث حين يخاطبها عدى بن حاتم أن تعود إلى الإسلام ، وأن تنضم إلى خالد ، وأن تحارب في صفه ، وأن تدخل على طليحة من الفرع ما كان بين الأثر في هزيمته ، ولقد حدث مثل ذلك بعد أن فرّ طليحة وانخدل عُمَيَّنة في بني فزارة . وكانت بنو عامر تُقدّم للردّة رجلاً وتؤخر أخرى تنتظر ما يصير إليه أمر قيس وبنى أسد . فلما هزمهم خالد ودارت عليهم دائرة السوء ، أقبلت بنو عامر يقولون : ندخل فيما خرجنا منه . وبايعهم خالد على ما بايع عليه أهل البزاجة من أسد وغطّافان وطىّ قبلهم . فكان لعودهم إلى الإسلام أثره فيمن سواهم من القبائل ، كما كان لعود طيّ إلى الإسلام أثره في طليحة ومن انحازوا إليه .

ثم إن خالد أخذ الذين قتلوا المسامين من مختلف القبائل بشدة أورثت القلوب الرعب . فهو لم يقبل من غطّافان وهوازن وسُلَيم وطىّ حين وادعهم إلا أن يجيئوه بالذين قتلوا وحرّقوا ومثّلوا وعدّوا على المسلمين الذين كانوا بينهم حين ردّتهم . فلما جرى بهم صفح عن الأذنان ، وأخذ الزعماء منهم ، وبينهم قرّة بن هُبيرة ، فأوثقهم ؛ ومثّل بالذين عدّوا على المسلمين ، فأحرقهم بالنيران ، ورمى بهم من الجبال ، ونكّسهم في الآبار ، ورضّخهم بالحجارة ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر . أما قرّة بن هُبيرة وعُمَيَّنة بن حصن فبعث بهما مع طائفة من الأسرى إلى أبي بكر ، وكتب إليه يقول : « إن بنى عامر أقبلت بعد إعراض ودخلت في الإسلام بعد ترّبص . وإني لم أقبل من أحد قاتلى أو سألنى شيئاً حتى يجيئنى بمن عدا على المسلمين . وقد قتلت المعتدين كل قتلة ، وبعثت إليك بقرّة وأصحابه » .

ولم تأخذ أبا بكر في الذين قتلهم خالد شفقة أو رحمة ، بل رأى فيهم

أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء دينه الحق ، فكتب إلى خالد يقول : « ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً . واتق الله في أمرك ؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . جيد في أمر الله ولا تشنن . ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكسنت به جهرة » ، ومن أصبت ممن حادَّ الله أو صادَّه ممن ترى في قتله صلاحاً فاقتله » . ذلك ما كتبه أبو بكر رقيق القلب لين الطبع إلا فيما يغضب الله ورسوله . فلما بلغ كتابه خالداً أمعن في سياسة الإرهاب التي بدأها . وطال مقامه على البزاحة شهراً يصعد عنها ويصوب إليها في طلب المعتدين على الإسلام والمسلمين ، فمنهم من أحرق ، ومنهم من رمى به من رموس الجبال ، ومنهم من رجس بالحجارة .

أبو بكر يقر
سياسة خالد

على أن أبا بكر اتخذ في معاملة الأسرى الذين جاءوا إلى المدينة سياسة ليست كسياسة خالد بأساً وشدة . فقد رأيت ما كان من عبيدة بن حصن ومخالفته طليحة وقتاله المسلمين . وقد جاء مع قُرّة إلى المدينة في الأسرى ويدها بمجموعتان بجبل إلى عنقه . وكان غلمان المدينة ينخسونه بالجرير ويقولون له : أيّ عدو الله ، أكفرت بعد إيمانك ! فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط . ومع ذلك تجاوز عنه أبو بكر وحقق له دمه ، فاتقى بذلك شره وشر بني فزارة معه .

لكنه يحقق دم
الأسرى الذين
جاء بهم إلى
المدينة

أما قُرّة بن هُبيرة فكان في بني عامر . وقد مر به عمرو بن العاص عائداً من عمان إلى المدينة فنزل عليه ، فرآه وقومه يقدمون للردّة رجلاً ويؤخرون أخرى . فلما أراد عمرو والرحلة خلا به قرة فقال : « يا هذا ، إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة . فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم » . وأجابه عمرو : « أكفرت يا قرة ؟ ! أتواعدنا بالعرب وتخوفنا بها ! » . فلما أرسل خالد قرة أسيراً إلى المدينة وجيء به إلى أبي بكر ، قال : « يا خليفة رسول الله ، إني قد كنت امراً مسلماً ، ولي من ذلك على إسلامي عند عمرو بن العاص شهادة . قد مرّ بي فأكرمته وقترّيته ومنعته » . فدعا أبو بكر عمرأ وسأله عن قرة وأمره ، فقص عليه الخبر ، حتى إذا انتهى إلى أمر الصدقة وما قال عنها اعترضه قرة قائلاً : حسبك

قصة قرة بن هبيرة

يرحمك الله ! . قال عمرو : لا والله ، حتى أبلغ له كل ما قلت . فلما أتم عمرو كلامه ابتسم أبو بكر وتجاوز عن قرّة وحقن دمه .

قصة علقمة
ابن علاثة

لم تكن سياسة الصفح سياسة هودة أو تردد من أبي بكر ، بل كان المقصود منها تسكين الثارات ما كان في تسكينها للإسلام والمسلمين خير . أما فيما خلا ذلك فلم يكن اللين يعرف إلى قلب أبي بكر سبيلا ما اتصل الأمر برسالة محمد . كان علقمة بن علاثة من بني كلب قد أسلم ثم ارتد في زمن الرسول ولحق بالشام . فلما توفى محمد أقبل مسرعاً حتى عسكر في بني كلب . وبلغ ذلك أبا بكر ، فبعث إليه القعقاع بن عمرو وأمره أن يسير حتى يغير عليه لعله أن يأخذه أو يقتله ، وقال له : « واعلم أن شفاء النفس الخوض فاصنع ما عندك » . وخرج القعقاع في رجاله ، فلم يثبت له علقمة وفر راکضاً ، وأسلمت امرأته وبناته ومن أقام من الرجال ، وجحدوا أن يكونوا ماثوه . ورجع علقمة إلى أبي بكر تائباً ، فقبل منه وحقن دمه ؛ لأنه لم يقاتل المسلمين ولم يقتل منهم .

مقتل الفجاءة
السلي

لكنه لم يقبل من الفجاءة إياس بن عبد يا ليل ولم يحقن دمه . فقد قدم الفجاءة هذا على أبي بكر فقال له : أعنني بسلاح ومُرني بمن شئت من أهل الردة . فأعطاه سلاحاً وأمره بما شاء أن يأمره به . لكن الفجاءة شنتها غارة في سُلَيْم وعامرو وموازن على المسلمين والمتردين على سواء ، وقتل من المسلمين من قتل . عند ذلك أرسل أبو بكر طريفة بن حازم في رجال قاتلوا الفجاءة ومن معه وجاءوا به أسيراً . فأمر أبو بكر فأوقدت له نار في مُصَلَّى البقيع على حطب كثير ، ثم رمى به فيها فمات حرقاً . ولو لم يقتل الفجاءة من المسلمين من قتل لَمَا أصابته هذه الميته القاسية التي أسف أبو بكر لقسوتها من بعد وتمنى لو لم تكن كذلك .

قصة أبي شجرة
ابن عبد العزى

قبل أن نختم هذا الفصل بحديث أم زمل نُورد قصة أبي شجرة بن عبد العزى ؛ فهو بحديث عيينة وقرّة وعلقمة أشبه . كان أبو شجرة هذا ابن الحنساء الشاعرة صاحبة المراثي الفياضة في أخيها صخر ، وكان هو شاعراً مثلها وقد لحق بأهل الردة وجعل يقول الشعر في تحريضهم على المسلمين وقتالهم .

وكان مما قاله في ذلك قصيدة جاء فيها :

فَرَوَيْتُ رَمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ وَإِنِّي لِأَرْجُو بَعْدَهَا أَنْ أُعْمَرَ

فلما رأى تحريضه على خالد لم يُشمر ورأى الناس يرجعون إلى الإسلام رجع إليه ، وقد قبل منه أبو بكر وعفا عنه فيمن عفا عنهم . فلما كانت خلافة عمر جاءه أبو شجرة وهو يعطى المساكين من الصدقة يقسمها بين الفقراء ، فقال : يا أمير المؤمنين أعطني فإنني ذو حاجة . قال عمر : مَنْ أَنْتَ ؟ فلما عرفه قال : أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ ! أَلَسْتُ الَّذِي يَقُول :

فَرَوَيْتُ رَمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ وَإِنِّي لِأَرْجُو بَعْدَهَا أَنْ أُعْمَرَ

ثم جعل يعلوه بالدِّرَّة في رأسه حتى طار عَدُوًّا إلى ناقته فارتحلها عائداً إلى قومه من بني سُلَيْم .

تداول الناس أنباء أبي بكر وعفوه عن رجع إلى الإسلام بعد رده ، فسكنت حدة القبائل التي ناصرت طليحة ثم عادت إلى الإسلام حين هزمه خالد بن الوليد . لكن فلولا من غَطَطَ قَانِ وَطِيٍّ وَسَلِيمٍ وَهَوَازِنَ وَغَيْرَهَا تَجَمَّعَتْ واجتمعت إلى أم زِمْلٍ سلمى بنت مالك وعاهدتها أن تقف وإياها في وجهه حتى الموت . ولا شك أن قد كان لهذه الفلول ثارات عند المسلمين ، لم تسكن منها الهزيمة ولا سكن منها عفو أبي بكر ، هي التي حفزتها إلى التجمع والتعاهد على قتال المستنيس . وما بقاؤها بعد فرار طليحة وانكشاف كذبه لولا هذه الثارات وتحركها في نفوسها ! وكان لأم زِمْلٍ عند المسلمين ثأر لم يندمل جرحه رغم مرّ السنين ، فكان من الطبيعي أن تجتمع هذه الفلول حولها وأن تتخذ من ثأرها علماً ولواء لثاراتهم جميعاً .

الفلول التي
تجمعت إلى
أم زمل

وأم زِمْلٍ هذه هي بنت أم قِرْفَةَ التي قُتِلَتْ أيام النبي أشنع قِتْلَةً . فقد خرج زيد بن حارثة يوم ذاك إلى بني فِزَارَةَ فلقبهم بوادي القرى فأصابوا رجاله ، وأصيب هو بجرح مميت حُمِلَ على أثره إلى المدينة فلما برئ رده رسول الله إلى بني فِزَارَةَ في جيش فقتلهم وأصاب فيهم وأسروهم . وكانت أم قِرْفَةَ فاطمة بنت بدر بين الأسرى . وكانت هي التي تحرض قومها في الموقعة الأولى

من هي أم زمل
بنت أم قرفة

التي أصيب فيها زيد؛ فلما ظفر بها أمر بقتلها فقتلت قتلاً عنيفاً . قيل إن كل ساق من ساقها شُدَّ إلى بعير ثم دفع كل بعير إلى ناحية فتمزقت . وسُبيت ابنتها أم زمل ، فوقع لعائشة أم المؤمنين فأعتقتها ، فأقامت عندها زمناً ثم رجعت إلى قومها . وقد بقي مقتل أمها أمام عينيها يُقبضُ مضجعها ألا تجد إلى الثأر له الوسيلة . فلما كانت الردة ارتدت ووجدت من فلول هذه القبائل عونها على أن تأخذ بثأرها لتهدأ ثأرتها وتسكن حفيظتها .

وكانت أمها أم قرفة في عزّة ومكانة من قومها . كانت عمّة عيينة بن حصن ، وكانت زوج مالك بن حذيفة ، وكان لها منه أبناء تعتز بهم في بني فزارة . وكان لها جمل تخرج عليه في طليعة قومها إذا خرجوا ليغنموا من قبيلة أخرى . فلما مات بقي هذا الجمل لابنتها أم زمل . وكانت ابنتها في مثل عزها ، وكان لها من المكانة في قومها ما كان لأُمها . فلما اجتمعت حولها فلول القبائل التي قاتلت أبا بكر وخالداً ركبت جملها وسارت بينهم وجعات تدعوهم لحرب خالد وتشجعهم ؛ واجتمع مع هذه الفلول كل شريد وكل مضيق عليه ، حتى استغلظ أمرها وعظم شأنها . فلما بلغ ذلك خالداً وهو فيما هو فيه من تتبع الثائرين وأخذ الزكاة ودعوة الناس وتسكينهم ، سار إليها يقااتها .

خالد يقاتل
أم زمل ويقتلها

والتقى الجمعان وحسبى وطيس القتال واشتدت الحرب ، وأم زمل على جملها تحرض رجالها وتدفعهم إلى المعركة ، فيندفعون مستبسلين لا يبالون ، حتى لقد أبيدت منهم بيوت بأسرها . ورأى خالد بأس هذه المرأة وشدها واستماتتها في محاربته فجعل مائة من الإبل لسنّ ينخس جملها . واندفع فوارس المسلمين نحوها ، فإذا من حولها الرجال الأشداء يدافعون عنها ويموتون دونها . ولقد مات حول جملها مائة رجل قبل أن يستطيع فرسان المسلمين الوصول إليه . فلما وصلوا إليه عقروه وقتلوه وقضوا بذلك على فتنتها . فقد فتنت الرجال حقاً بقوتها وعزها وشجاعته وشدة تحريضها لهم . ولم تابل هذه الفلول حين رأوا جملها يعقر ورأوها تقتل أن فترت عزيمتهم وتشتت جمعهم ، ففروا مولين الأدبار لا يعقبون . بذلك خبت نار الفتنة وقضى على الردة في الشمال

الشرقي من شبه الجزيرة . وما عسى أن يبقى منها وقد فرّ رءوسها أو طاحت رءوسهم فلم تبق منهم باقية ! .

موقف المرتدين
بعد هزيمة طليحة
وأنصاره

أو لم يكن هذا المثل الذي ضربه أبو بكر يكتفى العرب كي يرجعوا في سائر الأنحاء من شبه الجزيرة إلى الإسلام ! . لقد رأوا جنوده تسير إليهم من كل صوب ، يقصد كل لواء منها إلى حيث أمره خليفة رسول الله . وقد ترامت إليهم أنباء خالد بن الوليد وعرفوا مصير طليحة ؛ لكنهم أبوا مع ذلك أن يُذعنوا . إنهم رأوا نبيّ قريش ينشر في العرب لواءه ويمد عليهم ساطانه ، فلم لا يكون لكل قبيلة نبيّ يرد عنها قريشاً إن لم ينشر في مختلف القبائل لواءها ! ونسيت القبائل ونسى الذين ادّعوا النبوة فيها أن محمداً قام في قريش يدعوها إلى الله لا يريد فيها سلطاناً ولا يبتغي منها جزاءً ولا شكوراً ، وأنه قام بأمر ربه ، ففضى عشر سنوات في جهاد ، أي جهاد ، يؤذيه أهله وتُناصبه مكة كلها العداوة ، وتتعرض حياته وحياة من اتبعوه للخطر ، ويأتمر به خصومه ليقتلوه ، ويخرجه قومه من دياره مهاجراً إلى المدينة ، حتى أذن الله لدينه الحق أن ينتشر بين العرب ، وجاءت الوفود من كل صوب تعلن إلى النبي إسلامها . نسي الذين ادعوا النبوة هذا كله ، وخيّل إليهم أن بلوغ الغاية التي بلغها محمد أمر يسير ، كما نسوا أن محمداً إنما بلغها بالدعوة إلى الحق ، وأنهم يدّعون النبوة زوراً وبهتاناً . لذلك لم يكفهم أن طهر أبو بكر شمال شبه الجزيرة من رجس الردة ليثوبوا إلى رشادهم ، بل أخذت أهل الجنوب العزة بالإثم ، وادّكروا ما كان بينهم وبين الحجاز من قديم الحصومة ، وما كان لأبائهم فيه من غزوات توجّتها أكاليل النصر . أما وقد أصروا على العناد في ردتهم ، فلم يكن بدّ من أن يُردّوا عنها إلى الإسلام أو يبوءوا بخزيها ويؤدوا حياتهم ثمناً لها .

فلينتقل خالد إذن من البزاحة إلى البطّاح ، ثم لينتقل بعد البطّاح إلى اليمامة ، فقد خطّ القدر في لوحه أن يرد سيفه المرتدين إلى الحق . وما خطّ في لوح القدر لا محالة نافذ .

الفصل الثامن

سجاح ومالك بن نويرة

تقع منازل بني تميم على مقربة من بني عامر إلى الجنوب ؛ وهي تحاذي المدينة من الشرق ممتدة نحو الخليج الفارسي ، وتتصل من ناحية الشمال الشرق بمصب الفرات . وكان لبني تميم بين قبائل العرب في الجاهلية وفي عهد الرسول مقام ، لما ظهر فيها من خصال الشجاعة والكرم ، ولما نبغ بين رجالها من الأبطال والشعراء . ولا يزال التاريخ يذكر افروعها بني حنظلة ودارم وبني مالك وبني يربوع مواقف ترويحها كتب الأدب وكتب التراجم كما يرويحها كبار المؤرخين .

ولقد أدّى اتصال هذه القبائل بمصب الفرات وبالخليج الفارسي إلى تنقل أبنائها بين شبه الجزيرة وأرض العراق ، كما أدّى إلى اتصالهم بفارس . وكان من أثر ذلك أن دان كثيرون منهم بالنصرانية وإن بقي أكثرهم يعبدون الأصنام . فلما انتشر الإسلام بينهم احتفظوا باستقلالهم ، ولم ينزلوا عنه راضية نفوسهم . لذلك كانوا في مقدمة القبائل التي أبت أداء الزكاة حين بعث رسول الله جُباته يقتضونها من الناس . ولقد أسرع بدو العنبر من تميم إلى نبالهم وسيوفهم حين جاء العاشر يطالب إليهم أداها . فلما ذهب عِيَيْنَة بن حصن بأمر الرسول فقتل وسبى منهم ، ذهب وفد من أشrafهم إلى المدينة ودخلوا المسجد ونادوا النبي من وراء حجراته أن يرد إليهم أسراهم ، وذكره بمواقفهم معه في حنين ، وبما لقومهم من مكانة بين العرب . وخرج إليهم حين الصلاة ، فذكروا له أنهم جاءوا يفاخرونه . فلما رأوا خطيبه أبلغ من خطيبهم ، وشاعره أشعر من شاعرهم ، وصوته أعلى من أصواتهم ، أسلموا ؛ فأعتق النبي أسراهم وردهم إلى قومهم راضية نفوسهم .

إياهم أداء الزكاة
في عهد النبي

وقبض رسول الله وله في تميم عُمَّال ، بينهم مالك بن نويرة على رأس بني يربوع . وقد اختلف العُمَّال حين بلغتهم وفاة النبي ما يصنعون : أيثدون

الزكاة لأبي بكر أم يقسمونها بين الناس . وكان لما بينهم من تنافس أثر بيّن في اختلافهم ذلك . بل لقد أدى هذا التنافس إلى أن يقاتل بعضهم بعضاً ، وأن يقيم فريق منهم على الولاء لسلطان المدينة ، وأن يتنكر الآخرون لهذا السلطان .

وكان مالك بن نويرة فيمن ردوا الزكاة لأصحابها ولم يروا لأبي بكر حقاً في اقتضاها . بذلك أصبح عدواً للمسلمين معرضاً لإغارتهم عليه .

وبينما القوم في اختلافهم فجأتهم سجاح بنت الحارث مقبلةً من أرض الجزيرة بالعراق يحيط بها رهطها من تغلب ، وتقود معها جنداً من ربيعة والنمر وإياد وشيبان . وكانت سجاح تميمية من بني يربوع وكان أخوالها من تغلب بالعراق . وقد تزوجت فيهم ، وأقامت بينهم ، وتنصرت فيمن تنصرت منهم . وكانت تنقم من محمد ومن اتبعه ما ينقمه منهم اليهود والنصارى ، وما ينقمه منهم الفرس والروم . وكانت امرأة ذكية ، تدعى الكهانة ، وتعرف كيف تقود الرجال . فلما تراءى إليها أن محمداً أدركته الوفاة ، جاءت في رهطها وفي القبائل المحيطة بها تريد أن تغزو المدينة وأن تقاتل أبا بكر .

مجيء سجاح بنت الحارث إلى تميم

يرى بعض المؤرخين ، وقد يكونون على حق فيما يرون ، أن سجاح لم تنحدر من شمال العراق إلى شبه جزيرة العرب يتبعها رهطها والقبائل المحيطة بها لكهانتها ومطامعها الذاتية ، وإنما انحدرت مدفوعة بتحريض الفرس وعمّالهم في العراق كي يزيدوا الثورة في بلاد العرب ضراماً ، ليستعيدوا ما كان لهم في كثير من أرجائها من سلطان بدأ يأفل منذ أقام محمد بدهان عاملاً له على اليمن ، بعد أن كان بدهان عامل كسرى عليها .

السبب في مجيء سجاح من شمال العراق

وقد يرجح رواية هؤلاء المؤرخين أن سجاح كانت الأنثى الوحيدة التي ادّعت النبوة ، وأن مثيلاتها اتخذن في كل العصور أداة للتجسس والدعاية ، وأنها لم تلبث في بلاد العرب إلا زيثاً بثت دعوة الانتفاض ، ثم عادت إلى العراق فسكنت إلى حياتها به .

وليس عجباً أن يتخذها الفرس أداة لإذكاء الثورة في بلاد العرب وقد كانوا يرون هذه البلاد أهون من أن يجرد لها جيش فارسي يقاتلها ، وإن كانت

مع ذلك جديرة بأن تُردَّ إلى عزلتها الأولى قبل قيام محمد بها وانتشار الإسلام فيها . ولا شيء أدنى إلى تحقيق هذه الغاية من القضاء على الدين الجديد الذي جعل أبنائها يعتدون بأنفسهم ، وإن لم يعتدَّ الفرس بهم .

موقف بني تميم
من الإسلام حين
جاءت سجاح
إليهم

جاءت سجاح إلى شبه الجزيرة متأثرة بهذه العوامل . وكان طبيعياً أن تجعل وجهتها أول نزولها بلاد العرب إلى قومها بني تميم . وقد فجأتهم وهم مختلفون فيما بينهم : يقول قوم بإيتاء الزكاة واتباع خليفة رسول الله ، وينكر آخرون هذا وذاك ، ويتردد أقوام فهم في حيرة ؛ ثم ينشأ عن هذا الاختلاف قتال بينهم يشتد حيناً ويهدأ حيناً . ورأت هذه البطون من بني تميم مَقْدَم سجاح وعرفوا عزمها على قتال أبي بكر ، فازدادوا بين الإسلام والردة اضطراباً . وشهد من بقي على إسلامه منهم ما هو أدهى وأمر مما هم فيه ؛ فها هي ذى في جيشها اللآجب بالقياس إلى جموعهم المتنافرة تأخذهم على حين غفلة منهم وتعلن فيهم نبوتها وتدعوهم إلى الإيمان بها . أفيقولون عنها ما قال عُمَيَّيْنَةُ بن حصن عن طُلَيْحَةَ : « نبية من بني يربوع خير من نبي من قريش ، وقد مات محمد وسجاح حية » ، وعلى ذلك يتبعونها ويقومون معها في وجه أبي بكر والمسلمين ، أم ينصرفون عنها ويدعونها تسير في طريقها تواجه أبا بكر ، فإما قضى عليها فانقضت فتنتها ، وإما تم لها الغلب فكان لهم ، وهم قومها الأدنون ، فخار نصرها وفخار نبوتها .

سجاح ومالك
ابن نويرة

وقفت سجاح في جندها على حدود بني يربوع ، وأرسلت إلى زعيمهم مالك بن نويرة ودعته إلى المواجهة ، وأنبأته بعزمها على غزو المدينة . وأجابها مالك إلى المواجهة ، لكنه صرفها عن عزمها على لقاء أبي بكر وحرضها على قتال من اختاف معه من أحياء بني تميم . واقتنعت سجاح برأيه وقالت : « نعم ! فشأنك بمن رأيت . فإنما أنا امرأة من بني يربوع ، وإن كان مالك فهو ملككم » .

صفة مالك
ابن نويرة

كيف أسرع سجاح إلى الرجوع عن عزمها وموافقة مالك على رأيه ؟ ليس فيما تذكره الروايات التي انتهت إلينا ما يبين عن السر في هذا الانقلاب . لكن الروايات تذكر أن مالكاً كان شريفاً فارساً شاعراً ، وكانت فيه خيلاء الصديق أبو بكر

كقومه ، وكان ذا لسمّة كبيرة ، وكان حلو الحديث حسن المحاضرة . قصّ أخوه مُتَمِّم بن نويرة ، وكان أسمى من مالك مكانة في الشعر ، لكنه كان أعور قبيح الصورة ، أن حياً من العرب أسروه فشدوا وثاقه وألقوه بفنائهم . وبلغ مالكا خبره ، فأقبل على راحلته حتى انتهى إلى القوم وسلم عليهم وحادثهم وضاحكهم وأنشدهم ، فوالله إن زال كذلك حتى ملأهم سروراً ؛ وبلغ من ارتياح القوم إليه أن أطلقوا متمماً بغير فداء . وأسرت بنو تغلب متمماً في الجاهلية ، فجاء مالك ليفديه ، فلما رآه القوم أعجبهم جماله ، وحادثهم فأعجبهم حديثه فلم يقبلوا منه فداء ، وأطلقوا له الأسير فعاد به إلى قومه .

هل اقتنعت سجاح بحديث مالك وجماله ، واقتنع بهما أخوالها بنو تغلب وسائر أنصارها ؟ إنما نذكر ذلك لعله يفسر ما كان بين سجاح ومسيلمة من بعد . وسواء أصبح ذلك أم لم يصبح فقد دعت سجاح أمراء بني تميم لموادعتها فام يوادعها منهم مع مالك إلا وكيع . وأغارت سجاح في جندها وجند مالك ووکیع على السريّات فاقتتلوا ومات من الجانبين خاق كثير وأسر بعضهم من بعض ، ثم إنهم تصالحوا وترادوا الأسرى ، وعاد السلام إلى بني تميم .

وخرجت سجاح في جنود الجزيرة وقد راجعها العزم أن تلقى أبا بكر . أما مالك ووکیع فقد صالحا قومهما بعد أن رأيا سخطهم على اتباعهما هذه المتنبيّة . وبلغت سجاح قرية النّبّاج ، فلقیها أوس بن خزيمة فهزمها ، ثم ترادوا الأسرى وصالحها على ألا تجتاز دياره إلى المدينة . هنالك اجتمع رؤساء أهل الجزيرة وقالوا لها : ما تأمریننا ، فقد صالح مالك ووکیع قومهما فلا ينصروننا ولا يريدوننا أن نجوز أرضهم ، وقد عاهدنا هؤلاء القوم ؟ قالت : اليمامة . فقالوا : إن شوكة أهل اليمامة شديدة وقد غلظ أمر مسيلمة . وهنا تجرى الرواية بأنها قالت : « عليكم باليمامة ، ودفئوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ندامة » . ولم يبق لهم بعد هذا السجع الذي زعموه وحياً إلا أن يمتثلوا أمرها .

هزيمة سجاح
في النّبّاج

مسيرها مع قومها
إلى اليمامة

فيم كان انقلابها إلى اليمامة وقد خانها الحظ بين قومها بني تميم ، وخانها في مسيرتها إلى أبي بكر ؟ أو لم يكن حولها من رجالها من يشيرون عليها ؟ .

أم أنهم تم إيمانهم بنبوتها وبهذا السخف الذي تزعم أنه يوحى إليها فلم يترددوا في اتباعها ؟ الحق أن قصة سجاح كلها عجب ، وما روى عنها إلى فن القصص أقرب . فقد ذكروا أنها لما بلغت الإمامة في رجالها هابها مسيامة وخاف إن هو شغل بها أن يغلبه جند المسلمين أو تغلبه القبائل التي حوله ، فأهدى لها ، ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يحجى إليها . ونزلت في جندها على الماء وأذنت له ، فجاء في أربعين من بني حنيفة ، ثم خلا إليها يتحدثها ويذكر لها أنه كان يرى أن لقريش نصف الأرض فظلموا ، فليكن نصف الأرض لها . وسجع لها سجعاً أعجبها ، فردت عليه بمثل سجعه . ثم إنهما تناظرا وتحادثا وطال بهما الحديث . وأعجبت سجاح بمسيامة وبحلو حديثه وما شرع لقومه ، وانتهت إلى الإيمان بتفوقه . فلما عرض عليها أن تجمع نبوتها إلى نبوتها وأن يتزوجا كان قلبها قد لان له فلم ترفض طلبه . وانتقلت إلى خيامه وأقامت معه ثلاثة أيام رجعت بعدها إلى قومها ، وذكرت لهم أنها وجدته على الحق فتزوجته .

سجاح ومسيلمة
يتناظران وتنتهي
مناظرتهما إلى
أن يتزوجا

مسيلة ينزل
لأتباعه عن
صلاتين صداقاً
لسجاح

وعرف قومها أنه لم يجعل لها صداقاً فقالوا لها : « ارجعي إليه ؛ فقبيح بمثلك أن تتزوج بغير صداق » . فلما رجعت إليه أغلق حصنه دونها وبعث يسألها ما طلبها ، ثم نزل للناس عن صلاتين : صلاة العشاء وصلاة الفجر ، إكراماً لها . وانتهى الأمر به وبها على أن يحمل لها النصف من غلات الإمامة وحمل إليها النصف مما اتفقا عليه ، فاحتملته وانصرفت به إلى الجزيرة ، وخلقت وراءها من رجالها من يحمل لها النصف الآخر . لكن هؤلاء الرجال لم يقيموا إلا ريثما أقبلت جيوش المسلمين فهاجمت مسيلة وقتلته . ولم تنزل سجاح في تغلب حتى نقلهم معاوية عام المجاعة إلى بني تميم حيث أقامت مسامة حسنة الإسلام إلى أن ماتت .

العجب من أمر
سجاح وقصتها

هذه قصة سجاح بنت الحارث . وهي — كما قدّمت — عجب كل العجب . وهل عجب كمغامرتها بالسير من الجزيرة للقاء أبي بكر وقتاله ، ثم إسراعها إلى العدول عن عزمها حين تحدث مالك بن نويرة إليها ، ثم انقلابها إلى الإمامة ولقائها مسيامة وزواجها منه وعودها من عنده إلى أرضها ، وبقائها بعد

ذلك مع ذويها كأنها لم تخرج من بينهم ولم تتزوج من غيرهم !
 وأمر مسيلمة معها أعجب العجب . ولئن صح أنه تزوجها ليكون ذلك
 برهاناً على دهائه في السياسة وعلمه بمدخل القلوب ، فهو قد أراد أن يتخلص
 منها ليفرغ لقتال من حوله من القبائل ومن أوفدهم أبو بكر لقتاله من المسلمين .
 ورآها ليسنة فاستهوى أنوثتها ، فلما لانت له ودانت أعرض عنها وتخلص منها .
 والحق أن حديث هذه المرأة مع مالك بن نويرة ، ثم مع هذا الزميل من مدّعي
 النبوة يشهد بأنها إن تكن حسنة السجع في كهانتها فقد كانت لينة العريكة
 في أنوثتها . فأما مسيلمة فكان رجلاً قزماً لا جمال فيه إلا حسن حديثه ؛
 وكان قليل الافتتان بالمرأة ومحاسنها ، ولذلك كان مما شرعه لقومه أن من ولد
 له ولد لم يحز له أن يقرب امرأة إلا أن يموت ذلك الولد ؛ فإذا مات جاز له أن
 يبتغي ولداً غيره فيقرب امرأته . أما من كان له ولد ذكر فالنساء عليه
 حرام !!

* * *

بَسِيناً يجرى ذلك في اليمامة بين مسيلمة وسجاح كان خالد بن الوليد يصعد
 في البزاحة ويصوب ، يستعيد إلى الإسلام من تاب وأتاب ويعاقب بأشد
 العقوبة من قتل مسلماً أو عدا عليه ، وينتهي بمقاتلة أم زمل حتى يقتلها
 ويشتت جمعها بعد أن شتت جمع طليحة وحمله على الفرار . وتداول
 الناس أنباء خالد ، فبلغت مالك بن نويرة بالبطاح فردته إلى الاضطراب والحيرة .
 لقد منع الزكاة وقام مع سجاح في وجه المسلمين من بني تميم ، وأصبح بذلك
 عدواً للمسلمين معرضاً لإغارتهم عليه . فماذا عساه يصنع بعد أن باءت جنوده
 وجنود سجاح معها بالفشل والهزيمة ؟ أمّا صاحبه وكيع فقد رأى قبح ما صنع ،
 فعاد إلى الإسلام وأخرج الزكاة . وأما مالك فبقي متحيراً : أينكر أمسه ويعود
 مسلماً مع أبي بكر كما كان مع محمد يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ، أم يصبر على
 مثل موقفه مع سجاح والأمر لله من قبل ومن بعد !!

مالك بن نويرة
 بعد هزيمة طليحة
 الأسدي

وفرغ خالد من أسد وغطفان ومن معها بعد أن عاد كل من بقى من هذه
 القبائل إلى الإسلام وأذعن لسلطان المدينة . ثم إنه أزمع السير إلى البطاح يلقي
 فيها مالك بن نويرة ومن كان معه في مثل تردده . وعرف الأنصار هذا العزم

خالد بن الوليد
 يزمع السير إلى
 البطاح ، وموقف
 الأنصار من هذا
 السير

منه فترددوا وقالوا : « ما هذا بعهد الخليفة إلينا ، إنما عهده إن نحن فرشنا من
البزاحة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا » . وأجابهم خالد :
« إن يكن عهده إليكم هذا فقد عهد إلى أن أمضى . وأنا الأمير وإلى تنتهي
الأخبار . ولو أنه لم يأتني كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة إن أعلنته بها فاتتني
لم أعلمه حتى أنتهزها . وكذلك إذا ابتلينا بأمر لم يعهد لنا فيه لم ندع أن نرى
أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ؛ وهذا مالك بن نويرة بحيانا . وأنا قاصد له بمن
معي من المهاجرين والتابعين لهم بإحسان ، ولست أكرهكم » . وسار ومن معه
خلا الأنصار ، يقصد البطاح .

وبرم الأنصار بالأمر وتشاوروا فيما بينهم فاستقر رأيهم على أن يلحقوا به .
ذلك أنهم قالوا : لئن أصاب خالد اليوم خيراً إنه لخير حُرمتوه ، ولئن أصابته
ورجاله مصيبة ليجتنبنكم الناس ، وجردوا إلى خالد رسولا استمهله حتى لحقوا
به وساروا معه ، فلما بلغوا البطاح لم يجدوا بها أحداً ؛ فقد فرق مالك بن نويرة
قومه في ديارهم ونهاهم عن الاجتماع ، وقال لهم : « يا بني يربوع ، إنا كنا قد
عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الأمر ، وبطأنا الناس عنهم فلم نُفلح ولم ننجح .
وإني قد نظرت فرأيت الأمر يتأتى للقوم بغير سياسة . وإذا الأمر لا يسوسه
الناس ، فإياكم ومناوأة قوم قد صُنِعَ لهم » . ونصح لهم بالرجوع إلى الإسلام
والتفرق في الديار ، ورجع هو إلى منزله .

لم يجد خالد بالبطاح أحداً ، فبث الجنود وأمرهم أن يأتوه بكل من لم يُسجَب
داعية الإسلام ، فإن امتنع فليقتلوه . وكانت وصية أبي بكر أن يؤذّن جند
المسلمين إذا نزلوا منزلاً ، فإن أذّن القوم كفوا عنهم ، وإن لم يؤذّنوا قتلوا منهم
ونهبوهم . فإن أجابوا بعد ذلك إلى داعية الإسلام سألوهم عن الزكاة ، فإن أقروا
قبلوا منهم ، وإن أبوا قاتلوهم .

جند خالد يجيئون
بمالك بن نويرة

جاء الجند بمالك بن نويرة في نفر من بني يربوع إلى خالد . وكان المنطق
يقضى بعد الذي رأيت بأنه إن أقر مالك وأصحابه بالإسلام ، أن يعاملهم خالد
معاملة من تاب وأناب . لكن الذي حدث أن خالداً أمر بمالك بن نويرة
فقتل ، وأن هذا القتل أثار بالمدينة ثائرة ظلت زمنًا قبل أن تهدأ ، وأنه كان

ذا أثر في تصرف عمر بن الخطاب مع خالد بن الوليد بعد أن ولي الخلافة . لهذا تفصل الروايات مقتل مالك بن نويرة في شيء من الإسهاب وتختلف فيه . قيل إن رؤساء الجند الذين جاءوا بمالك ومن معه اختلفوا فيما بينهم : أقرّ مالك ومن معه بالإسلام وأجابوا داعية الأذان ، أم أنكروا وتنكروا ؟ روى الطبري عن أبي قتادة الأنصاري ، وكان من رؤساء هذا الجند ، أنه كان يحدث أنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل فأخذ القوم السلاح ، فقلنا : إنا المسلمون . قالوا : ونحن المسلمون . فقلنا : ما بال السلاح معكم ؟ قالوا لنا : فما بال السلاح معكم ؟ فقلنا : فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح ، فوضعوا السلاح ثم صلينا وصلوا .

قتل مالك بن نويرة والروايات في سببه

إلى هنا تتفق الروايات . ومن هنا يبدأ خلافها . قال أبو قتادة : إن القوم أقرّوا بالزكاة وإيتائها . وقال غيره : بل أنكروها وأصروا على منعها . ماذا يصنع خالد إزاء هذا الاختلاف بين شهود العيان ، وكيف يقضى فيه ؟ تجري رواية بأنه أمر بحبس مالك وأصحابه حتى ينظر في أمرهم . وحُبسوا في ليلة باردة جعلت تزداد بتقدم الليل برداً . وأخذت خالداً الشفقة بالقوم فأمر فنادى : « دافئوا أسراكم » . وكانت هذه العبارة في لغة كنانة معناها القتل ، وكان الحراس من بني كنانة ، فما لبثوا حين سمعوها أن ظنوا أن خالداً أراد قتلهم فقتلوهم . وسمع خالد الضجة فخرج ، وقد فرغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه .

رواية بأن مالكاً وأصحابه قتلوا خطأ في الفهم

وتجري رواية ثانية بأن خالداً دعا إليه مالكاً يناظره ليعرف أي الشهادتين حق : الشهادة بإسلامه ، أم الشهادة بإصراره على الردة أو على منع الزكاة . وفيما هما يتناظران راجع مالك خالداً وقال : « ما أخال صاحبكم إلا وقد كان يقول كذا وكذا » . قال خالد : « أو ما تعدّه لك صاحباً ؟ » ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه .

رواية المناظرة بين مالك وخالد

ويقول أبو الفرج في الأغاني تفسيراً لهذا الحوار بين خالد ومالك ما نصه : قال ابن سلام : من لا يعذر خالداً يقول إن مالكاً قال لخالد : أو بهذا أمرك صاحبك — يعني النبي صلى الله عليه وسلم — إنه أراد بهذه الفروسية . ومن يعذر خالداً يقول إنه أراد انتفاء أمر النبوة ، ويحتاج بقول مالك :

وَقُلْتُ خذُوا أَمْوَالَكُمْ غَيْرَ خَائِفٍ وَلَا نَاضِرٍ فِيهَا يَجِيءُ مِنَ الْغَدِ
فَإِنْ قَامَ بِالْأَمْرِ الْمَخَوِّفُ قَائِمٌ مَنَعْنَا وَقُلْنَا: الدِّينُ « دِينَ مُحَمَّدٍ »
أَيُّ إِنَّهُ مَنَعَ الزَّكَاةَ وَقَالَ لِقَوْمِهِ خذُوا أَمْوَالَكُمْ فَالِدِينِ دِينَ مُحَمَّدٍ لَا دِينَ
أَبِي بَكْرٍ .

وقد روى ابن خلكان ما ذكر أنه الحديث الذي دار بين الرجلين ،
وأورد ما يأتي : « فقال مالك إني آتي الصلاة دون الزكاة . فقال له خالد :
أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون أخرى ! ! فقال مالك :
قد كان صاحبك يقول ذلك . قال خالد : أو ما تراه لك صاحباً ! والله
لقد هسبت أن أضرب عنقك . ثم تجادلا بالكلام طويلاً ، فقال له خالد :
إني قاتلك . قال : أو بذلك أمرك صاحبك ؟ قال خالد : والله لأقتلنك » .
وأمر به فقتل .

يرجح بعضهم هذه الرواية الثانية على الرواية الأولى . على أن هؤلاء الذين
يرجحونها يرونها ناقصة ، ويزنون أنها إن لم تكمل ناقضت تصرف ابن الوليد
في أمر قرّة بن هُبيرة والفُجاءة السُّلَميَّ وأبوشَجْرَةَ وأمثالهم ممن قصصنا حديثهم .
فهو قد بعث بهؤلاء إلى أبي بكر ليرى فيهم رأيه . ولم يكن مالك بن نويرة
أعظم من أيهم إثمًا ولا أكبر جريرة ؛ فما باله يقتله ولا يبعث به إلى الخليفة
ومكانه من بني تميم لم يكن دون مكان أي أولئك من قومه !

الذين يربطون
بين مقتل مالك
وتزوج خالد
من امرأته

وتتمة القصة في رأيهم أن خالدًا تزوج أم تميم زوجة مالك في يوم مقتله ،
وقبل أن يجفف الترابُ دمه ، مخالفًا بذلك كل تقاليد العرب . وهم يريدون أن
يربطوا بين مقتل مالك وزواج خالد من امرأته ، وأن يجعلوا هذا الزواج سبب
ذلك القتل . ولعلمهم في ذلك على حق ، ولعلمهم مخطئون .

ذكر اليعقوبي في تاريخه : فأتاه مالك بن نويرة يناظره واتبعت امرأته ؛
فلما رآها خالد أعجبهته فقال : « والله لا نلت ما في مثابتك حتى أقتلك ، فنظر
مالكًا فضرب عنقه وتزوج امرأته » . وذكر أبو الفرج في الأغاني : « لما
تنبأت سَجَّاحُ اتبعها مالك ثم أظهر أنه مسلم ، فضرب خالد عنقه ، فطعن
عليه في ذلك جماعة من الصحابة ، لأنه تزوج امرأة مالك بعده ، وقد كان يقال

إنه يهواها في الجاهلية ، واتهم لذلك أنه قتل مسلماً ليتزوج امرأته بعد .
وروى أبو الفرج كذلك قال : « قال محمد بن سلام : وسمعت يوماً يونس
وأنا أراد التميمية في خالد وأعذره فقال لي : يا أبا عبد الله ، أما سمعت بساقي
أم تميم ! فكان يقال إنه لم ير أحسن من ساقيتها » .

وقد نسجت الروايات لهذا الحادث من بعد صوراً أدنى إلى فنون الأدب
منها إلى وقائع التاريخ . فقد قيل : إن ليلي كانت مع زوجها وهو يناظر خالداً ،
فلما سمعته يقول له إني قاتلك ، والله لأقتلنك ، ألقت بنفسها على قدمي الفاتح
ثلاثة مس منه العفو وقد انسدل شعرها على كتفيها وبال الدمع منها عيني زانهما
الخور فزادهما سحراً . ونظر خالد إلى وجهها البارع ، وهي ترنو إليه مستعطفة
مسترحمة ، نظرة هوى وإعجاب ، فصاح مالك : إني مقتول لا محالة ! وأجاب
خالد : ما لهذا والله ، وإنما قضى عليك كفرك ، وأمر بضرب عنقه .

موقف ليل
من مناظرة
مالك وخالد

لسنا نقف عندما نسجته فنون الأدب من هذه التفاصيل . لكن الثابت
الذي لا ريبه فيه أن ليلي أعجبت خالداً ، وأنه لذلك أمسكها من بعد ولم
يسرّحها مع ما جره زواجها عليه من متاعب .

وحسبك لتقدّر هذه المتاعب أن تعلم أن أبا قتادة الأنصاري غضب لفعلة
خالد ، إذ قتل مالكاً وتزوج امرأته ، أشد الغضب ، فتركه منصرفاً إلى المدينة ،
مقسماً ألا يكون أبداً في لواء عليه خالد . روينا ما قيل من أن الجند الذين
سجنوا مالك بن نويرة وأصحابه هم الذين قتلوهم حين سمعوا خالداً يقول : دافئوا
أسراكم وأن خالداً غضب لذلك ثم قال : إذا أراد الله أمراً أصابه . ويضيف
أصحاب هذه الرواية أن أبا قتادة ظن ما حدث حياة من حيل خالد ، وأنه
ذهب إليه يقول : هذا عمك ، وأن خالداً زجره فغضب وذهب إلى
المدينة .

ثورة أبي قتادة
الأنصاري

ويذكر آخرون أن أبا قتادة ذهب إلى المدينة بعد أن تزوج خالد أم تميم ،
وأن متمم بن نويرة أخا مالك ذهب معه . فلما بلغا المدينة ذهب أبو قتادة
ولا يزال الغضب آخذاً منه مأخذه ، فلقى أبا بكر فقص عليه أمر خالد وقتله
مالكاً وزواجه من ليلي ، وأضاف أنه أقسم ألا يكون أبداً في لواء عليه خالد .

حديث أبي قتادة
مع أبي بكر

لكن أبا بكر كان مُعْجَبًا بخالد وانتصاراته ، فلم يعجبه أبو قتادة ، بل أنكر منه أن يقول في سيف الإسلام ما قال .

عمر بن الخطاب
يؤيد أبا قتادة
عند الخليفة

أترى الأنصارى هاله غضب الخليفة فأسكته ؟ كلا ! فقد كانت ثورته على خالد عنيفة كل العنف . لذلك ذهب إلى عمر بن الخطاب فقص عليه القصة وصوّر له خالدًا في صورة الرجل الذى يغلب هواه على واجبه ، ويستهيئ بأمر الله إرضاءً لنفسه . وأقرّه عمر على رأيه وشاركه فى الطعن على خالد والنيل منه . وذهب عمر إلى أبي بكر وقد أثارتة فتعلّة خالد أيّسًا ثورة ، وطلب إليه أن يعزله وقال : « إن فى سيف خالد رهقًا^(١) وحق عليه أن يُقيد » . ولم يكن أبو بكر يُقيد من عُمّاله . لذلك قال حين ألح عمر عليه غير مرة : « هَيِّئْ يا عمر تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد » . ولم يكتف عمر بهذا الجواب ولم يكف عن المطالبة بتنفيذ رأيه . فلما ضاق أبو بكر ذرعًا بإلحاحه قال : « لا يا عمر ! ما كنت لأشيم^(٢) سيفًا سلّاه الله على الكافرين » .

ثورة ابن الخطاب
بفعل خالد

أبو بكر يستدعى
خالد إلى المدينة

لكن عمر كان يرى صنيع خالد نُكرًا ، فلم تطب نفسه ولم يسترح ضميره . كيف إذن يسكت ، وكيف يذر خالدًا فى طمأنينته يشعر كأنه لم يأثم ولم يجن ذنبًا ! لا بد أن يعيد القول على أبي بكر وأن يذكر له فى صراحة أن عدو الله عدا على امرئ مسلم فقتله ونزا على امرأته ، فليس من الإنصاف فى شيء ألا يؤاخذ بصنيعه . ولم يسع أبا بكر إزاء ثورة عمر إلا أن يستقدم خالدًا ليسأله ما صنع . وأقبل خالد من الميدان إلى المدينة ، ودخل المسجد فى عدّة الحرب مرتديًا قباء له عليه صدأ الحديد وقد غرز فى عمامته أسهمًا . وقام إليه عمر إذ رآه يخطو فى المسجد فنزع الأسهم من رأسه وحطّمها وهو يقول : قتلت امرأ مسلمًا ثم نزوت على امرأته ! والله لأرجسّك بالأحجار . وأمسك خالد فلم يعترض ولم يقل شيئًا ، ولا يظن إلا أن رأى أبي بكر فيه مثل رأى عمر . ودخل على أبي بكر وقصّ عليه قصة مالك ومناصرته سجاح وتردده بعد ذلك ، وجعل ياتمس المعاذير عن قتله ، وعذره أبو بكر وتجاوز عما كان منه فى الحرب ؛

(١) الرهق : السفه والخفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم .

(٢) أشيم : أغمد . والشيم يستعمل فى السل والإغقاد .

لكنه عنفه على التزوج من امرأة لم يحفّ دم زوجها . وكانت العرب تكره النساء في الحرب ، وترى الاتصال بهن أثناءها عاراً ، أى عار .

وخرج خالد من عند الخليفة ناجياً بإمارته على الجند ، متأهباً للعود إليهم وقيادتهم إلى اليمامة . ومر بعصر — وكان ما يزال في المسجد — فالتفت إليه وقال : هلم إلىّ يا بن أم سامة ! قال هذه العبارة وفي عينيه نظرة الساخر ، وفي صوته نبرة المنتصر ، وكأنه يقول : استبق أحجارك فارجم بها غيرى . وأيقن عمر أن أبا بكر عذره وغفر له وأظهر الرضا عنه ، فأمسك بدوره . وانقضى ذلك اليوم بينهما عند مبادلة هذه العبارات .

على أن عمر لم يتزحزح عن رأيه فيما صنع خالد . فلما توفّي أبو بكر ، وبويع عمر خليفة له ، كان من أول ما صنع أن أرسل إلى الشام ينعتي أبا بكر ، وبعث مع البريد الذى حمل النعى رسالة يعزل بها خالدًا عن إمارة الجيش . وقد عاتبه خالد على ذلك حين رجع إلى المدينة ، فكان جواب عمر : « ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتن بك الناس فخشيت أن تفتن بالناس » . وهذه حجة لها قيمتها . لكن إجماع المؤرخين منعقد على أن عمر بقى متأثراً برأيه في موقف خالد من مقتل مالك بن نويرة وزواجه امرأته ، وأن هذا رأى كان له أثره من بعد في عزل خالد .

إصرار ابن الخطاب بعد خلافته على رأيه في خالد وعزله إياه

لم يكن نشاط متمم بن نويرة بأقل من نشاط أبي قتادة منذ قدم معه المدينة . فقد طلب إلى أبي بكر دية مالك فوداه ، وتحدث إليه في سببهم ، فكتب إليه برد السبي . وأقام متمم بالمدينة زمناً طال إلى ما بعد غزوة اليمامة ، ثم كان موضع العطف الشديد من عمر لإصرار عمر على رأيه في خالد . وكان متمم قد قال في أخيه مرأى كثيرة لا تزال تُعد من عيون الشعر العربى . ذكروا عن السبب في اتصال المعرفة بين متمم وعمر أن ابن الخطاب كان يصلى الصبح يوماً ، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل قصير أعور متنكباً قوساً وبيده هراوة ، فسأل من هذا ، وعرف أنه متمم بن نويرة ، فاستنشده قوله في أخيه ، فأنشد إحدى قصائده حتى بلغ قوله :

متمم بن نويرة ونشاطه بعد مقتل أخيه

وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جَذِيمَةً حِقْبَةً من الدهر حتى قيل لن يتصدَّعا
فلما تفرَّقنا كَأَنِّي ومالكا لطول اجتماع، لم نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا
فقال عمر : « هذا والله التأبين . ولو دِدْتُ أَنِي أَحْسَنُ الشَّعْرَ فَأَرِثِي أَخِي
زَيْدًا بِمِثْلِ مَا رَثَيْتَ بِهِ أَخَاكَ » . قال متمم : « لو أَنَّ أَخِي مَاتَ عَلَى مَا مَاتَ
عَلَيْهِ أَخُوكَ مَا رَثَيْتَهُ » . وكان زَيْدٌ قُتِلَ بِالْيَمَامَةِ شَهِيداً تَحْتَ لَوَاءِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ .
قال عمر حين سَمِعَ قَوْلَ مَتَمِّمٍ : « مَا عَزَّانِي أَحَدٌ عَنْ أَخِي بِمِثْلِ مَا عَزَّانِي بِهِ
مَتَمِّمٌ » .

بلغ اختلاف الرأي بين أبي بكر وعمر في حادث مالك بن نويرة ما رأيت .
وكلا الرجلين كان يريد للإسلام والمسلمين الخير لا ريب . أفكان اختلافهما
مع ذلك راجعاً إلى خلاف في تقدير ما صنع خالد، أم كان اختلافاً على السياسة
التي يجب أن تتبع في هذا الموقف الدقيق من حياة المسلمين ، موقف الردة وقيام
الثورة بها في أنحاء شبه الجزيرة ؟ ! .

الرأي عندى في هذا الخلاف أنه كان اختلافاً في السياسة التي يجب أن
تتبع في هذا الموقف . وهو اختلاف يتفق وطبائع الرجلين . أما عمر ، وكان مثال
العدل الصارم ، فكان يرى أن خالدًا عدا على امرئ مسلم ونزاً على امرأته
قبل انقضاء عدتها ، فلا يصح بقاؤه في قيادة الجيش حتى لا يعود لمثلها فيفسد
أمر المسلمين ، ويسىء إلى مكانتهم بين العرب ، ولا يصح أن يترك بغير عقاب
على ما أثمَ مع ليلي . ولو صح أنه تأوَّل فأخطأ في أمر مالك ، وهذا ما لا يميزه
عمر ، فحسبه ما صنع مع زوجته لبقام عليه الحد . وليس ينهض عذراً له أنه
سيف الله ، وأنه القائد الذي يسير النصر في ركابه . فلو أن مثل هذا العذر
نهض لأبيحت لخالد وأمثاله المحارم ، ولكان ذلك أسوأ مثل يضرب للمسلمين في
احترام كتاب الله . لذلك لم يفتأ عمر يعيد على أبي بكر ويأج حتى استدعى
خالدًا وعنفه على فعلته .

أما أبو بكر فكان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيه لمثل هذه الأمور
وزن . وما قَتَلُ رجل أو طائفة من الرجال لخطأ في التأويل أو لغير خطأ ،
والخطر محيط بالدولة كلها ، والثورة ناشبة في بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها .
وهذا القائد الذي يُسْتَهَمُ بأنه أخطأ من أعظم القوى التي يُدْفَعُ بها البلاء ويُتَّقَى

اختلاف أبي بكر
وعمر في أمر خالد
كان اختلافاً في
الرأي السياسي

رأى عمر وحجته
في الأمر

رأى أبي بكر
وحجته فيه

بها الخطر ! وما التزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب ، بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها ، إذا وقع ذلك من فاتح غزا ، فحق له بحكم الغزو أن تكون له سبائياً يصبح ملك يمينه ! ! إن التزمست في تطبيق التشريع لا ينبغي أن يتناول النوايا والعظماء من أمثال خالد ، وبخاصة إذا كان ذلك يضر بالدولة أو يعرضها للخطر . ولقد كان المسلمون في حاجة إلى سيف خالد ، وكانوا في حاجة إليه يوم استدعاه أبو بكر وعنه أكثر من حاجتهم إليه من قبل . فقد كان مسيلمة باليمامة على مقربة من البطاح في أربعين ألفاً من بني حنيفة ، وكانت ثورته بالإسلام والمسلمين أعنف ثورة ، وكان قد تغلب على عكرمة بن أبي جهل من قواد المسلمين ، وكان أكبر الرجاء معلقاً بسيف خالد في الانتصار عليه . أفمن أجل مقتل مالك بن نويرة ، أم من أجل ليلى الجميلة التي فتنت خالداً ، يعزل خالد وتتعرض جيوش المسلمين لتغلب مسيلمة عليها ، ويتعرض دين الله لما يمكن أن يتعرض له ! ! إن خالد آية الله ، وسيفه سيف الله . فلتكن سياسة أبي بكر حين استدعاه إليه أن يكتفي بتعنيفه ، وأن يأمره في الوقت نفسه بالسير إلى اليمامة ولقاء مسيلمة .

هذا في رأي هو التصوير الصحيح لما كان بين أبي بكر وعمر من خلاف في هذا الحادث . ولعل أبا بكر إنما أصدر أمره إلى خالد يومئذ بالسير للقاء مسيلمة بعد أن تغلب متنبئ بني حنيفة على عكرمة ليُرى أهل المدينة ومن كان على رأى عمر منهم خاصة ، أن خالداً رجل الملمات ، وأنه قد قذف به حين أصدر إليه هذا الأمر إلى جحيم ، إما ابتغاه وقضى عاياه فكان ذلك خير عقاب له على ما صنع بأم تميم وزوجها ، وإما صهره النصر فيه وطهره فخرج مظفراً غانماً قد سكن من المسلمين روعاً لا تُعدُّ فعاته بالبطاح شيئاً مذكوراً إلى جانبه .

أبو بكر يأمر
خالداً بالسير
إلى اليمامة

وقد صهرت اليمامة خالداً وطهرته وإن تزوج في أعقابها بنتاً بكراً عقد عليها كما فعل مع ليلى ، ولمّا تجفّ دماء المسلمين ولا دماء أتباع مسيلمة . ولقد عنفه أبو بكر على فعلته هذه بأشد مما عنفه على فعلته مع ليلى . لكنه لم يزد على التعنيف ولم يزد خالد على سماعه . وما أرى أبا بكر في تعنيفه إلا أراد أن يسكن

من ثائرة الثائرين أمثال أبي قتادة . وإن أعجب فليس عجبى للكتّاب والمؤرخين الذين حاولوا أن يسيثوا بهذا الحادث إلى تاريخ خالد بأعظم من عجبى لأمثالهم ممن حاولوا أن يبرئوه أو يتلمسوا له الأعذار . فما مالك ، وما ليلي ، وما بنت مُجَاعَة إلى جانب المئات والألوف من الرءوس التي طاحت بسيف خالد أو بأمره ! وهذه المئات والألوف من الرءوس الطائرة عن أجسادها هي فخر خالد وهي التي جعلته سيف الله . فإن أصاب سيفه رَهَقٌ في لحظة من اللحظات فقد أصاب هذا السيف النصر والفخر في سنوات وسنوات .

عاد خالد من المدينة إلى البطاح بعد أن أصدر أبو بكر إليه أمره أن يسير لقتال مسيلمة باليمامة ؛ وعاد إليها وقد برثت من الردة وآثارها ، فأقام بها على رأس جنده ، ينتظر من أبي بكر مدداً كان يجهّزه لمؤازرته . فلما جاءه المدد سار على رأس الجيش كله ، يقصد أبلغ المتنبيين في شبه الجزيرة مكرراً ، وأشدّهم خطراً . سار ممتلئاً ثقة بنفسه ، وإيماناً بالله ، وطمأنينة إلى أنه جل شأنه مؤيده وناصره .

وإن ينصركم الله فلا غالب لكم .

الفصل التاسع

غزوة اليمامة

الجيش الذي أمد
به أبو بكر خالداً
لقتال مسيلمة

سار خالد بن الوليد من البطاح على رأس عسكره ومعه المدد الذي أمد به أبو بكر به ، ومقصدهم جميعاً اليمامة ، يلقون بها مسيامة بن حبيب متنبئ بني حنيفة . ولم يكن هذا المدد الذي بعث به الصديق دون جيش خالد أيدياً أو قوة . فقد تألف من رجال من المهاجرين والأنصار أصحاب رسول الله الذين شهدوا الحرب فشهدت لهم الحرب ، ومن القبائل التي عرفت في القتال بالبأس والبطش . ولقد كان ثابت بن قيس والبراء بن مالك على رأس الأنصار ، وأبو حذيفة بن اليمان وزيد بن الخطاب على رأس المهاجرين ؛ أما القبائل فكان على كل قبيلة زعيمها . وهل كان لأبي بكر أن يضمن على قائد عسكره للقاء مسيلمة بمدد ! لقد كان يعلم أن أربعين ألفاً يقفون إلى جانب هذا المتنبئ في عدة القتال ، وأنهم يؤمنون به ويلاقون الموت في سبيله ، فإذا هو لم يرمهم بخيرة المسلمين في القيادة ، وفي البطولة ، وفي خوض المعامع ، تعرضت سياسته في قتال أهل الردة جميعاً للفساد . وأبو بكر أحصف وأعلى رأياً وأبعد نظراً وأقوى إيماناً من أن يعرض الإسلام الناشئ لمثل هذا المصير .

وكان بين هؤلاء الذين أمد بهم أبو بكر خالداً جماعة من القراء حفاظ كتاب الله ، كما كان بينهم جماعة ممن شهدوا بدرأ . هذا مع أن أبا بكر كان يضمن بأهل بدر ويقول : « لا أستعمل أهل بدر ، أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم ؛ فإن الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما ينتصر بهم » . وإنما خرج الصديق على رأيه ذلك ، فأمد خالداً بالبدرين وبمن شهدوا المواقع في عهد الرسول ، لأن مسيامة كان قد استغلظ أمره في اليمامة ؛ فكل توضحية في سبيل القضاء عليه دفع عن دين الله ، وكل تهاون معه يزيد الثورة في بلاد العرب ضراً مآلاً ، ويزيد موقف المسلمين حرجاً .

والحق أن ما أدركه المسلمون إلى ما قبل اليمامة من النصر قد كان بالقياس

إليها هيناً يسيراً . كانت القبائل القريبة من المدينة والتي أرادت محاصرتها غداة بيعة الصديق ، لا يدعى أحد فيها النبوة ، ولا تطمع في شيء إلا أن تعني من الزكاة . وقد نجح عدي بن حاتم في صرف القبائل عن طليحة الأسدي ، فهان أمره فلم يقدر على المقاومة . ولم تكن أم زمل لتقوى عليها بمن اجتمع حولها من فلول تلك القبائل . وكان بنو تميم على خلاف بينهم ، وكانت سجاح قد وهنت من عزم مالك بن نويرة ، فلم يكن بينه وبين خالد بن الوليد قتال . أما مسيلمة ومن اجتمع حوله باليمامة فكانوا ينكرون أن يكون محمد رسول الله إليهم ، وكانوا يرون لأنفسهم ما لقريش من حق ، فلهم نبي ورسول ، كما لقريش نبي ورسول ؛ وبينهم من الجند البواسل أضعاف جند تريش عدداً . وهم إلى ذلك كتلة واحدة ، لا يفت في عضدهم خلاف ولا يضعضع من عزمهم تنافس ، وليس بينهم من التفاوت في العقيدة والجنس ما بين أهل اليمن . لا جرم ، وذلك شأنهم ، أن يكونوا أولى بأس وقوة يجب أن يحسب الصديق لها الحساب .

قوة مسيلمة
وأسبابها

ولم تكن هذه العوامل وحدها هي التي لفتت نظر أبي بكر لتقوية غزاة اليمامة ما استطاع تقويتهم . فهو حين عقد ألويته الأحد عشر لحرب أهل الردة لم يكن يقيم لمسيلمة كل هذا الوزن ، أو يحسب لبني حنيفة كل هذا الحساب ، لذلك وجه إليهم عكرمة بن أبي جهل ، ثم وجه في أثره شريحبيل ابن حسنة يعاونه . وسار عكرمة إلى اليمامة ولم ير أن ينتظر شريحبيل ، بل بادر بقاء مسيلمة ليكون له فخار النصر عليه . وكان عكرمة بطلاً مجرباً وفارساً مغواراً ، وقد اجتمع في لوائه أبطال صناديد طالما أبلّوا في الحرب أحسن البلاء . مع ذلك لم يثبت عكرمة ولا ثبت لوائه لمسيلمة ، بل نكسبهم بنو حنيفة فانهزموا ، وبلغ من نكسر هزيمتهم أن أقام شريحبيل بالطريق حيث أدركه الخبر على حقيقته الفاجعة . وكتب عكرمة لأبي بكر بالذي أصابه وأصاب جنده ، فملك أبا بكر الغضب وكتب إليه : « يا ابن أم عكرمة ! لا أريدك ولا ترني . لا ترجعن فتوهن الناس . امض إلى حذيفة وعمر فاجعة فقاتل أهل عُمَآن ومَهْرَةَ ، ثم تسير أنت وجندك تستبرعون الناس حتى تلقى المهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت » . ولا أراني في حاجة إلى بيان ما في هذا الكتاب من مظهر الغضب .

عكرمة بن أبي
جهل ينهزم أمام
قوات مسيلمة

وحسبك بدؤه بقوله : « يا ابن أم عكرمة » ، ففى هذه العبارة ما فيها من زراية واستخفاف .

كيف استغلظ
أمر مسيلمة ؟ !

كيف استغلظ أمر مسيلمة حتى بلغ هذا المبلغ ؟ ! لقد كان — على تعبير مؤرخى العرب — « رويحلا ، أصيفر ، أخينس » لا يدعو مظهره إلى تقدير واحترام . ولقد ذهب مع وفد بنى حنيفة إلى النبيّ عام الوفود ، فلما بلغ الوفد المدينة لم يأخذه قومه ليلقى النبيّ معهم ، بل خلفوه على رحالهم . ولما سلم القوم بذل لهم النبيّ العطاء ، فذكروا له مسيلمة ، فأمر له بمثل ما أمر به لكل منهم ، وقال يجامله : « أمّا إنه ليس بشرّكم مكاناً » ، وذلك لحفظه رجال أصحابه . أفيكون ذلك هو الذى يدعى النبوة من قومه ! لذلك لم يصدقه منهم أول الأمر إلا نفر قليل . أفعجزة تلك التى جمعت الألوف وعشرات الألوف حوله فيما دون السنتين ؟ كلا ! وإنما هى شعبة المشعبدن ، وحيل المحتالين ، وانقياد الجماعات لهؤلاء وأولئك . فقد كان من أهل هذه الأرجاء رجل يُدعى « نهاراً الرجّال — أو الرجال — بن عُنْفُوَة » . وكان قد هاجر إلى رسول الله بالمدينة ، فقرأ القرآن ، وفقه الدين ، وعرف تعاليم الإسلام ، وكان ذكياً ذا بصيرة . أرسله رسول الله معلماً لأهل اليمامة يفقههم فى الدين ، ويرد من اتبع منهم مسيلمة ، ويشد من عزائم المسلمين ويشغب معهم على المتنبى الكاذب . لكن « نهاراً » كان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة نفسه . فهو لم يلبث ، حين رأى السواد يتبعه ، أن أقرّ بنبوته وأن شهد بأن محمداً يقول إن مسيلمة قد أشرك فى الرسالة معه . ما عسى أن يقول أهل اليمامة عن هذا ! لقد شهد شاهد من أهل محمد لمسيلمة . وهذا الشاهد رجل فقيه عالم ، يتلو عليهم قرآن محمد ، ويقص عليهم تعاليمه ، ويفقههم فى دينه ، وهو يشهد لمسيلمة بالنبوة . ما إلى نبي ذلك أو الطعن فى صحته بعدئذ من سبيل . لذلك أقبل الناس على مسيلمة أفواجاً يؤمنون به رسولا لله إلى بنى حنيفة ، وبذلك أقبلت عليه الدنيا وأصبح فى متناول يده كل ما يشاء ويهوى .

نهار الرجال
وخلدته

ووضع مسيلمة كل ثقته فى « نهار الرجال » وصار ينتهى إلى أمره فى كل ما يريد أن يقلد محمداً فيه . وجعل نهار ، لقاء ذلك ، يُعَبّ من نعيم الحياة

الدنيا ويستمتع بكل ما لذَّ له أن يستمتع به منها . وإذا الفقهاء والعلماء أسلموا
لمتاع الدنيا أنفسهم ، وأنخضعوا لمن يملكون هذا المتاع عليهم ، فويلٌ للعلم
والفقه ، وويل للحقيقة أي ويل ! . .

ولسنا نقف عندما يروى من محاولة مسيامة إتيان المعجزات ، ولا عندما
أوحى إليه في زعمه ، فذلك كله سخف لا يثبت للتاريخ ونقده . وحسبنا ما تقدم
بيانا للأسباب التي أدت إلى متابعة الناس مسيامة وإلى استفحال أمره ، حتى
لم يستطع عكرمة حين لقيه إلا أن يعود منكوباً مهيبض الجناح .

ولا تسل كيف اتبع مسيامة عقلاء قومه ، وأنت تعرف العصبية العربية
وتعصب القبائل لاستقلالها وحريتها . ذكروا أن طليحة النعمري جاء اليمامة
فقال : أين مسيامة ؟ قالوا مَهْ ، رسول الله . قال لا ، حتى أراه . فلما
جاء قال له : من يأتيك ؟ قال : رحمان . قال : أفى نور أم فى ظلمة ؟ قال
مسيامة : فى ظلمة . ورد طليحة : أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق ، لكن
كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . وفى رواية ذكرها الطبرى أن طليحة
قال : كذاب ربيعة أحب إلينا من كذاب مضر . واتبع الرجل مع ذلك مسيامة
وقاتل وقتل معه .

طليحة النمرى
وكيف اتبع
مسيامة

أمّا ذلك شأن مسيامة وما أصاب عكرمة فى قتاله ، فلم يكن بين قواد
العرب من ينازله غير داهية الحرب وعبقريتها خالد بن الوليد ، ولم يكن عجباً أن
يعزز أبو بكر خالداً بالمدد . ثم إن الصديق كتب إلى شرحبيل بن حسنة أن
يقيم حيث هو حتى يحىء خالد إليه . فإذا فرغوا من مسيامة لحق شرحبيل بعمر
ابن العاص يُعينه على قضاة فى شمال شبه الجزيرة .

خالد يسير إلى
اليمامة بجيشه

وفى خالد يسير إلى اليمامة التقت جيوش مسيامة بلواء شرحبيل واضطارته
إلى الارتداد . يقول بعض المؤرخين إن شرحبيل صنع ما صنع عكرمة ، وأراد
أن يفوز بفخار النصر فأصابه ما أصاب سلفه . ولعل الأمر لم يكن كذلك ،
ولأنما تقدمت جند من اليمامة فلاقوا شرحبيل فارتد عنهم حتى يجهته خالد .
وأى ذلك كان فقد بقى شرحبيل حيث تراجع حتى بلغته جيوش المسلمين ، فاما
عرف خالد ما أصابه لأمه أشد اللوم على صنيعه . ولعله كان يؤثر أن يتراجع

من غير أن يشتبك مع خصمه حتى لا يقوى الظفر روحهم المعنوية .

سرية مجاعة بن
مرارة يقتلها
خالد بن الوليد

وإن جيوش خالد لتتلاحق إلى أرض اليمامة وتبلغ أنباؤها مسيلمة ، إذ خرج مُجَاعَة بن مُرَّارَة في سرية يطالب ثأراً له في بني عامر وبني تميم ، وقد خاف أن يفوته إذا شُغل بلقاء المسلمين وقتالهم . وأدرك مُجَاعَة ثأره وكرّ راجعاً مع أصحابه ، حتى إذا بلغوا ثَنِيَّة اليمامة كان التعب قد أخذ منهم فناموا . وأدركهم جيش خالد فتنبّهوا ؛ وعرف خالد أنهم من بني حنيفة ، وظن أنهم خفوا لقتاله فأمر بقتالهم ، لم يغن عنهم قولهم إنهم خرجوا لثأرهم . فقد سألهم عن رأيهم في الإسلام ، فكان جوابهم : نقول منا نبي ومنكم نبي . وقال أحدهم ، سارية بن عامر ، وهو يُعرّض على السيف يخاطب خالدًا : « أيها الرجل ، إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيراً أو شراً فاستبق هذا الرجل » وأشار إلى مُجَاعَة . واستبقى خالد مجاعة لم يقتله ، وجعله كالرهينة ؛ لأنه كان من أشرف بني حنيفة ، وكان له عندهم مقام كريم ، ولأن خالدًا كان يطمع في معاونته إياه بالرأى . ولقد قيّده بالحديد ، وجعله في قبّته ، وجعل زوجه الجديدة ليلي أم تميم على حراسته .

جند مسيلمة
بعقرباء

كان مسيلمة قد جمع جنده بعقرباء في طرف اليمامة ، وجعل الأموال وراء ظهورهم . وكان هذا الجند أربعين ألفاً ، وقيل ستين ألفاً . وهذه أعداد قلما سمع العرب بمثلها في الجيوش من قبل . وأقبل خالد غداة اليوم الذي ارتهن فيه مجاعة فصّف جنده في وجه مسيامة صفّ القتال . ووقف الجيشان ينظران أمر الصّدّام ، وكلّ يقدر أن مصيره معلق بمصير ذلك اليوم . ولم يبالغ أيهما في تقدير هذا الأمر ؛ فيوم اليمامة من الأيام الحاسمة في تاريخ الإسلام وفي تاريخ العرب .

يوم اليمامة
حاسم في تاريخ
العرب

كانت قوة مسيامة قوة الردة المليحة والإنكار الصريح أن تكون نبوة محمد لغير قريش ، وأن تكون للناس كافة . وكانت هذا القوة هي المركز الذي تتطلع إليه الأعين من اليمن وعمّان ومهّرة والبحرين وحضرموت والجنوب كله من شبه الجزيرة منحدرًا من مكة والطائف إلى خليج عدن ، وتتطلع إليه الأعين كذلك من بلاط فارس . وكانت جيوش مسيلمة تؤمن به وتتفانى في

سبيله ، ثم تزيدها الحصومة القديمة بين الحجاز وجنوب الجزيرة إيماناً وتفانياً . وكانت جيوش المسلمين زهرة قوتهم والملاذ والحمى الدين الله وكامته ؛ عليها خالد أعظم قائد عرفه التاريخ في عصره ، وبينها حفظاً كلام الله قراءة القرآن ، وقد جاءوا جميعاً يملأ الإيمان قلوبهم بأن الجهاد في سبيل الله والدفع عن دينه الحق أول فرض على المؤمن ، وأنه فرض عين على كل ذى علم وبيضة . لا محيص إذن أن تكون المعركة حامية ، وأن تكون مثلاً لما لقوة الإيمان من بأس وسلطان .

وتقدم شُرْحُبِيل بن مسيامة يحرض جيش بني حنيفة بعبارات تهتز لها النفس العربية الدقيقة الحس بكل ما يتصل بالعرض والحسب أشد اهتزاز . صاح فيهم : « يا بني حنيفة ! اليوم يوم الغيرة ، إن هُزِمْتُمْ تُسْتَرَدَفُ النساءُ سبيات ، وَيُنْكَحْنَ غير حَظِيَّاتٍ ، فقاتلوا عن أحسابكم ، وامنعوا نساءكم » ، وأمرهم أن يشدوا . والتقى الجمعان والمسلمون لما تحطم حميتهم ؛ يقول المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة : تخشى علينا من نفسك شيئاً ؟ فيجيبهم : بشس حامل القرآن أنا إذا . بل لقد تنازروا بشر من هذا الحديث وأسوأ منه أثراً . جعل المهاجرون والأنصار يرمون بالجنين أهل البوادي ، ويرميهم أهل البوادي بمثل ما يرمونهم به . يقول أهل القرى : « نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم » . ويقول أهل البادية : « إن أهل القرى لا يحسنون القتال ولا يدرون ما الحرب » .

ابن مسيلة يحرض
قومه في بني حنيفة

لذلك لم يَشَبُّوا لجموع بني حنيفة ، مع ما كان بين الفريقين من قتال شديد ؛ فانشى صف المسلمين هزيمًا ، وزال خالد عن فسطاطه ، فدخله بنو حنيفة فرأوا فيه مُجَاعَةً مقيداً بالحديد ورأوا على مقربة منه أم تميم . وحمل رجل منهم بالسيف على ليلي يريد أن يقتلها ، فصاح به مجاعة : « مَهْ ؛ أنا لها جارٌ ، فَنِعِمَّتِ الحرة ؛ عليكم بالرجال ! » . وقطع الجند حبال الفسطاط ومزقوه بسيوفهم تاركين مجاعة وليلى ينظران ما الله صانع بالقوم جميعاً .

تراجع المسلمين
ودخل جنود
مسيلة فسطاط
خالد بن الوليد

على أن المسلمين لم يتراجعوا حتى قتلوا من بني حنيفة خلقاً كثيراً . وكان في الأولين الذين قُتِلُوا نَهَارُ الرِّجَالِ القاريء الفقيه الحائن الخادع . خرج في

طلبة بني حنيفة ، فلقية زيد بن الخطاب فقتله ، فأزال بقتله من الوجود روح الإثم التي طوعت لمسيامة أن يبلغ ما بلغ ، وأن يقف وجنده يهود المسلمين ويرسل الروح في نفس كل حريص على دين الله .

لم تزايل خالد بن الوليد رباطة جأشه حين زال عن فسطاطه ، ولم يداخله ريب في مصير اليوم . لقد رأى أنما انهزم من جند المسلمين من انهزم لتنازع الناس وتواكلهم ، فلو لم يتواكلوا انتصروا . لذلك لم يلبث حين لاحت له فترة تهدن بين الفريقين أن صاح في الجند صيحة بطش وغضب : « امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي ، ولنعلم من أين نؤتى » . ودوت هذه الصيحة ، تداولها سمع الجيش كله فنبهته إلى حقيقة أمره . واطمأن خالد ، حين رأى الناس امتازوا ، إلى أنه قطع بأمره كل مظنة للتواكل ، وأنه هيباً للنصر طريقه .

صيحة خالد :
امتازوا أيها
الناس

أثارت صيحة خالد ماركب في الفطرة العربية من قوة العصبية ، ورأى زعماء المسلمين ما حل بهم ، فثارت في قلوبهم الحمية لدين الله ، وسما الإيمان بنفوسهم إلى ما فوق مراتب الحياة ، وتجاوى الاستشهاد أمامهم باسم مضياً يفتح لهم أبواب الجنة خالدين فيها ، وأظلتهم نسمة من روح الله أرتهم الحياة لهواً ولعباً وغروراً باطلاً ، فانقلبوا من الهزيمة يطلبون النصر أو الشهادة . قال ثابت بن قيس - وكان على رأس الأنصار - : « بشما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ! اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء (وأشار إلى أهل اليمامة) أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء (وأشار إلى المسلمين) ، ثم اندفع إلى الوطيس يقاتل ويقتل ، وينادي : « هكذا عنى حتى أريكم الجلال ! » وأبلى بلاء أذهب عن الأنفس الروح ، وظل يجاهد حتى خلصت إليه الجراح من كل جانب فمات وقد رزق الشهادة . وكان البراء بن مالك من الصناديد الذين لا يعرفهم الفرار ، فلما رأى ما صنع الناس وثب وقال : « أين يا معشر المسلمين ! أنا البراء بن مالك . هلم إلى ! » . وسمعه المسلمون وكلهم يعرفون بأسه ، ففأ إليه منهم فئة قاتلت القوم وقتلت منهم حتى أجلتهم عن مواقفهم . وهبت ريح أثارت الرمال في وجوه المسلمين ، فذهب قوم يتحدثون إلى زيد بن الخطاب

الحمية لدين الله
تثور في قلوب
المسلمين

ما يصنعون ، فكان جوابه : « لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم ، أو ألقى الله الذين ابتغوا الشهادة وفازوا بها . فأكلمه بحجتي . غصوا أبصاركم وعضوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا في عدوكم وامضوا قُدُمًا » واندفع في صدر القوم يقاتل ويقتل ، وجنده من ورائه ، حتى لقي الله يكلِّمه بحجته . وصاح أبو حذيفة بمن حوله : « ي أهل القرآن ، زيّنوا القرآن بالفعال » . وألقى بنفسه في الغمار يقاتل وقومه حتى ضمه الله إليه . وأخذ سالم مولى أبي حذيفة الراية وقال : « بثس حامل القرآن أنا إن لم أثبت » : وقاتل حتى قُتل . بهذه الصيحات الصادرة من قلوب ملأها الإيمان قوة وبأسًا ، سرت روح الاستشهاد في جند المسلمين جميعًا ، فهانت أمامهم الحياة واستحبوا الشهادة عليها ، فاندفعوا يطلبونها صادقين ، فردوا جيوش مسيلمة إلى ما وراء خطوطها الأولى .

وكانت جيوش مسيلمة تقاتل قتال المستيثس هي كذلك . كانت تقاتل عن وطنها ، وتقاتل عن أحسابها ، وتقاتل عن عقيدة مريضة هي عندها دون الوطن ، ودون الحسب مقامًا ؛ لذلك ثبتت للمسلمين وجعلت تردُّ منهم من تستطيع رده ، وتحارب عن كل شبر من الأرض لا تتزحزح عنه حتى تعود وتحاول استرداده .

لم يُرْعَ خالد لاستبسال بني حنيفة ، بل أيقن حين سمع صيحات المسلمين ، ورأى إقدامهم على الموت مستبشرين ، أنه ملك زمام اليوم ، وأن النصر صار منهم قريبًا .

لكنه حرص مع ذلك على أن يرى المسلمون هذا النصر قريبًا كما يراه هو . لذلك خرج على رأس رجاله وقال لحماته : « لا أوتينَّ من خلقي » ، ثم صاح صيحة المعركة : « يا محمداه » . وهو لم يكن يريد بخروجه وبصيحته أن يشدد العزائم فحسب ، بل كان يريد كذلك أن يسلك إلى النصر أسرع طرقه ، وأن يستله من مكمنه . فقد رأى بني حنيفة يسقطون حول مسيلمة قتلى لا يبالون الموت ، فأيقن أن أقرب الطرق إلى النصر قتل مسيلمة نفسه . لذلك داور برجاله حتى كان حياله ، ثم جعل يستدرجه ليخرج إليه . وأقبل المحيطون بمسيلمة يخرجون إلى لقاء خالد فيلقاهم الموت من سيفه قبل أن يبلغوه . وكثر

جيوش مسيلمة
تقاتل قتال
المستيثس

خالد يداور
ليقتل مسيلمة

في هؤلاء القتل ، وشعر مسيلمة بالخزي يركبه لشدة جبنه ، فساورته نفسه أن يخرج كما خرجوا . لكنه أيقن أنه مقتول إن خرج لا محالة ؛ فتردد واضطرب . وإنه لفي اضطرابه وتردده إذ شد خالد بن الوليد برجاله عليه وعلى من حوله وركبهم يعملون فيهم السلاح . هنالك صاح أصحاب مسيلمة به : « أين ما كنت تعدنا ! » فأجابهم وقد ولي مدبراً : « قاتلوا عن أحسابكم » . وكيف يقاتلون وقد أسرع هو إلى الفرار ! أو ليس المنطق أن يتبعوه فاراً كما اتبعوه نبيّاً ! !

ورأى محكم بن الطفيل فرار القوم ، ورأى المسلمين يتعقبونهم ، فصاح بهم : « يا بني حنيفة ! الحديقة » ، يريد منهم أن يهتموا بها . وكانت هذه احتماؤهم بالحديقة الحديقة على مقربة منهم ، وكانت لمسيلمة وتدعى حديقة الرحمان ، وكانت فسيحة الأرجاء منيعة الجدران كأنها الحصن . وقد فروا إليها وتحصنوا بها من هزيمتهم بعد أن خر الألوف منهم صرعى مُجَدِّلِينَ في الميدان بسيفوف المسلمين . ووقف المحكم برجاله يحمي ظهورهم في أثناء فرارهم . وإنه كذلك يحاول صد المسلمين ويحرّض رجاله على دفعهم ، ويقا تل وإياهم أشد قتال حتى يتحصن قومه ، إذ رماه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بسهم وقع في نحره فقتله .

تحصن مسيلمة وقومه بالحديقة . أفبحاصرهم المسلمون وإن طال حصارهم !؟ كلا ! إن هذا الجيش الشمل بنشوة الظفر يريد النصر كاملاً ؛ ويريده سريعاً . لذلك أحاط بالحديقة يلتمس فيها فرجة تغنيه عن فتح بابها الوثيق الرجاج فلم يجد . قال البراء بن مالك : « يا معشر المسلمين ، ألقوني عليهم في الحديقة » . قال الناس : « لا تفعل يا براء » . وماذا عسى أن يصنع البراء وحده بين هذه الألوف التي تكدست في الحديقة لاجئة من الموت ! لكن البراء أصر على قوله وزاد : « والله لتطرحنني عليهم فيها » ورفع المسلمون إلى أعلى الجدار ، فلما رأى القوم وكثرتهم تردد وتراجع وقال : أنزلوني . لكنه ما لبث أن عاد يقول : احملوني . وتكرر ذلك منه . ثم إنه وقف على الجدار تحدثه نفسه : إنه البراء البطل الذي يتحدث الناس في شبه الجزيرة كلها بفعاله ، ألا لئن عاد أدراجه

البراء بن مالك
يتصور الحديقة
ثم يفتح بابها

ليقولنَّ الناس : همَّ ولم يفعل ، وليذهبن ذلك بشهرته في البطولة ، وليتندرن الناس بإحجامه بعد الأقدام . وإن حدث ذلك فماذا يبقى له ، وأى وجه يطالع الناس به ! لذلك نضا عنه ترده وأتى بنفسه على بنى حنيفة أمام باب الحديقة ، فقاتلهم وقتل يمنة ويسرة ، حتى فتح الباب للمسلمين ، ودخلوا منه زُمَرًا تلمع في أيديهم سيوفهم ، وبطل الموت من حلق عيونهم ؛ فما لبث بنو حنيفة حين رأوهم أن فروا أمامهم يتراكضون في الحديقة التي انقلبت سجنًا تراكض الأغنام رأت الذابح يدخل عليها بسكينه .

هذه رواية . ورواية أخرى أن المسلمين تسوّروا الحديقة من الجدران وحاولوا اقتحام الباب . ولعل البراء كان بين الذين تسوّروا الجدران أقربهم مكانًا من الباب ، وأنه ألقى بنفسه في الحديقة ففتحها للمسلمين بعد أن قاتل من وجده من القوم دونه ؛ وذلك حين كان اللاجئون إلى الحديقة في شغل عنه بمن شدوا عليهم يرمونهم بالنبل من أعلى .

اقتحام المسلمين
الحديقة ومهاجمتهم
جيوش مسيلمة بها

اقتحم المسلمون الحديقة والتحموا بأعدائهم فيها ، وما عسى أن تجدى سيوف بنى حنيفة والأشجار من حولهم تعوقهم ! مع ذلك استمر القتال وكثر القتل بين الفريقين ، وإن زاد قتلى بنى حنيفة على قتلى المسلمين أضعافًا مضاعفة . وكان وحشياً الحبشى قد أسلم بعد أحد ، وبعد أن قتل حمزة سيد الشهداء فيها ، وكان حاضراً اليمامة . ولقد رأى مسيلمة في الحديقة فهز حركته ، حتى إذا رضى عنها دفعها عليه فأصابته . وقد اشترك معه رجل من الأنصار ضرب مسيلمة بسيفه ، فكان وحشياً يقول : ربك أعلم أينما قتله . وصاح رجل يقول : قتله العبد الأسود .

مقتل مسيلمة

انهدت عزائم بنى حنيفة حين سمعوا الصيحة بموت مسيلمة وأسلموا أنفسهم لا يقاومون ، وأمعن المسلمون فيهم قتلاً . فلم تعرف بلاد العرب في تلك العصور موقعة كان فيها ما كان في موقعة اليمامة من دماء . لذلك أطلق على حديقة الرحمان اسم حديقة الموت ، ولا يزال هذا اسمها في كتب التاريخ جميعاً .

ولما انتهت الموقعة أمر خالد فجىء بمسجاة من فسطاطه ، فطلب إليه

مجاة يدل خالداً
على مسيلمة

أن يدلّهُ على مُسيامة . وجعل القوم يكشفون عن القتلى حتى مروا بمحكّم اليمامة ، وكان المحكّم وسيما ، فأما رآه خالد سأل مجاعة : هذا صاحبكم ؟ وأجاب مجاعة : لا ! هذا والله خير منه وأكرم ؛ هذا محكّم اليمامة . ودخل خالد ومجاعة حديقة الموت فرّوا بجثة ذلك الرويجل الأصيفر الأخينس ، فقال مجاعة : هذا صاحبكم قد فرغتم منه . وقال خالد : هذا الذى فعل بكم ما فعل .

الآن وقد انتهت فتنة مُسيامة ، واجتُثّ أصاها ، وقد قُضي على جيشه هذا القضاء المبرم ، أفما آن لخالد أن يطأئث ولجأه أن يستريح ؟

خالد يتابع المعركة حتى يبلغ النصر مداه

كلا ! ليس هذا من طبع خالد ، وليست هذه السياسة سياسته فى الحرب . إنما سياسته أن يبلغ النصر مداه حتى لا يترك وراءه ما قد تُعشى عواقبه . لم يكفهِ من حرب بنى أسد ومن والاهم فرار طليعة ، بل بقي حتى استبرا الأرض ، وحتى قضى على أم زمل وفلوها . وهو لم يدع بنى تميم حتى قضى فى ديارهم على كل نافع فى نار للفتنة أو فى رماد . وكذلك فعل ها هنا . قال له عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وقد فرغ من لجئوا إلى حديقة الموت : « ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون » ، يريدان حصون اليمامة . فكان جواب خالد : « دعانى أبثّ الخيول فألقط من ليس بالحصون ، ثم أرى رأيي » . وبثّ الخيول فاجاءوا بما وجدوا من مال ونساء وصبيان ، فضمه إلى العسكر . ثم نادى بالرحيل لينزل على الحصون فيفتضها على من بها ، ويفرغ بذلك من نبي حنيفة فلا تقوم لهم من بعد قائمة أبداً .

كان خالد قد وثق بمجاعة بعد الذى كان من جواره أم تميم ، روى إخلاصه القول له فى مسيلمة ومن معه . وجاء مجاعة هذا إليه وقال : والله ما جاءك إلا سرعان الناس ، وإن الحصون لمساوة رجالا ؛ فهل لك إلى الصالح على ما ورأى ؟ ونظر خالد إلى جيشه فرأى قوماً نهكتهم الحرب وقد أصيب من أشرف الناس فيهم خاق كثير ، وهم إلى ذلك حراس على أن يعودوا متوجين بفخار النصر . أما وقد يكون مجاعة صادقاً فقد رأى خالد من الخير أن يصالحه . وتصالحا على أن يحتفظ المسلمون بما غنموا إلا نصف السبي .

الصلح بين خالد ومجاعة

واستطرد مجاعة يقول : الآن آتى قومي فأعرض عليهم ما قد صنعت . وانطلق فقال للنساء : البسن الحديد ثم أشرفن على الحصون . وقد فعلن . وراهن خالد فأيقن أن مجاعة لم يكذبه . وعاد مجاعة يزعم أنهم أبوا أن يجيزوا ما صنع ، وإنما أشرف على رموس الحصون منهم من أشرف حتى يرجع إليهم فيروا رأيهم . ونزل خالد عن النصف مما كان قد تصالح عليه من السبي . فلما فتحت الحصون لم يجد بها إلا النساء والصبيان ومشيمة فانية ورجالا ضعفتي . عند ذلك نظر إلى مجاعة مغضباً وقال : ويحك ! خدعتني ! وأجاب مجاعة مطمئناً : هم قومي ، ولم أستطع إلا ما صنعت . وأكبر منه خالد صدق وطنيته فأجاز الصالح وسرح صاحبه .

ويروى أن مجاعة ذهب إلى قومه قبل كتابة عهد الصلح ، وقبل أن يرى خالد من بالحصون ، فعرضه عليهم ، فاعترضه سلمة بن عمير الحنفي وقال : « لا والله لا نقبل حتى نبعث إلى أهل القرى والعبيد فنقاتل ولا نصالح خالداً ، فإن الحصون منيعة والطعام كثير والشتاء قد حضر » . وأجابه مجاعة : « إنك امرؤ غر مشنوم . غرك أني خدعت القوم حتى أجابوني إلى الصلح ، فهل بقي أحد فيه خير أو به دفع ! وإنما بادرتكم قبل أن يصيبكم ما قال شرحبيل بن مسيابة : قبل أن تُستردف النساء سبيات ، ويُنكحن غير حظيات » . وسمع إليه القوم فأجازوا صلحه ولم يحفلوا قول سلمة بن عمير .

وجاء خالد رسول من أبي بكر ومعه أمر أن يقتل كل قادر على القتال من بني حنيفة . لكن خالد كان قد صالحهم ؛ وهو رجل متى عهد وفي . وحشّر بنو حنيفة للبيعة والبراءة مما كانوا عليه ؛ وجيء بهم إلى خالد في عسكره ، فبايعوا وأعلنوا براءتهم من الردة ورجوعهم إلى الإسلام . وبعث خالد بوفد منهم إلى أبي بكر بالمدينة . فلما قدموا عليه قال لهم : ما هذا الذي استدلت منكم ما استدلت ؟ قالوا : يا خليفة رسول الله ، قد كان الذي بلغك مما أصابنا ، وقد كان امرأ لم يبارك الله له ولا لعشيرته فيه .

رسالة أبي بكر إلى
خالد وإنفاذه
الصلح برغمها

ولعلك تسأل : كيف رضى خالد عن مجاعة بعد أن خدعه ، وخالد من نعرف بأساً وشدة ؟ لكن نصر المسلمين المؤزر جعل خالداً أدنى إلى التسامح ؛

عدد القتلى من
بني حنيفة

وقد بلغ قتلى بنى حنيفة مبلغاً زاده تسامحاً . قيل إن الذين قُتلوا في حديقة الموت بلغوا سبعة آلاف ، وإن مثل هذا العدد قُتل منهم في الميدان ، وإن سبعة آلاف أخرى قتلوا حين بثَّ خالد جنوده تطارد الفارين . هذا إلى أن الصلح الذي عقده مجاعة قد ترك للمسلمين كل ما غنسوا من ذهب وفضة ، وسلاح ، وجعل لهم ربع السبي ، وجعل لهم في كل قرية من قرى بنى حنيفة حديقة ومزرعة يختارهما خالد . فإن يكن مجاعة قد أنجى بعد ذلك من بقى من قومه فلم يقتل منهم كل قادر على القتال ، فإن قومه جميعاً قد رجعوا إلى الإسلام وأقرّوا بسلطان أبي بكر . أما وقد بلغ خالد ذلك كله فليس له أن يغضب من مجاعة لخدعته أو ينقم منه بسببها .

وكما بلغ قتلى بنى حنيفة ذلك العدد الذي لم يكن يدور بخالد أحد من أهل ذلك العصر في بلاد العرب ، بلغ عدد القتلى من المسلمين مبلغاً جاوز كل ما كان يجري في تقديرهم . قُتل فيها من المهاجرين ثلثمائة وستون ، ومن الأنصار ثلثمائة ، وذلك خلا من قتلوا من أهل القبائل . وبلغ مجموع قتلى المسلمين مائتين وألفاً .

ولقد عيّر المهاجرون والأنصار أهل القبائل وفاخروهم بعدد قتلهم . ولم يكن تفوق المهاجرين والأنصار مقصوراً على زيادة العدد في القتلى ، بل كان بين هؤلاء تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن . وأنت تعرف ما لهؤلاء وأولئك من قدر ومقام بين المسلمين . ولكن ! ربّ ضارّة نافعة ؛ فقد كان مقتل هؤلاء الحفاظ سبب جمع القرآن في خلافة أبي بكر مخافة أن يستحر القتلى في سائرهم من بعد ، كما استحر فيمن حضر منهم غزوة اليمامة .

حزن المسلمين
بمكة والمدينة على
القتلى

ولم يكن يعدل حزن المسلمين بمكة والمدينة على هؤلاء القتلى إلا فرحهم بما آتاهم الله من النصر . عاد عبد الله بن عمر بن الخطاب بعد أن أبلى في اليمامة أحسن البلاء . فلما لقيه أبوه قال له : « ما جاء بك وقد هلك زيد ! ألا وارىت وجهك عنى ! » . وأجاب عبد الله : « قد حرصت على ذلك أن يكون ، ولكن نفسي تأخرت فأكرمه الله بالشهادة » . وفي رواية أنه قال :

« سأل الله الشهادة فأعطيتها ، وجهدت أن تساق إلى فلم أعطيها » . وليس حزن عمر لمقتل أخيه زيد إلا مثلاً لما عمّ مكة والمدينة من أسى على الأبطال الذين استشهدوا في قتال مسيلمة .

أفحزن خالد بن الوليد كما حزنوا ؟ أفأزعجه منظر القتلى وروعه مسيل الدماء ؟ ! كلا ! ولو أن ذلك كان لما جاز له يوماً أن يتولى القيادة ، وأن يكون فاتح العراق والشام ، وموطد الأساس الأول للإمبراطورية الإسلامية . وأين القائد القادر الذي لا يهتر طرباً حين يرى الألوف من الأعداء يخرون صرعى أمام جيوشه ! لم يرع خالد إذن ولم ينزعج ؛ بل إنه لم يلبث حين اطمأن إلى النصر وأتم الصلح وتسلم زمام الأمر أن دعا مجاعة إليه وقال له : « زوجني ابنتك » . وكان مجاعة قد سمع بحديث ليلي أم تميم وباستدعاء أبي بكر خالداً وتعنيفه إياه على ما فعل مما يخالف تقاليد العرب ، فقال : « مهلاً ! إنك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك » . ولم يعجب خالداً هذا الكلام فلم يعره أية عناية بل حذق إلى الرجل وقال : « أيها الرجل زوجني » . ومن ذا يستطيع أن يعصى له إثر نصره في اليمامة أمراً ! وزوجه مجاعة ابنته ، فدخل بها في بيت أبيها ، ثم جعل لها فسطاطاً يجاور فسطاط أم تميم .

خالد يتزوج
ابنة مجاعة

وباغ أبا بكر ما صنع خالد ، فتولته الدهشة أول ما عرفه ، ثم استحالته الدهشة غضباً ، فاستحال الغضب ثورة . لقد كان كل دفاعه عنه في حادث أم تميم أنه لم يقتل زوجها ليتزوجها ، وأنه إن يكن خطأ فإنما خطؤه أنه خالف تقاليد العرب وصنع ما يعيبونه من مثل هذا الزواج والدماء تقطر والمآثم قائمة . فكيف به يكرر فعلته في اليمامة وقد قُتل بها من المسلمين مائتان وألف ولم يكن قتل منهم أحد في حادث مالك بن نويرة ! لذلك لم يملك أبو بكر ، وهو الحليم ، غضبه ، بل دفعته ثورته فكتب إليه كتاباً « يقطر بالدم » على حد تعبير الطبري ، جاء فيه : « لعمرى يا بن أم خالد إنك لفارغ ! تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفف بعد » ! وتناول خالد الكتاب ونظر فيه فتألم لغضب أبي بكر وهز رأسه وجعل يقول : هذا عمل الأعيسر ، يعني عمر بن الخطاب . لكن الأمر لم يجاوز الأسف

ثورة أبي بكر
لزوج خالد
وكتابه إليه في ذلك

لغضب أبي بكر من جانب خالد ، ولم يجاوز هذه الثورة على خالد وهذا الكتاب إليه من جانب أبي بكر .

عذر خالد بالغ

ومن تكون بنت مُجَاعَة في أعياد النصر التي يجب أن تقام لخالد !
لأنها لن تزيد على قُربان يطرح على قدمي هذا العبقري الفاتح الذي روى
أرض اليمامة بالدماء لعلها تطهر من رجسها . بل إنها لن تزيد على جارية
من الجوارى اللاتي يضربن بالدفوف في هذه الأعياد ويتغنين مطربات ،
أن عاد مهد الإسلام كاملاً إلى حبي الإسلام . لكن ! تبارك اسمك اللهم !
إن الإسلام لا يعرف هذه الأعياد ؟ وإنما يعرف أن النصر من عند الله
يؤتيه من يشاء . وقد آتاه خالد ، فأعز به دينه الحق ، ومحق به الردة
والمرتدين .

محا خالد الردة والمرتدين بغزوة اليمامة ومحققهم . بذلك آن لبلاد العرب
أن تطمئن وتدين بدين الله . فأما ما بقي من أنباء حروب الردة بـمَهْمرة وعُمان
واليمن مما تلا اليمامة فلم يكن في مثل خطرهما . من ثم آن لأبي بكر بعد اليمامة
أن تسكن نفسه ، وأن لخالد بعدها أن يستريح .

وتحول خالد إلى واد من أودية اليمامة يقال له الوبر ، وكان له به منزل
جمع فيه بنت مجاعة وأم تميم .

أطفال هناك مقامه وكما هناك راحته ؟ ذلك شأن لم تحدثنا به
كتب التاريخ .

لكن سياسة أبي بكر وسياسة الإسلام كانت لا تزال في حاجة إلى سيف
خالد ، وسنلقاه لذلك عما قريب . فإلى الملتقى عبقري الحرب وسيف الله !
إلى الملتقى على شواطئ الفرات ! .

الفصل العاشر

بقية حروب الردة

البحرين - عمان ومهرة - اليمن - كندة وحضرموت

الربوع التي عادت
إلى الإسلام

قضى خالد بن الوليد على المرتدين في بني أسد وبني تميم وفي ربوع اليمامة ، وأعاد من بقي حيًّا من هذه القبائل إلى حصى الدين القيم . ومنازل هذه القبائل تمتد من الشمال الشرقي لبلاد العرب حتى تتأخم خليج فارس في شرقها ، وهي تقع لذلك إلى شمال المدينة من الشرق ، ثم تنحدر حتى الجنوب الشرقي من مكة . وقد فسح عودها إلى الإسلام رقعة الدولة التي تدين بالولاء لأبي بكر ، والتي كانت حين الردة مقصورة على مثلث من الأرض رأسه المدينة وقاعدته بين مكة والطائف .

بقاء الثورة
مشوبة في الجنوب
من شبه الجزيرة

ولم تكن ثورة القبائل النازلة إلى شمال المدينة بذات خطر تخشى آثاره . فلم يتحدث المؤرخون عن إصرار أهلها على الردة وقتالهم بسببها ما تحدثوا عن بني أسد أو عن اليمامة ، ليس يستثنى من ذلك إلا دومة الجندل وعلى رأسها أكيدر الكندي ؛ فقد أصرت دومة وقاتلت حتى أخضعها ابن الوليد وأسر أكيدروفرغ منه ؛ وكان إخضاعه إياها في أثناء فتحه العراق . أما في الجنوب فقد بقيت الثورة على أبي بكر والردة عن الإسلام مشبوبيتين ، وبقي القتال ناشبًا بسببها بين جيوش المسلمين وأهل هذا الجنوب زمنًا غير مديد . وإذا قلت الجنوب قلت النصف من بلاد العرب ، والنصف الذي لا يستهان به . وهذا النصف يشاطئ خليج فارس فخليج عدن فالبحر الأحمر إلى شمال اليمن ، وتقع فيه ممالك البحرين فعُمان فهرة حضرموت فكندة فاليمن . وأنت لا تستطيع أن تتخطى هذه الممالك من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق إلا أن تخرقها جميعًا . فكلها تقع تباعًا على شاطئ الخليجين والبحر الأحمر . وكلها ، فيما خلا اليمن ، قليلة العرض ، فما بين حدودها والشاطئ أميال معدودة . أما سائر الجنوب من شبه الجزيرة مما تحيط به هذه الممالك وتفصله

عن الماء فبادية الدهناء ، هذه الصحراء المخوفة يوم ذاك ، والمخوفة إلى يومنا الحاضر ، والتي يطلق عليها اليوم اسم الربع الخالي .

أما وذلك موقع هذه البلاد فمن اليسير أن تدرك ما كان بينها وبين فارس من اتصال ، وما كان بينها وبين الشمال من بلاد العرب من شُقة لا يسهل قطعها . فاجتياز الدهناء لم يكن ممكناً . والحجىء من الحجاز إلى عمان أو كندة أو حضرموت كان يقتضى السير إليها من بلاد البحرين شرقاً أو من اليمن غرباً . هذا الموقع الجغرافى لتلك البلاد جعل لبلاط كسرى من الصاة بها ، بل من السلطان فيها ، ما لم يكن له غيرها من بلاد العرب .

سلطان فارس
فى البلاد الثائرة

أشرنا فى غير موضع إلى أن اليمن ظلت فى سلطان فارس إلى أن دخل بدهان فى الإسلام ، وصار عامل النبى عليه السلام على اليمن بعد أن كان عامل كسرى عليها . وكان سلطان فارس أكثر رضوحاً فى البحرين وعمان . وكان من أبناء فارس عدد عظيم استوطن البحرين وعمان وعامت كامتة بين أهليهما . وكانت فارس تمد أبناءها هؤلاء بنفوذها وبقواتها كلها خشيت ثورة العرب الخلص بهم ، أو محاولة هؤلاء العرب القضاء على سلطانها فى ربوعهم . ليس عجيباً إذن أن تكون هذه البلاد آخر من دان بالإسلام على عهد رسول الله فى عام الوفود ، وأن تكون أول من ارتد حين قبض ، ثم تكون آخر من يعود إلى الإسلام بعد حروب طاحنة تختم حروب الردة وتعيد إلى البلاد العربية ، وحدتها الدينية وتقيم فيها الوحدة السياسية .

وقد اختلفت الروايات متى كانت حروب الردة فى هذه الأنحاء : أكانت فى السنة الحادية عشرة للهجرة كما كان ما سبقها من تلك الحروب ، أم كانت فى السنة الثانية عشرة . ولا غناء فى الوقوف عند هذا الخلاف ؛ فالثابت أن حروب الردة اتصلت منذ بيعة أبى بكر إلى أن انتهت بلاد العرب كلها بالإذعان ، وأن بلاد الجنوب شاركت من بعد فى تنفيذ سياسة أبى بكر ، قوية الإيمان صادقة العزم فى الجهاد ، حريصة على الظفر والاستشهاد حرص السابقين الأولين من أصحاب رسول الله .

لا مفر ، وموقع البلاد الجغرافى ما رأيت ، أن يبدأ المسلمون للقضاء على الردة

فيها بالسير من البحرين إلى عمان فهرة حتى اليمن ، أو من اليمن إلى كندة فحضر موت حتى البحرين . وقد آثروا أن يبدءوا بالبحرين ، لأنها كانت تجاور اليمامة ، فكان انتصارهم في موقعة عقرباء ذا أثر فيها . ثم إنها كانت أيسر من اليمن أمراً ، فكان البدء بها أدنى إلى فوز يجر وراءه فوزاً مثله في جميع البلاد التي تجاورها .

* * *

قتال المرتدين
بالبحرين

مع ذلك لم يكن المجهود الذي بذاه المسلمون للقضاء على الردة بالبحرين يسيراً . والبحرين شقة ضيقة من الأرض تشاطئ مع هَجَرَ خابج فارس ، وتمتد من القطيف إلى عمان . والصحراء في بعض أنحائها تكاد تتصل بماء الخليج ، وهي تتصل باليمامة في جزئها الأعلى ، لا يفصل بينهما إلا سلسلة من التلال يُهَوَّن انخفاضها اجتيازها . وكان بنو بكر وبنو عبد القيس من قبائل ربيعة يقيسون بالبحرين وهَجَرَ وكان يقيم بهامعهم جماعة من التجار جاءوا من الهند وفارس وتوطنوا الثغور من مصب الفُرات إلى عدن . وقد تزوج هؤلاء مع أبناء البلاد فاستولدوا بها طائفة ذعيت الأبناء . وكان ملك هذه الأنحاء ، المنذر بن ساوى العبدى ، نصرانياً دان بالإسلام حين دعاه إليه العلاء بن الحضرمي رسول النبي إلى أهل البحرين في السنة التاسعة من الهجرة . وقد ظل المنذر ملكاً على قومه بعد إسلامه ، فكان يدعوهم إلى دين الله كما كان يدعوهم إليه الجارود بن المُعَلَّى العبدى . وكان الجارود قدِم على النبي بالمدينة فأسلم وفقه الدين ، وعاد إلى قومه يدعوهم إلى دين الحق ويفقههم فيه .

بدء الردة في
البحرين

مات المنذر بن ساوى في الشهر الذي مات فيه النبي ، فارتد أهل البحرين جميعاً عن الإسلام ، كما ارتد غيرهم من سائر أنحاء شبه الجزيرة . وأدت ردتهم إلى فرار العلاء بن الحضرمي من البحرين ، كما فر غيره من رسل النبي في البلاد التي ارتدت . لكن الجارود العبدى أصر على إسلامه ، وقام في قومه بنى عبد القيس يسألهم عن سبب ردتهم . قالوا : لو كان محمد نبياً لما مات . فقال لهم : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ، فما فعلوا ؟ قالوا : ماتوا . قال الجارود : إن محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، الصديق أبو بكر

وأن محمداً عبده ورسوله . فشهد قومه كشهادته وعادوا إلى إسلامهم وثبتوا عليه .

لم يثن رجوع بني عبد القيس إلى الإسلام سائر أهل البحرين عن ردتهم ، بل اجتمع الذين أصروا على الردة بزعامة الحُطَم بن ضُبَيْعة أخى بني قيس بن ثعلبة ، فردوا الملك في آل المنذر ، وملكوا عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر ، وكان يسمى الغَرُور . ثم إنهم حاولوا أن يصرفوا الجارود والذين معه عن إسلامهم فذهبت محاولتهم سدى . عند ذلك خرج الحطم حتى نزل القطيف وهجر واستغوى من بهما من الأبناء ، كما ضم إليه من لم يكن دخل في الإسلام من قبل ، وحاصر الجارود ومن معه في ناحية جُوائى ، مؤيداً من فارس وبلاطها . ولقد ألح عليهم في الحصار حتى اشتد عليهم الجوع وكادوا يهلكون . مع هذا لم يرجع عن إسلامه منهم أحد ، وهانت عليهم الحياة في سبيل دينهم الحق .

وفيما هم كذلك كان أبو بكر قد رد العلاء بن الحضرمي إلى البحرين على رأس لواء من الألوية الإحدى عشر لقتال المرتدين فيها . ولم يذهب العلاء إليها حتى كان خالد بن الوليد قد قضى على مسيلمة وأتباعه . لذلك أسرع من عاد إلى الإسلام من بني حنيفة ينضمون إلى العلاء حين مر باليمامة . لحق به ثُمَامَة ابن أثال في المسلمين من قومه ، وقيس بن عاصم المنقرى كذلك ، كما جاء كثير من أهل اليمن ومن سائر القبائل التي شعرت بقوة المسلمين وبأن سلطانهم لا محالة عائد كما كان . ولا عجب ! فذلك شأن الناس في كل أمة وعصر ، يتبعون القوة لأنهم يحسبون أن الحق يدعمها كما تدعمه . ويرون أنها لا تستطيع أن تقوم وحدها إذا كان أساسها الجور والظلم . ولقد كان قيس بن عاصم ، قبل أن ينضم مع قومه إلى العلاء ، فيمن منعوا الزكاة وردوا الصدقات إلى الناس . فلما مر العلاء باليمامة بعد انتصار خالد ، عاد قيس فجمع الصدقات وساقها إليه ، ونزع عن الأمر الذي كان همّ به وخرج معه إلى قتال أهل البحرين .

أبو بكر يرد
العلاء بن الحضرمي
لمحاربة المرتدين
بالبحرين

وانحدر العلاء بمن معه من الجند ، وسلك بهم مفاوز الدهناء إلى غايته .

فلما جن الليل أمر الناس بالنزول حتى لا يضلوا في تيه الصحراء . فلما نزلوا

قصة الدهناء
وآية الله فيها

نفرت إبلهم وتفرقت في الصحراء بما عليها من الزاد والماء ، ولم يجد الجند ما يقتاتون منه أو يطفئون به ظمأهم . هنالك ركبهم من الهم ما ركبهم . وأيقنوا الموت ، فأوصى بعضهم إلى بعض . وتحدث إليهم العلاء فقال : « ما هذا الذي ظهر فيكم وغلب عليكم ! ! » . وأجاب الناس : « كيف نلآم ونحن إن بلغنا غداً لم تحم شمس حتى نصير حديثاً ! » . ورد عليهم العلاء ممتلئ القلب إيماناً يقول : « أيها الناس ، لا تراعوا ! أستم مسلمين ! أستم في سبيل الله ! أستم أنصار الله ! » . قالوا : « بلى ! » قال : « فأبشروا فوالله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم ! » .

وهنا تجرى الرواية بأنهم بعد أن صلوا الفجر نصّبوا في الدعاء ، حتى إذا بزغت الشمس لمع لهم سراب ثم آخر ثم ثالث قال رائدهم : إنه الماء ؛ فشوا حتى نزلوا عليه فشربوا واغتسلوا ونالوا منه ما شاءوا . وتعالى النهار ، فإذا إبلهم تعود إليهم من كل صوب وتبرك ؛ فقام كل رجل إلى رحله فركبه . ثم إن أبا هريرة وصاحباً له من أهدي العرب بهذه البلاد كرّاً راجعين إلى المكان الذي كان به الماء فإذا هو لا غدير به ولا أثر للماء فيه . وقال الذي له علم بهذه الأنحاء إنه يعرف هذا المكان وإنه لم ير به ماء ناعماً قبل اليوم . ومن ثم قيل إنما كان ذلك من آيات الله . وإن الماء إنما كان مناً من الله .

ويبدى بعض المستشرقين الشك في هذه الرواية . وسواء أكان لهذا الشك موضع أم لم يكن ، فقد ارتحل العلاء وجيشه إبلهم وتابعوا السير حتى بلغوا البحرين . وأرسل العلاء إلى الجارود يشد من عزمته وعزيمة من معه ، ووقف هو من الحُطَمَ موقف المتأهب للقتال . ولكنه رأى المرتدين في عدد وعدة يجعلان المواجهة والهجوم عسيرين ؛ لذلك خندق المسلمون وخندق المرتدون ، وجعلوا يتراوحن القتال ثم يرجعون إلى خنادقهم . وأقاموا كذلك شهراً لا يدرى أيهم ما يكون المصير . وإنهم لذلك إذ لاحت للمسلمين ذات ليلة فرصة غنموها ، فكانت القاضية على خصومهم قضاء حاسماً .

ذلك أنهم سمعوا في عسكر المشركين ضوضاء شديدة كأنها ضوضاء هزيمة أو قتال . فبعث العلاء من قص له الخبر ، وعرف أن القوم أمعنوا تلك اللذلة

كيف قضى
المسلمون على
خصومهم

فى الشراب ، وأنهم سكارى لا يملك أحدهم دفعاً عن نفسه . عند ذلك خرج المسلمون من خنادقهم واقتحموا عليهم عسكرهم ووضعوا السيوف فيهم . وجعلوا يقتلون منهم كل من أصابوا . وفرّ المرتدون هرباً ، فإذا هم بين متردٍ فى الخندق ، ودهش مقتول ، ومأسور ، وناج لا يعرف لنفسه مستقراً . ومراً قيس بن عاصم على الحطيم ملقى على الأرض فقتله . وأسر عفيف بن المنذر الغرور . فقال له العلاء : أنت غررت هؤلاء ! فأسلم الغرور وهو يقول : إني لست بالغرور ، ولكنى المغرور ! وعفا العلاء عنه .

وفرّ الذين نجوا من الموت أو الأسر . وركبوا الشراع إلى جزيرة دارين ، فتركهم العلاء بها ريثما جاءت الكتب تنبئه بأن من بقى بالبحرين من القبائل قد فاءوا إلى أمر الله . وكان جيشه قد ازداد عدده بمن انضم إليه من أهل البلاد ومن الأبناء الذين بها . عند ذلك أمر الناس بالذهاب إلى دارين حتى لا يبقى لمرتد فى الأرض ملجأ .

ودارين جزيرة من جزر الخليج الفارسى . تواجه البحرين ، كان بها أديار خمسة لحمس شعب من النصارى . وتجرى الرواية بأن العلاء لما أمر المسلمين بالذهاب إليها لم يكن لديهم سفن يركبون البحر عليها ، فنهض فيهم فقال : « قد أراكم الله من آياته فى البر لتعبروا بها فى البحر ؛ فانهضوا إلى عدوكم . ثم استعرضوا البحر إليهم فإن الله قد جمعهم » . وأجابه قومه : « نفعل ، ولا نهاب بعد الدهناء والله هولاء ما بقينا ! » وارتحلوا ، حتى إذا أتوا ساحل البحر اقتحموا على الخيل والبغال والحمير والجمال ودعوا الله ، فاجتازوا البوغاز يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل . أفكان ذلك ساعة جزر الخليج الفارسى ، أم فى الرواية مبالغة وأن الأبناء الذين انضموا إلى المسلمين أعاروهم سفناً عبروا البحر عليها ؟ لم تجر الرواية بهذا التصوير الأخير وإن كان فى رأى بعض المؤرخين محتملاً . وأياً ما يكن الأمر . فقد بلغ المسلمون دارين والتقوا فيها بالفارين فقاتلوهم أشد القتال ، حتى أتوا عليهم لم يتركوا منهم مخبراً ، وسبوا الذرارى وساقوا الأموال التى بلغت كثرتها حداً جعل نفقلاً

اقتحام البحر إلى دارين والقضاء على الردة فيها

الفارس ستة آلاف والراجل ألفين (١) .

وعاد العلاء بن الحضرمي إلى البحرين ، وعاد الناس معه إلا من أحب المقام . وكتب العلاء إلى أبي بكر بنصره ، وأقام بالبحرين وقد قضى على الردة فيها . من ثم لم يكن يخشى شيئاً إلا غارة قبائل البادية التي ألقت الغزو للسلب . ودسائس الفرس الذين تقلص نفوذهم في جنوب شبه الجزيرة . على أنه كان مطمئناً من هذه الناحية إذ انضم إليه قبل ذهابه إلى دارين من قبائل البحرين ومن الأبناء من كفوه مشونة ما يخشى . وكان عتيبة بن النّهاس والمثنى ابن حارثة الشيباني على رأس المنضمين إليه . وقد قعدوا بكل طريق للمنهزمين والذين يعيشون في الأرض فساداً . بل لقد تابع المثنى السير على شاطئ الخليج الفارسي يقاوم دسائس الفرس ويقضي على أنصارهم من القبائل ومن الأبناء حتى بلغ مصب الفُرات ، فكان لبلوغه هذا المصب ولاتصاله بأرض العراق ولدعوته إلى الإسلام هناك أثر لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه كان المقدمة لفتح العراق .

المثنى يستبصر
الأرض ويصل
إلى العراق

قتال المرتدين
في عمان

لسنا نسبق الحوادث بالكلام عن هذا الفتح . وما لنا نفعل وعمان تجاوز البحرين ، وشأن الردة فيها ليس أقل استغلاًظاً منه في غيرها ! فلنُتابع جيوش المسلمين إليها حتى تثوب وتنيب هي كذلك .

وكانت عمان على عهد النبي تابعة لفارس . وكان جيفر أميراً عليها ، وقد بعث النبي إليه عمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام . ولما أبدى جيفر مخافته أن يتمرد قومه على الزكاة يدفعونها إلى المدينة ، اتفق عمرو معه على أن تقسم بين فقراء بلاده . وأقام عمرو بين القوم ، حتى إذا ارتدوا إثر وفاة النبي فرّ عائداً إلى المدينة ، وفر جيفر إلى الجبال فاعتصم بها .

وكان قائد الثورة بالردة في عمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي . وقد ادعى من النبوة ما ادعى غيره . وكان أبو بكر قد وجه حذيفة بن محصن

(١) تجري رواية أخرى بأن العلاء لم يذهب بالمسلمين إلى دارين في هذه الحرب ، وأن دارين بقيت في عزلتها لم تعد إلى الإسلام وإلى حكومة شبه الجزيرة إلا في عهد عمر بن الخطاب .

الغلفاني من حمير إلى عمان ووجه عرفجة بن هرثمة البارقي من الأزدي إلى مهرة .
وأمرهما أن يسيرا معاً وأن يبدعا بعمان فتكون القيادة فيها لحذيفة ، وأن يُشْتَبَا
بمهرة فتكون القيادة فيها لعرفجة .

وأنت تذكر أن عكرمة بن أبي جهل كانت وجهته اليمامة ، وأنه لم ينتظر
شُرحبيل بن حسنة يعاونه ، بل أسرع بلقاء مسيلمة ليعود بفخار النصر
فردّه مسيلمة هزيمًا . وأنت تذكر كذلك أن أبا بكر أبي على عكرمة أن يعود
إلى المدينة . وأمره أن يلحق بعمان يعين حذيفة وعرفجة على أهلها . وقد أبلغ
أبو بكر هذا الأمر إلى هذين القائدين ، وعهد إليهما أن ينتهيا إلى رأى عكرمة .
وأسرع عكرمة فأدرك القائدين قبل أن يبلغا عمان ، وتشاور وإياهما ، فراسلوا
جيفراً وأخاه عبّاداً^(١) حيث كانا معتصمين ، وطلبوا إليهما أن ينضمّا مع
أصحابهما إليهم .

كيف حالف
المسلمين النصر
في عمان

وبلغ لقيطا مجيء المسلمين فجمع جموعه وعسكر بدبا . وخرج جيفر
وعباد ومن معهما إلى صُحار وبعثا إلى عكرمة وصاحبيه فقدموا عليهم بها . والتقى
الجيشان بدبا في معركة حامية الوطيس كاد الظفر يتوّج فيها لقيطا وأصحابه .
وإنهم لذلك ، وإن المسلمين ليضطربون ويتمشى الخلل في صفوفهم ، إذ
أقبل عليهم مدد عظيم من بني عبد القيس ومن غيرهم من قبائل البحرين حمّى
ظهرهم وشد أزركم وضاعف قوتهم ودفعهم يهاجمون لقيطا ومن معه ويركبونهم
ويقتلون منهم عشرة آلاف ، ويسبون نساءهم وأبناءهم ، ويقتسمون بينهم
أموالهم . بذلك تمت كلمة ربك في عمان ، واستقر للمسلمين فيها الأمر .

وأقام حذيفة بعمان يوطئ الأمور ويسكن الناس . وسار عرفجة إلى المدينة
يسوق خُمس الغنائم إلى أبي بكر . أما عكرمة ففضى في جيشه إلى مهرة ليرد
الأمر فيها إلى نصابه ، وليعيد إليها كلمة الإسلام .

* * *

ترك عكرمة حذيفة بعمان أقصى الشرق من جنوب شبه الجزيرة ، وسار
غرباً إلى مهرة حيث ارتد الناس . سار في جيش لجب تضاعف عدده بانضمام

قتال المرتدين
في مهرة

(١) في الكامل لابن الأثير : « عياد » .

رجال القبائل التي عادت إلى الإسلام بعد أن بهرهم نصره . وبلغ مهرة فآلني جميعين مختلفين يدعو كل منهما الآخر أن يذعن لرياسته . وقد اختار عكرمة أضعف الجمعين وأقلهما عدداً ، فدعاهم للرجوع إلى الإسلام فأسرعوا إلى دعوته . وخرج عكرمة في جيشه وفيمن رجع إلى الحق من أهل مهرة ، فلقوا الجمع الآخر واقتتلوا أشد من قتال دباباً ، وانتصر المسلمون فقتلوا وأسروا وغنموا ؛ وكان فيما غنموا ألفاً نجية . وبعث عكرمة الخمس إلى أبي بكر مع رئيس الجمع الذي حالفه ، ثم أقام زمناً لتسكين الناس . فلما سكنوا واطمأن الأمن وعاد النظام ، خرج في جيشه الذي ازداد كرامة أخرى أضعافاً مضاعفة بمن انضم إليه من أهل مهرة ، وسار يلقي المهاجر بن أبي أمية المخزومي تنفيذاً لأمر الخليفة حتى يتعاون معه على رد الأمر إلى الإسلام في اليمن وفي حضرموت .

* * *

تري أيسر عكرمة من مهره إلى حضرموت وكندة ؟ ذلك أدنى إلى التصور . فحضرموت تجاوز مهرة وتناخما . لكن المهاجر بن أبي أمية كان ينحدر من الشمال إلى اليمن ؛ فلم يكن لعكرمة بدءاً من أن يسرع ليلقاه بها . هذا إلى أن ثورة اليمن كان قد طال مداها واستفحل أمرها ، فالإسراع بالقضاء عليها يهون القضاء على من بقي بكندة وحضرموت من المرتدين .

وقد تحدثنا فيما سلف عن ثورة الأسود العنسي في اليمن ، وعن ادعائه النبوة وخروجه إلى صنعاء ، وعن انتشار أمره كالخريق حتى بلغ مكة والطائف ، ثم عن قتله غيلة في مؤامرة اشتركت فيها زوجته آزاد التي كانت قبله تحت شهر بن بازان ملك صنعاء . وقد جرت الروايات بأن قتل الأسود انتهى إلى المدينة يوم مات النبي ، فأقام أبو بكر فيروز حاكماً لليمن . لكن ذيوع النبأ بموت النبي بعد قليل أعاد الثورة فيها أشد مما كانت ، وتضافرت عوامل كثيرة زادت هذه الثورة ضراماً واستعاراً .

السوامل التي أدت إلى اشتداد الثورة في اليمن

العامل الأول :
تفرق السلطة

أول هذه العوامل تفرق السلطة في هذه الأنحاء تفرقاً أضعفها ، فذ مات بازان وزعت السلطة في اليمن بين ابنه شهر بصنعاء وجماعة من المسلمين

بنجران وهمدان وغيرهما ، فكان ذلك مما شجع العنسي على الانتفاض والثورة . وكان الأمر في شمال اليمن إلى مكة كأمر اليمن في تفرق السلطة ، فكان لتهامة مما يحاذي البحر حاكم ، وللداخل في مختلف القبائل حكام متفرقون . وكان طبيعياً بعد أن أخفقت ثورة الأسود أن يحاول كل واحد من هؤلاء الحكام العود إلى إمارته واسترداد السلطان فيها ، وأن يقاتل في سبيل ذلك ما أطاق القتال . وكان طبيعياً كذلك ألا يهدأ أنصار الأسود العنسي وأن يعملوا جهدهم ليثيروا الأرض ، لعل الأمر يعود إليهم كما كان للأسود . أما وقد مات النبي وانتشرت في بلاد العرب كلها فكرة الردة ، وصح لكل قبيلة ولكل فخذ من قبيلة أن يطمع في استقلاله القديم ، فقد بلغ الاضطراب غايته في اليمن وما حولها من البلاد التي كانت مسرحاً لنشاط العنسي وأنصاره .

والذي حدث أن هؤلاء الأنصار لم تهدأ بموت العنسي ثأرتهم . بل جعل فرسانهم يجوبون البلاد فيما بين نجران وصنعاء ، لا يأوون إلى أحد ، ولا يأوي إليهم أحد . وكان عمرو بن معدي كَرِب البطل الشاعر صاحب الصمصامة ممن انتهزوا هذه الفرصة ، فحاول اقتناص السلطان من طريق الثورة . كما حاول اقتناصه أيام العنسي بالانضمام إليه . وقام قيس بن عبد يغوث من ناحيته . وكان على رأس من ائتمروا بقتل العنسي ، فطرد فيروز عن الملك وطرد معه داذويه . بذلك عم الاضطراب ، وتعذر رد السكينة والأمن إلى هذه الأرجاء .

نشاط ثوار اليمن
بعد مقتل العنسي

كيف السبيل إلى معالجة هذه الحال ؟ ! إن أول ما يجب عمله تأمين الطريق بين المدينة واليمن . وقد قامت قبائل عكّ وبعض الأشعرين على هذا الطريق الذي يساحل البحر فقطعوه مستعينين بمن انضم إليهم من الأوزاع . وأقرب مدن المسلمين إلى هذا الطريق الطائف . لذلك كتب حاكمها الطاهر ابن أبي هالة إلى أبي بكر ، وسار إليهم في جند قوى . واصطحب معه مسروقاً الكلبي . فلما لقيهم أكثر القتل فيهم . حتى قيل إن الطريق تعطل بجثثهم . وكتب أبو بكر إلى الطاهر قبل أن يأتيه نبأ هذا الفتح يشجعه ومن معه على القتال

ويأمرهم أن يقيموا بالأعقاب^(١) ، حتى يأمن طريق الأخابث . ومن يومئذ سميت جموع عكّ هذه جموع الأخابث . وظل هذا الطريق يسمى طريق الأخابث زمناً طويلاً .

العامل الثاني:
الخلاف في الجنس

أما العامل الثاني الذي زاد الثورة في اليمن استعاراً فالخلاف في الجنس . فقد أقام أبو بكر فيروز على صنعاء مقام شهر حين قتل ذو الحمار . وكان شركاء فيروز في المؤامرة بقتل الأسود داذويه الذي كان وزيراً معه لشهر ، وجيشنّس صاحبهما ، وقيس بن عبد يغوث قائد الجند . وكان فيروز وجشنّس من الفرس ، وكان قيس عربياً من حمير اليمن . لذلك نفس قيس على فيروز أن أسند أبو بكر إليه الأمر من دونه وعزم قتله .

لكنه رأى حين أنعم النظر أن قتل فيروز قمين أن يجر إلى فتنة يقاومه فيها الأبناء جميعاً . والأبناء هم طائفة الفرس التي استقرت باليمن منذ حكمها الأكاسرة . وقد كبرت هذه الطائفة وعامت مكانتها أن كان الحكام منها . فإذا لم يستنفر قيس عرب اليمن جميعاً للقضاء على الفرس جميعاً كان حريّاً أن يصيبه ما أصاب الأسود من الإخفاق ، وأن يفقد حياته كما فقد الأسود حياته .

قيس بن عبد يغوث
يريد اليمن لعرب
اليمن

لذلك كتب إلى ذي الكلاع الحميري وأضرابه من زعماء العرب باليمن يقول : « إن الأبناء نزع في بلادكم ، فضلاء فيكم . وإن تركوهم لن يزالوا عليكم . وقد أرى من الرأي أن أقتل رعووسهم وأن أخرجهم من بلادنا فتبرعوا » . لكن ذا الكلاع وأصحابه لم يمالئوه ولم ينصروا الأبناء . بل اعتزلوا وأبلغوا قيساً يقولون : « لسنا من هذا في شيء . أنت صاحبهم وهم أصحابك » . ولعلهم كانوا يمالئون قيساً وينصرونه على الأبناء لولا أنهم رأوا أبا بكر والمسلمين يمالئون هؤلاء ويكلون الأمر إليهم . ورأوا الأبناء يحتفظون بإسلامهم وبالولاء لأبي بكر وسلطان المدينة . ما لهم إذن والخلاف لا بدري أحد ما تكون نتائجه . وبخاصة بعد أن سرت الردة في اليمن فأصبحت معرضة

(١) الأعقاب : أرض لبنى عك بن عدنان بين مكة والساحل .

لحيوش المسلمين ، وبعد أن تجاوبت أرجاء شبه الجزيرة جميعاً بنبأ هذه
الحيوش وبسير النصر في ركابها !

لم يثن قيساً عن عزمه قعود ذى الكلاع وأصحابه عن نصرته ، بل
كاتب العصابات التي كانت مع الأسود سرّاً ، والتي كانت تصعد في البلاد
وتصوب محاربة جميع من خالفهم ، وطلب إليهم أن ينضموا إليه ليكون
أمره وأمرهم واحداً ، وليجتمعوا على نفي الأبناء من بلاد اليمن . ولم يكن في
ريب من إجابة هذه العصابات طلبته . أو لم تكن طلبية الأسود وعلى أساسها
انتصر ! ! وكتبت العصابات بالاستجابة إليه ، وأخبروه أنهم إليه سراع . ولما كان
ذلك كله قد حدث سرّاً فقد فجأ صنعاء خبر دنو هذه العصابات منها ،
فاجتمع أهلها يتشاورون ماذا يصنعون .

وأسرع قيس إلى فيروز ، وكأنما فجأه الخبر فأزعجه ، واستشاره واستشار
دأذويه ليخذهما ولئلا يتهما ، ودعاهما في الغد ودعا جشنس معهما إلى طعام
الغداء . وأقبل دأذويه قبل صاحبيه ، فلم يلبث حين دخل على قيس أن عاجله
فقتله . أما فيروز فجاء بعد صاحبه فسمع الهمس بأصحابه ففر يركض . ولقيه
جشنس في طريقه فركض معه يطلبان النجاة . وركضت خيل قيس تلاحقهما فلم
تدركهما ، فعادت أدراجها تستنزل غضب قيس عليها . وبلغ الفارسان جبل
خولان منزل أخوال فيروز ، لا يكادان يصدقان أنهما صارا من الهلاك
بمنجاة .

قيس يقتل دأذويه
ويحكم صنعاء
حكماً عربياً

وثار قيس بصنعاء فدانت واطمأن له الأمر فيها ، كما اطمأن للأسود من
قبل ولم يدُر بخاطره أن أحداً سيقدر عليه فينزله عن عرشه . باغته أن فيروز
يزعم أنه سيستعين أبا بكر ويهاجم قيساً بقوة من بني خولان ، فسخر وقال :
« وما خولان ! وما فيروز ! وما قرار أووا إليه ! » . وانضم إليه عوام القبائل من
عرب حمير وإن بقي الرؤساء في عزلتهم . وإذ أنيس في نفسه القوة عمد إلى
الأبناء ففرقهم ثلاث فرق ؛ فأما من أقام ولم يظهر الميل إلى فيروز فأقرهم وأقر
عيالهم . وأما من فر إلى فيروز فقسم عيالهم فرقتين ، وجه إحداهما إلى عدن

لِيُحْمَلُوا فِي الْبَحْرِ ، وَوَجْهَ الْأُخْرَى فِي الْبَرِّ إِلَى مَصْبِ الْفَرَاتِ وَأَمْرٌ بِهِمْ أَنْ يَنْفُوا
إِلَى بِلَادِهِمْ وَالْأُخْرَى يَتَّقِمُ بِالْيَمَنِ مِنْهُمْ أَحَدٌ .

وعرف فيروز ما أصاب بني وطنه ، فاستنهض القبائل التي بقيت على
إسلامها لينصروه . وإنما فعل ذلك ليصد بعصبية الدين نعمة الوطن . وأجابه
بنو عقيل بن ربيعة كما أجابته عك ، وساروا يستنقذون عيال الأبناء الذين قرر
قيس نفيهم . وخرج فيروز على رأسهم ، فرد أبناء فارس ، والتقى بقيس دون
صنعاء فأجلاه عنها ، وعاد أميراً عليها من قبل خليفة المسلمين . وخرج قيس
هارباً في جنده ، وعاد إلى المكان الذي كانوا به حين مقتل العنسي ، فقضى
بفراره على الفكرة القومية التي كانت أساس دعوته . وقد عزز أبو بكر مكانة
فيروز إذ بعث إليه طاهر بن أبي هالة في جيشه فأقام إلى جواره .

فيروز يجلي قيساً
عن صنعاء
ويسترد إمارته
عليها

لكن انتصار فيروز وعوده إلى الإمارة لم يوطد السلم ولم يُعَدِّد الأمن فيما وراء
صنعاء من ربوع اليمن ؛ فقد بقي المرتدون بها أشد ما يكونون تحملاً لردتهم .
وهنا موضع الكلام عن العامل الثالث من العوامل التي زادت الثورة في هذه
الأرجاء استعارة . فلم تنس اليمن يوماً ما كان بينها وبين الحجاز من تنافس جعل
لها أغلب الأمر الكلمة العليا . ولم تقم بين اليمن والحجاز في عهد الرسول حروب
تنكس نتائجها رموس بن حميز . ولئن دوى في أنحاء اليمن نصر خالد
وعكرمة على قبائل العرب وملوكهم ، لقد كان في عشائر اليمن من الأبطال والقواد من
تفاخر بهم هذين البطليين الحجازيين ، ومن تهتز لسماع أسمائهم صناديد العرب
فرقاً . وحسبك من هؤلاء عمرو بن معدى كرب صاحب الصمصامة . لقد كان
فارس بن زبيد وحاميه ، إذا ذكر اسمه فزع الأبطال وهابوا لقاءه ؛ وكان له
من بعد في وقائع الفتح الإسلامي على عهد عمر بن الخطاب مواقف لا يزال التاريخ
يذكرها . ولم يغير تقدم سنة يومذاك من شدة بأسه . شهد غزوة القادسية وقد
جاوز حد المائة فكان له فيها بلاء أحسن البلاء .

العامل الثالث :
الخصومة القديمة
بين الحجاز واليمن

قام عمرو بالثورة مع من تابعه ، وانضم إليه قيس بن عبد يغوث ، وتضافر
الرجلان يعيثان في أنحاء البلاد فساداً ، ويجدان من أهلها عوناً ومدداً ، لم يند

منها غير نجران التي ثبتت بمن فيها من النصارى على عهدها لمحمد ، ثم أكدت نياتها بتجديد هذا العهد مع أبي بكر .

أفئذ المسلمون اليمن وذلك شأنها يعيث بها هذان الثائران ومن سار سيرتهم ، حتى يأكل بعضها بعضاً وتأكل الثورة أبناءها ؟ كلا ! بل سار عكرمة ابن أبي جهل من مهرة إلى اليمن حتى ورد أبييمن في جيشه اللجب زاده المنضمون من مهرة عدداً وعدة . وسار المهاجر بن أبي أمية منحدرًا من المدينة إلى الجنوب مارًا بمكة والطائف ، في اللواء الذي عقده أبو بكر له . والذي تأخر عن السير بضعة أشهر لمرضه . وقد اتبعه من مكة والطائف ونجران رجال لهم في الحرب دُرْبَةٌ وشهرة . فلما سمع أهل اليمن بمقدم هذين القائدين ، عكرمة والمهاجر ، وبأن المهاجر قتل قومًا حاولوا مقاومته ، أيقنوا أن ثورتهم مقضى عليها لا محالة ، وأنهم إن قاتلوا قُتلوا وأُسروا ولم تغن عنهم المقاومة شيئًا . واتقد بلغ بهم الأمر أن اختلف قيس وعمرو بن معدى كرب وتهاجيا وأضمر كل لصاحبه الغدر ، وذلك بعد أن كانا متحالفين على لقاء المهاجر وقتاله . وأراد عمرو أن ينجو بنفسه ، فهاجم قيسًا ذات لياة وأخذه إلى المهاجر أسيرًا . عند ذلك قبض المهاجر عليهما جميعًا وبعث بهما إلى أبي بكر ليرى فيهما رأيه .

وهمَّ أبو بكر بقتل قيس قصاصًا لداذويه وقال له : « يا قيس . أعدوت على عباد الله تقتلهم وتتخذ المرتدين والمشركين وليجة من دون المؤمنين ! » . وأنكر قيس قتل داذويه ، ولم تكن عليه بينة . أن تم هذا القتل في سرٍّ من الناس . لذلك تجافى أبو بكر عن دمه ولم يقتله . ونظر الصديق إلى عمرو بن معدى كرب وقال له : « وما تخزى أنك كل يوم مهزوم أو مأسور ! لو نصرت هذا الدين لرفعك الله ! » قال عمرو : « لا جرم لأفعلن ولن أعود » . وأخلى أبو بكر سبيلهما وردهما إلى عشائريهما .

وسار المهاجر من نجران حتى نزل صنعاء ، وأمر جنده أن يتعقبوا العصابات المتمردة التي أثارت الفساد في الأرض من عهد الأسود ، وأن يقتلوا من ثقيفوه منهم لا يقبلون منه توبة ولا إنابة . وإنما قبل توبة من أناب من غير المتمردة . أما عكرمة فقد بقي في جنوب اليمن بعد أن استبرأ النخع وحمير . بذلك عادت

مسيرة عكرمة بن أبي جهل من مهرة إلى اليمن وانحدر المهاجر بن أبي أمية من المدينة إلى اليمن كذلك

أبو بكر يعفو عن قيس وعمرو بن معدى كرب

اليمن كلها آمنة مطمئنة ، ورجع أهلها إلى دين الله الحق ؛ وبذلك لم يبق من المرتدين في شبه الجزيرة كلها إلا أهل حضرموت وكندة .

وقبل أن نسير مع عكرمة والمهاجر للقاء المرتدين فيهما ندفع شبهة قد ترد كيف نصر أبو بكر الفرس على العرب ؟ وكيف ناصر فيروز ومن معه على قيس ومن اتبعه ؟ ودفع هذه الشبهة يسير . فأنت تعلم أن الإسلام لا يرى فرقاً بين عربي وعجمي إلا بالتقوى . وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم . على أن ذلك لم يكن وحده الذي دعا أبا بكر لنصرة فيروز ، بل دعاه لنصرته كذلك أن الفرس أول من أسلم باليمن ، والسابقة في الإسلام لها قدرها . ثم إن العرب من أهل تلك البلاد هم الذين قاموا بالثورة على الدين الجديد ، قام بها الأسود العنسي مدعيًا النبوة في عهد الرسول ، وقام بها أنصار الأسود من بعده . وفي جملتهم عمرو بن معدى كرب ثم قيس بن عبد يغوث . وبازان وشهر وفيروز والفرس من حولهم هم الذين قاموا بالدعوة للإسلام في هذه الربوع . وهم الذين استمسكوا به وقاوموا خصومه ، وهم الذين أقاموا على الولاء لسلطان المدينة وخليفة رسول الله حين ارتدت العرب كلها وتضرمت الأرض في شبه الجزيرة ناراً . فلا عجب إذاً أن يؤيد أبو بكر فيروز بسلطانه ، وأن يمدّه بجنده وقواده ، وأن يقيمه أميراً على صنعاء . كما أقام النبي شهراً أميراً عليها ، وكما أقام أباه بازان أميراً على اليمن كلها من قبله .

* * *

والآن فلنخط الخطوة الأخيرة في حروب الردة ، ولننتقل مع المهاجر وعكرمة إلى كندة وإلى حضرموت .

قتال المرتدين
في كندة
وحضرموت

ونذكر تمهيداً لذلك أن رسول الله قبض وعمّاله على هذه البلاد: زياد ابن لبيد على حضرموت ، وعكاشة بن مِحْصَن على السَّكاسِك والسَكُون ، والمهاجر بن أبي أمية على كندة . وقد رأيت أن المهاجر كان مريضاً بالمدينة فلم يخرج إلى عمله بكندة ولا خرج في لوائه إلى المرتدين باليمن إلا بعد أشهر من وفاة الرسول . لذلك أناب عنه زياد بن لبيد في عمله منذ استعمله الرسول على كندة إلى أن خرج في جيشه إلى اليمن .

كيف تولى المهاجر
ابن أبي أمية
أمر كندة

وقصة تولية المهاجر أمر كندة طريفة ؛ فقد كان أخا أمّ سلمة زوج رسول الله أمّ المؤمنين ، وقد تخلف مع ذلك عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك . وغضب رسول الله لتخلفه وأقام زمناً عاتباً عليه . وحزّ في نفس أم سلمة أنها لم تُفلح في استرضاء زوجها عنه . وإنها يوماً لتغسل للنبي رأسه وتحدثه ويتلطف بها إذ قالت له : كيف ينفعني شيء وأنت عاتب على أخي ! ورأت منه رقة فدعت أخاها ، فلم يزل برسول الله ينشر عذره حتى رضى عنه وأمره على كندة . وقام زياد في الإمارة مقامه حتى ذهب إليه في خلافة أبي بكر .

سياسة زياد بن
ليد وصرامتها

وكانت كندة لمجاورتها اليمن قد استجابت لدعوة الأسود العنسي أول ما قام بها . لذلك أمر رسول الله أن توزع بعض صدقات كندة في حضرموت وبعض صدقات حضرموت في كندة . واشتد زياد في اقتضاء هذه الصدقات شدة أثارت الخواطر . ولقد استطاع أن يغلب على المتذمرين في كندة بمن ناصره من رجال السكون الذين حافظوا على إسلامهم وعلى ولائهم فلم يخرج عليه منهم أحد . فلما مات النبي وفشت الردة في العرب ، أراد زياد قمعها قبل أن يستفحل في إمارته أمرها . وشجعه على ما أراد أن التفّت حوله القبائل التي بقيت على إسلامها ودفعوه لمقاتلة المتزمرين عليه . وهاجم زياد بن عمرو بن معاوية في غفلة منهم فقتل رجالهم وسبي نساءهم ، وسار بهن وبالأموال في طريق يفضى إلى عسكر الأشعث بن قيس زعيم كندة . وكان بين أولئك النسوة ذوات مكانة في قومهن لم يعرفن قبل ذلك اليوم إلا العزة والكرامة . فلما مرن بالأشعث نادين منتحبات : « يا أشعث ، يا أشعث ! خالاتك ، خالاتك ! » ، هنالك ثار في عروق الأشعث دمه ، وأقسم لينقذهن أو يموت دونهن .

وكان الأشعث زعيماً قوياً محبوباً من قومه عظيم المكانة فيهم . ولعلك تذكر أنه ذهب عام الوفود إلى المدينة ، فلقى رسول الله بها على رأس ثمانين رجلاً من كندة قد لبسوا كلهم الحرير ، وأنه أسلم وخطب إلى أبي بكر أخته أمّ فروة ، فعقد أبو بكر الزواج ثم تأجل تنفيذه حتى يطمئن أهل العروس إلى فراقها . لا عجب وهذه مكانته أن يغضب قومه لغضبه ، وأن يخرجوا

الأشعث بن قيس
يقاتل زياداً

مقاتلين معه . وقد خرجوا وقاتلوا زياداً واستردوا السبي وردوا إليهن عزتهن وكرامتهن .

من يومئذ أثارها الأشعث في كندة وحضر موت ضروساً شعواء ، حتى خاف زياد مغبتها ، فكتب إلى المهاجر بن أبي أمية يستنصره . وكان المهاجر قد انحدر من اليمن ، كما انحدر منها عكرمة ، للقضاء على ما بقي من الردّة في شبه الجزيرة ، وسار المهاجر من صنعاء ، وسار عكرمة من اليمن وعدن ، والتقيا بمأرب ، وقطعا معاً مفازة صيّهد . وعرف المهاجر ما أصاب زياداً ، فاستخلف عكرمة على الجيش ، وتعجل في كتيبة سريعة ، حتى إذا التقى بجيش زياد هاجم الأشعث فهزمه وقتل رجاله ، وفر الأشعث والناجون معه فالتجثوا إلى حصن النَجِيسِ .

كانت النجير مدينة منيعة ليس من السير أخذها عنوة . وكان لها ثلاثة سُبُل تتصل عن طريقها بما وراء الحصن . فجاء زياد فنزل على أحدها ، ونزل المهاجر على الثاني ، وظل الثالث مفتوحاً لأهل الحصن يحییء إليهم منه المدد . على أن عكرمة قدم في جيشه فنزل على ذلك الطريق فقطع عنهم الميرة ورد الرجال . ولم يكتف بهذا ، بل بعث فرقاً من الفرسان تفرقت في كندة إلى الساحل وجعلت تمنع في الناس قتلاً . ورأى المتحصنون بالنجير ما لقي قومهم ، فقال بعضهم لبعض : « الموت خير مما أنتم فيه . جزوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم لله أنفسكم فأنعم عليكم فبؤتم بنعمته ، لعاه أن ينصركم على هؤلاء الظلمة » . وجز القوم نواصيهم وتواثقوا ألا يفر بعضهم عن بعض . وخرجوا حين تنفس الصبح فاقتتلوا في الطرق الثلاثة المؤدية إلى الحصن مستميتين . وما تُجدي الاسماتة وجيوش المهاجر وعكرمة لا تُغلب عدداً وبأساً ! وأيقن أهل النجير حين رأوا المدد لا ينقطع عن المسلمين أن القضاء نازل بهم لا محالة ، فتولاهم اليأس فخشعت نفوسهم وخافوا الموت . وخاف الرؤساء على أنفسهم فهانت عليهم نخوتهم ، فخرج الأشعث إلى عكرمة ليستأمن له المهاجر على نفسه وعلى تسعة معه على أن يفتح للمسلمين الحصن ويُخلى بينهم وبين من فيه . وأجابه المهاجر إلى ما طلب على أن يكتب كتاباً تكون فيه أسماء التسعة الذين يطلب

حصار حصن
النجير والاستيلاء
عليه

خيانة الأشعث
ابن قيس

أمانتهم . وكتب الأشعث أسماء أخيه وبنى عمه وأهليهم ، ونسى أن يكتب اسمه معهم ، ثم جاء بالكتاب فختمه وتسلمه المهاجر . وسرب الأشعث التسعة من الحصن وفتح أبوابه للمسلمين ، فاقتحموه فلم يدعوا فيه مقاتلا إلا ضربوا عنقه . وسبي المسلمون النساء ممن في النجير ، فكانت عدتهن ألف امرأة . ووضع المهاجر الحرس على الأسرى وعلى الأموال حتى يُحصيهم ويبعث بالخمسة إلى المدينة .

يا عجباً للحياة وتصاريقها ! فهذا الأشعث الذي ارتكب هذه الحياة النكراء ، والذي أسلم قومه للقتل وأسلم ألف امرأة للسبي . هو هو الأشعث الذي لم يطق أن يسمع نداء خالاته نساء بني رُو بن معاوية : « يا أشعث ، يا أشعث ! خالاتك ، خالاتك ! » فخف للثأر هن وأنقذهن من أسر زياد . والأشعث الذي ذهب إلى النبي فيما عرفت من كرامة فأكرمه المسلمون ، هو هو الأشعث الذي تدلى إلى هذا الحضيض فلعنه المسلمون ولعنه سبايا قومه وسمينه : « عُرْف النار » ، وهي كلمة معناها في لغة اليمن : الغادر . لكنه التعلق بالحياة والخوف من الموت إذا ركبا نفساً أذلاها فهانت فسقطت فيما هو شر من الموت .

ودعا المهاجر النفر الذين ذكرهم الأشعث في كتابه فأطلق سراحهم . ولما لم يكن اسم الأشعث في الكتاب الذي ختمه أمر به فشد وثاقه وهم بقتله وقال له : « الحمد لله الذي خطأ فاك يا أشعث ! لقد كنت أشتي أن يخزيك الله ! » على أن عكرمة بن أبي جهل تدخل في الأمر وقال : « أخره وأبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم في هذا . وإن كان رجلاً نسي اسمه أن يكتبه وهو ولي المخاطبة أفذاك يُبطل ذاك ! » وأخره المهاجر لا عن رضا ، وبعث به إلى أبي بكر مع السبي ، فجعلوا يلعنونه ويلعنه المسلمون طول الطريق .

وتحدث أبو بكر إلى الأشعث فأنبه على ما صنع ، وسأله : « ما تُراني صانعاً بك ؟ » وأجاب الأشعث : « إنه لا علم لي برأيك وأنت أعلم به » . قال أبو بكر : « فإني أرى قتلك » . قال الأشعث : « فإني أنا الذي راوضت القوم فما يحل دمي » . ونحشى الأشعث حين طال الحوار بينه وبين أبي بكر أن

أبو بكر يعفو
عن الأشعث

يُقتل فقال : « أو تحتسب فيّ خيراً فتطلق أسارى وتقبل عثرتي وتقبل إسلامي وتفعل بي مثل ما فعلته بأمثالي وترد عليّ زوجتي ؟ » وزوجته التي يتحدث عنها هي أم فروة أخت الصديق . وتردد أبو بكر هنيهة في الإجابة ، فأردف الأشعث : « افعل تجد فيّ خير أهل بلادى لدين الله » . وبعد أن فكر أبو بكر في الأمر غفر له وقبل منه ورد عليه أهله وقال : « انطلق فليباغني عنك خير » وأقام الأشعث مع أم فروة بالمدينة لم يبرحها إلا في عهد عمر أفتح العراق والشام ، ثم كان له في حروب ذلك الفتح من البلاء ما أعاد إليه اعتباره في أعين الناس .

القضاء على الثورة
في بلاد العرب

وأقام المهاجر وعكرمة بحضرموت وكنينة حتى اطمأنت الأمور واستقر الأمن ؛ فكان ذلك آخر حروب الردة ، وكان القضاء على الثورة في بلاد العرب ، ثم كان التوطيد لوحدها السياسية ، وحدة استمرت بعد ذلك زمناً ثم شابتها الشوائب . ولم يكن عمل المهاجر في القضاء على أسباب التمرد في هذه الأرجاء بأقل شدة منه في اليمن ؛ فقد قطع دابر المتمردين ، وأنزل أشد العقاب بالثائرين . ويكفيك مثلاً يدل على أمثاله أن مغنيتين تغنت إحداهما بشتّم رسول الله ، وتغنت الأخرى بهجاء المسلمين ، فقطع المهاجر يديهما ونزع ثناياهما . وقد كتب إليه أبو بكر يكشف له عن خطئه فيما صنع ، ويذكر أنه كان الأولى به أن يقتل الأولى لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود ، وأن يصفح عن الثانية إن كانت ذميمة . « فلعمري لمّا صفحت عنه من الشرك أعظم . فاقبل الدعة . وإياك والمُثَلَّة في الناس فإنها مأثم ومنفرة إلا في قصاص » . وقس على ما صنع المهاجر بالمغنيتين ما صنع بالمرتدين والمرتدين .

المهاجر بن أبي
أمية يتولى أمر
اليمن

وبعث أبو بكر إلى المهاجر يخيره بين إمارة حضرموت وإمارة اليمن ، فاخترار اليمن وذهب إلى صنعاء فأقام بها مع فيروز ، وبقي زياد بن لبيد على حضرموت .

أما عكرمة فقد أعد عُدّته للعود إلى المدينة . لكنه لم يرجع إليها كما خرج منها ، بل عاد وقد تزوج ابنة النعمان بن الجون ، لم يصدّه عن ذلك ما كان من تعنيف أبي بكر لخالد بن الوليد حين تزوج أم تميم وحين تزوج ابنة مجاعة

فخالف بذلك تقاليد العرب . على أن زواج عكرمة بهذه الفتاة قد أثار مشكلة من نوع آخر أدت إلى تدمير الجند وإلى عرض الأمر على أبي بكر ليفصل فيه برأيه .

فقد تزوج عكرمة بابنة النعمان هذه وهو بعَدَن ثم حملها معه إلى مأرب . واختلف الجند في أمرها ، يقول بعضهم : دعنها فإنها ليست بأهل أن يرغب فيها ، ويقول آخرون : لا تدعها . ورويت القصة للمهاجر فكتب إلى أبي بكر يسأله فيها . ورأى أبو بكر أن لا حرج على عكرمة فيما صنع ؛ فقد كان النعمان بن الجون جاء إلى رسول الله وطمع في أن يزوجه ابنته هذه فزينها له ثم جاء بها ، وزاد في زينتها أنها لم تشك وجعاً قط ؛ ورغب رسول الله عنها وعاد بها أبوها إلى عدن . لذلك ظن جماعة من الجند أن عكرمة يجمل به أن يرغب عنها كما يرغب عنها رسول الله ، ليكون له فيه صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة . أما أبو بكر فلم يرض هذا الرأي ، ولم ير في زواج عكرمة منها بأساً . واستقر عكرمة مع زوجه هذه بالمدينة ، كما اجتمع بها الجند الذين فصلوا عنها أول حروب الردة .

قصة عكرمة
وزواجه ابنة
النعمان بن الجون

وأجال أبو بكر نظره في شبه الجزيرة كلها حوله ، وتذكر يوم بيعته ، ففاضت بالدمع عينه شكراً لأنعم ربه أن آتاه النصر وعزز بعزمه وحزمه دين الحق . وأين المدينة يوم ذاك ، المدينة الظافرة المنتصرة صاحبة السلطان على ربوع العرب كلها ، من تلك المدينة التي انتفض عليها العرب وثاروا بها وحاولوا محاصرتها إثر وفاة الرسول !! وما كان لأبي بكر مع ذلك أن يفخر أو يستكبر وهو يذكر قول الله لرسوله : « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » .

ما عسى أن يكون الغد ؟ وكيف تزداد وحدة الدين قوة ويزداد دين الله علواً وانتشاراً ؟ إلى هذه الناحية اتجهت سياسة أبي بكر ، وفي هذا كان يفكر منذ اطمأن إلى النصر . وقد طال تفكيره فيه حين كان قواده وجنوده لا يزالون في الجنوب يقضون على البقية الباقية من الردة وآثارها . وإذا أراد الله أن يتم أمره فقد كانت الإمبراطورية الإسلامية ثمرة هذا التفكير وهذا الاتجاه .

ما عسى أن يكون
الغد

الفصل الحادى عشر

التمهيد للفتح وللإمبراطورية

ألف الناس من أقدم الحقب فى التاريخ أن يروا الحد الشمالى لبلاد العرب
الحد الشمالى لبلاد العرب
ممتدًا من أعلى خليج العقبة إلى أعلى الخليج الفارسى فى شماليهما . وليس هذا
الحد ممتدًا فى خط مستقيم ، بل هو يتبع سلسلة الجبال التى تفصل بين صحراء
النفود^(١) وبادية الشام . وقد كانت دومة الجندل بالحدوف أعلى المدائن التى
تتأخم هذا الخط ، وذلك فيما خلا العصور التى كانت الشام والعراق منضمتين
فيها إلى الدولة العربية .

وأهل الشام الأصليون من الفينيقيين . وأهل العراق الأولون من الأشوريين .
ولقد كانت الصحراء التى تترامى بينهما ، وهى بادية الشام ، تحول فى
العصر الأولى دون التقائهما وامتزاجهما . فاجتياز الصحارى ليس أمراً محبباً إلى
أهل الحضر . وفيم يجتازونها ويتعرضون لأخطارها وليس فيها من أسباب الحياة
ما يجذب النفس إليها ! وإن كثيرين ليفرون حتى اليوم من اجتياز هذه البادية
بالسيارة ، ويؤثرون النقلة بين الشام والعراق على متن الهواء .

على أن هذه الصحراء التى لم يتهو إليها الفينيقيون من أهل الشام
ولا الأشوريون من أهل العراق فى العصور القديمة ، قد استهوت العرب أهل
البادية ممن يرون الصحراء الطليقة سحراً ووحياً وحرية وجمالاً ، ويرون الحضر
قيداً بل سجنًا وإن لبست فيه الشفوف . والمؤرخون يذكرون هجرة العرب
إلى الشمال لانهيار سد مأرب ، ونزوح قبائل الأزد التى جرفها السيل إلى
الحجاز وإلى الشام ؛ أو لاتخاذ الروم البحر طريقاً للتجارة بدلا من البادية .
وهم يذكرون أن هذه الهجرة حدثت فى القرن الثانى المسيحى . ومع التسليم
بهذه الرواية ، فلا ريب فى أن قبائل من العرب استقرت ببادية الشام قرونًا

(١) صحراء النفود ، كما نعرفها اليوم ، هى بادية السماوة المعروفة فى كتب العرب أو تقرب منها .

طويلة من قبل ، متخلفة عن القوافل التي كانت تنزل العراق أو الشام للغزو أو للتجارة .

وقد أقام العرب الذين نزحوا إلى الشام وإلى العراق على حدود الحضر في كل من الدولتين . ولم يكن مقامهم على هذه الحدود مما اضطرتهم إليه سياسة الدولة التي نزلوا بها ، وإنما جذبتهم البادية إليها فلم يستطيعوا مقاومة سحرها ، واستهواهم الحضر ليكونوا على مقربة منه كي ينالوا رزقهم دون مشقة أو عناء . وذلك شأن أهل البادية في كل عصر ، وأنت إذا التمست منازلهم اليوم بمصر أو بالشام أو بالعراق أو بأي بلد يتصل فيه الزرع برمال الصحراء ، رأيتها على شفا الصحراء بين الحضر والبادية ، ورأيت أهلها يولون شطر البادية وجوههم ويمعنون فيها بقوافلهم حيناً بعد حين . وكأن الوراثة البدوية المتغلغلة في نفوسهم والجارية مع الدماء في عروقهم ، تأبى عليهم أن يستقروا وأن يسكنوا إلى ما يسكن أهل الحضر إليه من نظم الجماعة . وطبيعتهم هذه تفرض عليهم ألواناً من الشظف ما كان أغناهم عنها لولا ما يجدونه في فسحة البادية من حرية مطلقة ومن اتصال بالوجود غير المحدود ، ينهض عندهم عوضاً عن كل شظف ، ويهون عليهم كل مشقة .

ولم تلبث بادية الشام حين انتشرت فيها قبائل العرب الذين هاجروا إليها أن صارت كأنها قطعة من شبه الجزيرة . وكان الغسانيون أقوى هذه القبائل عنصراً ، وأكثرهم على الحياة صبراً وجلداً . لذلك أقاموا مملكة بني غسان على حدود الشام ، كما أقام اللخميون ملك الحيرة على شواطئ الفرات . ولقد كان دأب هؤلاء العرب يومئذ كدأب بني وطنهم دائماً ، يشاركون الأمة التي يقيمون على حدودها في مصيرها ويشاطرونها آمالها . من ثم سلموا في الشام بحكم الروم ، وفي العراق بحكم الفرس . وإنما كان ذلك منهم تسليماً بالأمر الواقع أكثر مما كان إذعاناً لغلب المنتصر ؛ لذلك كانت الأوضاع السياسية تتغير في أمرهم تبعاً لقوتهم وضعفهم ، وكان لهم أكثر الأمر استقلال ذاتي حرصوا عليه ودافعوا عنه .

ملكة بني غسان
ومملكة الحيرة

ومن العجب في أمر البدوى أنه ، على تعلقه بالبادية وحبه إياها وانجذابه

إليها كلما بعد عنها ، شديد الإعجاب بالحضر وما يحيط به من زروع نضرة ، وما يبدو على أهله من نعمة ورفاه عيش . ولقد كان حديث الشام وجناتها وأعنانها وحوورها العين مما لا يفتأ أهل مكة والمدينة وسائر بلاد الحجاز يتذاكرونه بعد رحلة الصيف ، يقص نبأه من اشترك في الرحلة ، ويرويهِ الرواة عنهم بعد ذلك ، فإذا شفيها السامعين تنفرج ، وصدق عيونهم يتسع . ويريقهم يتحلَّب ، شوقاً لهذه الحضرة النضرة ، والمياه الحارِية ، والأيدى الناعمة والحدود الملساء ، أن يكون لهم مثلها في بلادهم . وكأنما غاب عنهم أن باريئ النَّسم قسم الرزق بين الناس بالعدل ، فجعل لأهل البادية الحرية الشاملة وإباء الضيم ، يقابلهما شظف لا يصدّ عنهما ولا يقلل من الرغبة فيهما والحرص عليهما ؛ وجعل لأهل الحضر الرفاهية والنَّعمة والنظام والأمن ، يقابل ذلك قيود للحرية في كل مظاهرها ، ثم لا ينزع الناس إلى تحطيم هذه القيود حرصاً على النَّعمة وعلى الأمن .

كان ذلك شأن القبائل التي هاجرت إلى العراق وإلى الشام على تفاوت بينها في التعلق بالبادية . ومع أن أكثرها نعم بالحضر وترفه ، لقد ظل حرصها جميعاً على حياتها العربية شديداً ، كما ظلت العلاقات بينها وبين شبه الجزيرة متصلة على القرون . وليس من غرضي أن أفصّل ذلك في هذا الكتاب . فنطاق البحث لا يتسع له ولا يقتضيه . وإنما أثبت منه هنا ما يجلو لنا بعض السر في تمهيد هاتين الإمارتين العربيتين ، إمارة اللخمين وإمارة الغسانيين . للفتح العربي والإمبراطورية الإسلامية في عهد أبي بكر .

حرس القبائل
التي هاجرت إلى
بادية الشام على
حياتها العربية

أشرنا إلى أن هجرة العرب من الجنوب إلى الشمال ترجع إلى ما قبل انهيار سدّ مأرب ، وقبل تحويل الروم طريق التجارة من البر إلى البحر . والواقع أن هذه الهجرة أقدم بكثير من هذين الحادثين ، على ما كان لهما من جليل الخطر في حياة بلاد العرب ؛ فالنَّسَّابون يذكرون أن التنقل بين القبائل كان كثير الوقوع من قبل الإسلام ، وهو لا شك كان كثير الوقوع منذ أقدم العصور . فقد كان العرب يتعمدون مع البلاد التي تجاورهم ؛ إذ كانوا ينقلون تجارة الشرق الأقصى إلى بلاد الشام ومصر والروم ، وكانوا ينقلون تجارة الشام ومصر والروم

إلى الشرق الأقصى . وكانت هذه التجارة تسير محترقة شبه جزيرة العرب في أحد طريقين : طريق حضرموت إلى البحرين على الخليج الفارسي ثم إلى الشام ، وطريق حضرموت إلى اليمن فالحجاز إلى الشام . وكانت مكة تتوسط هذا الطريق الثاني ، وكان أهل الجنوب من الحضارمة واليمنيين وأهل عمان والبحرين هم السابقين الأولين للقيام بهذه التجارة ذلك بأنهم كانوا أكثر من أهل الشمال حضارة ؛ لخصب أرضهم ، ولاتصالهم بالفرس اتصال جوار مباشر . لذلك كانت أكثر القبائل التي هاجرت إلى العراق وإلى الشام واستقرت بهما من قبائل الجنوب . فالخساسنة الذين أسسوا مملكتهم شرق الشام كانوا من الأزد ، إحدى قبائل عُمان التي تنسب إلى شعب كهلان اليمنى . كذلك تُنسب قبائل قضاة وتنوخ وكلب التي استقرت على حدود الشام إلى شعب حمير اليمنى ، وطبيعي أن تستقر قبائل الجنوب بالعراق ؛ فإن العراق يجاور حضرموت وما اتصل بها من قبائل بني حنيفة وتغلب ومن إليهم .

قبائل الجنوب من شبه جزيرة العرب هي التي هاجرت إلى بادية الشام

هاجرت بطون من هذه القبائل منذ العصور الأولى إلى بادية الشام ، واستقرت بها مستقلة عن سلطان أولى السلطان في حضر العراق وفي حضر الشام . فلما انهار سد مأرب ثم انقسمت التجارة بين طريق البادية وطريق البحر ، هاجرت بطون أخرى وقبائل أخرى إلى الحجاز ، ثم هاجرت بعض هذه البطون منه إلى الشام ، التماساً لرزق أوفر وحضارة أكثر وأرفه من حضارة البادية .

وكان السلطان في العراق وفي الشام متداولاً بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومية . فكانت فارس تنتزع الشام من الروم أحياناً وتضمه إلى العراق التابع لها . وكان الروم ينتزعون العراق من فارس أحياناً ويضمونه إلى الشام التابع لهم . وكان العرب الذين نزحوا إلى بادية الشام ينضمون في كثير من الأحيان إلى جيش الفرس أو جيش الروم ، متأثرين بما في طبيعتهم من ميل إلى الغزو والسلب . وأدّى ذلك إلى أن فكرت الدولتان في اتخاذ هؤلاء الذين نزلوا البادية الممتدة بينهما سداً يحول دون اعتداء إحداهما على الأخرى ، لتبقى الشام خالصة للروم ، والعراق خالصة لفارس .

اتصال العرب الذين نزحوا إلى بادية الشام بفارس والروم

على أن هذه القبائل العربية انحازت بحكم منازلها في البادية إلى أقرب حضر لها ؛ فانحاز المقيمون على حدود الشام إلى الروم ، وانحاز المقيمون على حدود العراق إلى فارس ، مع احتفاظهم باستقلالهم الذاتي ، ومعيشتهم البدوية ، وحياتهم العربية الخالصة .

لم يحل احتفاظهم بهذه الخصائص دون تأثيرهم بحياة الحضر القريب منهم ، وسياسة الدولة التي يخضع هذا الحضر لها . بل لقد تغافل في هذا الحضر من أنيس منهم في نفسه الكفاية لامثال حياة الحضر والاضطلاع بأعبائها ، وبلغ من ذلك أن امتد سلطانه وعظم في المملكة نفوذه . وإن المؤرخين ليدكرون أن الإمبراطور الروماني فيليب كان عربياً من بني السميذع أول من عرف التاريخ من العرب الذين هاجروا إلى الشام ، وأنه كان قبل ارتقائه عرش الإمبراطورية رئيس عصابة في تعبیر الغربيين . ورئيس قبائل تغير وتغزو في تعبیر العرب . وأعلى ذلك من مكانة العرب المقيمين بالشام ، وإن لم يصرفهم عن البادية ولم يدمجهم في حضارة الروم .

أما العرب الذين أقاموا على حدود العراق ، فلزموا البادية ولم يجازفوا بالدخول إلى حوض الفرات كي لا يخضعوا لسلطان الفرس فيه . وظل ذلك دأبهم حتى كانت الفُرس مسرحاً لثورات وحروب داخلية اتصلت بين ملوكها وزعماء الطوائف فيها . وقد تغلب زعماء الطوائف واستقلوا بأمر الفرس ، كل منهم في ناحيته . وأتاح ذلك للعرب أن دخلوا حوض الفرات وأنشؤا على شاطئه مدينة الأنبار ، ثم أنشؤا الحيرة .

ولعل قبائل من هؤلاء العرب كانوا من الأسرى الذين جاء بهم الفرس حين غزواتهم الأولى لجنوب شبه الجزيرة . فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن الملك بُخْتَنَصْرَ الثاني غزا شبه الجزيرة وعاد منها بالأسرى ، وأنزلهم على شاطئ الفرات فأقاموا الأنبار ؛ ثم إنه نقلهم من الأنبار جنوباً فأنشؤا مدينة الحيرة^(١) .

(١) يذكر المسعودي أن بختنصر لم يكن ملكاً بل كان مرزباناً على العراق للملك كيخسرو ، وأنه حارب العرب باسم كيخسرو وأسر منهم . ويخالف الطبري وبعض مؤرخي العرب هذه الرواية =

جذيمة الأبرش
يضم غرب الفرات
تحت سلطانه

وأياً كانت الرواية الصحيحة فالثابت أن العرب بدأ سلطانهم يستقر في العراق من ذلك الحين ، وأنهم استقلوا بالأمر غرب الفرات بين الأنبار والحيرة حين تولى أمرهم جذيمة الأبرش أو الوضاح بين سنة ٢١٥ وسنة ٢٦٨ ميلادية . وقد جمع جذيمة كلمتهم وامتدّ سلطانه فيهم من الحيرة إلى الأنبار إلى عين التمر ؛ وبذلك اشتمل غرب الفرات كله إلى بادية الشام . بل لقد امتد سلطانه على العرب المقيمين بهذه البادية حين غزا مضرّ المقيمين بها ، وضم إليه منهم عدى بن ربيعة وشرّفه وأكرمه .

وعدىّ هذا هو الذى تزوج الرّقاش أخت جذيمة ، فتناولت كتب الأدب نبأهما بآثار روائية شائقة ، وهو الذى أولدها عمرو بن عدى صاحب قصة الزبّاء التى انتحرت قائلة : « بيدى لا بيد عمرو » .

أذينة بن السميدع
على رأس العرب
بالشام

بينما جذيمة الوضاح على ملك العرب بالعراق ، كان أذينة ابن السّميدع على رأس العرب بالشام ، وكان سابور عاهل فارس ، وفيليب إمبراطور الروم . وقد ثار أهل الشام بسطان فيليب لقسوة حكمه . وانتهاز سابور الفرصة فسار إلى الشام وهزم جند الروم . عند ذلك نقض أذينة عهده ولأه للروم وانضم للفرس ، وطمع في أن يكون له في ظل سابور من المكانة بالشام ما لجذيمة بالعراق . على أن قالريان تولى إمبراطورية الروم مكان فيليب ، وسار بنفسه إلى الشام وهزم سابور وردّه إلى فارس . عند ذلك عاد أذينة موالياً للروم . غير أن الدوائر ما لبثت أن دارت على قالريان . وأراد أذينة أن ينضم إلى سابور كربة أخرى . فرفض سابور ولائه بعد الذى رآه منه . ولم يجد أذينة بداً في محافظته على سلطانه وعلى حياته من أن ينهض بنفسه على رأس عرب الشام لمحاربة فارس . وبسم له الحظ فغلبها وطارده جيوشها إلى المدائن . بذلك سمّت مكانته عند الروم . وصار صاحب القيدح المعلنّى في محاربة الفرس . حتى لقد تغلّب

= ويذهبون إلى أن تبعاً الأول سار من اليمن على رأس بطون من لحم وجذام وعاملة وقضاة والأزد وغيرهم فنزوا جانب العراق المجاور للبحرين ، ثم إن جنده تحيروا ، أى أقاموا على شاطئ الفرات . ولما عاد تبع إلى اليمن فخلف بطون من هذه القبائل فأقاموا بالحيرة حيث تحيروا . وفي رواية عن ملوك الطوائف أن الإسكندر الأكبر هو الذى أقامهم حين غزا فارس إذ أقر كل مرزبان على ناحية وجعله ملكاً على أهلها ليفرق كلمة الفرس ويجعل بعضهم لبعض عدواً فلا يثورون به ولا ينتفضون على سلطانه .

عليهم من بعد ذلك كرةً أخرى .

وحكم بعد أذينة أبنائه ، ومنهم الزبّاء . وقد استهوت إليها جذيمة ودعته ليتزوجها ، ثم قتلته ، فكان جزاؤها أن ذهب إليها عمرو بن عدى ومعه قصير بن عمرو فانتحرت حتى لا يقتلها . وبوفاتها انقضى عهد بني السميدع بالشام .

وخلف الغسانيون من أبناء جفّنة بني السميدع على ملك الشام ، بعد فترة قصيرة حاول جماعة من بني نصر القائمين بأمر العراق أن يتولوا أثناءها أمر الشام ، فلم يستقر لهم فيه أمر .

تمهيد هؤلاء
العرب بالعراق
والشام للفتح
العربي
والإمبراطورية
الأسلامية

نقف هنيهة ها هنا ، في منتصف القرن الثالث الميلادي ، لنرى كيف صار الأمر في شرق الشام وغرب العراق إلى العرب . فهؤلاء الذين نزلوا البادية أول ما نزلوها قبائل مهاجرة أو أسرى جاء بهم ملوك فارس من شبه الجزيرة ، قد صاروا إلى حيث يعتدّ بهم الروم وتعتدّ بهم فارس ، وتحرص كلتا الدولتين على ولائهم لها ومناصرتهم إياها ، وتعترف كلتاها لهم بالاستقلال الذاتي تقديراً لشجاعتهم وإقدامهم في الحروب . والحق أنهم لم يكونوا في صلتهم بهاتين الإمبراطوريتين العظيمتين دون اليمن أو حضرموت أو غيرهما من بلاد شبه الجزيرة التابعة لنفوذ فارس ، بل لعلمهم كانوا أكثر منها استقلالاً . وأنت لذلك تستطيع أن تقول إن بلاد العرب امتدت من خليج فارس وخليج عدن جنوباً إلى الموصل وأرمينية شمالاً ، وإن تأثّر عرب العراق وعرب الشام بحضارة الفرس وحضارة الروم أكثر مما تأثّر بهما سائر بقاع شبه الجزيرة .

ألسنا في حلّ ، وذلك هو الشأن ، من أن نقول إن هؤلاء العرب في العراق والشام كانوا الطلائع الأولى في التمهيد للفتح العربي وللإمبراطورية الإسلامية ؟ لم يدُرْ ذلك بخلد أحد منهم بطبيعة الحال . فلم يكن أحد منهم يتصور بعث محمد ورسالته ، وما أدى إليه البعث وأدت إليه الرسالة من وحدة بلاد العرب ومن سمو النفس العربية إلى حيث سمت . لكن مقامهم بين الفرات وأودية الشام ، واحتفاظهم بخصائص حياتهم العربية ، واتصالهم بأهلهم وبمن يحيطون بهم في شبه الجزيرة ، كل ذلك كان مقدّمة لما تلاه بعد أربعة قرون من

زحف عرب الجزيرة إليهم محاربين لتحلّ الإمبراطورية الإسلامية محل
الإمبراطوريتين الفارسية والرومية .

تولى عمرو بن عدى ملك العراق بعدَ جذيمة الأبرش من قبل سابور ،
فانتقم لجذيمة من الزبّاء ، كما قدمنا . وقد جعل عمرو الحيرة عاصمته ؛ ومن
يومئذ صارت عاصمة اللخمين إلى أن انحل الملك عنهم .

وكانت تبعيّة عمرو بن عدى ومن جاء بعده من ملوك الحيرة لبلاط فارس
محدودة ، فكان صاحب الحيرة مطلق السلطان على غرب الفرات إلى بادية الشام
وكان ولاؤه لعاهل الفرس مقيداً بدفع العرب من شبه الجزيرة أو عرب الشام
التابعين لإمبراطور الروم عن أرض فارس ، وبحماية التجارة التي تسير من
فارس إلى الشام أو إلى بلاد العرب .

ملوك الحيرة لم
استقلال ذاتي مع
تبعيتهم لفارس

على أن هذا الولاء لم يحل دون اقتحام العرب أرض فارس ، وبخاصة ما جاور
منها الخليج الفارسي . وقد صدهم الفرس غير مرة ، ثم اضطّر سابور ذو
الأكثاف إلى حفر خندق سابور على حدود بلاده ليصدّ عنها العدوان .

وتوالى الملوك من بني نصر على عرش الحيرة ، حتى تولاه النعمان الأكبر
في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس المسيحي . وقد تولاه من قبيل
يَزْدَجَرْد . والنعمان الأكبر هو الذي بنى قصرى الخورنق والسدير ،
وهو صاحب قصة سينمار .

النعمان الأكبر
صاحب الخورنق
والسدير

ويروى أن النصرانية بدأت تنتشر بالعراق في عهده ، وأنه لان لها وعطف
عليها ، فأنشئت فيها برضاها أديار وبيع . بل إن بعضهم ليذهب إلى أنه
تدينّ بالنصرانية ، ثم تقشّف ونزل عن ملكه لابنه المنذر الأكبر^(١) ، وذلك
حين رأى يزدجرد يضطهد النصرانية ويحارب الذين يدينون بها .

وكان يَزْدَجَرْد قد بعث بابنه بهرام جور إلى الحيرة لينشأ فيها ، وحذق

(١) أشار عدى بن زيد الشاعر إلى نزول النعمان الأكبر عن ملكه في قصيدة جاء فيها :

تدبر رب الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير
فارغوى قلبه فقال وما غبطة حى إلى المات يصير

بهرام العربية واليونانية وأحاط بشئون العرب والروم خُبْرًا . فلما مات يزدجرد أثر الفرس أن يولّوا عليهم كسرى بن أردشير بن سابور ذى الأكتاف ، لأنه نشأ بينهم حين كان بهرام غريبًا عنهم . وسار بهرام يسترد عرشه وأعانه المنذر . فلما اعتلى العرش نصّح له المنذر أن يعفو عن خصومه ؛ بذلك كسب بهرام قلب الخاصة ، ثم كسب قلب الشعب بأعطياته وبتخفيفه من أعباء الضرائب .

وبالغ بهرام جور فيما بدأه أبوه من محاربة النصرانية ، فكان ذلك سببًا في نشوء الحرب بين فارس والروم . وأعان المنذر بهرام في هذه الحرب التي انتهت إلى صلح بين الفريقين طال أمده .

كان ملوك العرب من بنى غسان بالشام يناصرون الروم في محاربتهم الفرس ، كما كان اللخميون يقاتلون الروم حلفاء لجيش فارس . ولعل الحروب اشتدت في هذه الفترة الأخيرة بين الإمبراطوريتين أن زاد العامل الديني أوارها . فنذ تولى قسطنطين إمبراطورية الروم في أوائل القرن الرابع الميلادى بدأت المسيحية تزدهر . وبدأ أباطرة الروم يُعلنون من شأنها في كل مكان ، وبدأ المبشرون بها ينتشرون في مختلف البلاد . وانتقلهم من الشام إلى العراق وإلى بلاد فارس هو الذى هاج يزدجرد لمناهضة هذا الدين الجديد ، وهو الذى جعل بهرام جور يغلو في محاربته ، حتى ينتهى الأمر إلى ذلك الصلح الذى أشرنا إليه .

ماذا كان موقف العرب في العراق وفي الشام من دين الفرس ، ومن دين الروم ؟ أتأثرت قبائل العراق بالمجوسية فأقبلت عليها ، وتأثرت قبائل الشام بالمسيحية فأقبلت عليها ؟ أم أعرض هؤلاء وأولئك عن المجوسية والمسيحية جميعًا ، واحتفظوا بوثنيتهم العربية ، وبأصنامهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلى ؟

للجواب عن هذا السؤال قيمة كبرى في البحث الذى نتناوله الآن . فهو يكشف عن اتجاه العقلية العربية وعن ميول العرب الروحية ، ويجلو لنا كيف مهدت هذه العقلية وهذه الميول للفتح العربى في ظل الإسلام .

موقف العرب
بالشام والعراق
من دين الفرس
ودين الروم

ذكرنا أن العرب تأثروا في العراق وفي الشام بحضارة الفرس وحضارة الروم .
فن عرب العراق من أجادوا الفارسية ، وفقهوا تيارات التفكير الفارسي في
الفن والأدب والدين ، وتبينوا مشنوية ماني وتعاليم زردشت وزندقة مزدك .
ولم يكن ذلك عجيباً وقد أتاح لهم رغد العيش وترفه أن يتثقفوا ، وأن تبلغ بهم
ثقافتهم علم هذا كله وعلم ما اتصل بهم من تفكير اليونان وفلسفتهم .
ولذلك علم أهل الحيرة قريشاً الزندقة في الجاهلية والكتابة في صدر الإسلام^(١) .
وكان ذلك شأن عرب الشام في اتصالهم بثقافة الروم وأدبهم ودينهم .
بل لعلمهم كانوا أرقى عقلية من عرب الحيرة ؛ لأنهم كانوا أقرب اتصالاً بالثقافة
اليونانية والمدنية الرومانية .

لماذا هوت النفس
العربية إلى
النصرانية
لم يأخذ عرب العراق بمجوسية الفرس مع اتصالهم بهم وإعجابهم بحضارتهم .
ولم يأخذ عرب الشام بوثنية الروم أو اليونان ولم يعبدوا آلهتهم . فلما استقرت
المسيحية في الإمبراطورية الرومية هوت إليها النفس العربية في الشام والعراق
جميعاً . فلماذا ؟

يذكر بعض المؤرخين أن أول ملك تنصّر من بني غسان إنما تنصر لأن
إمبراطور الروم لم يكن يرضى عن ولاية غير نصراني في أنحاء الإمبراطورية .
وإذا فسر هذا تنصر أمراء العرب فإنه لا يفسر تنصر القبائل . فإن قيل إن
قبائل الشام تنصرت مجازة لملوكها ، فالناس على دين ملوكهم ، فقد تنصر من
قبائل العراق كثيرون يدينون بالولاء لملك الحيرة ، وكان يحارب النصرانية حليفاً
لفارس . لا بد إذاً من دافع آخر أدى بهذه القبائل العربية في العراق لتدين
بالنصرانية ، وأن يكون هذا الدافع متصلاً بالعقلية العربية وميولها الروحية .

والعقلية العربية بنفطرتها بدوية مستقيمة ، تريد الحقيقة في بساطة ، وتقصد
إليها في غير التواء ولا تعقيد . فزندقة مزدك ومثنوية ماني قد تستهوى من يعجبهم
الحوار ويغريهم الجدل ، وكذلك الأمر في فلسفة اليونان . ولا تميل العقلية العربية
إلى هذا التعقيد الجدلي . لهذا هوت إلى النصرانية وأخذت بها واطمأنت إليها ،
ولم يدن بالمجوسية من العرب إلا قليل .

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٢٣ ، نقلاً عن الأعلام النفيسة لابن رسته .

والنصرانية دين سماوى أصحابه أهل كتاب أقرّ الإسلام صفاءه الأول ؛
فلا عجب أن يكون أخذ العرب بها فى العراق وفى الشام من طلائع التمهيد
للفتح العربى وللإمبراطورية الإسلامية .

على أن سبق العرب للنصرانية فى العراق والشام لم يغير من خصائصهم ،
ولم يصرفهم عن استقلالهم وعن تعلقهم بحياتهم العربية . تولت الأميرة العربية
ماوية بنت الأرقم بن الحارث الثانى أمر العرب بالشام فى أواخر القرن الرابع
المسيحى ، فطمع الروم فى ملكها ، فحاربته حتى اضطرتهم لمصالحتها ، ثم
أمدتهم بفوارس لمحاربة القوط الطامعين فبهم . وقد دافع هؤلاء الفرسان العرب
عن القسطنطينية دفاعاً مجيداً .

ولم يكن حرص الغساسنة على استقلالهم الذاتى إزاء الروم ، وحرص
اللخمين على استقلالهم الذاتى إزاء فارس ، ليجمع بين هؤلاء العرب وأولئك ؛
ولم يجمع بينهم اشتراكهم فى الميل للمسيحية ؛ بل كانت الحروب تتصل بين
اللخمين والغسانيين اتصافاً بين فارس والروم . أليست القبيلة أساس العمران
العربى ! فكما كان عرب شبه الجزيرة قبائل يقاتل بعضهم بعضاً ، كان عرب
بادية الشام قبائل يقاتل بعضهم بعضاً .

اللخميون
والغسانيون
فى ذروة المجد

فى الثلث الأول من القرن السادس المسيحى بلغ اللخميون ذروة المجد
فى العراق ، وبلغ الغساسنة ذروته فى الشام ، وكان ذلك فى عهد المنذر الثالث
اللخمى والحارث بن جبلة الغسانى . تولى المنذر الثالث ابن ماء السماء ملك الحيرة
بين سنة ٥١٣ وسنة ٥٦٢ ميلادية فى عهد قباد ، ثم كسرى أنوشروان . وتولى
الحارث بن جبلة زوج مارية ذات القرطين ملك الغساسنة بين سنة ٥٢٩
وسنة ٥٧٢ ميلادية ، فى عهد جستينيان ، ثم فى عهد جستين الثانى . وكان هذا
الحارث يدعى الحارث الأعرج ، كما كان يدعى الحارث الوهّاب .

فى هذا العهد ظلت الحروب متصلة بين الفرس يحالفهم المنذر ، والروم
يحالفهم الحارث . وكان المنذر فى هذه الحروب شديد البأس قوى الشكيمة ،
بلغ من ذلك أن فرض الصلح الذى تم بين الفرس والروم جعلاً سنوياً يدفعه
الروم للمنذر .

استمر هذا الصلح زمناً قوياً فيه الروم واشتد ساعدتهم وخشيهم كسرى ،
فدفع حليفه المنذر فحارب الحارث وتغلب عليه . ثم عادت الحرب فشبت بين
الروم والفرس كرة أخرى إلى سنة ٥٦٢ م . وكان المنذر في هذه الأثناء لا يهدأ
عن الحرب ، يحارب خصومه ، ويحارب خصوم فارس ، ويوغل في ممتلكات
الروم حتى يبلغ حدود مصر .

لم تخفص قوة المنذر من قدر الحارث عند الروم ؛ فقد ظل في نظرهم القوة
التي يواجهون بها عرب العراق . ولذلك ولاه الإمبراطور جستنيان منذ
سنة ٥٢٩ م ملكاً على جميع قبائل العرب في سوريا ، وجعل له لقب فيلارك
وبطريق (Phylarque et Patrice) وهو اللقب الذي يلي لقب الحاكم الروماني
في الشام .

فكّر الحارث في التخلص من المنذر . أما وهو لا يستطيع ذلك في ميادين
القتال . فليجعل الغدر سلاحه . فبينما كانت الحرب ناشبة بينهما يوماً أوفد مائة
من رجاله عطرتهن ابنته حليلة ليلقوا ملك الحيرة ويبلغوه أن ملك الغسانيين يدعن
له . وانتهاز أحدهم فرصة غال فيها المنذر وقتله . عند ذلك اضطرب جند العراق ،
فهاجمهم الحارث وشتت شملهم ؛ وذلك يوم حليلة^(١) .

بلغ مجد العرب المقيمين ببادية الشام وما جاورها من أرض العراق
وأرض الشام غاية ذروته في هذا العهد . وقد أبرز الأدب الجاهلي هذا المجد في
كل جلالة .

فالمنذر هو صاحب يوم النعيم ويوم البؤس ، وهو الذي قتل عبيداً
الأبرص في يوم بؤسه ، وهو صاحب قصة شريك بن عمرو ؛ وكان كثيرون
من شعراء شبه الجزيرة يؤمنونه . وقد عاصر الحارث الوهاب النابغة الذبياني
وعلقمة الفحل .

آخر ملوك الحيرة تولى عمرو بن هند ملك العراق بعد أبيه المنذر الثالث ؛ وفي السنة التاسعة
من حكمه ولد رسول الله . ومن بعد عمرو تولى بنو المنذر على ملك الحيرة حتى

(١) راجع كوسان دبرسفال في تاريخ العرب ج ٢ ، ص ١١٣ - ١١٤ . وتاريخ الحيرة
وتاريخ غسان بعض ما استفاد دبرسفال مستنداً إلى المصادر العربية واليونانية والأوربية .

تولاه أبو قابوس النعمان بن المنذر الرابع صاحب الشاعر الأعشى ميمون بن قيس بين سنة ٥٨٣ وسنة ٦٠٥ م . وقد امتد ملك النعمان في بلاد فارس حتى بلغ دجلة حيث بنى مدينة النعمانية على مقربة من المدائن عاصمة كسرى . وكان النعمان على قبح صورته مترفاً ولوعاً بمتع الحياة ولينها . تزوج امرأة أبيه المتجرّدة ذات الجمال البارع ، فأحبت المُنسَخَل اليشكري فقتله النعمان . وأنشأ النعمان الحداثق الغناء وجلب إليها أبهج الزهر ، فشقائق النعمان تنسب إليه .

لم يرض كسرى أبرويزَ عما بلغ النعمانُ من سلطان وما يرفل فيه من نَعْمَةٍ ، فحبسه وقتله ، ثم قضى على سلطان اللخمين جميعاً . ولقد قام مقامه على ملك الحيرة إياس بن قبيصة ، وأقام معه مرزباناً فارسياً يدعى بهرجان . وفي عهد إياس بُعث النبي ، وفي عهده كان يوم ذى قار ، ثم كان إياس آخر ملوك الحيرة من العرب . فقد قام داذويه الفارسي من بعده مرزباناً على العراق من قبيل كسرى .

ويوم ذى قار من أيام العرب الماثورة . ذكروا أن النعمان بن المنذر أودع أمواله وحريمه هانيئ بن قبيصة حين عرف غضب كسرى عليه . فلما قتل النعمان طالب كسرى هانيئاً بودائع هانيئ . ثم إن بني بكر بن وائل غضبوا لقتل النعمان فأغاروا على سواد العراق فنهبوا منه . وأراد كسرى معاقبتهم . فالتقت جيوشه بهم في ذى قار . ففاز العرب على الفرس فوزاً عظيماً . يروى عن النبي عليه السلام أنه قال في يوم ذى قار : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونصرت عليهم بي »^(١) . ذلك أن النبي عليه السلام بُعث عام ذى قار .

الغسانيون إلى
آخر عهدهم

ذلك كان مصير اللخمين بالعراق . أما الغسانيون بالشام فظلوا يتولى الأمر منهم أمير بعد أمير ، حتى كان جبلة بن الأيهم حاكم عرب الشام عند ما فتحه عمر بن الخطاب . تولى منهم عمرو الأصغر في سنة ٥٨٧ م ، فلجأ إليه النابغة الذبياني هرباً من النعمان بن المنذر صاحب الحيرة ؛ وتولى بعده أبو كرب النعمان السادس ابن الحارث الأصغر ، ففاز من النابغة بخير مدائحه . ثم تولى

(١) مروج الذهب للمسعودي . الجزء الأول ص ٢٣٦ طبع بغداد .

عدد من الأمراء تدل كثرتهم على اقتسامهم ملك الغساسنة بالشام ، حتى انتهى أمرهم إلى الأيهم الثاني ثم إلى ابنه جبلة بن الأيهم .

ولعل تقسيم السلطان في الشام بين عدة أمراء من العرب كان بعض سياسة الروم في عهود كثيرة ، حتى لا يناوئ العرب الإمبراطورية بوحدةهم . يرجح ذلك أن الغسانيين لم تكن لهم عاصمة بالشام كما كانت الحيرة عاصمة اللخمين بالعراق ؛ بل كانت الجابية عاصمة ، وكانت تَدْمُشُّ عاصمة ، وكانت جَبُولَان عاصمة ، وكانت جِلَّتْ على مقربة من دَمَشَق عاصمة . وهذا يتفق مع السياسة المركزية التي جرت عليها إمبراطورية الروم ، كما تتفق سعة السلطان لصاحب الحيرة مع سياسة اللامركزية التي جرت عليها الإمبراطورية الفارسية .

ذكرنا فيما سلف أن عرب العراق وعرب الشام استمسكوا باستقلالهم الذاتي وبحياتهم العربية . لذلك ظلت لغة أهل شبه الجزيرة لغتهم ؛ فلم تمحها الفارسية في العراق ، ولم تمحها اليونانية أو اللاتينية في الشام . وكان من أثر هذا أن ظَلَّتْ صِلَات ملوك الحيرة وصلات بني غسان بشبه الجزيرة وثيقة ، وظل الذين يُشِيدُونَ بذكر هؤلاء الملوك وينالون جوائزهم هم شعراء شبه الجزيرة . وكتب الأدب ودواوين الشعراء تروى للنابغة الذبياني ولأعشى قيس ولعلقمة الفحل ولغيرهم كثيراً مما قيل في هؤلاء الملوك وكرمهم وما باغوا من حضارة وترف . وحسان بن ثابت شاعر النبي كان وثيق الصلة بجبلة بن الأيهم قبل إسلامه .

كان احتفاظ هؤلاء العرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة إلى بادية الشام بخصائصهم وبحياتهم ولغتهم العربية ، من الطلائع التي مهدت للفتح العربي والإمبراطورية الإسلامية . وسرى من بعد كيف انضم هؤلاء العرب في كثير من الأحيان لجيوش المسلمين ، وكيف حاربوا في صفوفهم من كانوا حلفاءهم من الروم والفرس .

الفرس والروم هل تأثرت علاقات فارس والروم بالقضاء على ملك الحيرة ؟ كلا ! بل ظلت الحروب متصلة بينهما بعد ذلك ، كما كانت متصلة بينهما سبعة قرون بعد تقضع سلطان الغرب

متوالية من قبل . كانت إمبراطورية الروم لذلك العهد مسرح قلق واضطراب شجع الفرس على غزو الشام . وكان فوكاس إمبراطور الروم يومئذ في شغل بثورة هيرقل عليه . لذلك أوغل الفرس في بلاد الشام . فاستولوا عليها وانحدروا منها إلى ناحية بيت المقدس يحاصرون المدن ثم يأخذونها عنوة . وتولى هيرقل حين كان الفرس في مسيرتهم إلى القدس فلم يستطع ردّهم أو منعهم من تخريب آثار المسيحية واليهودية بالمدينة المقدسة . ثم إن اليهود انضموا إلى المجوس وأعانواهم على النصارى . فلما استقر الأمر لكسرى بالشام ، فتح مصر وحل بسلطانه محل الروم فيها . وفي هذه الانتصارات المتوالية للفرس على الروم نزل قوله تعالى :

«الْمُ غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ .

وصدق الله العظيم . ففي بضع سنين عاد هيرقل فحارب الفرس وأخرجهم من مصر ومن الشام ، وطاردهم إلى المدائن ، واسترد منهم الصليب الأعظم ، ثم رده إلى بيت المقدس في حفل حافل . لذا تضعضع سلطان الفرس وإن استنفذ ذلك من قوة الروم ما كان بالغ الأثر في التمهيد للفتح العربى والإمبراطورية الإسلامية .

موقف أبى بكر
من فارس والروم

لم يتغب علم ما نزل بالروم ، ثم بالفرس عن أهل مكة والمدينة . ولم يغب عنهم كذلك أمر بنى عمومتهم من العرب ببادية الشام وما جاورها من العراق وبلاد الشام . وقد هوّن ذلك من أمر الإمبراطوريتين العظيمتين في نظرهم . وزاد في تهوين أمرهما قيام النبی العربى وانصواء بلاد العرب كلها تحت لواء الإسلام . لكن ما هان من أمر الإمبراطوريتين لم يبلغ بالعرب حد التحرش بهما أو التفكير في غزوهما ، وإن بلغ بهم حد اليقين باستقلال شبه الجزيرة عنهما والدود عن هذا الاستقلال في وجهيهما . لذلك ألقت اليمن وألقت بلاد الجنوب كلها بنير فارس ، ثم اتجه جلّ غرض الرسول عليه السلام إلى تأمين التخوم العربية في الشمال من جنود قيصر . ولم يدر بخواطر المسلمين أن يغيروا على الشام ، أو أن يتخذوا من دعوة النبی هيرقل إلى الإسلام سبباً للإيغال فيه . ترى الصديق أبوبكر

أقيم أبو بكر على هذه السياسة لا يتعدها ، وله في رسول الله أسوة حسنة ، أم يغامر بحرب قيصر ، والنصر بيد الله يؤتیه من يشاء ؟

كان هذا الخاطر يدور بنفس أبي بكر حينما كان النصر يحالف أعلامه في حروب الردة . فمذ قضى خالد بن الوليد على مسيلمة باليمامة ، ومذ نشر المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل لواء الإسلام في أرجاء اليمن وما جاورها ، أيقنت شبه الجزيرة كلها أن الأمر فيها صائر بإذن الله إلى خليفة رسول الله . لكن أبا بكر كان أحصف من أن يستنيم لهذا النصر فينسى به ما تنطوى عليه صدور العرب من حفيظة قد تضطرم فتضرم الثورة كرة أخرى . أو ليس من الخير أن تتجه أنظار العرب إلى ما وراء الحدود من شبه الجزيرة فتنسى بذلك حفاظها وتنسى أحقادها ! وبادية الشام تنتشر فيها قبائل من العرب ، فجدير بها أن تسمع الدعوة إلى الدين الجديد كما سمعها العرب في شبه الجزيرة . ولعل هذه القبائل إذ تتصل بأصولها وتسمع الحديث عن أجدادها ، تعود بها الذكرى إلى الماضي ، فتسرع لتشارك بني عموميتها فيما هداهم الله إليه من الحق ، وتشهد معهم أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

تفكير الصديق
فيما بعد حروب
الردة

كان هذا الخاطر يدور بنفس أبي بكر وهو في داره المتواضعة بالمدينة ، وكان يدور بنفسه وهو في مجلسه بالمسجد ، ثم كان يدور بنفسه وهو يحجب الأنحاء الفقيرة آناء الليل في سرّ من الناس ، يعين المحتاج ، ويأسو كلوم الجريح ، ويسكنّ أنات البائس والمسكين . ولم يستأثر هذا الخاطر بتفكير أبي بكر لأنه كان يجب السلطان لنفسه أو يطمع في التوسع فيه ، بل لأنه كان يريد أن يطمئن المسلمون إلى دينهم وحرية الدعوة إليه . وإنما تم للمسلمين الطمأنينة ما قام الحكم فيهم على أساس من العدل المجرد من الهوى . والحكم على هذا الأساس يقتضى الحاكم أن يسمو به فوق كل اعتبار شخصي ، وأن يكون العدل والرحمة مجتمعين . وقد كانت نظرية أبي بكر في تولى أمور الدولة قائمة على إنكار الذات والتجرد لله تجرداً مطلقاً ، جعله يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج ، ويسمو بعدله على كل هوى ، وينسى في سبيل ذلك نفسه وأبنائه وأهله ، ثم هو مع ذلك يتتبع أمور الدولة جليلها ودقيقها بكل ما آتاه الله من يقظة وحذر .

وكان حكم أبي بكر في العام الأول من خلافته يكاد ينحصر في القضاء على الردة والقائمين بها . وهل كان للمسلمين المقيمين بالمدينة ما يختلفون فيه وأهلهم جميعاً قد ذهبوا مجندين يجمعون الثورة ويقضون على أسباب الفتنة ، وهم في أثناء ذلك يتتبعون أخبارهم ويقيمون الصلوات لنصرهم !! وليّ أبو بكر عمر بن الخطاب القضاء في المدينة ، فأقام عاماً كاملاً لم يختلف إليه متقاضيان . وكان أبو عبيدة بن الجراح قائماً بأمر المال ، يتلقاه من الزكاة ، وينظر في توزيعه على حاجات المسلمين . وكان عثمان بن عفان يكتب الأخبار للخليفة ، ويكتب زيد بن ثابت ما عداها . وقد كفاه عمّاله على البلاد والقبائل مؤونة إدارتها بما كان لهم من أمانة وحسن بصر بالأمور ، ثم كانوا على اتصال دائم به في توجيه سياستهم . وقد رأيت الشيء الكثير من ذلك فيما كان بينه وبينهم من مكاتبات أثناء حروب الردة . وإذا كان أبو بكر في شغل بهذه الحروب طيلة العام الأول من خلافته ، فقد أقام مقامه عتّاب بن أسيد عامله على مكة في الحج بالناس ذلك العام .

لم يشغل أبا بكر عن حروب الردة شاغل إلا ما اتصل بها مما قصصنا نبأه حين الحديث عنها . أما وقد هان أمر المرتدين ولم يبق لأحد من أهل الحواضر والبادى أن يأبه لهم أو يخشى خطرهم ، أفلا يجمل بأبي بكر أن يغامر بحرب قيصر ؟ إنه إن يفعل يصرف أذهان العرب في شبه الجزيرة كلها عن ثاراتهم ، ويجعل لهم من الفخار ما ينسيهم ضيغتهم على يثرب وأهلها ، ويمهد الطريق لانتشار كلمة الله في الإمبراطورية الرومية المترامية الأطراف .

غزو الروم
مغامرة لا يسهل
الإقدام عليها

لكن غزو الروم مغامرة إن لم يحالف النصر فيها أعلام المسلمين تعرضت شبه الجزيرة لشر من الثورة التي أخدمتها حروب الردة : تعرضت للروم وحكمهم ، وتعرضت بذلك لكارثة تجتث حكم المدينة ، وقد تفتن المسلمين عن دينهم . ومنازلة الروم ليست هينة . إنما انتصر أبو بكر على المرتدين في شبه الجزيرة لأن الإسلام قضى على الوثنية فيها ، ولأن البواعث التي أدت بطليحة ومسيلمة والعنسي إلى الثورة وجدت من قبائل هؤلاء المتنبيين من رأى ردتهم نقضاً لعهد عقده مع رسول الله ، حين ذهبت وفودهم إليه بالمدينة تعلن

الإسلام وتنضوي تحت لوائه . أما الروم فكانوا نصارى أهل كتاب كالمسلمين ، ثم كانوا إلى ذلك أصحاب الكلمة العليا في توجيه سياسة العالم لذلك العصر .

صحيح أنه قامت بينهم وبين فارس حروب استطالت على السنين ، كتب النصر في بُدائها للفرس ، ثم انتهى الغلب فيها للروم . وقد استنفدت هذه الحروب من قوة الدولتين الكبيرتين ما يحتاج إلى الجهد الضخم والسنين الكثيرة لتعويضه . لكن للفوز في الحروب بريقاً يكمل هام المنتصر بأكاليل تبهر أنظار الناس ، وتصدهم عن محاربة من كان النصر حليفه . ولم تكن الأمة العربية قد جربت حظها في مثل هذه الحروب من بعد لتقدم على مغامرة لها من الخطر ما يصد عنها ، بل ما يخيف منها .

ولم يرد التفكير في محاربة الفرس بخاطر أبي بكر ؛ فالحجاز لا يتصل بفارس . والبلاد العربية التي تتاخم الفرس هي البلاد التي فشت فيها الردة ، ويتعذر لذلك أن يعتمد أبو بكر عليها أو يأمن أهلها في غزو دولة لا يزال لها ، مع ظفر الروم بها ، جيوش جرارة وموارد كثيرة . أفلا يحمل بالخليفة أن يوجه همه إلى توطيد الأمن في مختلف الأرجاء من شبه الجزيرة ، لتنضم كلها في وحدة تزيدها قوة وتزيد سياستها اتساقاً !

وإن أبا بكر ليفكر في هذا وفي مثله إذ ترامت إليه الأنباء بأن المشنى بن حارثة الشيباني قد سار بقواته شمالاً في البحرين ، حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وحتى بلغ مصب دجلة والفرات ، وأنه قضى في مسيرته هذه على الفرس وعمالهم ممن عاونوا المرتدين بالبحرين . وسأل أبو بكر عن هذا المشنى من هو ، وإلى أى قبيلة ينتسب ، وعلم أنه من البحرين من بنى بكر بن وائل ، وأنه انضم إلى العلاء بن الحضرمي في مقاتلة المرتدين على رأس من بقى على الإسلام من أهل هذه النواحي ، وأنه تابع مسيره مساحلاً الخليج الفارسي إلى الشمال ، حتى نزل في قبائل العرب الذين يقيمون بدلتا النهرين فتحدث إليهم وتعاهد معهم . وعلم أكثر من ذلك أنه رجل جليل المكانة يعتمد عليه . قال عنه قيس بن عاصم المنقرى : « هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد . هذا المشنى بن حارثة الشيباني ! » .

المثنى بن حارثة
الشيباني يتقدم في
أرض العراق

جعل أبو بكر يفكر فيما سمعه من ذلك وفيما يمكن أن ينشأ عنه . وأدّى ذلك به إلى معاودة التفكير في دفع المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة كيما ينصرفوا عن ثاراتهم الأولى وثورتهم بسلطان المدينة . ألا يستطيع هذا المثنى أن يتوغل في العراق وأن يفتح للمسلمين أبوابه ما دامت أبواب الشام مستعصية ! فقبائل العرب في العراق من بني لحم وتغلب وإياد والنمر وبني شيبان تهوى نفوسهم إلى منابثهم في شبه الجزيرة . ومن العراق انحدرت سجاح تعلن نبوتها في بني تميم ، وتعتمد على أبناء هذه القبائل العربية التي نزحت إلى شواطئ الفرات . لعل البدء بتوجيه سياسة المسلمين إلى هذه الناحية يكون أجدى من كل توجيه آخر ! ولعل هذا المثنى الشيباني يكون خير طليعة لتنفيذ هذه السياسة !

اضطراب الأمر
في فارس

وشجّع أبا بكر على العود إلى هذا التفكير ما يعلمه من أمر فارس صاحبة السلطان في العراق . فقد انتصر هرقل على الفرس قبيل وفاة النبي وحطم جيوشهم في نينوى ودستجيرد ، وسار حتى صار على أبواب المدائن عاصمة ملكهم . وقد بلغ من ضعف سلطانهم أن تخلصت اليمن من نيرهم وأن انضم بازان إلى رسول الله ، ثم لم يحركوا لاستردادها ساكنًا . ومن بعد ذلك تقلص سلطانهم من البحرين ومن جميع الإمارات الواقعة على الخليج الفارسي وعلى خليج عدن ، ولم يفكر أحد من ملوكهم في استرداد شيء من هذا السلطان قلّ أو كثر . وكيف يفكرون والاضطراب ضارب بجراحه في بلاطهم ، يسعى كل أمير ليقول الجالس على العرش فيأخذ مكانه ؛ حتى لقد ادعى هذا العرش في أربع سنين تسعة من الأمراء كانوا يقتتلون عليه فيقتل بعضهم بعضًا ، جبهة حينًا وغيلة حينًا . لا عجب إذن أن يصح ما تحدث الناس به إلى أبي بكر عن المثنى وفعاله . ثم لا عجب أن ينشط تفكير أبي بكر في العراق وفتحه .

مقدم المثنى بن
حارثة إلى المدينة

وبينا يتأمل الخليفة الأمر ويطيل التفكير فيه ، إذ أقبل المثنى إلى المدينة وتلقاه أبو بكر وسمع منه وعرف من أنبائه ما زاده اطمئنًا إلى أن البدء بفتح العراق العربي أدنى إلى النجاح ، ولن يلتقي من المقاومة ما يلقاه التقدم في الشام . وليس العراق على شواطئ النهرين دجلة والفرات وفي الجزيرة الواقعة بينهما بأقل من الشام جمالا ونضرة . وإذا لم يكن أهل الحجاز قد تحدثوا عنه ما تحدثوا عن

الشام لقرب الشام منهم ، ولأن الطريق إليه طريقهم في رحلة الصيف ، فغداً يتحدثون عن العراق وتتجه إليه أنظارهم ما اتجهت إلى الشام . فليعزم الصديق إذن أمره ، وليتوكل على الله .

وكيف له أن يتردد وقد ذكره المثنى بأن قبائل العرب التي استقرت بدلتا النهرين الغنية بألوان الزرع والفاكهة وبالطير والحيوان، مالت إلى الحضر والإقامة وعمل أبنائها فلاحين في الأرض ، وأن دهاقين الفرس يستولون على غلاتها ، ولا ينال أولئك العرب منها إلا القليل الذي يجود الدهاقين عليهم به . أيّ مرعى أخصب من هذا المرعى لبث الدعوة العربية ، ولتأمين شبه الجزيرة من دسائس الفرس ومن عدوانهم ، فهؤلاء العرب وإن استقروا بأرض العراق يستجيبون لا ريب لكل دعوة عربية . ومعاملة الدهاقين لهم تُعِدُّهم للثورة بهم ، أما وقد أحسنوا السماع لحديث المثنى فالفرصة من ذهب ، يجب ألا تضيع ، بل يجب أن تتخذ خطوة لما بعدها .

ولئن حالف النّجاح المسلمين في هذه الخطوة لتكونن البشير بخطوات واسعة . فليست دلتا النهرين ، على خصبتها وحسن ثمرها ، أخصب العراق أو أجمله أو أحسنه ثمرأ ؛ بل إن دجلة والفرات ليجريان متوازيين قرابة ثلاثمائة ميل قبل أن يتصلا . ولا يقف أمر المناطق التي يتوازيان فيها عند الخصب الممرع الذي يجعل منها جنة دونها جنات الشام التي بهرت أنظار أهل الحجاز وسحرت قلوبهم ، بل إن بها من ذكريات التاريخ ما يثير الإعجاب في نفس من يسمع بها من أهل شبه الجزيرة ، بل من أهل الأرض جميعاً . وحسبك أن مدينة « أور » التي تكشفت في عصرنا الحديث عن آثار يقرنها بعض الناس إلى آثار الفراعنة ، تقع في هذه المنطقة . فإذا أنت سرت شمالاً لقيك بعد قليل من توازي النهرين آثار بابل القديمة ، ولقيك على شواطئ الفرات برج بابل قائماً يحدث عن عظمة الآشوريين ويروي تاريخ مجدهم . ونحن نتحدث إلى اليوم عن هذا البرج فيثير حديثه في نفوسنا العجب . ما بالك به من أربعمائة وألف سنة مضت ، وبما كان يثيره في النفوس حين كان العرب يسمعون حديثه !

ليس العراق أقل
إغراء من الشام

فإذا أنت تابعت السير على الفرات قابلتك المدائن عاصمة الفرس ومهد
الترف والنعمة لذلك العهد في العالم كله . فقد بلغ الفرس يومئذ من الترف
ما تبلغه الأمم حين تنحدر إلى ناحية التدهور والانحلال .

لعل الأسماء التي ذكرنا قد أثارت في نفسك صورة من العظمة التاريخية
لهذه البقعة التي تقع شمالي دلتا النهرين ، وأثارت كذلك فيها ذكر ما كان حول
هذه المدن من حدائق وكروم وزروع تمتد إلى الأفق زاهية الخضرة ، يبعث
أريج زهرها أروح العطر إلى الهواء الذي تتنفسه .

أمّا ذلك بعض ما في هذه البقاع من خصب جعل الناس يطلقون عليها
اسم « جنة الأرض » لكثرة غلالها ووفرة خيراتها وبعض ما فيها من جمال يعدل
ما في الشام أو يزيد عليه ، فقد رأى أبو بكر صدق ما يذكره المثنى الشيباني ،
ورأى أن من الواجب على المسلمين أن يقوموا بتأمين العرب من أهلها . فإذا
استجاب هؤلاء العرب من بعد الدعوة الإسلامية ولم يصرفهم الفرس عنها فذاك ،
وإلا قاتل المسلمون الفرس ليكون الميدان لحرية الرأي فسيحاً ، وكلمة الحق
منتصرة لا محالة بالحجة والموعظة الحسنة .

رأى خالد
ابن الوليد في
غزو العراق

واستشار أبو بكر أصحابه وعرض عليهم ما جاء به المثنى من الأنباء ،
وقوله له : « أمرتني على من قبلي من قومي أقاتل من يلبني من أهل فارس
وأكفيك ناحيتي » . وتداول القوم المشورة بينهم ، فأروا أن الأمر في حاجة إلى
رأي خالد بن الوليد يكشف لهم عما يجب إذا قاوم أهل فارس المسلمين . وكان
خالد بالنيامة مقبلاً مع زوجته أم تميم وبنت مَجاعة ، يستجم بعد غزوة
عقرباء ، ويطمئن إلى العيش بينهما . وقد استدعاه أبو بكر على عجل
فحضر . ولم يتردد خالد حين عرف ما جاء المثنى فيه عن الإشارة إلى ما قد يترتب
من النتائج على مقاومة الفرس لجيش ابن حارثة . فقد يدعوهم انتصارهم إلى التفكير
في استرداد نفوذهم في البحرين وما جاورها . فأما إن أعد الخليفة للحرب عدتها ،
وجعل ما قام به المثنى من قبل طليعة فتح يلقي إليه المسلمون بفيلاد أكبادهم
فلا ريب عنده في أن العراق سيفتح أبوابه ، وفي أن العرب المقيمين به عاملين
في الزراعة سيكونون من عوامل النصر لبني جنسهم .

وأتّم أولو الرأي المداولة فيما بينهم ، وأقروا أبا بكر على تأمير المثنى . عند

ذلك أمره أن يتابع ما بدأه بين العرب من عهد ودعوة إلى الحق ، فكان أمره هذا الخطوة الأولى في فتح العراق . فأما الخطوة الحاسمة فكانت توجيه خالد ابن الوليد على القيادة العامة لجيوش الفتح . وفعال خالد في العراق وانتصاراته على الفرس موضع حديثنا في الفصل التالي .

هذه الرواية في التمهيد لفتح العراق هي الراجحة في رأينا . على أن طائفة من المؤرخين يذهبون إلى أن المثنى لم يذهب إلى المدينة ولم يقابل أبا بكر ، وأنه أمعن في السير بجيشه في دلتا الفرات ، فلقبه هُرمز ، فكانت بينهما وقعت نفي خبرها إلى أبي بكر . فلما سأل عن المثنى وعرف من هو وماذا كانت فعاله في البحرين أثناء حروب الردة ، أصدر أمره إلى خالد بن الوليد كي يخف إليه ، ويعينه على هُرمز ، وينصره والعرب الذين آزره ليريحهم من هذا الطاغية الفارسي . وهذه الرواية مرجوحة عندنا وإن كنا لا نقطع بعدم صحتها . فقد انتصر المثنى على الفرس ولم يكن في حاجة إلى مدد . وشجع انتصاره أبا بكر على التفكير في غزو العراق ، فأمر خالداً أن يذهب إلى دلتا الفرات يعزز المثنى ثم يسير حتى يفتح الحيرة عاصمة العرب اللخمين ، وأمر عياض بن غنم أن يسير إلى دومة الجندل يخضع أهلها الذين توردوا وارتدوا ثم يسير من هناك إلى الحيرة . وأي القائدين سبق صاحبه فله القيادة العليا وله الأمر في تلك البلاد . وإنما ذكرنا أن الرواية الثانية مرجوحة ، ولم نقل إنها غير صحيحة ، لما في الروايات التي انتهت إلينا عن ذلك العهد من الاضطراب . ولقد بلغ من اضطرابها حين الحديث عن فتح العراق ومقدماته أن تردد الطبري وابن الأثير وغيرهما فلم يرجحوا رواية على أخرى .

رواية أخرى
في فتح العراق

ويرى بعض المتأخرين من المؤرخين أن خالداً حين ذهب إلى دلتا الفرات لم تكن أمامه خطة مرسومة ولا غاية معينة ، وإنما ذهب ممدداً للمثنى ينقذه وينقذ جيشه . فلما انتصر على الفرس وتقدم إلى الشمال وبعث إلى الخليفة بالأخماس وبأنبيائه كان هو الذي صور الفتح كيف يكون ، وهو الذي اتجه إلى الحيرة فما شأها . ولقد يُضعف من هذه الرواية أن أوامر أبي بكر إلى قواده

كانت صريحة دائماً في ألا ينتقل أحدهم من غزاة إلى ما بعدها إلا بإذنه . ذلك ما رأيناه في حروب الردة ، وذلك ما كان من بعدُ في فتح العراق والشام . فليس من الممكن مع هذا أن يكون فتح العراق فلتةً ، أو أن يسير خالد بن الوليد مستقلاً عن أوامر أبي بكر .

والآن فلنسير مع المثنى إلى دلتا النهرين . وعما قريب يلحقنا خالد هناك ليضرب الفرس في العراق ، ولينتقل منه إلى الشام فيمهد للقضاء على دولة الروم في آسيا القضاء الأخير .

الفصل الثاني عشر

فتح العراق

أجاب أبو بكر طلب المثنى بن حارثة الشيباني ، فأمره على من معه من قومه ليقاتل أهل فارس ، فلما بلغت أنباء نصره بدلتا النهرين رأى أن يُميده ليتابع غزواته . لذلك أمر خالد بن الوليد أن يجمع بقية جنده وأن يسير إليه ، وأن تكون القيادة العليا لخالد بطبيعة الحال . ولقد أمر عياض بن غنم أن يسير إلى دومة الجندل يخضع أهلها المتمردين ثم يسير منها شرقاً إلى الحيرة ، فإن بلغها قبل خالد فالأمر فيها له ، وخالد فيها من قواده ، وإن سبقه خالد إليها فالأمر والقيادة لخالد وعياض من قواده .

أوامر أبي بكر
بحسن معاملة العرب
من أهل العراق

وكان العرب في العراق يعملون فلاحين في أرضه ، ثم ينالهم القليل من خيريه . أما وافر الخير فيذهب إلى الدهاقين الفرس الذين كانوا يسومون العرب الحسف والظلم . وقد أصدر أبو بكر أوامره إلى قواده بالعراق ألا ينالوا هؤلاء العرب الفلاحين بسوء ؛ لا يقتلون منهم أحداً ، ولا يأخذون منهم أسرى ، ولا يسيئون إليهم في أمر يتصل بهم ؛ فهم عرب مثلهم ، وهم يشعرون بالظلم تحت نير فارس ، فيجب أن يشعروا بزوال هذا الظلم حين مقدم العرب ، ويجب أن يعمّتهم العدل على أيدي بني عمومته . ذلك واحب على المسلمين يأمرهم الله به ، وهو بعد السياسة الحكيمة التي تكفل للمسلمين النصر ، وألا يُؤثروا بعد نصرهم من خلفهم .

وكان جنود خالد قد قلّ عددهم ، إذ قُتل منهم باليمامة ما سبق أن ذكرنا ، وعاد منهم مسرّحاً إلى قومه من رغب في الرجوع إليهم . وما كان لخالد أن يستدعي هؤلاء ، وقد أمره أبو بكر أن يأذن لمن شاء بالرجوع ، وألا يستفتح بمتكاره ، وألا يكون معه في الغزو أحد ممن ارتد حتى يرى الخليفة رأيه فيه . وطلب خالد إلى أبي بكر المدد فأمدّه بالقعقاع بن عمرو التميمي . وعجب قوم وقالوا : أئماً رجلاً قد ارفض عنه جنوده برجل ! ! وأجابهم أبو بكر : لا يُهزم

جيش خالد لفتح
العراق

جيش فيهم مثلُ هذا ! وكذلك كان جوابه حين أمدَّ عياضاً بعبد بن عوف^(١) الحميري . على أنه كتب إلى خالد حين بعث إليه القعقاع يقول له : « استنفر من قاتل أهل الردّة ومنّ ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(٢) .

ولم يلبث خالد حين عاد ينظم جيشه أن حشد ثمانية آلاف من ربيعة ومضر إلى ألفين كانا معه ، ثم سار إلى العراق على رأس عشرة آلاف ، قدم بهم على ثمانية آلاف كانوا مع أمراء الجند المسلمين الذين سبقوه إليه ، والمثنى في مقدمتهم .

وكان أمر أبي بكر إلى خالد إذا دخل العراق أن يبدأ بالأبلة على الخليج الفارسي . وكانت الأبلة الثغر الذي تسير التجارة منه إلى الهند والسند ، وترد إليه منهما للعراق . وقد اختلف الرواة : أفتح المسلمون الأبلة في هذه الحرب ثم عادوا فاستردوها من الفرس أيام عمر بن الخطاب ؟ أم أنهم لم يفتحوها إلا في عهد عمر ؟ . أمّا إجماع الرواة فعلى أن أول غزاة بالعراق كانت غزاة الحفيرة^(٣) .

هرمز أمير الثغور والحفيرة تقع قريباً من خليج فارس على حدود الصحراء وعلى مقربة من ثغر كاظمة . وكان هُرْمُزُ أمير هذه المنطقة كلها من قبل فارس ، ومن

(١) في الكامل لابن الأثير : « عبد بن غوث » .

(٢) وقد أورد الأزدى كتاب أبي بكر إلى خالد بن الوليد ليسير إلى العراق فإذا هو موجه إلى خالد ومن معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وفيه بعد حمد الله والثناء على نبيه والتذكير لأمره ما نصه : « فقد أمرت خالد بن الوليد بالسير إلى العراق لا يبرحه حتى يأتيه أمرى ، فسيروا معه ولا تشاقلوا عنه فإنه سبيل يعظم الله فيه الأجر لمن حسنت فيه نيته ، وعظمت في الخير رغبته . فإذا قدم العراق فكونوا بها حتى يأتيكم أمرى . كفانا الله وإياكم مهم أمور الدنيا والآخرة ! والسلام عليكم ورحمة الله ! » .

ولم يذكر الطبرى ولا ابن خلدون ولا ابن الأثير هذا الكتاب .

(٣) يذكر الطبرى وابن الأثير هذا الخلاف في أمر الأبلة . ويقول الأزدى في فتوح الشام : إن سويد بن قطبة الذهلي قاتل أهل الأبلة فقاوموه ؛ فلما بلغ خالد العراق وسار إليه اتفقا على أن يتظاهرا خالد بمغادرته والسير إلى المثنى ، ثم يرجع إليه إذا جن الليل . وخيل إلى جيش الفرس بالأبلة أنهم قادرون على قتال ابن قطبة ففدوا إليه مصبحين ، فلقبهم خالد فهزمهم شر هزيمة . ومثل هذه الرواية وردت في فتوح البلدان للبلاذرى .

تم شرفهم بين أمرائها . وكان أهل فارس يعملون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائهم ؛ فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مئة ألف ، وتلك كانت قيمة قلنسوة هرمز . وكان هرمز من أسوأ أمراء الثغور معاملة للعرب ؛ حتى لقد بلغ من حقدهم عليه أن جعلوه مضرب المثل في الحبث ؛ فكانوا يقولون : « أخبث من هرمز » ، و « أكفر من هرمز » . وترجع كراهيته للعرب إلى أن أبناء عمومته في شبه الجزيرة كانوا لا يفتشون يشنون الغارات للنهب والسطو على البلاد الواقعة في إمارته ، فكان يحاربهم في البر . أما الهنود ، وكانت تجيء سفنهم إلى تلك الثغور فتقوم فيها بأعمال تشبه القرصنة ، فكان يحاربهم في البحر ؛ وكان بهذه الحرب في البر والبحر يعدّ نفسه حامي البلاد التي تعدّ مفتح فارس .

خالد بن الوليد
يقسم جيش
المسلمين ثلاث
فرق

سار خالد من اليمامة إلى العراق على رأس عشرة آلاف من الجند . فلما بلغ حدوده ألقي المثني ومن معه ينتظرونه . هنالك قسم الجند كله ثلاث فرق ؛ وجه كل واحدة منها في طريق على أن يلتقوا جميعاً بالحفير . فأما الفرقة الأولى وعلى رأسها المثني بن حارثة الشيباني فسارت قبل خالد بيومين . وأما الفرقة الثانية وعلى رأسها عدى بن حاتم الطائي فسارت قبله بيوم . وسار خالد في المؤخرة . وكان خالد قد بعث قبل ذلك إلى هرمز كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فأسلم تسليماً ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمّة ، وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

تناول هرمز هذا الكتاب وترامت إليه أنباء المسلمين ومسيرة جندهم ، فكتب إلى أردشير الملك بالخبر ، وجمع جموعه وسار إلى الكواظم يلتقي خالداً بها . فلما علم أن خالداً أمر أصحابه بالسير إلى الحفير أسرع بجنده إليها ونزل على الماء فيها . وقد قدم خالد عليهم وأمر بالنداء في الجند لينزلوا ويحطوا أثقالهم . وتحدث إليه قوم من رجاله أنهم على غير ماء ، فقال لهم : « ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء . فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين ! » .

ووقف هرمز في جيشه ، وعلى ميمنته وعلى ميسرته أميران من بيت الملك

في فارس ، هما قُبَاذ ، وأنُوشَجَان ؛ ونادى هرمز : أين خالد ؟ يريد أن يخرج ابن الوليد إليه يبارزه . فلقد كان يعرف من بطولة خالد وفعاله في بلاد العرب ما آمن معه بأنه إن يقتل خالداً يضمن لفارس نصف النصر إن لم يضمن لها النصر كله . ولكن كيف سولت له نفسه أن يقتله وخالد البطل الذي لا يغلب ؟ ! الأمر يسير ؛ فالحيانة تمهد له درب غرضه . لهذا عهد إلى جماعة من فرسانه إذا رأوا خالداً خرج إليه أن ينقضوا عليه ويقتلوه .

وسمع خالد نداء هرمز فنزل عن جواده ومشى إليه فالتقيا فاختلعا ضربتين . وشدّ فرسان فارس يريدون قتل خالد واستخلاص هرمز من يده . لكن القعقاع بن عمرو لم يُمهلهم أن حمل عليهم حين كان خالد قد قبض على ناصية هرمز يستلّ روحه من بين جنبه . وشدّ المسلمون فانهزم أهل فارس أمامهم ، فطاردهم وركبوا أكتافهم إلى الليل . وبلغ المسلمون الجسر الأعظم من الفرات حيث تقع البصرة اليوم ، في حين فرّ قباد وأنوشجان فيمن بقي من جيش الفرس لا يلوون على شيء .

تم النصر للمسلمين ، فأمر خالد معقل بن مقرر المزني بالسير إلى الأبلّة ليجمع مالها وسببها ففعل^(١) ، وأمر المثنى بن حارثة أن يلاحق المنهزمين من جيش الفرس فطار في أثرهم وكأنما يريد ألا يفوتهم قبل أن يبلغ المدائن .

ومر المثنى أثناء مطاردته جيش الفرس بحصن تقيم فيه أميرة فارسية يطلق مؤرخو العرب عليه اسم حصن المرأة . وقد ترك أخاه المسعّني بن حارثة على حصار هذا الحصن ، وسار هو فحاصر زوجها في حصنه ، ففض الحصن على من فيه وقتلهم ، واستفاء أموالهم ، ثم استمر يطارد بقية الجيش ، وعلمت المرأة بما أصاب زوجها فصاحت المعنّى وأسلمت وتزوجته .

حصن المرأة

أطلق على هذه الغزاة الأولى لخالد بالعراق اسم «ذات السلاسل» .

(١) ينكر بعض المؤرخين ذهاب معقل إلى الأبلّة ، ويذكرون ، كما قدمنا ، أن المسلمين لم يفتحوا هذا الثغر إلا في عهد عمر بن الخطاب . ويذهب مؤرخون آخرون إلى أن معقلا فتح الأبلّة فاستردها الفرس ثم عاد العرب في عهد عمر فاستولوا عليها . وقد يمكن التوفيق بين هذه الرواية وما سبق أن ذكرناه من أن سويد بن قطبة هو الذي فتح الأبلّة بمعاونة خالد ، وذلك بأن يكون معقل اقتصر ، بعد غزاة كاظمة ، على جمع المال والسبي لتنفيذ لأمر خالد .

وعلة هذه التسمية ، فيما يقولون ، أن الفرس اقترنوا في السلاسل حتى لا يفروا .
ويروى أن خالدًا جمع ما خلف القوم وراءهم من هذه السلاسل فكانت وقر
بغير ألف رطل . ويرتاب بعضهم في هذه الرواية فيسمى هذه الغزاة غزاة كاظمة ،
نسبة إلى أقرب قرية من المكان الذي وقعت فيه .

أثر الغزوة في
نفوس العرب

كان لهذه الغزوة الأولى أثر عظيم ألهم حمية المسلمين . فقد رأوا الفرس
لا يثبتون أمامهم أكثر مما كان يثبت العرب في حروب الردة . ولقد قُتل هرمز
من يد خالد ، فكان مقتله مرضاة للعرب جميعًا أي مرضاة . هذا إلى جسارة
ما غنموه فيها مما لم يكن لهم بمثله عهد ؛ فقد بلغ نفلُ الفارس ألف درهم خلا
السلاح .

وزاد نصر المسلمين في هذه المعركة جلالاً تنفيذ خالد للسياسة التي رسمها
أبوبكر مع العرب الفلاحين بالعراق أدق تنفيذ . فقد سبى أبناء المقاتلة الذين
كانوا يقومون بأمور الأعاجم . أما الفلاحون فتركهم لم يحركهم ، وأقر من لم ينهض
منهم وجعل لهم الذمة .

وبعث خالد خمس الغنائم إلى أبي بكر بالمدينة ، وبعث معها قلنسوة
هرمز وفيلًا أخذه المسلمون في الموقعة . ولم يكن أهل المدينة قد رأوا فيلا في
حياتهم ، بل لم تر بلاد العرب كلها فيلا قبل ذلك إلا فيل أبرهة حين حاول
هدم الكعبة . فلما طاف قائد الفيل به في المدينة عجب أهلها لمنظر الحيوان
الضخم وتولى بعضهم الريب في أمره ، بل لقد جعلت ضعيفات النساء يقلن :
أمن خلق الله هذا !! وخيّل إلى بعضهن أنه من صناعة فارس ! ورأى أبو بكر
أنه لا نفع فيه فردّه إلى العراق مع قائده .

الفرس
يتجهزون
لغزاة المذار

ألهمت هذه الغزاة حمية المسلمين ، حتى لقد استمر المثنى الشيباني يطارد
الفرس المنهزمين وكأنما يريد ألا يفوتهم قبل أن يبلغ المدائن . وفيما هو يتعقبهم
جاءته الأنباء بأن جيشًا عظيمًا من الفرس أقبل من المدائن لملاقاة
خالد وجنوده . ذلك أن الملك أردشير ما لبث حين جاءته رسالة هرمز أن دعا
إليه قارن بن قريانس أحد الأمراء الذين تم شرفهم ، وجعله على رأس
قوة سارت مددًا لجيش الثغور . ولقي قارن في طريقه إلى الجنوب قباذ وأنوشجان

على رأس الفُلال المنهزمين ، فاستوقفهم وتحدث إليهم وبعث السكينة إلى نفوسهم وضمهم إلى جيشه وعسكر بهم في المذار على ضفاف قناة تصل دجلة بالفرات . وأيقن المثنى أن انفراد جيشه بلقاء هذه القوة العظيمة قد يجر عليه الهزيمة ، فاختار مكاناً قريباً من المذار أنزل جنده فيه ، وكتب إلى ابن الوليد بتفصيل ما عنده . وخشى خالد أول ما بلغه النبأ أن يأتى قارن ابن حارثة فيهمزه فافت ذلك في أعضاء المسلمين ، فطار بجيشه وبلغ المذار ، وقارن يُعيد للقاء المثنى عُدته ، وجنود المثنى لا يعلمون ما الله صانع بهم .

كان للمثنى ولجنوده العذر أن تثور مخاوفهم . فقد بعثت هزيمة هرمز الحقد والحفيظة إلى نفوس الفرس ، فأقبلوا وكلهم حب الانتقام ، وحسبوا أنهم بالغون منه غايتهم بهزيمة المثنى وجنوده وهم بعيدون عن مركز القيادة . فلما بلغ خالد المذار أخاف الفرس وإن لم يخفف وصوله غلواء قارن ولم يضعف من عزمه . ورأى قباذ وأنوشجان فرصة الثأر لهزيمة الحفير سانحة ، وأرادا أن يغسلا بفعالهما ما تجللاه ثم من ثياب الخزي والعار ، فاستنهضا همم الجند الذين كانوا معهما ودفعاهم إلى الميدان يغلى في عروقهم حرص على الثأر لا تهدأ ناره . وخيّل إليهما وإلى قارن أنهم إن هاجموا خالداً قبل أن يتخذ للموقف عُدته لم يفتهم الظفر بالمسلمين وأن يردوهم على أعقابهم إلى شبه الجزيرة منكسة رءوسهم ، صريعاً في أذهانهم كل أمل في قتال كسرى أو منازلة رجاله .

خالد بن الوليد
في غزوة المذار

ورأى خالد تأهب جيوش الفرس فبقى على تعبثته التي جاء بها من الجسر الأعظم وشد بقواته عليهم . ورأى المثنى وجنوده في مقدم خالد عليهم معجزة أمدهم الله بها لينصرهم ، فانقلبوا من الخوف إلى اليقين بالنصر أسوداً كاسرة لا تهاب الموت بل تلقاه باسمه . وهنا حقت كلمة خالد لهرمز : « إني جئتكم برجال يحبون الموت كما تحبون الحياة » . والتحم الجمعان ، فإذا قارن وقباذ وأنوشجان يذبحون بأعين رجالهم ، وإذا سيوف المسلمين تطيح برءوس الفرس من كل جانب ، وإذا الجيش الذي خيل إليه أن النصر بين يديه يفر أمام خالد وجنده إلى السفن يتخذونها مطاياهم للنجاة ، وإذا المسلمون يغنون مما تركوا ما شاء الله أن يغنموا . وحال الماء بين المسلمين وتعقبهم ، فأقام خالد بالمذار

وسلم الأسلاب لمن سلبها بالغة ما باغت ، وقسم النىء ونفّل من الأخماس من أحسنوا البلاء .

أقام خالد بالمدار ، فسبى أبناء المقاتلة ومن أعانهم ، وأقر الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس . وكان أبو الحسن البصرى بين الأسرى في هذه الموقعة . وحرص خالد بعد أن اطمأن له الأمر على تأمين مواصلاته إلى الخليج الفارسي ، فأمر القواد على الجند الذين استبقاهم بالحفير وعلى الجسر الأعظم ، وولى العمّال على الجباية ، وأقام مكانه ينتظس أخبار عدوه .

وما كان ليحسب أنه ، وهو لا يزال على مقربة من خليج فارس ، قد قضى على قوات كسرى بالعراق ؛ فهو بعدُ من الحيرة على آماذ غير قليلة ؛ والحيرة تكاد تمتصف الطريق بين الخليج والمدائن . وإلى شمال المدائن من أرض الفرس ما يعج بالجنّد عجيجاً . ولا يأمن المسلمون أن يستعين الفرس قبائل العرب بالعراق عليهم . وهذه القبائل منتشرة على تخوم العراق إلى البادية ، منتشرة في جزيرة العراق بين النهرين ، وأكثرها على النصرانية لم تزعجها فارس المجوسية عنها . فإذا جاء هؤلاء المسلمون فدعوها إلى الإسلام أو الجزية رأت أن الخير لها في أن تبقى كما هي متمتعة بحريتها . لا جرم إن رأت ذلك أن تنضم إلى الفرس وأن تعينهم . هذه كلها احتمالات دارت بخلد القائد العبقري ، فقدرها قدرها ، وحسب لها حسابها .

التجهيز لنزوة
الولجة

ولم يخطئ فيما قدر ؛ فإن الفرس ما لبثوا ، حين رأوا ما أصابهم بالحفير والمدار ، أن اتجه تفكيرهم إلى الاستعانة على العرب بالعرب . فإنه لا يفلّ الحديد إلا الحديد . وكان كسرى يطمئن إلى ولاء قبائل عربية كثيرة بينها جماعات عظيمة من بنى بكر بن وائل . لذلك دعاهم وجعل عليهم قائداً منهم ووجههم إلى الولجة . ولكي لا يكون لهم كل فخار النصر أقام قائداً من أقدر قواده ، هو بهمّمن جاذويته ، على جيش من الفرس وجهه في أثرهم . ولقد ازداد جيش القبائل العربية بمن انضم إليهم بين الحيرة والولجة من العرب والهاقين الذين عسكروا إلى جانبهم . وبلغهم بهمن على رأس الجنود الفارسية وأعدّ معهم لقتال المسلمين عدته .

بلغت هذه الأنباء خالد بن الوليد وهو بالمدار ، فأمر من خلف من قواده وجنوده على الحفير وكاظمة وسائر ما اطمأن له من أرض العراق أن يكونوا على حذر ، وألا يغتروا بما فتح الله عليهم من النصر ، وخرج في جنده إلى الولجة يقاتل جنود كسرى . وكان الفريقان في الغاية من قوة البأس والعزم ، حتى لقد تردد النصر بينهما زمنًا أي الفريقين يصاحب . وكان خالد في عبقرية قيادته قد أمر اثنين من أمراء جنده أن ينفصلوا أثناء السير عنه وأن يكمنوا وراء العدو فيأخذوه أثناء القتال على غرة . لكن هذا الكمين تأخر فلم يظهر ، على حين كانت صفوف المقاتلين من المسلمين ومن عدوهم ترجح متقدمة طوراً ، متراجعة طوراً آخر . وظن الفريقان أن الصبر قد نفذ وأن المعركة لن تنتهي إلى غاية . وإنهم لذلك إذ خرج كمين المسلمين في ناحيتين من وراء جيش كسرى ، في حين كان خالد يشتد في الضغط عليهم من أمامهم . هنالك انهزمت صفوف الأعاجم فولوا وقد أخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم ، فلم ير رجل منهم مقتل صاحبه . ولى الأعاجم وولى العرب الموالون لهم وسيوف المسلمين آخذاً برقابهم ، وجنود المسلمين يأسرون منهم من لم يرد قتيلاً ؛ وسي خالد ذراري المقاتلة ومن أعانهم .

انتصار المسلمين
في الولجة ومغانمهم
منها

بلغت المغانم يومئذ مبلغاً جعل خالد يقوم في الجيش مشيراً إلى ثراء الأرض التي يقاتلون فيها ويقول : « ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب^(١) وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن اثأقل عما أنتم عليه » . أفيضن مسلم بعد هذا الكلام بروحه ! إنه ها هنا يجاهد في سبيل الله ، وينقل المغانم ، وتصبح السبايا ملك يمينه . أليس هذا نعيم الدنيا والآخرة ! من ذا يزهد فيه ! ومن ذا لا يسارع إلى لقاء الله عليه ! ! .

كان هذا شأن العرب ؛ فماذا كان شأن فارس حامية الحضارة في عالم يومئذ ، ومهد الترف والنعمة ، والعلم والفن ؟ إن تعجب لأمر بعد الولجة فلأن

التجهز لغزوة
أليس

(١) الرفغ هنا : الأرض الكثيرة التراب ؛ يقال جاء فلان بمال كرفغ التراب ؛ أي في كثرته .

الذين غلى الدم في عروقهم للهزيمة التي نزلت بهم لم يكونوا الفرس ، بل كانوا بنى بكر بن وائل من العرب . هؤلاء شقّ عليهم أن يغلبهم بنو عمومته من شبه الجزيرة فغضبوا وغضب لهم نصارى قومهم ، فكاتبوا الأعاجم وكاتبهم الأعاجم . فاجتمعوا جميعاً بالليّس على صلب الفرات في منتصف الطريق بين الحيرة والأبلة . وكتب كسرى أردشير إلى بهمن جاذويه أن سير حتى تقدم الليّس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب . ورأى بهمن أن يسير إلى أردشير ليحدث به عهداً ، وليتلقى أوامره ، فقدم جابان أحد القواد وأمره أن يحث السير إلى الليّس وقال له : « كفكيف نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك إلا أن يعجزاك » . وألقى بهمن أردشير مريضاً فأقام إلى جانبه وترك الأمر إلى جابان ولم يبعث له عن مقامه نبأ ولم يحدث له منه ذكراً . وبلغ جابان الليّس فوقف إلى جانب عبد الأسود العجلى أمير الجند على بنى بكر بن وائل ومن نفر معهم من نصارى العرب ، وجعل يدبر وإياه أمر القتال .

لم يقف خالد بن الوليد على نبأ من مسيرة جابان وجنود فارس ، وإنما بلغه ما كان من تجمع العرب النصارى بالليّس ، فخرج في جيشه ومن انضم إليه من عرب العراق ، وكرّ راجعاً إلى الحفير يؤمّن مؤخرته . واطمأن إلى ما أراد ، ثم انقلب مسرعاً يلقي العدو حيث عسكر . ولم ينظر القوم حين بلغ الليّس ، بل دعاهم إلى القتال . وأسرع العرب إلى لقائه ، فلم يمهلهم أن قتل قائدهم مالك بن قيس . ولما رأى جابان صفوفهم تضطرب تقدم بجنود فارس يعززهم ، وهو وجنوده أشد ما يكونون بالفوز ثقة . أليس بهمن قد وعدهم أنه آت إليهم ، فليصبروا للمسلمين وليصابروا حتى يجيئهم المدد ، وليستमितوا في الدفاع عن مواقعهم . ورأى خالد صبرهم وقوة تجلدهم لبأسه ، وإن لم يعرف باعثهم على هذا وذاك . وترجّحت الموقعة حيناً حارله خالد ، فتوجه إلى ربه يستنصره ويقول : « اللهم إن لك علىّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبق منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم ! » . وأنت تعرف معنى هذه الكلمة صادرة من أعماق سيف الله ومن صميم قلبه ، هذا القلب الذى لا يعرف الخوف ولا يهاب الموت

المعركة ترجح
فيستنصر خالد
ربه

ولا يفزع لمراى الدماء. وطال بالفرس وأنصارهم الصبر وبهمن لا يُقبل، ولم يذر خالد أثناء ذلك لوناً من ألوان المداورة التي تفيض بها عبقريته في القيادة إلا ضيق به الخناق على أعدائه ، فلما عيّل صبرهم وتداعت قوتهم ولم يبق لهم من الهزيمة مفر ، تحطمت صفوفهم وانقلبوا على أعقابهم يسارعون إلى الهرب ، ولا مأرب لهم إلا النجاة . ورأى خالد فرارهم ، فأمر مناديه فنادى في رجاله : « الأسر ! الأسر ! لا تقتلوا إلا من امتنع » . ولحق فوارس المسلمين بالفرس وأنصارهم من العرب وجاءوا بهم أفواجاً أسارى يساقون سوق النعَم .

وكان الفرس قد أعدوا قبل المركة طعام غداثهم فأعجلهم خالد عنه ، فلما انهزموا وقف خالد على الطعام وقال لرجاله : « قد نفسلتكموه فهو لكم » . وجلس المسلمون إلى الموائد يتناولون عشاء شهياً رأى الكثيرون منهم فيه عجباً ؛ رأوا الرقاق ولم يكونوا يعرفونه ، فجعلوا يقولون : ماهذه الرقاق البيض ! وجعل من عرفها يجيبهم مازحاً : هل سمعتم برقيق العيش ! فهذا هو . ولذلك سمي الرقاق . أما العرب فكانت تسميه القيرى .

ودعا خالد بالأسرى يستعرضهم اتبر يمينه أن يسجى نهرهم بدمائهم ، ووكل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر بعد أن صد الماء عنه . وأقام الموكلون يضربون يوماً وليلة والنهر لا يسجى دماً . وقال قوم من أصحاب خالد يخاطبونه : « لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم . إن الدماء لا تزيد على أن تترقق ، فأرسل عليها الماء تبر يمينك » . وأمر خالد فأعيد الماء إلى النهر فجرى دماً عبيطاً ، ومن يومئذ سمي هذا النهر : « نهر الدم » . روى الطبرى أنه كانت على النهر أرحاء طحنت في ثلاثة أيام قوت ثمانية عشر ألفاً من الجند والماء من تحتها يتدفق أحمر قانياً .

نهر الدم

لم يكف خالد أن يسجى النهر دماً ، بل قصد إلى بلد قريب من أليشيس يسمى أمغيشيا أو مئيشيا كان مصرأ كالحيرة ، وكان يقع عند منتهى الفرات بنهر بادقلى ، وكان أهله قد اشتركوا في الحرب بضاحية أليس ، فأمر جنده فهدموه وجعلوا عاليه سافله ، وأصابوا كل ما كان فيه وعدوه مغنماً ،

فكان نصيب الفارس منه ألفاً وخمسمائة سوى ما منحه خالد من أحسنوا البلاء في أليس .

وبعث خالد بالأنباء وبخمس النى والسبي إلى أبي بكر مع رجل يدعى جندلا من بني عجل . فلما قصَّ عليه ما حدث وأخبره بفتح أليس وبعد النى وبعدة السبي وبأهل البلاء من الناس وبفعال ابن الوليد ، لم يملك أبو بكر نفسه أن صاح : « عقت النساء أن يلدن مثل خالد ! » . وأمر لجندل بجارية من أليس ولدت من بعد له ، وأمر فأذيعت أنباء النصر في المدينة وفي غير المدينة من بلاد العرب ، واطمأن إلى نصر الله جنوده في العراق ، وإلى أن سيف الله لا غالب له (١) .

ما يهتم به خالد
من الوحشية
ورأينا فيه

يقف بعض المؤرخين عند ما قصصنا من حوادث أليس وأمغيشيا يُبدون الأسف أن يقع من قائد عبقرى كخالد فعال ذلك مبلغها من الوحشية ، ويودون لو أن ما روى عنها غير صحيح ، وإن رجحوا صحته لتضافر رواة المسلمين على ذكره . ولست أقف عند ترجيح ما روى أو عدم ترجيحه . لكنى لا أملك نفسى دون الابتسام حين أرى هذه الفعال تنعت بأنها وحشية . ولست أبتسم إنكاراً لهذا النعت أو استنكاراً له ، وإنما أبتسم لأننى أرى أن كل حرب وحشية ، والحرب مع ذلك مسوغة في نظر الأمم المتحضرة . فإذا كان الالتجاء إلى الحرب مع وحشيتها تسوغه قضية نعتها عادلة ، فتصوير ما يترتب على الحرب الوحشية في أصلها وصميمها بأنه وحشى يدعو إلى الابتسام وإلى أكثر من الابتسام .

والحق أن الحضارة الإنسانية لما تصل إلى المدنية السامية التى تنزهها عن الوحشية وتسمو بها عليها . فهذه الوحشية لا تزال تعد من مقومات الحضارة ، ولا يزال الاستعداد للحرب يعدّ جوهرية في حياة الأمم ، بل جوهرية لحفظ كيانها حتى تكسب المناعة من أسباب الانحلال ؛ فما يلجأ إليه قائد من القواد في أثناء الحرب ، مما يزيد في وحشيتها بعض الزيادة أو ينقص منها بعض النقص ، ليس أمراً ذابال في حياة هذه الإنسانية . وقد اعتاد الناس في مختلف العصور

(١) يذكر الطبرى وابن الأثير وغيرهما أن عدد القتلى من غير المسلمين بلغ في أليس سبعين ألفاً .

أن يعدوا النصر عذراً عن كل ما سبقه . وقد حالف النصر خالداً في كل مواقعه ، فليكن له من انتصاره العذر ، إن لم يكن من التماس العذر بدئاً .

وحسبك لتطمئن إلى هذا العذر أن تعلم أن انتصار خالد وفعاله قد حطمت الروح المعنوية في قلوب الفرس ومن والاهم من العرب ، فانكماشوا ولم يفكر أحد منهم في الثأر بعد أليس ، كما أرادوا من قبل أن يثأروا للمذار وللحفير . بل لقد بلغت هزائم الفرس من نفس كسرى أردشير فلم يُطق أن يقاوم المرض الذي أصابه واستبقى بهمن إلى جواره فوات غمماً وكمداً . وكيف للفرس أو لأوليائهم من العرب أن يفكروا في الثأر ، وقد رأوا المسلمين يحبون الموت حقاً ، ورأوا حبهم الموت يهب لهم الحياة ! ثم رأوا قائدهم وكأنه إله الحرب استحال رجلاً ! أليس خيراً لهم ، وذلك ما تراه أعينهم ، أن يلقوا سلاحهم وأن يسلموا لحكم القدر ! ! .

وذلك ما فعلوا . تشاغل الفرس بموت مليكهم ، وتشتت العرب في البادية وفي جزيرة بين النهرين ، وانقطع كل نبأ عن التهيؤ للحرب أو لإجلاء المسلمين عن البلاد . لكن خالداً كان أحصاف من أن يلهيه سكوتهم أو يُبطره الظفر فلا يرى ما يطوى الغد في ضميره . وقبائل العرب هي التي حرضت الفرس على القتال في أليس . وهذه القبائل إن سكنت يوماً فليتنعذر في غده . فإن لم يقض خالد على كل أمل لهم في الثورة أو في الغدر ، وإن لم يؤمن كل طريق يؤدي إلى شبه الجزيرة ، فلا يلومن إن أصابه المكروه إلا نفسه . والحساب لكل صغيرة وكبيرة لم يفته في يوم من الأيام ، لهذا حسب للموقف حسابه وأحكم تدبيره . وأيسر هذا الحساب أن يحتل الحيرة عاصمة العرب ، وأن يضع يده على منازلهم غرب الفرات إلى حدود شبه الجزيرة .

أثر غزاة أليس
في الفرس وفي
أوليائهم من
العرب

وكان حاكم الحيرة مرزباناً فارسياً يدعى آزاذبه . وكانت عاصمة العراق العربي قد تقلص سلطانها في ذلك العهد ، بعد أن كان قبل خمس وعشرين سنة قوى الجانب مسموع الكلمة . ذلك أن اللخمين الذين أنشأوا الملك في الحيرة منذ القرن الثاني للمسيح وقاموا به قرونًا متوالية ، اختلفوا مع الطائيين اختلافًا أنشب الحرب بينهم . وانتهاز كسرى فرصة خلافهم فنصر الطائيين على

النعمان بن المنذر ثم قبض عليه فحبسه وقتله ، وأقام إياس بن قبيصة الطائي حاكماً للحيرة وما يقع في سلطانها . وبعد سنوات من ولايته هزم بنو بكر بن وائل جيشاً من الفرس يؤيده أنصار إياس بنو قار هزيمة أطاحت بإياساً عن عرشه وطوعت لكسرى أن يقيم مرزباناً من لدنه حاكماً للحيرة . بذلك زال نفوذها وانحل سلطانها . لكن مكانتها في نفوس العرب جعلتهم مع ذلك يرمقونها بعطفهم وينالونها برعايتهم . ولهذا خشى خالد حين رأى حقدهم عليه ، أن يتضافر بنو بكر بن وائل مع الطائيين وسائر العرب المقيمين بالحيرة وفيما حولها لمقاومته أو قطع الطريق عاياه ، فعزم مهاجمتها والاستيلاء عليها واتخاذها مقر قيادته ومصدر نشاطه .

التجهز لفتح
الحيرة

ولم يكن أهل الحيرة في شك من مَقْدَمِهِ عليهم وحصاره إياهم بعد أن استفاضت بينهم أخبار أليس وأمغيشيا وانتصاره عندهما وأفعاله فيهما . وقدّر حاكم الحيرة أنه سيركب إليه النهر متخذاً من سفن أمغيشيا مطية . لذلك نهض آزاذبه في عسكره إلى خارج الحيرة ، وأمر ابنه فسدّ قناطر الفرات ليحول دون مسيل الماء فيما وراءها ، وليعوق بذلك سير السفن إليه .

ولم يخطئ آزاذبه في تقديره ؛ فقد استقل خالد وجيشه سفن أمغيشيا ودفعوها شمالاً إلى ناحية الحيرة . وإنهم لكذلك إذ جنحت السفن وارتطمت بقاع النهر . وريع المسلمون لخنوحها وارتطامها ، وأخذ الغضب من خالد مأخذه . وسأل عن علة ما حدث ، فأجابه الملاحون بأن أهل فارس سدوا القناطر وحولوا الماء ، فلم يبق منه بالنهر ما يحمل سفنهم ، فخرج في كتيبة من فرسانه فلقى ابن آزاذبه على فم العميق ، ففاجأه ورجاله وهم في مأمنهم ، وأعاد الماء يجري في النهر وأقام مع فرسانه يحرسه . وعادت السفن إلى المسير وحملت إليه جيشه فسار به إلى الخورنق حيث أنزله ليُعدّ لفتح الحيرة عُدَّتُهُ .

خالد في قصر
الخورنق

ووضع خالد يده على قصرى الخورنق والنَّجَف ، وكانا مصيف أمراء الحيرة ، في حين عسكر جيشه أمام أسوار المدينة . أما آزاذبه ففر هارباً من غير قتال ، متأثراً بما أصاب ابنه ، وبموت أردشير . ولم يثن فراره أهل الحيرة عن التحصن بقلاع المدينة الأربعة وبأسوارها ، وعن اتخاذ العُدَّة للدفاع عنها

ما وجدوا إلى الدفاع سبيلا .

لكن عُدَّتْهم لم تكن لتُجديهم فتيلًا . فقد أثار الخورنق وأثارت الحيرة خيال الجند المسلمين وبعثت إلى نفوسهم ذكرى النُعمان الأكبر ابن المنذر وذكرى سِنَمَار وما أصابه لبناء هذا القصر المنيف وما قيل من الشعر فيه ، فزادهم ذلك قوة على قوتهم وعزمًا على عزمهم . والقائد النابغة ، ابن الوليد ، سيف الله وسيف دينه الحق ، ما غناء عدة وإن عظمت أمام عبقريته وبأس لقائه ! لقد أبى أهل الحيرة أن يُسلموا وألحوا في إبائهم ، فعهد خالد إلى أمرائه أن يبدعواهم بالدعوة إلى التسليم ، فإن أجابوا إليه قبلوا منهم ، وإن أصروا على الإباء أجَلَّوهم يومًا ثم قاتلوهم وقتلوهم . ودعا أمراء المسلمين زعماء الحيرة إلى إحدى ثلاث : الإسلام ، أو الجزية ، أو المنابذة . واختار الزعماء المنابذة ، ففض الجند عليهم قصورهم وأكثروا القتل فيهم . وكان بأديار الحيرة عدد عظيم من القسيسين والرهبان ما لبثوا حين رأوا المذبحة تصيبهم وتصيب غيرهم أن نادوا : « يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم ! » ورأى أهل القصور المقاومة عبثًا فنادوا : « يا معشر العرب ! قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فكفوا عنا حتى تُبلغونا خالدًا » .

مقاومة الحيرة
تتخطم

وخلا خالد بأهل كل قصر دون الآخر ، وقال لهم : « ويحكم ! أنتم عرب ، فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ » . وكان جوابهم : « بل عربٌ عاربة وأخرى متعربة » . قال خالد : « لو كنتم كما تقولون لم تحادُّونا وتكرهوا أمرنا ؟ » . وأجابوا : « ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا العربية » . قال خالد : « فاختراروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتهم في دياركم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة » . وأجابوا : « بل نعطيك الجزية » .

وعجب خالد منهم لإلحاحهم في نصرانيتهم ، وقال لهم : « تبًّا لكم ! ويحكم ! إن الكفر فلاةٌ مضلةٌ » ، فأحمق العرب من سلكها فلقية دليان أحدهما عربى فتركه واستدل الأعجمى . ولم يغير هذا الكلام من إصرار القوم

على دينهم . ولعلمهم إنما فعلوا متأثرة نفوسهم باعتبار الكرامة الإنسانية التي تحول بين المرء والرجوع عن عقيدة يؤمن بها لأنه غلب على أمره وأكره على تبديل دينه ؛ متأثرة كذلك بأن المسلمين لا يزالون في أول عهدهم بالعراق ، وليس يدرى أحد أيطمنن لهم الأمر فيه أم تُجلبهم الحوادث عنه .

وصالح خالد القوم على الجزية تسعين ومائة ألف درهم ، وكتب بينه وبين نقبائهم عدى وعمرو ابني عدى وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى ابن أكال كتاباً عاهدتهم فيه برضا أهل الحيرة وأمرهم على هذه الجزية ، تقبل في كل سنة على أن يمنعهم ، فإن لم يمنعهم فلا جزية عليهم . أما إن غدروا بفعل أو قول فدمتته منهم بريئة .

وأهدى القوم إلى خالد هدايا بعث بها وبنياً الفتح والمعاهدة إلى أبي بكر ، فأجاز المعاهدة وقبل الهدايا ، لكنه احتسبها من الجزية وكتب بذلك إلى خالد (١) .

ويروى المؤرخون عند ذكرهم نبأ الصلح قصة طريفة وإن ران الريب على حوادثها ؛ ذلك أن خالداً أبى أن يكتب مع القوم عهداً إلا أن تُسلم كرامة بنت عبد المسيح أخت عمرو إلى شُوَيْل (٢) . وهو إنما أصر على ذلك

(١) يجمع المؤرخون على قصص يروونها عن عمرو بن عبد المسيح ، وكان يسمى بقبيلة لأنه خرج على قومه في بردين أخضرين فقالوا له : يا حار ، ما أنت إلا بقبيلة خضراء . قيل كان بقبيلة أول من طلب الصلح ففوضه فيه قومه . وسأل خالد بن الوليد عمراً : كم أنت عليك ؟ قال : متوسنين . قال : فما أعجب ما رأيت ؟ قال : رأيت القرى منظومة بين دمشق والحيرة تخرج المرأة من الحيرة فلا تزود إلا رغيفاً . فتبسم خالد وقال : هل لك من شيخك إلا عقله ، خرفت والله يا عمرو ! ثم أقبل على أهل الحيرة فقال : ألم يبلغني عنكم أنكم خبثة خدعة مكرة ! فما لكم تتناولون أموركم بخوف لا يدرى من أين جاء ! فتجاهل عمرو وأحب أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله ويستدل به على صحة ما روى عنه فقال : وحقك أيها الأمير إني لأعرف من أين جئت ، قال خالد : فن أين جئت ؟ قال : من بطن أمي . فقال : فأين تريد ؟ قال : أمامي . قال : وما هو ؟ قال : الآخرة . قال : فن أين أقصى أثرك ؟ قال : من صلب أبي . قال : فقيم أنت ؟ قال : في ثيابي . قال : أتعقل ؟ قال : أي والله . فلما رأى خالد حصافته قال : قتلت أرض جاهلها وقتل أرضاً عالمها والقوم أعلم بما فيهم . قال عمرو : أيها الأمير . النملة أعلم بما في بيتها من الحمل بما في بيت النملة .

(٢) والبلاذري يذكر أن اسم الرجل خريسم .

قصة شويل
وكرامة بنت
عبد المسيح

لما قيل من أن شويلا هذا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر فتح الحيرة فسأله كرامة ، فقال له : « هـى لك ، إذا فتحت عنوة » . وكانت كرامة بارعة الجمال فى صباها ، وكان شويل قد رآها فى شبابه فجنّ بها وأقام يهرف بها دهره . أما وقد طالب بها فما كان لخالد إلا أن ينفذ وعد رسول الله .

وشق هذا الأمر على أهلها وأعظموا الخطر ؛ فقالت لهم « هونوا عليكم وأسلموني فإنى سأفتدى . وما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ! إنما هذا رجل أحق رآنى فى شبيبتي فظن أن الشباب يدوم ! » . ودُفعت إلى شويل ، فقالت له : « ما أربك إلى عجوز كمتري ؟ فادنى » قال : « لا ، إلا على حكى » . وقالت : « فلك حكمك مرسلا » ، قال : « لست لأم شويل إن نقصتك من ألف درهم » . وتظاهرت كرامة باستكثار المبلغ لتخذه ، ثم أتته به ورجعت إلى أهلها . وسمع أصحاب شويل بما صنع فسخروا منه لقلّة الفداء وعنفه بعضهم ؛ فكان اعتذاره : « ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف » ، وشكا أمره إلى خالد ، وقال : « كانت نيتى غاية العدد » . قال خالد : « أردت أمراً وأراد الله غيره . نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك كاذباً كنت أو صادقاً » .

ولما تم لخالد فتح الحيرة صلى صلاة الفتح ثمانى ركعات لا يسلم فيها . فلما أتمسهن انفتل إلى أصحابه يقول : « لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع فى يدي تسعة أسياف ، وما لقيت قوماً كمن لقيتهم من أهل فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل ألبيس » .

وأقام خالد بالحيرة وجعلها مركز قيادته ، فكانت أول عاصمة إسلامية خارج بلاد العرب . على أنه ترك أمر إدارتها لزعماء من أبنائها . لذلك اطمأنوا إلى حكمه ، ونشروا حولهم جواً من السكينة إليه . ورأى أهل البلاد القريبة من الحيرة عدلاً شاملاً ، ورأوا بلاط فارس مشغلاً عنهم ، ففكروا فى مصالحه خالد والانضواء للوائه . أليس قد ترك الفلاحين يعملون فى الأرض لم يتعرض لهم ، بل رفع عنهم ما كان نازلاً بهم من ظلم دهاقين الفرس ، وحفظ عليهم كل حقوقهم ؟ وكان أول من صالحه صلوبا بن نسطونا صاحب قسّ النساطيف

خالد يتخذ الحيرة
مركز قيادته

على بانقيا وبسما ، وكتب معه عهداً على الجزية والمنعة لقاء عشرة آلاف دينار في كل سنة ، القوي على قدر قوته ، والمقل على قدر إقلاله . وختم هذا العهد بالعبارة الآتية وجهه فيها الحديث إلى صلوبا : « وإنك قد نقبت على قومك وإن قومك قد رضوا بك ، وقد قبالت ومن معي من المسلمين » .

صلح البلاد
القريبة من
الحيرة مع خالد

وأسرع غير صلوبا من الدهاقين إلى مصالحة خالد على ما بين الفلاليج إلى هُرْمُزْ جِرْد على ألني ألف . بذلك بلغ سلطان خالد إلى شاطئ دجلة ، وجعل عماله يقتضون الجزية في هذه البلاد جميعاً ما بين الخليج الفارسي جنوباً إلى الحيرة شمالاً ، ومن حدود بلاد العرب غرباً إلى دجلة شرقاً .

وأقام خالد فيالق من جيشه في أماكن حصينة ليمنعوا من أجارهم من عدوان غيرهم عليهم ، وليكون مُقامهم في مختلف المواطن مظهر السلطان الإسلامي بين أهل البلاد . ولقد كان لتوزيع هذه القوات في مواطن حصينة أثره الحاسم في القضاء على كل تفكير في الفتنة ، وفي توطيد الأمر للمسلمين لا ينافيهم فيه منازع .

الاضطراب في
ملك فارس

ولما خشي خالد ثورة الفتنة من ناحية القبائل العربية . أما الفرس فكفاهم أن بقيت المدائن بعيدة عن غزو المسلمين ، ثم كفاهم ما كانوا فيه من اضطراب حال بينهم وبين التفكير فيما عداه . فقد قتل شيري بن كسرى وخلفاؤه كل وارث للعرش من أبناء كسرى وبهترام جور ، فلم يجد الفرس من يملكونه عليهم وتجتمع الكلمة حوله . وتعاقبت على العرش أميرات زدنه ضعفاً على ضعف . لهذا قنع الأعاجم بأن تظل عاصمتهم آمنة بما أقاموا حولها من قوات اتخذت نهر شير الذي يصل بين دجلة والفرات معقلاً لها ، في حين ظل ملكهم فيما هو فيه من فساد واضطراب .

وما كانت هذه القوات الفارسية لتصد خالداً عن مهاجمتهم لولا أوامر أبي بكر إليه ألا يبرح الحيرة أو يوغل في الفتح حتى يدركه عياض بن غنم ليحمي ظهره . وقد بقي عياض بدومة لم يستطع التغلب على أهلها من يوم خرج إليهم . لذلك أقام خالد سنة كاملة بعاصمته الجديدة ، ويكاد يُعده عن ميادين القتال يقتله . ولطالما قال لأصحابه : « لولا ما عهد إلى الخليفة لم

أَتَنَقَّدَ عِيَاضاً ، وما كان دون فتح فارس شىء . إنها لسنة كأنها سنة نساء! . ثم إنه غلبه السأم ، فدعا إليه من أهل الحيرة رجالا دفع إليهم كتابين ، أحدهما إلى ملك فارس ، والآخر إلى مرازبتها في أولهما : « الحمد لله الذى حل نظامكم ، ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم . فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ، ونجوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون ، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » . وجاء في الثانى : « أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية ، وإلا فقد جثتكم يقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » .

سَامُ خَالِدٍ وَتَحْدِيهِ
مَلُوكُ فَارِسَ
وَمَرَاذِبَتِهَا

ماذا عساه يفعل بعد هذين الكتابين وأوامر أبى بكر إليه صريحة ، « ورأى الخليفة - فى تعبير خالد - يعدل نجدة الأمة ؟ ! » . لقد حرّم أبو بكر عليه المدائن قبل أن يدركه عياض . أو لا يجد فيما سوى المدائن رياضة لنشاطه الحربى تتفق وأوامر الخليفة ؟ ! نعم ! فهؤلاء هم الفرس قد أقاموا كتائب فى الأنبار وعين التّمر على مقربة من الحيرة ، وقد تسول لهذه الكتائب نفسها أن تهدد المسلمين فى مستقرهم الحديد . فليتمحرك خالد إليهم وليقض عليهم ، وليجعل لنفسه من ذلك رياضة عن سنة النساء التى قضاها قاعداً لا يقاتل ولا يقتل . وترك القعقاع على الحيرة ، وجعل على مقدمته الأقرع بن حابس وسار على شاطئ الفرات يبدأ بالأنبار .

ونزل خالد فحاصر المدينة ، وأمر جنده فرشقوا رجالها بالنبل . لكنها ظلت متحصنة بأسوارها وبالحندق العميق الذى حفر حولها . وخالد قائد لا صبر له دون النصر . لذلك طاف بالحندق ، حتى إذا كان عند أضيق مكان منه أمر بالإبل الضعاف فنحرت وألقيت فى أعماقه فطمّته ، واقتحم الحندق من فوقها إلى الأسوار فحطموا أبوابها ، وكانوا على أهبة الدخول إلى المدينة يمعنون فيها قتلاً وسبيّاً ؛ لكن قائدها الفارسى شيرزاد أرسل إلى خالد أنه قبل مطالبه فى الصلح على أن يُلحقه بمأمنه فى كتيبة من خيل ليس معهم من المتاع والأموال شىء . وقبل خالد وسرّخ شيرزاد ، ودخل الأنبار واستقرّ بها وبصالح من حولها ، واستتب له الأمر ، وتم له بعض ما أراد من رياضة عبقريته على القيادة .

خالد يسير إلى
الأنبار ويستولى
عليها

ثم يسير إلى عين
التمر فيحاصرها
ويفتحها

اطمأن الأمر لخالد في الأنبار وما حولها ، فاستخلف عليها الزبير بن
ابن بدر ، وقام في جنوده يقصد عين التمر على شفا الصحراء بين العراق وبادية
الشام فبلغها في ثلاثة أيام . وكان مهران بن بهرام جوبين حاكم عين التمر من
قبل فارس ، وكان حوله فيها جميع عظيم من العجم ، وإلى جانب هؤلاء
الأعاجم أقام عشير عظيم من قبائل البادية ، بنى تغلب والنَّسَم وإياد يرأسهم
عقَّة بن أبي عقبة والهذيل ومن كانوا معهم على قيادة الجنود التي نفرت مع
سجاح لتغزو المسلمين بالمدينة . ورأى أهل عين التمر مقدم خالد عليهم ،
فقال عقَّة لمهران : « إن العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالد ! » وابتسم
مهران وقال : « صدقت ! لعمرى لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا في قتال
العجم ؛ دونكموهم ! وإن احتجتم إلينا أعناكم » . ولم يفتن بعض الفرس
لخدعة مهران وخالوا كلامه عجزاً فلاموه عليه فأجابهم : « دعوني ، فإنني لم أرد
إلا ما هو خير لكم وشر لهم . إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وقلَّ حدكم ،
فاتقيته بهم . فإن كانت لهم على خالد فهي لكم ، وإن كانت الأخرى لم يبلغوا
منهم حتى يهينوا فنقاتلهم ونحن أقوى وهم مُضْعَفُونَ » .

شدة خالد في
معاملة المدافعين
عن عين التمر

ونزل عقَّة لخالد على الطريق وحمل بجناحه على جيش المسلمين ، فأسرع
خالد إليه فاحتضنه فأخذه أسيراً ، فولَّى البدو منهزمين من غير قتال . وتعقبهم
المسلمون فأكثروا الأسر فيهم في حين نجا الهذيل ومن معه من أمرائهم .
ولم يلبث مهران حين رأى من الحصن ما يحدث أن فرَّ في جنده وترك الحصن
تحميه الكتائب التي امتنعت فيه ، وتحميه فلول البدو التي عادت هزيمة
إليه . ورأى مَنْ بالحصن أن لا طاقة لهم بخالد ، فسألوه الأمان فآبى إلا
أن ينزلوا على حكمه . وأجابوه إلى ما طلب وفتحوا له أبواب الحصن ، فاعتقلهم
وأمر بعقَّة فضرب عنقه ، ثم ضرب أعناق المقاتلة بالحصن وسبي نساءهم
وغنم أموالهم .

ويُفسر الرواة شدة خالد في هذا الموقف بأن أعداءه قتلوا عَسِيرًا الصحابي
كما قتلوا أحد الأنصار غدراً ؛ ويرى بعضهم أن هذه القسوة أورثت عرب
العراق حقداً على خالد كان ذا أثر في الانتقاص الذي حدث بعد ذهابه
لفتح الشام .

وكان بالحصن بيعةٌ يتعلم الإنجيل فيها أربعون غلاماً عليهم باب مغلق .
وقد كسر خالد الباب عليهم وسأهم : ما أنتم ؟ قالوا : رُهْنٌ ، فقسمهم فيمن
أحسنوا البلاء . وأكبر الظن أن ما كانوا يتعلمونه في هذه البيعة كان عظيم
الحدوى ؛ فقد نشأ منهم سيرين أبو محمد بن سيرين فقيه البصرة ، ونُصَيْر
أبو البطل الفاتح موسى بن نصير فاتح الأندلس .

ولما أتم خالد فتح الأنبار وعين التمر بعث إلى أبي بكر بالأخماس والأنباء
مع الوليد بن عقبة . وقص الوليد على الخليفة ما حدث . ولعله قص عليه سأم
خالد سنة مُقامه بالحيرة وقوله للمسلمين : «لولا ما عهد إلى الخليفة لم أتنقذ
عياضاً، وما كان دون فتح فارس شيء ! إنها لسنة كأنها سنة نساء!» وكان أبو بكر
من جانبه قد بدأ يسأم موقف عياض ويرى فيه ما يضعف الروح المعنوية
للمسلمين . ولولا فعال خالد بالعراق لأزرى هذا الموقف بهم ، ولأغرى
خصومهم بالانتقاض عليهم ومحاولة النيل منهم . فلما سمع قصص الوليد عن
خالد وسأمه أمر الوليد أن يتوجه مدداً لعياض بدومة الجندل . وألنى الوليد عياضاً
يحاصر القوم ويحاصرونه وقد أخذوا عليه الطريق ، ولم يجد بعد مداولة الرأي معه
وسيلة تُنقذه من هذا الموقف . هنالك قال له : «الرأى في بعض الحالات خير
من جند كثيف . ابعث إلى خالد فاستعده» .

أبو بكر يمد
عياض بن غم
بالوليد بن عقبة
لفتح دومة الجندل

وما كان لعياض أن يتردد في قبول المشورة وقد بقي سنة كاملة لا يقوى
على خصومه ولا يبلغ منهم . وبعث إلى خالد رسولا أدركه غداة فراغه من عين
التمر . فلما فض خالد كتاب عياض ورأى ما فيه تهلل وأخذ منه الطرب ورد
الرسول لساعته يحمل كتاباً منه إلى عياض يقول فيه :

إياك أريد .

لَبَّثَ قَلِيلاً تَأْتَاكَ الْحَلَاثِبُ يَحْمِلُنَ آسَاداً عَلَيْهَا الْقَاشِبُ (١)
كُتَائِبُ تَتْبَعُهَا كُتَائِبُ

وخفّة خالد لنجدة عياض وهذه الشطرات من الرجز تقطع في الدلالة
على ما قدمنا من أن سأمه سنة النساء وبُعده عن ميادين القتال كادا

(١) القاشب : السيف الصقيل المجلو .

يقتلانه ، كما تدل على أن الأنباروعين التمر لم تشفيا غُلَّتَه ، ولم تكفياً رياضة لعبقريته الجبارة .

ابن الوليد يسرع
السير إلى دومة

ونخلف خالد عويم بن الكاهل الأسلمي على عين العمر وخرج في جنده يسرع إلى دومة جهده . وكان بين دومة الجندل وعين التمر ثلاثمائة ميل قطعها خالد في أقل من عشرة أيام ، اجتاز خلالها بادية الشام وصحراء النفود ، منحدرًا من الشمال إلى الجنوب ، مستعرضًا خطر الصحراء ورمالها السافية بعزم لا يعرف الخطر . فلما كان قريبًا من دومة وتسامعت القبائل بمقدمه بهتت ، ثم اختلف زعماءها بينهم ما يصنعون .

وكانت القبائل المعسكرة بدومة في ذلك الحين أضعاف عددها يوم جاءها عياض قبل عام . ذلك أن بني كلب وبهراء وغسان نفروا من العراق ونفر معهم غيرهم منحدرين إلى دومة يريدون أن يثأروا من عياض لهزائمهم أمام خالد . وكان مجيئهم مما زاد موقف عياض حرجًا . وكان أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة هو الذي انتقض على سلطان المدينة ، وهو الذي دفع أبا بكر ليبعث إليه عياض يرده بالسيف عن انتقاضه . ولم يكن أحد من أهل هذه القبائل أعرف بخالد من أكيدر ؛ فهو لم ينس عام تبوك ورجوع رسول الله منها إلى المدينة ، وانقلاب خالد بن الوليد بأمر الرسول إلى دومة في خمسمائة فارس وانقضاضه عليه وأخذه إياه أسيرًا ، وتهديده إياه بالقتل إن لم تفتح دومة أبوابها . وهو لم ينس كيف فتحت دومة الأبواب فداءً لأميرها ، وكيف ساق خالد منها ألني بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بُرٍّ وأربعمائة درع . ولم ينس أخذه إياه إلى المدينة حيث أسلم وحالف رسول الله . لم ينس أكيدر هذا كله . لذلك لم يلبث حين عرف مقدم صاحبه أن توجه بالقول إلى الجودي بن ربيعة أمير القبائل التي انحدرت تنصر دومة وتثار من عياض ينصحه أن يصالح خالدًا . قال : « أنا أعلم الناس بخالد ! لا أحد أئمن طائرًا منه ولا أحدًا في حرب . ولا يرى وجه خالد قوم أبدًا كثروا أو قلوا إلا انهزموا عنه . فأطيعوني وصالحوا القوم » .

صاحب دومة
ينصح القبائل
بمصالحة خالد

أبت القبائل رأى أكيدر فقال لهم : « لن أمالككم على حرب خالد ،

فشأنكم » وخرج لطَّيْتَه يلقاه . وتختلف الرواية فيما أصابه حين أدخل على خالد : يقول بعضهم أمر به خالد فـضُرب عنقه ، ويقول آخرون بل أسر وأرسل إلى المدينة ثم سرَّحه عمر في خلافته ، فذهب إلى العراق وأقام على مقربة من عين التمر بمكان أسماه دومة .

ومضى خالد فجعل دومة بين عسكره وعسكر عياض بن غنم . وكان الجودي بن ربيعة قد بقى على أهل دومة ، في حين ترأس كل قبيلة من القبائل التي أمدت دومة زعيمها . وقد ضاق حصن دومة بهذا العدد ، فأقام سائر القوم حوله يحيطون به . واستفتح الفريقان القتال ، فلم يلبث الجودي أمام خالد إلا قليلاً ثم أخذه خالد أخذاً ؛ وأخذ الأقرع بن حابس زميله على أهل دومة ، وهزم عياض من يليه من جند القبائل . عند ذلك أسرع القوم جميعاً إلى الفرار يريدون دخول الحصن والاحتباء به . فلما امتلأ أغلق من فيه أبوابه دون أصحابهم وتركهم عرضة للمسلمين يقتلونهم ويأسرون منهم من يشاءون .

وأقبل خالد فقتل الذين ظلوا خارج الحصن حتى سدَّ بهم بابه ، ودعا بالجودي فضرب عنقه ، ودعا بالأسرى فضرب أعناقهم ، إلا أسرى كلب فإنه أطلقهم على كره منه أن أجارهم الأقرع وعاصم . قال هذان لخالد . « قد آمنّاهم » ، فأطلقهم وهو يقول : « مالي ولكم ! أتحتفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام ! » .

وطوّف خالد بالحصن ، حتى إذا كان عند بابه أمر به فاقتلع ، واقتحم المسلمون على من فيه فقتلوا المقاتلة وسبوا النساء وباعوهن خير المشتري ، واشترى خالد أجمل فتاة فيهن ابنة الجودي بن ربيعة وأقام معها بدومة ، وردّ الأقرع ابن حابس إلى الأنبار .

خالد يحاصر
حصن دومة
ويقتله ويقتل
المقاتلة ويسبي
النساء

ما عناية المسلمين بدومة الجندل كل هذه العناية ؟ وما حرصهم على الاستيلاء عليها كل هذا الحرص ؟ ! لقد رأيتهم على عهد الرسول تتجه أنظارهم إليها ، ثم يحالفونها ويضمونها إليهم . وما هم أولاء في عهد أبي بكر يقضون سنة أمام حصونها ، ثم لا ينفكون عنها حتى تدين لهم وتعود إلى سلطانهم ، ولعلك عرفت الجواب من خلال هذا القصص : فدومة كانت تقع على رأس

سبب عناية
المسلمين بدومة

الطريق الذى يؤدى إلى الحيرة وإلى العراق ، وعلى أبواب وادى سرحان الذى يؤدى إلى الشام. فطبيعى أن تنال من عناية رسول الله ما نالت حين كان أكبرهمه إلى تأمين الحدود ما بين الشام وشبه الجزيرة . وطبيعى أن تنال مثل هذه العناية من أبى بكر وجنوده تقاتل بالعراق وتقف على تخوم الشام . وتلك هى العلة فى أن عياضاً لم يبرحها على طول ما أقام أمامها ، وفى أن خالداً خف إليها أول ما استشير فى الوسيلة للتغلب عليها ، ولو أن دومة لم تُدْعَن للمسلمين ولم تخضع لسلطانهم لبقى أمرهم فى العراق تحت رحمة المقادير ، ولما استطاعوا فتح الشام .

ولنقف الآن هنيهة مع خالد بدومة نسأله : ما سرّ هذه الموهبة التى جعلت النصر طوع يده ، بل جسمت النصر فى شخصه وجعلته مثاله ، فلو أنه عاش بين اليونان الأقليميين لأسموا إله النصر خالداً ؟ ! . أترأه يجيبنا ؟ ما أظن ! وهو لا يضمن بالجواب استكباراً ، بل لأنه لا يعرف هذا السر أكثر مما نعرف . فهذا السر يتصل بالروح ، والروح من أمر ربى ، وخالد مثلنا لم يؤت من العلم إلا قليلاً . ومتى عرف صاحب موهبة مكانها من نفسه ومصدر نبعها من روحه ؟ ! إنما هو فيض من فضل الله يتجلى به على من يشاء من عباده ، فإذا هذا خالد بن الوليد وذاك عمر بن الخطاب ، وغيرهما ابن سينا ، وابن رشد ، ورفائيل وبتوفن ، وشكسبير ، والمعرى ، وشوقي . وهذا الفيض الإلهى الذى يتصل بروح عبد من خلق الله هو الذى يسمو به وبالأمة التى ينشأ فيها إلى حيث يريد الله . فإذا التقت تيارات الفيض فى زمن واحد وفى أمة واحدة ما التقت فى أبى بكر وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ومن عاصرهم وعمل معهم ، سمت فى فترة وجيزة من الزمن إلى حيث سمت الأمة الإسلامية فى سنوات معدودة ، فانتقلت فى أقل من جيل من بداوة شبه الجزيرة إلى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف المتغلغلة بسلطانها الروحى فى أعماق النفوس ، التى حملت عبء الحضارة عن العالم كله عشرة قرون تباعاً حتى احتملته أوربا ولا تزال تنهض بعبئه إلى اليوم .

والناس يشعرون بسلطان هذه المواهب فتعنو لها وجوههم ، فإذا ارتحل الصديق أبو بكر

عنهم صاحبها خلا لهم الجوف فرفعوا رؤوسهم وحاولوا الظفر بحريتهم . وكذلك صنع أهل الحيرة وغيرهم من أهل العراق في غيبة خالد بدومة . ظن الأعاجم ومن ناصرهم من العرب أن الحظ موات والفرصة سانحة ، وخيّل إلى بني تغلب أن الثأر لمقتل عقبة قد حان . ولم يكن في طاقة القعقاع إلا أن يحمي ما كسب المسلمون فلا يدع من وراء حدودهم يتقدم إلى غزوهم . وبلغت خالداً هذه الأنباء فلم يطق البقاء بدومة بل خرج وعلى مقدّمته الأقرع بن حابس ومعه عياض بن غنم . وما لبث حين بلغ الحيرة أن جعل عليها عياضاً ، ووجه القعقاع إلى الحُصَيْد حيث تواعد الثائرون من العرب والفرس . أما هو فأقسم لبيغتن تغلب في دارها .

أهل العراق
ينهبون الفرصة
لغياب خالد
فيثورون

ولقد كفى أن علم أهل العراق بمقدمه فأسقط في أيديهم وتنكّر وجه الحظ لهم ، وخاب ما ظنوا أن هؤلاء الغزاة من شبه الجزيرة سيرحلون عنهم كما رحل من قبل أمثالهم . وبدأ ذلك كله واضحاً في وجوههم حين خرج القعقاع إلى استقبال خالد بظاهر الحيرة . فقد وقف في طرقاتها رجال من أهلها يرون جيش المسلمين يمر بهم فيقولون لأصحابهم إذا رأوهم : مرّوا بنا فهذا فرح الشر .

عود خالد إلى
العراق وفعاله فيه

وسار القعقاع إلى حُصَيْد وقد أمدّه خالد من روحه بقوة على قوته ، فلم يثبت له العجم بل قُتل قائدهم ، وفرّ جيشهم ، وغنم المسلمون ما شاء الله أن يغنموا . وخيل إلى الفارين أنهم يستطيعون التحصن ببلدة الخفافين مع من بها من العجم . لكن قائدها فرّ أول ما سمع بمقدم جيش المسلمين ، فلم يلق هذا الجيش من يحاربه . وانتهى خبر ذلك كله إلى خالد ، فكتب إلى قواده فواعدهم ليلة وساعة يجتمعون فيها ببلدة المُصَيَّخ ، منازل هذيل الثائرة بهم . واجتمعوا ليلة موعدهم وأغاروا على هذه القبائل وهم نائمون ، فلأوا الفضاء بقتلاهم ، حتى كأنهم غنم مصرّعه .

وقتل بالمُصَيَّخ رجلاً من المسلمين معها من أبي بكر كتاب بإسلامهما ، فلما بلغ مقتلهما أبا بكر وداهما . لكن عمر أخذها على خالد وأضافها إلى قتل مالك بن نويرة . وكما دافع الصديق عن ابن الوليد في الأولى دافع عنه في هذه

بقوله عن الرجلين . « كذلك يلتقى من ساكن أهل الحرب » .

وان لخالد بعد المصبيخ أن تبرّ يمينه ليبيغن تغلب في دارها . لذلك تقدم إلى قائديه التمتع وأبى ليلى أن يرتحلا أمامه ، وواعدهما الغارة على التغلبين في ليلة عيّنهما . واجتمع القواد الثلاثة من ثلاثة أوجه فجردوا السيوف ، فلم يقات من جيش بنى تغلب مخبر . وأخذ خالد السبي والمغانم ، فبعث بالخمسة إلى أبي بكر مع النعمان بن عوف الشيباني . وقد اشترى على بن أبي طالب من السبي صابحة بنت ربيعة بن بُجَيْر التغلبي فولدت له عمر ورقية .

ذاعت أنباء خالد وشنّه الغارة على القبائل ليلا في منازلها ، وأخذته النساء والبنات سبيات منها ، وقسمته المغانم والسبي بين عسكره ، وعجز القبائل جميعاً عن مقاومته ، ففت ذلك في أعضاء رجال البادية بالعراق ، فألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان ، وجعل خالد يسير شمالاً على شاطئ الفرات وفيما حوله ، فلا يلتقى إلا الإذعان والإيمان بعبقريته . فلما بلغ الفراض ، وهي تخوم العراق والشام ، نزلها بجيشه وأفطر بها رمضان في تلك السفرة التي اتصت له فيها الغزوات والأيام ونظمت نظاماً .

ولننزل مع خالد الفراض نستجم قليلاً . فالفراض هذا أدنى إلى شمال العراق وشمال الشام . فلو أن عياض بن غنم ساعفه الحظ فأخضع دوة أول ما ذهب إليها لما كان هذا الشمال الذي بلغه خالد هو الذي عناه أبو بكر حين أمر عياضاً أن ينزل العراق من شماله ، إنما كان مقصد المصديق إلى شمال الحيرة . أما أن تبلغ جنوده تخوم الشام من أعلاه فتلك معجزة لم يفكر الخليفة فيها ، وهي معجزة لم يؤتها إلا الذي عقدت النساء أن يلدن مثله . وأية معجزة كمواجهة الروم من تخوم فارس ! وأية جرأة كمقام خالد بالفراض شهراً كاملاً وليس بينه وبين جيوش الروم المعسكرة بالشام غير مجرى الفرات ! أولاً يخشى أن تضيق هذه الجيوش صبراً بمرآه فتنازله فيتضاعف بذلك عدوه ؟ وأى عدو ! فارس من الشرق ، والروم من الغرب ، وقبائل البدو الحاقدة المخنقة من كل جانب . أليس خيراً له وقد قضى على ثورة العراق أن ينسحب إلى الحيرة وأن يقيم بها فيوطد ملك المسلمين فيها ! ! .

خالد يبلغ الفراض
على تخوم العراق
والشام

كلا ! لئن فعل ليكونن السياسى الذى يريد أن يجعل الزمن من جنده ، والصبر من أعوانه . وخالد أضيق صدرًا بالزمن وأكثر ازدراء للصبر وأشد مقتًا للسياسة المحاولة المطاولة من أن يمر شيء من ذلك بخاطره . وما الفرس وما الروم وما رجال البادية وما جموعهم وإن زحرت أمام نظرته القوية الصارمة التى تلقى الرعب فى القلوب فتهاز الميادين وتبطش بالدول أسرع البطش ! . إنه مقيم ها هنا بالفراض ، وللروم رأيهم إن شاءوا مصادولته .

ولمّا تكن الروم قد ذاقت بأس خالد . لذلك أغاظهم أن يقيم جيش المسلمين فى وجوههم وأن يطيل المقام ، وثارت فى عروقهم حمية أذكاهم الفرس والعرب الذين ذاقوا من نكال خالد أهوالا . فقد كان للفرس كتائب قريبة من الفراض ، وأهل البادية من تغلب والنمر وإياد منتشرون فى كل مكان . هؤلاء وأولئك انضموا للروم وحرصوهم وأمدوهم ، فساروا حتى إذا لم يبق إلا الماء بينهم وبين خالد بعثوا إليه يقولون : إما أن تعبروا إلينا ، وإما أن نعبر إليكم . قال خالد : بل اعبروا إلينا . وفيما يعبرون صفّ صفوفه ودبر خطته . وقالت الروم لحلفائهم : امتازوا حتى نعرف اليوم ما يكون من حسن أو قبيح من أيّنا يحىء . والتقى الجمعان وقد أمر خالد رجاله أن يامحوا عليهم ولا يرفهوا عنهم ؛ فكان صاحب الخيل يحشر منهم الزمر برماح أصحابه ، فإذا جمعوهم قتلوهم . على أن مقاومة الروم وحلفائهم تؤذّن بالمعركة أن تطول ؛ لذا أبدع خالد ألوانًا من المداورة فى القيادة لم يعهد لها أعداؤه من قبل فلم يثبتوا لها . وانكشف الروم وحلفاؤهم مدبرين والمسلمون من ورائهم يمعنون فيهم قتلا . وبلغ من ذلك أن قتل بالفراض فى المعركة وفى الطلب مائة ألف فى رواية جميع المؤرخين .

غزوة الفراض

انتصار المسلمين
الحاسم فى وقعة
الفراض

أقام خالد على الفراض بعد الموقعة عشرة أيام ، ثم أذنّ فى الناس بالرجوع إلى الحيرة ، وكان أذانه ذاك لخمس بقين من ذى القعدة من السنة الثانية عشرة للهجرة .

ترى أيعود خالد مع الجيش يستقر بالعاصمة الجديدة ؟ ! .
إن عليه لله دينًا يجب قبل كل شيء أدائه . وهو قد شعر بعد الفراض بجلال هذا الدين وبأنه لم يعد فى وسعه إرجاؤه . لقد فتح الله عليه اليمامة ، ثم

فتح عليه العراق ؛ وأدال له من دولة كسرى ، وبشره في الفراض بإدالة الروم ودولتهم . لله الحمد على ذلك كله ألف حمد ، جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه ! ترى أو يكفي الحمد ويجزئ الثناء عما أنعم الله به عليه ؟ أو ليس فرضاً لله عليه أن يحج بيته ، يزيده تبارك وتعالى حمداً وشكراً ، ويستغفره عما فرط منه ، إنه هو الغفور الرحيم ! ! .

وتجسم الشعور بهذا الواجب في نفس خالد بعد موقعة الفراض ، وجعل يزداد في العشرة الأيام التي قضاها بها ، ثم صار قوة قاهرة لا فكاك له منها ولا سلطان له عليها ، بل صار أمامها أضعف من جيش الروم ومن جيش الفرس أمامه . لم يرغب عنه ما يهني بعده عن العراق من فرص للفرس يحركون أثنائها أسباب الفتنة ويشجعون بها عوامل الانتقاض والثورة . ذلك أمر يجب لا ريب اتقاؤه . لكنه لن يردّه بحال عن عزمه ولن يصرفه عن أن يؤدي لله دينه .

ولا سبيل إلى اتقاء هذا الأمر إلا أن يحج خالد وأن يعود إلى العراق ، ثم لا يعلم بذلك أحد إلا أصفياؤه الذين يخرجون معه . لكن ! أليس واجباً عليه أن يبلغ الخليفة وأن يتلقى أوامره ! فإن أبي عليه الخروج كان له عند الله عذره . وهبه أجازه ثم حدث ما يخشى وانتقض العراق فأى خير للإسلام في أن يعود بعد حجه يجاهد كما جاهد بعد دومة ! وإن لم يجزه الخليفة لم يسترح ضميره لنكوله . ليس له إذن إلا أن يمضي في عزمه وأن يتم حجه في سر من أبي بكر ومن الناس جميعاً . وإنه لو اتق أن الصدّيق سيلتمس له عن صنيعة عذراً ، وأن الله سيكتب له بحجه أجراً .

حج خالد في سر من الناس

أمر خالد الجيش إذن أن يعود إلى الحيرة متمهلاً وأظهر أنه في الساقة ، وخرج في نفر من أصحابه ينهب الأرض إلى مكة ، متخذاً أكثر الطرق استقامة وإن كان أشدها وعورة . ومتى صده الوعر عن شيء ؟ ولم يحتج سلوك هذا الطريق إلى دليل يهديه . وما حاجته إلى دليل وهو من أبناء مكة يعرف ما يعرفون من طرق بلاد العرب لتجارتهم ، وهو قائد جاب أرجاء البادية جميعاً وعرف أوديتها وكثبانها ، سهولها ونجودها ! . وبلغ مكة وأتم فرائض الحج وأدى لله دينه ؛ ثم عاد أدراجه لم يعلم بمقدمه إلى مكة أحد من الألو

الذين قدموا إليها ، ولم يعلم به أبو بكر ، وفي رواية أنه كان بمكة على الحج في ذلك العام .

عاد أدراجه ينهب الأرض إلى الحيرة في ذلك الطريق الوعر ، كما نهبها من قبل إلى مكة . ودخل الحيرة حين دخول ساقة الجيش من الفراض إليها . بذلك لم يفتن إلى رحلته لأداء الفريضة أحد من فرس العراق ولا من عربيه ، ولم يترتب على غيبته هذه الفترة عن العراق أثر .

وأقام خالد بالحيرة مطمئناً ، وكأنما خيّل إليه أنه أدى كل ما عليه لله ولدين الحق من واجب ، وأنه يستطيع بذلك أن يجم ، ثم لعله من بعد أن يذهب إلى المدائن يفتض على كسرى عاصمته . لكن للأقدار أحكاماً يُعجز الناس غيبها وإن أوتوا من قوة الحكم وسرعته ما أوتى سيف الله . ولقد شاءت الأقدار أن يتابع خالد ما فتح الله به عليه في الفراض ، وأن يغزو الروم في صميم ملكها ، كما غزا فارس في صميم ملكها^(١) .

منى علم أبو بكر
بحج خالد

قيل إن عمر هو الذي كان على الحج حين ذهب خالد إلى مكة ، وأن أبا بكر لم يرأس الحج في خلافته . والمؤرخون يرجحون أن أبا بكر هو الذي كان على حج ذلك العام . وأما الروايتين صحت فإن أبا بكر لم يعرف بحج قائده الأكبر إلا بعد أن رجع الناس جميعاً من الفريضة وبعد أن استقر خالد بالحيرة . أفغضب الخليفة لخروج خالد من غير إذنه ؟ وهل ترك هذا الغضب موجودة في نفس الصديق عليه ؟ ! ذلك ما سنراه بعد حين .

(١) تتفق روايات المؤرخين عن فتح العراق ومسيرة خالد به إلى فتح الحيرة ؛ وما يقع على بعض التفاصيل من اختلاف الروايات لا يغير من تتابع الحوادث ولا من نتائجها . أما ما بعد ذلك فوضع خلاف . وما رويناه في هذا الفصل عن الأنبار وعين التمر والفراض هو ما اتفق عليه الطبري وابن الأثير وابن خلدون ومن أخذ مأخذهم . أما البلاذري في فتوح البلدان ، وأما الأزدي والواقدي في فتوح الشام ، فلا يذكرون شيئاً عن وقعة الفراض ، ويروون أن خالداً إنما غزا الأنبار وعين التمر حين وجهه أبو بكر من العراق أميراً على قوات المسلمين بالشام .

الفصل الثالث عشر

بين العراق والشام

تحدث الناس في مختلف الأقطار بفعال خالد بن الوليد في العراق العربي ، وبانتصار المسلمين على الفرس في جميع المواقع التي التحصوا فيها . وكان لهذه الأنباء من الصدى في الشام وفي باديته ما نَبّه عاهل الإمبراطورية الرومية الشرقية في مستقره ببيزنطية وما أثار تفكيره . فالغساسنة الذين يقيمون تحت كنفه بالشام عرب كاللخمين وبنى تغلب وإياد والنسروغيرهم ممن يقيمون على حدود العراق ويتغلغلون بين النهرين فيه . وقبائل بني بكر وبني عذرة وبني عدوان وبني بحرة تقع منازلهم على تخوم الغساسنة وبادية الشام . أليس طبعياً أن يفكر المسلمون في غزو الشام العربي كما فكروا في غزو العراق العربي ؟! هذا أمر يجب الاحتياط له والحذر منه . ويجب لذلك تحصين التخوم بين الشام وبلاد العرب وجعلها من المنعة بحيث تصد المسلمين عن التفكير في العدوان على أية ناحية من الإمبراطورية الرومية .

حذر الروم من المسلمين

إلى هذا الاتجاه انصرفت سياسة الروم ، فانقلبت من الطمأنينة إلى الحذر . لقد كان همّ المسلمين في عهد الرسول أن يحصّنوا تخوم العرب في الشمال مخافة عدوان الروم عليهم بتحريض اليهود والنصارى الذين أجلاهم الدين الجديد عن شبه الجزيرة . أما اليوم فالروم هم الذين يُعْنون بتحسين تخومهم في الجنوب مخافة عدوان المسلمين عليهم بقوة إيمانهم وبما كفل لهم هذا الإيمان من نصر وفتح .

تفكير أبي بكر في غزو الشام

لم يكن هذا الخاطر الذي أثار هواجس هرقل بعيداً عن تفكير أبي بكر ، بل كان يتردد في نفسه منذ بدأت طلائع النصر تسير أعلام المسلمين في حروب الردة . لكنه كان يتردد في تنفيذه قبل الفراغ من هذه الحروب ، خشية انتفاض العرب عليه وثورتهم به كرة أخرى . فلما هون المشنّى بن حارثة الشيباني أمر العراق ، ولما انطلق خالد بن الوليد يكتسح أمامه الفرس وأهل البادية

ويضع يده على الحيرة ويجعلها عاصمته ، ازداد أبو بكر تفكيراً في أمر الشام . إن به من قبائل العرب مثل ما بالعراق ، وقد انضمت بعض قبائل العراق إلى جيوش المسلمين وحاربت في صفوفهم جيوش كسرى مع بقائها على نصرانيتها . لا جرم أن تفعل قبائل الشام فعلها . فالروم حكام على الشام ، وبينهم وبين قبائل البادية المقيمة به من اختلاف الجنس واللغة ما بين الفرس والعرب على شواطئ دجلة والفرات . فإذا تقدم العرب في الشام وتغلبوا على جنود الروم انضم عرب الشام إلى أبناء عمومتهم من أهل شبه الجزيرة . ومن شأن هذا الانضمام أن يزيد المسلمين طمأنينة إلى النصر على عدوهم ، وأن ينتهي بهم إلى الاستقرار في هذه البلاد المرعة الخصب مع بني عمومتهم . فإن أسلم هؤلاء يوماً كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم .

وزال كل تردد من نفس أبي بكر حين سلمت دومة الجندل وفتحت أبوابها للمسلمين . لكن انشغال قوات المسلمين بالعراق وبقتال المرتدين في الجنوب من شبه الجزيرة جعله يؤثر أن يقف من الروم موقف المدافع ، فلا يبدوهم بقتال إلا أن يبدعوه به . ولقد كانت أوامره إلى قواده على تخوم الشام صريحة في هذا المعنى كل الصراحة . ولم تكن الروم من جانبها لتجاوز باجتياز تلك التخوم وهم يرون المسلمين ينتصرون في كل مكان . بذلك ظل الفريقان على حذر بعضهم من بعض ، وأكبر هم هؤلاء وأولئك ألا يشتبكوا في قتال .

يقف الروم
العرب على تخوم
الشام

وزاد الروم إثارة لهذا الموقف أن القوات التي أوفدها أبو بكر عقب بيعته إلى شمال شبه الجزيرة لقتال من ارتد ولحماية التخوم بقيت سليمة لم يُصبها أذى . فقد عادت القبائل هناك إلى سلطان المدينة دون أن يستحر قتال ، اللهم إلا دومة الجندل ، إذ أصرّت على انتفاضها فقاومت عياضاً وظلت متحصنة منه حتى فض ابن الوليد حصونها . وكانت قوات الروم من أهل فاسطايين ومن عرب البادية المقيمين على حدود الحضر ؛ فلم يكن يدفعها إلى مقاتلة العرب وازع نفساني يحجب إليها الموت انتصاراً لحق تُعلى كلمته ، أو لمثل أعلى تحرص على تحقيقه .

خالد بن سعيد
قائد المسلمين على
تخوم الشام

كان قائد المسلمين على هذه التخوم خالد بن سعيد بن العاص . قيل إن أبا بكر لما عقد الألوية لقتال أهل الردة عقد لخالد فيمن عقد ، فنهاه عمر ابن الخطاب عن تأميره ، وقال له : « إنه لمخذول ، وإنه لضعيف التروثة » ؛ وما زال يحرضه على عزله حتى جعله أبو بكر رداءً بتيحاء على تخوم الشام ، ولم يجعله على من يقاتلون المرتدين .

ونزل خالد تيحاء وقد أمره أبو بكر ألا يبرحها ، وأن يدعو القبائل التي حولها إلى الانضمام إليه لإلّا من ارتد منهم ، وألا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره . ونفذ خالد أمر الخليفة ، فاجتمعت إليه جموع كثيرة جعلت عسكره عظيمًا . وترامت إلى الروم أنباء هذه الجموع على تخومهم ، فلم يبق لدى هرقل ريب في وجوب دفعهم ؛ ولهذا الأمر اتخذ عدته . وترامت إلى خالد بن سعيد من ذلك أنباء سارع فبعث بها إلى المدينة مشفوعة برأيه أن يأذن الخليفة له في منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب بالشام ، مخافة أن يأخذوه ومن معه على غرة .

رسالته الأولى
إلى أبي بكر

فكّر أبو بكر في رسالة خالد بن سعيد وطال تفكيره . إن الأنباء الواردة من جنوب شبه الجزيرة حسنة كلها . لقد قضى عكرمة بن أبي جهل والمهاجر ابن أبي أمية على المرتدين هناك . وعما قريب يرجع عكرمة بجيوشه ويظل المهاجر أميراً على اليمن . ومتى عادت جنود المسلمين كان إرسال المدد إلى الشام يسيراً . لكن ! أو تكفى هذه الجنود لقتال الروم ولغزو الشام وعند الروم من العدد والعُدّة ما لا يحمله أبو بكر ، وما تغلب هرقل به من قبل على فارس ؟ . أو ليس من الخير أن يستعين بمن بقي على إسلامه من أهل الجنوب لبيعثهم إلى الشام فإذا ذهبوا فلن يقاوم الروم أكثر مما قاوم الفرس في العراق العربي .

أبو بكر يشاؤ
أهل الرأي في
غزو الشام

وأصبح يوماً فدعا إليه عمر وعثمان وعليّاً وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وأبي ابن كعب وزيد بن ثابت وجملة المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ، فدخلوا عليه ، فتحدث إليهم وذكر لهم أن رسول الله كان عوّل أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه ، واختار له ما لديه . « والعرب بنو أم وأب .

وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين ، مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين . ثم طلب إليهم رأيهم ، فقال عمر : « والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه . قد والله أردت لقاءك بهذا الرأي الذي ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد . سرب إليهم الخيل في أثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود ؛ فإن الله عز وجل ناصر دينه ومقر الإسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله » .

رأى عبد الرحمن
ابن عوف

على أن عبد الرحمن بن عوف كان أدنى إلى الحذر وأشد اتقاء للمغامرة . قام فقال : « يا خليفة رسول الله ، إنها الروم وبنو الأصفر ! حدٌ حديد ، وركن شديد ! والله ما أرى أن تُقحم الخيل عليهم إقحاماً ولكن تبعث الخيل فتغير في أداني أرضهم ، ثم تبعثها فتغير فترجع إليك ثم تبعثها فتغير ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك مراراً أضرب بعدوهم وغنموا من أداني أرضهم فقتلوا بذلك على قتالهم . ثم تبعث إلى أقاصي أهل اليمن وإلى أقاصي ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جميعاً . فإن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك ، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك » .

جلس ابن عوف بعد هذا الكلام فسكت الناس وسادت هنيهة صمت اتجه بعدها أبو بكر إلى الحاضرين يسألهم : « ماذا ترون رحمكم الله ؟ » . وتكلم عثمان بن عفان فقال : « أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين ، شفيق عليهم ، فإن رأيت رأياً فيه لهم رشد وصلاح وخير فاعزم على إمضائه ، فإنك غير ضنين ولا متهم عليهم » . وأقر الحاضرون جميعاً رأي عثمان وقالوا : « ما رأيت من رأي فأمضه ، فإننا سامعون لك مطيعون ، لا نخالف أمرك ولا ننتهم رأيك ، ولا نتخلف عن دعوتك وإجابتك » . فقام أبو بكر يدعو القوم للتجهز إلى غزو الروم بالشام ، ويقول : « فإني مؤمّر عليكم أمراء وعاقدهم عليكم ، فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم ، ولتحسن نيتكم وسيرتكم ؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

موقف المسلمين
من الدعوة لغزو
الشام

تُرى أتحمس الناس لهذه الدعوة ؟ أأجاب الخليفة منهم أحد يطلب
الجهاد ؟ ! لقد أخذتهم هيبة الروم فسكتوا . عند ذلك صاح فيهم عمر :
« ما لكم يا معشر المسلمين لا تجيبون خليفة رسول الله إذ دعاكم لما يحييكم ؟ »
ونبهت القوم هذه الصيحة فرضوا بالجهاد وإن آثروا أن يستعين الخليفة على
عدوه بأهل اليمن وأهل شبه الجزيرة جميعاً^(١).

لا عجب وذلك موقف المسلمين أن يطول تفكير الصديق فيه ، وأن يشغل
به عن كل ما سواه . كان جرير بن عبد الله ممن خرج مع خالد بن سعيد إلى
الشام ، فاستأذن خالداً إلى أبي بكر ليكلمه في قومه وليتخلصهم وليجمعهم له ،
وكانوا أوزاعاً في العرب . وأذن له خالد ، فقدم على أبي بكر فذكر له عِدَّةً
من النبي وأتاه على العدة بشهود وسأله إنجازها . فلما سمع أبو بكر حديثه غضب
وقال له : « ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن بإزائهم من الأسدين
فارس والروم ، ثم أنت تكلفني التشاغل بما لا يغني عما هو أرضى لله ورسوله !
دعني وسر نحو خالد بن الوليد حتى أنظر ما يحكم الله في هذين الوجهين » .
وسار جرير حتى قدم على خالد بالحيرة .

موقف أبي بكر
من الأحداث
المحيطة به

ولا عجب كذلك إذا انصرف تفكير الصديق إلى هذه الحرب التي نشبت
منذ بويج ، فقد جعلت تزداد على الأيام دقة وخطراً ، وتقتضي العناية بها
والسهر عليها . فهذه الجيوش المنتشرة بالعراق ، والقائمة على تخوم الشام ، أفي
حاجة هي إلى المدد ؟ وأيها أشد إلى المدد حاجة ؟ وهؤلاء المقيمون بالمدينة ومكة
والطائف ممن ذهب أهلهم إلى صفوف القتال ، أيعوزهم شيء ؟ ! وقبائل
العرب من الشمال إلى الجنوب ما شأنها ؟ وما عواطفها إزاء المدينة وإزاء الخليفة ؟
والأنباء الواردة من ميادين القتال بالنصر تارة ، وبالعجز طوراً كشأن عياض بن
غهم بدومة ، بأي شيء تقابل ، وعلى أي نحو تذاع في الناس ؟ ! كان أبو بكر
في شغل بهذا كله وبما يتصل به . ولئن كان أهل الرأي حوله موضع ثقته

(١) يذكر الأزدى ، على خلاف مع الطبري وابن خلدون وابن الأثير أن خالد بن
سعيد كان حاضراً هذا المجلس ، وأنه كان أول من أجاب إلى التجهز مع أهله ومن تبعه . ونحن
نؤثر رواية الطبري أن خالداً كان بتياء ، وأنه لم يحضر هذا الاجتماع .

واطمئنانه ، لقد كان هو المرجع الأخير وصاحب الرأي النافذ في هذه الأمور جميعاً . تلك أيام حرب إذا لم يوحد فيها التوجيه خيف الاضطراب وسوء الأثر . والخليفة هو المسئول الأول أمام الذين بايعوه عن كل ما يقع ، فعليه التبعية العظمى أمام الله وأمام ضميره وأمام الناس .

وكان شعور أبي بكر بحسامة هذه التبعية عظيماً ، وذلك ما دعاه للمُقام بالمدينة منذ اشتدت حروب الردة ، كي يفرغ لشؤون الدولة لا يشغله شيء عنها . أما وقد تضاعفت هذه الشؤون وامتدت الحرب إلى فارس وأرشكت أن تمتد إلى الروم ، فقد نسي الرجل ما عداها ليتم له التفرغ لها وإن فاته كل ما يرفقه عنه ؛ بذلك يكفل للمسلمين النجاح ، ولدين الله النصر ، سائراً دائماً في الطريق الذي رسمه رسول الله ، لا يتنكبه ولا يحيد عنه .

كانت سياسة أبي بكر خير كفيل بالنصر والنجاح . فقد كان في حكمه مثال العدل والرحمة مجتمعين ، كما كان العزم الذي لا تفل منه قوة ، ولا يعرف الوهن إلى ناحية من نواحيه مأتى . لم يلبث حين عادت بلاد العرب إلى دين الله أن ترك لكل منها من الاستقلال ما ترك لها رسول الله من قبل ، فلم يطلب إليها إلا الزكاة التي كانت تؤديها أيام النبي . وكانت الزكاة ينفق جانب عظيم منها في شؤون هذه البلاد وعلى فقرائها بإشراف عمّاله الذين ولاهم أمورها ، والذين كانوا على مثاله عدلاً ونصفاً . بذلك اطمأنت العرب جميعاً إلى عيشهم ، وزال كل خوف من انتقاضهم .

سياسة أبي بكر
بعد حروب الردة
وانتصار المسلمين
بالعراق

ولم يكن أبو بكر يستبقى لنفسه من الزكاة أو من أخماس النوى إلا ما فرضه المسلمون له ، ثم ينفق أكثرها في تجهيز الجيوش للجهاد ، ويوزع ما بقي على الفقراء وأبناء السبيل وكل من له حق في بيت مال المسلمين . وكان بيت المال في دار أبي بكر بالسُّنح ، فلما انتقل إلى المدينة نقله إلى داره بها . ورأى بعضهم ما يجيء من مغنم فارس ، فقال له : ألا تجعل على بيت المال من يحرسه ! قال : لا ! ذلك أنه كان ينفق كل ما فيه فلا يبقى به ما يحتاج إلى حارس . ولم يقف أمر ذلك عند الزكاة وأخماس النوى . فقد فُتِح أثناء خلافته منجم للذهب في بني سُلَيم على مقربة من المدينة ، هو عرق الذهب الذي

يستغلّ في عصرنا الحاضر ، فكان أبو بكر يسوّى في قسمه بين السابقين الأولين والمتأخرين في الإسلام ، وبين الحر والعبد والذكر والأنثى . وقيل له : « ألا تقدّم أهل السبق على قدر منازلهم ؟ » ؛ فقال : « إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه ، يوفّيهم ذلك في الآخرة ؛ وإنما هذه الدنيا بلاغ » .

أدّى هذا العدل بين الناس جميعاً إلى اطمئنانهم جميعاً . وأدى حزم أبي بكر وحمله تبعية الأمر كاملة إلى مهابتهم إياه وإكبارهم له . كان عمر بن الخطاب أقرب المشيرين إلى قلبه وأرجحهم رأياً عنده ، وكان عثمان وعلى وطلحة والزبير وغيرهم موضع تقديره واحترامه ، لا يقطع في أمر برأى قبل مشورتهم . ولكنه لم يكن مع ذلك يُلقي على أحد منهم تبعة ، ولم يكن يتواري وراء مشورتهم ليدفع عن نفسه لوماً . ولقد رأيت كيف خالف الجماعة في بعث أسامة ، وكيف أبدى من الحزم وقوة العزم في محاربة المرتدين ما جعل مشيريه كلهم يقرّون من بعد بسداد رأيه وبعد نظره ؛ ثم رأيت كيف خالف ابن الخطاب في خالد بن الوليد حين مقتل مالك بن نويرة ، وكيف كان يستخير الله في كل شيء ، فإذا خار له في أمر لم يرجع عنه ولم يتراجع لأى اعتبار دونه .

تفرغه التام
لشؤون الدولة

ولم يغيّر تزايد تباعته من شظف عيشه ، بل زاده انصرافاً عن كل ما يرفه به عن نفسه . كان حين مقامه بالسُّنح لا يأبى على نفسه ألواناً من الرفه تعينه على الحياة والجهد فيها ؛ فكان يغدو إلى المدينة وربما ركب فرسه وعليه إزار ورداء مُمشَّق فيصلى بالناس ؛ وكان يستريح بالسُّنح أحياناً فيصلى عمر بهم . وكان يقيم بداره صدر النهار يوم الجمعة يصبغ رأسه ولحيته ، ثم يذهب إلى المدينة يخطب الناس ويؤمهم للصلاة . أما منذ أقام بالمدينة لتزايد أعباء الدولة فقد تم تفرغه لشؤون المسلمين وإن فاته ما يرفه عنه . وأقام مع تزايد هذه الأعباء لا يتخذ لنفسه خادماً في داره ولا في أعمال الدولة . ثم كان يجلس في المسجد حيث كان يجلس رسول الله ، يسمع للناس ويحدثهم ويستشيرهم ويشير عليهم ، ويقضى فيما يعرض عليه من شتى الشؤون .

وكان ، على إثارة الشظف ، شديد البر بالفقراء والضعفاء . كان يشترى الأكسية ويفرقها على الأرامل في الشتاء ، وكان يرعى الفقراء والمساكين بنفسه

في سرّ من الناس . كان عمر بن الخطاب يتعهد امرأة عمياء بالمدينة ويقوم بأمرها ، فكان إذا جاءها ألفاها قد قضيت حاجاتها . وترصد عمر يوماً ، فإذا أبو بكر هو الذي يكفيها مؤناتها ، لم تصرفه عن ذلك الخلافة وجسامة تبعاتها . وقال عمر حين رآه : « أنت هو لعمرى ! » .

ولا حاجة إلى القول بأن مثال أبي بكر كان أسوة عماله في سائر بلاد شبه الجزيرة ، وأن طمأنينة العرب إلى عدل الخليفة وإنصافه ، وإلى بره ورحمته ، وإلى حكمته وحسن سياسته ، كانت من العوامل ذات الخطر في نجاح سياسته .

وكان أبو بكر مطمئناً من جانبه إلى النجاح كل الاطمئنان . لقد وعد الله رسوله لينصرن دينه ، ووعد الله حقّ . وقد نصر الله المسلمين في حروب الردّة ، وها هي ذى جيوشهم بالعراق يسايرها النصر حيث سارت ، ونيء النصر عليها من المغنم ما جعل قبائل العرب أشد على الحرب إقبالا . وقد رأيت ما استفاء المسلمون بالعراق . ولم يكن يرسل للخليفة من هذا النىء إلا خمسة ، أما أربعة الأخماس فكانت توزع بين الجند في ميادين القتال . وكان لأهل الجند في مختلف القبائل من حظ رجالهم نصيب يُغرى من تخلف على أن يخف إلى الميدان ليكون له ولأهله مثله . هذا إلى ما غرسه الإسلام في النفوس من حب الاستشهاد؛ لذلك كان أبو بكر مطمئناً إلى إقبال القبائل على الحرب إذا دعيت إليها ، لا تضنّ عليها بتضحية ، بل تخف إليها سراعاً يجذبها حب الاستشهاد وتغريها معالم النصر .

عوامل النصر في
تقدير أبي بكر

وكان أبو بكر يعلم ما للحرص على الاستشهاد في نفوس الأكثرين من أثر لا يقاس إليه إغراء النىء . وهل نسبت صيحات الأبطال الذين اندفعوا إلى الوطيس في معركة اليمامة ، لا يشك أحدهم في أنه ملاق ربه . وهو بهذا اللقاء سعيد كل السعادة ! وحب الاستشهاد هو الذى أملى على خالد بن الوليد ما كتبه إلى هرمز وإلى غيره من الفرس يقول لهم : « لقد جئكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » . وهم يقبلون على الاستشهاد لأنه طريق الجنة ؛ إذ يغفر الله للمجاهد في سبيله كل ذنوبه . وقد كان أحدهم يرى صاحبه يتخطفه

الموت من صفوف القتال فيرى في استشهاد آية الرضا من الله عنه ، ويتمنى لنفسه مثل هذا الحظ من رضا ربه . قوم ذلك حرصهم على الموت طبيعي أن توهب لهم الحياة في أسمى مكان من العز والسؤدد ، وأن يطمئن خليفة رسول الله إلى نصرهم ، وأن يبعثهم إلى الشام يفتحونه كما فتح إخوانهم العراق .

على أن إغراء النيء لم يكن بالأمر الذي يستهان به . فهو في فطرة البدوي منذ خلقه ، ولن يزال في فطرته أبد الدهر . وقد رأيت خالد بن الوليد حين وقف بعد غزاة أليّس بالعراق يقول بلخنده : « إنه إذا لم يكن في العراق إلا هذا الثراء الضخم وهذا النيء الذي يعدّ في بلاد العرب حلمًا لكفى مغربًا بالحرب » . ولقد كانت القبائل التي ارتدت تعضّ أصابعها ندمًا على ما فعلت مما حرّمها الاشتراك في حروب العراق . والذين أقاموا على إسلامهم في أنحاء شبه الجزيرة كثيرون ، ولن يتردد هؤلاء في إجابة الدعوة إلى الجهاد متى وجهها الخليفة إليهم ، ولن يكونوا إذا غزوا الشام إلا أبطالًا فاتحين .

كتاب أبي بكر
إلى أهل اليمن

لذلك كله لم يتغير عزم أبي بكر على غزو الشام حين دعا القوم إلى التجهز إليه فسكتوا متأثرين بقول عبد الرحمن بن عوف : « إنها الروم وبنو الأصفر ، حدّ حديد وركن شديد ! » ، بل بدأ يستنفر الناس ، وكتب إلى أهل اليمن يقول لهم : « أما بعد ، فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً . ” وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله “ . فالجهاد فريضة مفروضة ، وثوابه عند الله عظيم . وقد استنفرنا من قبيلتنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، فسارعوا إلى ذلك وعسكروا . وخرجوا وحسنت في ذلك نيتهم وعظمت في الخير حسبتهم ، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم » .

لقيت هذه الدعوة أذناً سمیعة . فما كاد رسول الخليفة يتلوها حتى خف ذو الكلاع الحميريّ إلى فرسه وسلاحه ونهض في قومه ومن عسكر معه من جموع اليمن وسار يطلب المدينة . كذلك خفّ قيس بن هبيرة المراديّ في مذحج ، وجندب بن عمرو الدوسيّ في الأزديّ ، وحابس بن سعد الطائي في طي .

بَسَيْنَا كَانَ رَسُولُ أَبِي بَكْرٍ إِلَى الْيَمَنِ قَدْ بَلَغَهَا وَأَقَامَ يَتَحَدَّثُ إِلَى أَهْلِهَا ،
وَبَسَيْنَا كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ فِي اسْتِعْدَادِهِمْ وَوَسِيرَتِهِمْ ، كَانَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَنْفِرُ
إِلَيْهِ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ يَجْمَعُهُمْ لِيُوفِدَهُمْ
إِلَى الشَّامِ .

وقد اختلفت الروايات : متى بدأ أبو بكر يسيّر هذه الجيوش ، وأى جيش
كان أولها ، ومن هم الأمراء الذين اجتمعوا إليه ، ومن من الأمراء أقام حيث
هو ثم توجه إلى الشام طوعاً لأمر الخليفة . واضطراب الروايات في أمر الشام
يزيد على اضطرابها في فتح العراق وفي حروب الردة^(١) .

مسيرة الجيوش
إلى الشام

والكثير من هذه الروايات يذهب إلى أن أول جيش سار إلى الشام إنما
سار بعد أن عاد أبو بكر من حجته في آخر السنة الثانية عشرة وأول السنة
الثالثة عشرة من الهجرة . وتذهب روايات أخرى إلى أن أبا بكر سيّر خالد
ابن سعيد بن العاص إلى حدود الشام حين سير خالد بن الوليد إلى العراق
السنة الثانية عشرة . والراجح عندي أن خالد بن الوليد ذهب إلى العراق فتولى
القيادة العامة فيه على المشنّى ومن معه قبل أن يفرغ المسلمون من حروب الردة في
اليمن وكندة وحضرموت ، وأن خالد بن سعيد ، إن كان قد ذهب في هذا
الوقت أو ذهب قبله ، فإنما ذهب لحماية التخوم لا للغزو . والراجح عندي
كذلك أن أبا بكر لم يفكر في غزو الشام إلا بعد أن تم النصر للمسلمين في
حروب الردة باليمن وما حولها ، وبعد أن دخل ابن الوليد الحيرة واطمأن بها ،
وبعد أن فتحت دومة أبوابها فصار طريق وادي سرحان إلى الشام آمناً
بفتحها .

يؤيد هذا الرأي ما سبق أن ذكرناه من استنفار أبي بكر قبائل اليمن ،
وما كان ليستنفرها قبل القضاء على الردة فيها . ثم إن عكرمة بن أبي جهل

(١) في الطبري روايات عدة . وفي البلاذري روايات يتفق بعضها مع بعض روايات
الطبري ، ويختلف بعضها كل الاختلاف . والأزدى يروي غير روايات الطبري والبلاذري .
والواقدي يخالف هؤلاء في أمور ويتفق معهم في أمور . أما ابن الأثير وابن خلدون فأقرب إلى الطبري
حتى ليحسب الإنسان أنهما أخذاه عنه .

وذا الكلاع الحميرى لم يقيما باليمن بعد أن اطمأن الأمر في ربوعها ، بل ذهبوا مع المهاجر بن أبى أمية للقضاء على الردة بكندة وحضرموت . فلما اطمأن أمر الجنوب كله وآن لعكرمة أن يعود إلى المدينة سرح الجند الذين جاهدوا معه ، ثم تولى قيادة جيش آخر تألف بديلاً من جيشه . ومن اليسير عليك أن تقدر ما يستغرقه العود من اليمن إلى المدينة ، ثم السفر من المدينة إلى الشام ، وأنت تعلم أن الطريق بين مكة والمدينة تقطع على ظهور الإبل في أكثر من عشرة أيام ، وأن العير كانت تطرد في ذلك الزمن إلى الشام شهراً مقبلاً وشهراً مدبراً .

أول أمير على جند المسلمين إلى الشام

ولقد اختلفت الروايات كذلك : أى أمراء الجند ذهب إلى الشام أول ما فكر أبو بكر في غزو الروم ؟ قيل إن خالد بن سعيد بن العاص الأموى كان هذا الأمير . وقد ذكرنا فيما سلف أن خالداً إنما ذهب أول حروب الردة ردءاً بتيماء على تخوم الشام . وتجرى رواية غير هاتين بأن خالداً كان باليمن من قبل رسول الله ، وأنه قدِم إلى المدينة بعد شهر من وفاة النبي ، فلما رأى على بن أبى طالب وعثمان بن عفان قال لهما : « يا بنى عبد مناف ، لقد طبتم أنفساً عن أمر يليه غيركم ! » . فلما وجه أبو بكر الجنود إلى الشام جعل خالد بن سعيد عليها ؛ فقال له عمر : أتؤمّره وقد صنع ما صنع وقال ما قال ؟ ولم يزل به حتى عزل خالداً وأمر يزيد بن أبى سفيان . وفي رواية أن عمر قال لأبى بكر في شأن خالد : « إنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب » . وقيل إن خالداً لم يذهب أميراً وإنما ذهب في جيش أبى عبيدة بن الجراح . ونحن نرجح رغم هذا الاضطراب في الروايات ، أن خالداً ذهب ردءاً بتيماء ، وأنه أقام بها ، وأنه لم يكن بالمدينة حين استنفر أبو بكر الناس لقتال الروم ، وأن أبا بكر إنما استنفر الناس تلبية لنداء خالد حين بعث إليه يستعده ويذكر له من أنباء الروم وتحركهم ما حرك الخليفة لغزو الشام .

ولقد كان للروم كل العذر في أن يتحركوا وأن تزداد حركتهم نشاطاً . فالأنباء كانت تصل إليهم تترى بانتصار المسلمين في العراق وبانقضاء الثورة التي كانت قائمة في بلاد العرب . وهم لم ينسوا مجازفة محمد وأصحابه بالغارة

عليهم والانتقاص من أطرافهم وموادعة القبائل المقيمة على تخومهم . وها هم أولاء أتباعه يقيمون اليوم على تلك التخوم ، وقد تحدثهم أنفسهم باجتيازها . لذلك دعا الروم الغسانيين وغيرهم من القبائل المقيمة ببادية الشام ليقفوا سداً منيعاً في وجه المسلمين . واجتمع من هذه القبائل عدد عظيم لا يقل عن اجتماع حول خالد بن سعيد . ووقف الجمعان ، هذا في أرض العرب وذاك في أرض الشام ، وكلٌّ يتربص بصاحبه الدوائر . وفيما هم كذلك كانت أنباء خالد بن الوليد تدوى في جو الفرس والروم والعرب كله . فالأنبار تفتح أبوابها ، وعين التمر يقتل مقاتلتها وتسبي نساؤها ، وجنود المساميين يغنمون ما شاء الله أن يغنموا . أفيبقى إخوانهم في الدين بمنزلتهم من تيماء لا يقتحمون الشام كما اقتحم ابن الوليد وجيوشه العراق !! .

أول فتح الشام وكتب خالد بن سعيد إلى الخليفة كراً أخرى . كتب إليه باجتماع الروم ومن نفر إليهم من بهراء وكلب وتنوخ ولخنم وجندام وغسان ، واستأذنه في منازلتهم . وكان أبو بكر يعدّ إذ ذاك جيوشه لغزو الروم ؛ لذلك كتب إلى خالد بن سعيد يقول : « أفدِم ولا تُحجم واستنصر الله ! » . وكانت هذه الكلمات أول فتح الشام .

الفصل الرابع عشر

فتح الشام

أقام خالد بن سعيد بتيماء في جيشه وفيمن نفر معه من قبائل البادية على تخوم الشام . وأقام جيش الروم مضاعف العدد بمن انضم إليه من القبائل على الناحية الأخرى من هذه التخوم . ولقد أثار تقابل الجيشين على هذا النحو حمية المسلمين وحركهم لقتال خصومهم . فلما قرأ خالد في كتاب أبي بكر : « أقدم ولا تُحجم واستنصر الله » . أسرع بكل قواته فتخطى الحدود لمنازلة القوم . ولم يلبث الروم وأنصارهم حين رأوه دنا منهم أن تفرقوا وتركوا منازلهم ، فدخل معسكرهم وغنم ما فيه ، وكتب إلى أبي بكر بالنبأ ؛ فأجابه : « تقدم ولا تقتحم حتى لا تُؤذي من خلفك » . وتقدم خالد حتى بلغ القسطنطين في طريق البحر الميت ، فهزم جيشاً من الروم على الشاطئ الشرقي لذلك البحر ثم تابع مسيرته . هنالك ثارت حمية الروم وثار حمية أهل الشام معهم ، فتجمعوا في قوات تزيد على ما اجتمع قبالة تيماء أضعافاً مضاعفة .

خالد بن سعيد
يغلب الروم
ويدخل معسكرهم

ورأى خالد بن سعيد تجمعهم ، فكتب إلى أبي بكر يستمده ليتابع مسيرته المظفرة . وكانت جيوش المسلمين قد بدأت السير من المدينة إلى الشام لغزو الروم . وأبو بكر متفائل بمسيرتها ، مملوء أملاً بنصر الله إياها . فالروم ليسوا خيراً من الفرس حالا . وهم مذ غلبوا الفرس قد استغرقوا في سُبَاتهم ، وجعلوا كل اعتمادهم في حماية تخومهم على أبناء البادية . ولأبناء البادية في مواقف كثيرة آيات بأس وشجاعة ميزتهم . لكن روابط الجنس واللغة لم تكن قائمة بينهم وبين الروم كقيامها بينهم وبين بني عموماتهم العرب المسلمين . ولم تكن نصرانية عرب الشام كنصرانية هرقل ، إذ كانوا من الأرثوذكس ، وكان قيصر من الكاثوليك . ولعلمهم رأوا في ضن هرقل بالروم على القتال دليلاً على خوفه أن يُهزم أبناء وطنه أو يُقتلوا . لذلك تراخوا في القتال ، وتركوا خالد ابن سعيد يتقدم دون أن يشبثوا له .

أى جيوش المسلمين كان أسرع إلى إمداد خالد بن سعيد ؟ اختلف الرواة في هذا الأمر كما اختلفوا في بدء خالد بغزو الشام . أما والطبرى يجعل لخالد هذا السبق ويوافقه ابن الأثير وابن خلدون ومن إليهما على هذا الرأي ، فإننا نساير الطبرى وأصحابه الآن في روايتهم ، لنعود إلى رواية الواقدي والأزدى والبلاذرى من بعد .

كان عكرمة بن أبي جهل قافلاً من كندة وحضرموت عن طريق اليمن ومكة ، فلما بلغ المدينة أمره أبو بكر أن يسير مدداً لخالد بن سعيد . وكان عكرمة قد سرح الجند الذين قاتلوا معه في جنوب شبه الجزيرة ، فاستبدل الخليفة بهم غيرهم ، وأمرهم أن يسيروا تحت لواء عكرمة إلى الشام ؛ ولذلك سمى هذا الجيش جيش البديل . وسار ذو الكلالع على رأس الجند الذين صحبوه من اليمن مسرعاً مع عكرمة إلى الشام ، حتى يطمئن خالد بن سعيد ويتابع مسيرته .

وكان عمرو بن العاص مقيماً بقضاة مذ قضى على الردة فيها ، فبعث إليه أبو بكر يخبره أن يبقى حيث هو أو أن يسير إلى الشام ، وكتب له : « وقد أردت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك ، إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك » . وكان جواب عمرو : « إني سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الراى بها والجامع لها . فانظر أشدها وأخشاهها وأفضلها فارم بها شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي » . وكتب الصديق إلى الوليد بن عتبة بمثل ما كتب به إلى ابن العاص ، فكان جوابه إثارة الجهاد . عند ذلك أمر الخليفة عسراً على فلسطين ، وكتب إلى الوليد فأمره بالأردن .

سارت هذه الجيوش متجهة إلى الشام ، ولا يشك أبو بكر في أن الله قد فتحه عليه . وكان الوليد بن عتبة أول من أدرك خالد بن سعيد ، وقص عليه أنباء المدد وحماسة أبي بكر لفتح الشام ، وغبطة أهل المدينة بانتصار إخوانهم على بنى الأصفر . وفاضت نفس خالد بالمسرة ، فأمر جيشه أن يتهيأ للمسير حتى يكون له من فخار النصر ما يجعله في قتال الروم ندّاً لابن الوليد في قتال الفرس . وتقدم بالمسلمين ومعه الوليد بن عتبة يقابل جيشاً للروم على رأسه قائدهم

الأكبر باهان ، ونفسه تحدثه بأن ينقض على هذا القائد كما انقص ابن الوليد على هُرمز ، وأن يورده حَتَفًا كحتفه . وكيف لا يفعل وقد أدركه عكرمة وذو الكلاع فصار في قوة لا تثبت أمامها قوة ! .

ولم يكن جيش الروم قريباً منه . مع ذلك تراجع باهان به متجهماً نحو دمشق . وسار خالد في أثره يريد مرج الصفر بين واقوصة ودمشق ، ليتخذ هناك معسكره ومكان قيادته العامة . ولم يكن تراجع باهان إلا خُدعة لاستدراج خصمه حتى يعثر ظهره فيتمكن من حصاره ويحيته من خلفه ، وذلك ما حذر أبو بكر خالداً منه . لكن نشوة الظفر وحب الفخار أنسياه الحذر ودفعاه يُغِدَّ السير ، حتى إذا كان على مقربة من مرج الصفر إلى الشرق من بحيرة طبرية ارتد باهان بجنوده وأحاط به وقطع عليه خط رجعتة . وصادف باهان سعيد بن خالد بن سعيد في فرقة من العسكر منعزلة عن المسلمين فقتلهم وقتل سعيداً في مقدمتهم . وبلغ خالد مقتلاً ابنه ، ورأى نفسه قد أحيط به ، فخرج هارباً في كتيبة من أصحابه على ظهور الخيل والإبل ، تاركاً وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة متقهقراً .

خدعة الروم
وفرار خالد بن
سعيد بعد مقتل
إبنه

ولم يقف خالد بن سعيد من فراره دون ذى المروة على مقربة من المدينة . وعرف أبو بكر فراره هزيماً يريد مدينة الرسول ، فأبى ذلك عليه وبعث له بكتاب لقيه بنى المروة جاء فيه : « أقم مكانك . فلعمري إنك مقدم محجّام نجاء من الغمرات ، لا تخوضها إلى حق ولا تصبر عليه » . وأقام خالد بنى المروة في فلول الفارين معه حسيراً حزيناً لمقتل ابنه وللهزيمة التي حلت به . أما أبو بكر فكان يقول : « كان عمر وعلى أعلم بخالد مني ، ولو أطعتهما فيه اتقيته » .

أبو بكر يزاد
حماسة لفتح الشام

أضعف فرار خالد بن سعيد من عزم أبي بكر فتح الشام ومن حماسته لهذا العزم ؟ كلا ! فقد جاءت الأنباء بأن عكرمة بن أبي جهل داور بجيوش المسلمين ، وداور معه ذو الكلاع ، فتراجع بهم إلى حدود الشام ، وهناك تحصن ينتظر المدد . فليمدده ، وليكن هذا المدد بما يزيل كل أثر

لهزيمة ابن سعيد ، وما يرد إلى المسلمين الإيمان بالنصر ، وما ينزل في قلوب الروم الخوف والهلل .

كان شرحبيل بن حسنة مع خالد بن الوليد بالعراق . وقد جاء في هذه الآونة إلى المدينة بأنباء النصر وبالسبي والأخماس ، فأمره أبو بكر أن يذهب إلى الشام مكان الوليد بن عتبة الذي باء مع خالد بن سعيد بما باء به . وجمع شرحبيل قوة من جيش ابن سعيد وابن عتبة وسار بها إلى عكرمة . ودعا أبو بكر يزيد بن أبي سفيان فأمره على جند عظيم جاءهم من أهل مكة ، ثم أرفه بأخيه معاوية ، وجعله على بقية الجيش الذي استدرجه خالد بن سعيد للغزو معه . وندب الخليفة جيشاً عظيماً جعل عليه أبا عبيدة بن الجراح وأمره على حمص . وكانت هذه الجيوش تُعسكر بالحرف ، فإذا آن لأحدها أن يسير خرج إليه الخليفة وودعه على النحو الذي ودع به جيش أسامة غداة بيعته . وانطلقت هذه الجيوش جميعاً في طريقها إلى الشام مجاهدة في سبيل الله .

وأنت تذكر أن أبا بكر أوصى أسامة حين ودعه وصية تسجل له في تاريخ الحروب بحروف من نور . كذلك فعل مع هذه الجيوش ، قال وهو يودعهم : « ألا إن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهي حسبه . ومن عمل لله كفاه الله . عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ . ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يُخصَّ به . هذه التجارة التي دل الله عليها ، ونجى بها من الخزي ، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة » .

وصيته حين توديع
الجيوش التي عبأها
لغزو الشام

وكان مما قاله ليزيد بن أبي سفيان : « إذا قدمت على جنديك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعِدْهم إياه . وإذا وعظتهم فأوجز ؛ فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . . . وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل

لبشهم حتى يخرجوا من عسكريك وهم جاهلون به . . . وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولى لكلامهم . . . واسمر بالليل في أصحابك تأتلك الأخبار وتنكشف عندك الأستار . . . وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس .»

المهاجرون
والأنصار
يسرون لفتح
الشام

واطمان أبو بكر حين ودع هذه الجيوش جميعاً ورأى نصر الله منه قريباً . وكيف لا يطمئن وفي هذه الجيوش زهرة المسلمين مهاجريهم والأنصار ، وفيها ما يزيد على ألف من أصحاب رسول الله الذين سمعوا له وجاهدوا معه ، وفيها أهل بدر الذين قال فيهم رسول الله ينجي ربه : « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » ، والذين أمدهم الله بالملائكة ونزل فيهم قوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

أين من هؤلاء جيش خالد بن الوليد الذي غزا العراق ومزق الفرس ! لقد تألف هذا الجيش من بقية قليلة من جيش اليمامة ، ثم كان أكثره ممن استنفرهم خالد من أهل البحرين وعمّان ومن قاتل أهل الردة وثبت على الإسلام في هذه النواحي . أفيقاس أولئك إلى الذين شهدوا بدرًا وأحُدًا وحُنينًا ، والذين أمدهم رسول الله في حياته بنفحة منه ! ! وهل يقاسون إلى الأبطال أمجاد مكة والمدينة والطائف ممن عركوا الحرب وعركتهم الحرب ! فإن يكن خالد قد غلب الفرس بعرب الجنوب ، فما أخرى عكرمة وأبا عبيدة وابن العاص ويزيد أن يقضوا بجيوش مكة والمدينة على الروم القضاء الحاسم ! .

وأبو بكر لم يبالغ حين بعث هذه الجيوش كلها إلى الشام بعد أن انتصر عسكريه بالعراق . فلو أن أمر المسلمين هناك وقف عند هزيمة خالد بن سعيد لذهب نصرهم بالعراق بددا ، ولاقتحم الروم عليهم شبه الجزيرة ، ولوقف الإسلام من الأسدين فارس والروم موقفًا لا يرضاه الحق جل شأنه . وما كان ذلك ليحدث وأبو بكر في خلافة رسول الله ، وما كان ليحدث ولو لم يبق في القرى غيره ، على حد تعبيره رضى الله عنه عند اختلاف أصحابه معه عشية حروب الردة .

وظل أمراء الجند في مسيرتهم حتى نزلوا الشام . أما عمرو بن العاص فلم يتحرك جيشه من العربية حيث كان منذ أوفده أبو بكر . وأما أبو عبيدة فتمخطى البلقاء إلى الحابية بعد أن أخضع من قاومه من عرب مآب وصالحهم . ولقد نزل شرحبيل الأردن ، ونزل يزيد بن أبي سفيان البلقاء ؛ وفي رواية أنه لقي قوة من الروم والبدو في دائن فتغلب عليها . ولقد اختلفت الروايات : ألقى جنود المسلمين حرباً في جنوب فلسطين ، أم تقدموا فيها فلم يجدوا من يواجههم . والراجح أنهم تقدموا حتى صاروا على مقربة من جيش عكرمة ، وأن الروم لم يواجهوهم بقواتهم ، بل تركوا أمرهم لرجال البادية ، وأن ما حدث من وقائع بين العرب والروم في جنوب فلسطين قد حدث من بعد في عهد عمر بن الخطاب .

على أن اضطراب الروايات ينتهي حين تتصل جيوش المسلمين بجيش عكرمة ؛ إذ يعسكر أبو عبيدة على طريق دمشق . ويعسكر شرحبيل في مرتفع بأعلى الغور فوق طبرية ونهر الأردن ، ويظل يزيد باللقاء مهدداً بـبُصرى ، ويبقى عمرو بالعربية مهدداً حبرون . وفي هذه المواقع وقفت الجيوش يتداول أمراؤها الرأي ما يصنعون .

ذلك أن الروم لم يكثرثوا أول الأمر لهم ، بل خيّل إليهم أن هؤلاء العرب لن يتقدموا إلى أكثر مما تقدم محمد من قبل في غزوة تبوك ، وأنهم عائدون أدراجهم لا محالة . فلما هُزم خالد بن سعيد وفرّ من الميدان ازدادوا طمأنينة إلى ما توهموا ، وظنوا أن ما يترامى إليهم من أنباء المسلمين وتجهيزهم مدداً لعكرمة على حدود الشام لن يزعجهم ، ولن يكون مصيره إلا كمصير خالد بن سعيد . فلما رأوهم تقدموا إلى المواقع التي ذكرنا أفاقوا من سبّاتهم ورأوا الأمر أجلاً خطراً من أن يستهينوا به ، وأدركوا أنهم إن لم يواجهوه بكل قوتهم أصابهم ما أصاب فارس ، وفتح هؤلاء الغزاة المسلمون الشام كما فتحوا العراق . لذلك سيّر هيرقل إليهم قوات عظيمة ، وقفت كل واحدة منها إزاء كل جيش من جيوش المسلمين ، حتى يشتغل بعضهم عن بعض فيسهل التغلب عليهم وطردهم من البلاد .

الروم يتجهزون
لمواجهة المسلمين

وتجرى الرواية في أمر الجيوش من الجانيين بأن عدد المسلمين كان ثلاثين ألفاً أو نحوها ، وأن جيوش الروم بلغت عدتها أربعين ومئتي ألف . قيل إن جيش عكرمة كان ستة آلاف ، وإن الجيوش الثلاثة الأخرى بإمرة أبي عبيدة ويزيد وعمرو بن العاص كانت ترجح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف لكل منها . أما جيوش الروم فكان أكبرها عدداً بإمرة تذارق (تيودوريك) أخى هرقل لأبيه وأمه ، وكانت عدته تسعين ألفاً ، وقد عسكر بإزاء عمرو ابن العاص . ووقف جيش عدته ستون ألفاً بإمرة الفيقار بن نسطوس بإزاء أبي عبيدة . أما شرّ حبييل بن حسنة فاستقبل الدّراقص على قوة من الروم عدتها أربعون ألفاً واستقبل جرجة بن ثندرا جيش يزيد بن أبي سفيان .

هرقل يتحصن
بمحصر ويتتبع
أنباء الغزاة

رأى المسلمون هذه الجيوش فهابوها وتداولوا في موقفهم منها . فهم لم يكونوا يتوقعون مقاومة منظمة هذا التنظيم . ثم إنهم علموا أن هرقل تحصن بمحص ، وأنه يتتبع أنباء الغزاة بعناية بالغة ، وأنه منذ علم بقدوم الجموع العربية إلى أراضى الإمبراطورية قد جعل كل همه إلى الاحتفاظ بالسلطان الذى كفله النصر على فارس له . أما وقد كان أخوه تذارق قائد الجيوش التى غلبت الأعاجم وعادت تتقدمها أعلام النصر ، فليكن قائد الحملة على العرب ليظهر أرض المعاد منهم ، وليلقى عليهم درساً لا ينسونه أبداً الدهر .

كتاب أبي بكر
لأمراء الجند أن
يجتمعوا عسكرياً
واحداً

هاب المسلمون جيوش الروم حين رأوها يخطئها العد ، ففرغوا بالكتب وبالرسل إلى عمرو بن العاص يلتمسون عنده الرأى . ورأى عمرو أنهم لا يستطيعون لقاء الروم متفرقين فكاتبهم يقول : « إن الرأى الاجتماع . وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، فأما إن تفرقنا لم تقم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا » . وجاءهم كتاب من أبي بكر بمثل رأى عمرو ، وفيه : « اجتمعوا عسكرياً واحداً ، وألقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعوان الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره . ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى العشرة الآلاف والزيادة عليها بذنوبهم . فاحترسوا من الذنوب ، والله ناصركم » وإتعد المسلمون اليرموك على طريق دمشق ، واجتمعت قواتهم كلها على شاطئه

الأيسر . فلما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم على الشاطئ الأيمن للنهر وتولى تدارق قيادتها .

ونهر اليرموك ينبع من جبال حوران . وينحدر سريع التيار بين آكام مختلفة الارتفاع إلى غور الأردن وإلى البحر الميت . وعلى ثلاثين أو أربعين ميلاً من ملتقى اليرموك بنهر الأردن تقع واقوسة في منبطح فسيح من الأرض تحيط به من ثلاث نواح جبال بالغة الارتفاع . وقد اختار الروم هذا المنبطح معسكراً لهم حين رأوه يتسع لجموعهم العظيمة . فلما قدموا إليه واستقروا به تخطى المسلمون النهر إلى ضفته اليمنى واختاروا منبطحاً آخر على الطريق المفتوح لحيش الروم ، فلم يبق للروم طريق إلا عليهم . ورأى عمرو بن العاص هذا الموقف ، ورأى الروم حُصرت بين الجبال ، فقال : « أيها الناس أبشروا ! حُصرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير ! » .

التقاء المسلمين
والروم على
اليرموك

عن أى شيء أسفر الموقف الجديد ؟ ! أفهاجم المسلمون الروم في بطيحتهم فحصرهم فيه فقمضوا عليهم ؟ أفخرج الروم فلاقوا المسلمون فأتاح لهم تفوقهم في العدد الظفر بهم ؟ لا هذا ولا ذاك ؛ بل أقام المسلمون على طريق الروم ومخرجهم لا يقدر من هم على شيء ، ولا يقدر الروم منهم على شيء . إذا خرج الروم على الطريق ردهم المسلمون إلى بطيحتهم . وإذا غامر المسلمون بالهجوم لم يلبثوا أن يتراجعوا مخافة أن يحصرهم الروم بينهم وأن يقضوا عليهم ، وأقام هؤلاء وأولئك على هذه الحال شهرين كاملين أيقن المسلمون خلالها أنه لا بدّ لهم من مدد يعينهم ، فكتبوا إلى أبي بكر يصفون له الحال ويستمدونه ، حتى لا يظلوا الشهور ، فيسأم الجند ويضعف إيمانهم بالنصر وتذهب ريحهم .

وكان أبو بكر أشد من أمراء الجند بالشام ضجراً ؛ فلم يدُرْ بخلده أن يقف أبو عبيدة وزملاؤه هذا الموقف ، ولم يحسب أن البدرين الذين غلبوا على قلّتهم أهل مكة من المشركين يطيقون هذا المقام بإزاء الروم لا يقتلون ولا يُقتلون . وطال تفكير الخليفة في هذا الأمر ، وجعل يشاور ابن الخطاب وعلى بن أبي طالب

أبو بكر يضيق
صدراً بموقف
جيوشه على
اليرموك

وسائر أولى الرأى المقيمين بالمدينة . وبينما هو يفكر انكشفت له الحقيقة جلية واضحة . إن المسلمين لم ينتصروا يوماً بكثرة عددهم ، وإنما انتصروا دائماً بمهارة القيادة ، وبقوة الإيمان . والإيمان لا ينقص جيوش الشام وفيها السابقون الأولون من أصحاب رسول الله مهاجريهم والأنصار ، وفيها أهل بدر الذين فتحوا مكة ومن انتصروا على أهل الردة . لا بد أن تكون العلة إذن في القيادة . فهذا الموقف يحتاج إلى القائد الجسور الذى لا يعرف الهوادة ولا الإحجام ولا يهاب الموت . وأبو عبيدة على قدرته رجل رقيق القلب . وابن العاص على دهائه في السياسة هيباب غير مقدم . وعكرمة مداور مقدم إلا أنه تعوزه دقة التقدير . وسائر القواد لم يخوضوا بعد المعارك الكبرى ؛ ثم إن هؤلاء الأمراء جميعاً لا يقرون لواحد منهم بالتفوق على سائرهم تفوقاً يكفل بسلطانه وحدة القيادة . تكشف هذه الحقيقة لأبي بكر جلية واضحة ، فقال لأصحابه : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

خالد بن الوليد
يدعى من العراق
إلى الشام

لم يعترض أحد رأى الخليفة هذا ؛ فقد بلغ الموقف في الشام من الحرج أن ترددوا جميعاً في احتمال تبعته . ولعل منهم من رأى في تعريض خالد لهذا الموقف الدقيق ما يُستَهْنِيه من كبريائه بعد نصره المتصل في حروب الردة ، وبلوغه قمة النصر في العراق . وكتب أبو بكر إلى خالد بالحيرة يقول : « سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ؛ فإنهم قد شَجَّجُوا وأشَجَّجُوا^(١) . وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فإنه لم يُشَجَّجِ الجُمُوع من الناس^(٢) بعون الله شجاك ، ولم ينزع الشَّجَّاج من الناس نزعك . فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة . فأتمم يُتِمِّمِ الله لك . ولا يدخلنك عجب فتخسر وتُخْذَل . وإياك أن تَدِلَ بعمل ؛ فإن الله عز وجل له المنُّ وهو وليّ الجزاء » .

أى أثر ترك هذا الخطاب في نفس خالد ! إنه كان يرجو أن يظل بالعراق ضيق خالد بهذه الدعوة

(١) الشجاء هنا : الفصص . يريد أن المسلمين ضاقوا بعدوهم وضيقوا عليه حتى كان بعضهم لبعض كالشجاء في الحلق .

(٢) من الناس : صفة لمخدوف هو فاعل « لم يشج » و « لم ينزع » . أى لم يشج أعداءه أحد من الناس كما تشجيم أنت ، ولم ينزع الشجاء من أوليائه أحد من الناس نزعك . وحذف الموصوف في مثل هذا جائز .

حتى يفتح المدائن عاصمة الفرس ويتربع فيها على عرش كسرى وخلفائه . ولم يخالجه في بلوغ هذا الغرض ريب . فقد سبر غور الفرس وعرف قوتهم . وفتح المدائن فخاراً لا فخار بعده . فما اليمامة وما الحيرة وما هُرْمُزُ وقواد فارس جميعاً بالقياس إلى العاصمة التي يتطلع إليها قيصر الروم ويتطلع إليها العالم من كل نواحيه ، وبالقياس إلى كسرى وإيوانه وأبهة ملكه ! لا مزية إذن في أن يكون خالد قد برم بكتاب أبي بكر وضاق به صدره . ولعله رأى فيه كيد عمر ابن الخطاب له . روى الطبرى أنه قال بعد تلاوته : « هذا عمل الأعيسر ابن أم سخلّة - يعنى عمر بن الخطاب - حسدنى أن يكون فتح العراق على يدى » . بل لعله ظن أن عمر طمع في أن يجرى إلى العراق مكانه . وإن يكن هذا الظن قد دار بخاطره فلعله لم يكن مخطئاً ولا آثمًا فيه . فقد روى عن أبي بكر أنه قال وهو في مرضه الأخير : « وددتُ أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يدى كليهما في سبيل الله » .

ولقد توقع أبو بكر أن تدور مثل هذه الحواطر بنفس خالد فيكون لما أثر في تصرفه ، ولذلك قال له : « إياك أن تعود لمثل ما فعلت » ، يشير إلى حجه بغير استئذان ، وينبه إلى أن واجبه الأول أن ينفذ أمر الخليفة إليه ، وألا يقوم بعمل لا يرضاه . وأكبر الظن أن ما توقعه الخليفة من برم خالد بترك العراق هو الذى جعله يُفرغ كتابه في هذه الصيغة وفيها ما فيها من تمليق خالد وكبريائه ، وفيها ما فيها من تخويفه الخسارة والخذلان إن دخله العجب أو دلَّ بعمل ؛ « فإن الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء » .

بل لقد أراد أبو بكر أن يزيل من نفس خالد كل مظنة ، فأمره أن يستخلف المثنى بن حارثة على العراق في نصف الناس وأن يأخذ معه النصف ، ثم أضاف في ختام كتابه : « فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ، ثم أنت على عملك » (١) . لا خوف إذن من أن يجرى إلى العراق عمر أو غير عمر ؛ فالمثنى هو الذى سيخلفه ، فإذا فتح الله الشام على خالد عاد إلى العراق .

كيف حجب
أبو بكر إليه
هذه المهمة

(١) وفي رواية : « فإذا فتح الله على المسلمين الشام فارجع إلى عملك بالعراق » .

ولم يكُ خالد في ريب من أن الله سيفتحه عليه . ولئن بلغه من أنباء المسلمين هناك ما بلغه ، لقد كان مطمئناً إلى أنه سيف الله وأنه لن يغلب ، فليمثل أمر أبي بكر وليذهب للمقاء الروم . و « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » ، ذلك قوله تعالى في المؤمنين . وليس كإيمان خالد إيمان ، وليس كسيف الله سيف مؤمن .

ويوم يهزم خالد الروم فذلك يوم الفصل الأكبر . ويومئذ لا يقول ابن الخطاب مثل الذي قاله في أعقاب مقتل مالك بن نويرة ، وفي أعقاب غزوة اليمامة . ويومئذ لا يكون لطامع في العراق مطمع . بل يرجع هو إلى الحيرة فيتأهب لفتح المدائن وفضّ إيوان كسرى على من فيه ، ثم يسير غازياً أرض العجم ما شاء الله أن يسير .

على أن خالد أقدر ما سيواجهه بأرض الروم ، فأحضر أصحاب رسول الله جيش خالد للشام الذين كانوا معه بالعراق واستأثر بهم لنفسه ، وترك للمثنى مثل عددهم ممن لم يكن له مع الرسول صحبة . ونظر بعد ذلك فيمن بقي ، فاختر من كان قدم على النبي وافداً أو غير وافد وترك للمثنى مثل عددهم من أهل القناعة ، ثم قسم سائر الجند قسمين . فلما رأى المثنى صنيعة غضب وقال : « والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، وكيف تُعزّرنى منهم ! والله ما أرجو النصر إلا بهم ! » . فلما رأى خالد ذلك منه تلكأ عليه بعض الشيء ، ثم عذره وأرضاه وأعاضه من الصحابة أبطالا مجربين .

مع هذا خشى خالد أن يُصيب المسلمين بالعراق شرّ بعد مغادرته إياهم ، فرد الضعفاء والنساء منهم إلى المدينة ، حتى لا يشغل المثنى بهم إذا أراد الفرس مناجزته . ولما اطمأن إلى مسيرتهم تجهز فيمن معه من الجند للسفر إلى الشام . وخرج المثنى في كتيبة من الجند فشيّعه إلى تخوم الصحراء .

أى طريق يسلك ليُنسى الروم وساوس الشيطان ؟ إن بينه وبين الشام
أى طريق يسلكه
خالد ؟
صحراء جرداء لا تطرقها قافلة ويضل في مفاوزها الدليل الخريت ! أبتخطى

البادية من الشمال بين عين التمر وما حاذاها من بلاد الشام ؟ ذلك أقصر الطرق خلال البادية . لكن قبائل العرب النازلة منه على تخوم الشام موالية كلها للروم ، ولقيصر ثم جند مقيمون قد يلتقونه فيقطعون عليه طريقه . أفينحدر إلى بلاد العرب ثم يأخذ الطريق التي سلكها عكرمة وأبو عبيدة وسائر الأمراء قباه ؟ إنه إن يفعل فلن يبلغ جيوش المسلمين إلا بعد أمد طويل . ماذا يصنع إذن حتى يتقى مقاومة العدو ويقهر طول الأمد ؟ ! إلى هذا انصرف تفكير القائد العبقرى . وتفكير العباقرة لا يوجهه المنطق وإنما يهديه الإلهام ؛ فليس لنا معشر الناس إلا أن نسير وراء القائد الملهم لا نراجع منطقته ولا نسأله عما يفعل . ومالنا نسأله أو نراجعه ! ألم يسر بنا من ظفر إلى ظفر ! لقد سحر ألبابنا وملك أفئدتنا من قبل حين وقفنا معه مواقف أرتنا الموت رأى العين ، ثم خرجنا وإياه من المعركة متوجين بأكاليل النصر . فلنلق إليه قيادنا مطمئنين ؛ فهو سيف الله ، والله ناصره لا محالة .

والواقع أن مسيرة خالد من العراق إلى الشام أدنى إلى القصص الروائي منها إلى الحقيقة الواقعة . ذلك أيسر ما يقال عن أشهر الروايات فيها وأكثرها قصداً . ولذلك يمر بعض المؤرخين بها لا يقفون عندها ، ويكتفى بعضهم بالإشارة إليها ، ويقدمها ابن خلدون لقارئه بكلمة « ويقال » . ولم يفصلها أحدٌ ما فصلها ابن قتيبة في بعض كتبه . ونُقِّد ابن قتيبة يذكرون عنه أنه مؤرخ أديب شديد الولع بالقصص . على أن الوقائع الأساسية في هذه الرواية مذكورة في تاريخ الطبرى وفي ابن الأثير وفي أكثر الكتب . وقد يكون فيها ما يحيرُ اللب ويذهل الذهن . لكن أعمال خالد ، عبقرى الحرب وأكبر قائد عرفه العالم في عصره ، لا تخضع كلها للمقاييس المطردة في أمر غيره من القواد . فإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكرنا غير مرة من اضطراب الروايات عن عهد أبي بكر ، قام هذا وذاك عذراً للمؤرخين جميعاً ، سواء منهم من يثبت هذه الرواية المشهورة ومن يتخطاها أو يبدى الريبة فيها .

القصة المشهورة
في اجتياز خالد
الصحراء إلى
الشام

وتذهب هذه الرواية إلى أن خالد لم ير اجتياز الصحراء من عين التمر إلى شمال الشام ، مع قصر هذا الطريق ، مخافة القبائل الموالية للروم والجيوش

الجائمة في هذا الجانب من إمبراطورية قيصر . لذلك انحدر بجيشه إلى دومة الجندل في طريقه الذي سلكه حين ذهب من الحيرة مدداً لعياض بن غنم^(١) . ومن دومة سلك خالد طريق وادي سرحان ، حتى إذا بلغ قُراقِر أغار على أهلها من بني كلب . ولو أنه تابع مسيرته في طريق الوادي لبلغ بُصرى في أيام ، ولا تصل بجيش أبي عبيدة وسائر جيوش المسلمين على اليرموك . لكنه قدر أنه ربما لقي من جيوش الروم قبل بُصرى من يصدّه عن غايته أو يُطيل مكثه دونها . لذلك قال لأصحابه : « كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ؛ فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين » . وأجابوه كلهم : « لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش وإنما يأخذه الفذ الراكب . فإياك أن تغرر بالمسلمين » . لكن خالداً كان قد عزم سلوك هذا الطريق ، فقام إلى أصحابه فقال لهم : « لا يختلفن هديكم ، ولا يضعفنّ يقينكم . واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكثرث لشيء يقع فيه مع معونة الله له » . وتحمس أصحابه حين سمعوا قوله هذا ، فكان ردهم عليه : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك » .

حديث رافع بن
عميرة الطائي

والتمس خالد دليلاً يسلك به هذه الطريق ، فجاءه برافع بن عميرة الطائي ، فقال له : « انطلق بالناس » . قال رافع : « إنك لن تطيق ذلك بالخيال والأنفال . والله إن الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه . إنها لخمس ليال لا يصاب فيها ماء » . وحقق إليه خالد وقال : « لا بد والله من ذلك ، فمرّ بأمرك » . وكان رافع قد سمع حديث خالد لأصحابه ورأى إقرارهم إياه ، وأيقن أن لا مفر من نفاذ أمره ، فقال : « استكثروا إذن من الماء . من استطاع منكم أن يُصرّ أذن ناقتة على ماء فليفعل ، فإنها المِهالك إلا ما دفع الله » . وطلب إلى خالد أن يجيئوه بما استطاعوا من إبل سمان . فلما جاءوه بها عمد إليها فظمأها ، حتى إذا أجهدوا عطشاً أوردوا الماء عللاً بعد نهل^(٢) فلما امتلأت صرّ آذانها وشده مشافرها لثلاث جتر . وانطلق خالد بن الوليد بالجيش يتقدمه رافع .

(١) راجع ص ٢٢٣ من هذا الكتاب .

(٢) العلل : الشربة الثانية . والنهل : الشربة الأولى .

وقضوا خمسة أيام يسيرون في وحشة الصحراء ووجدتها وكل اعتمادهم بعد الله على دليلهم ؛ ينزلون في كل يوم فيأكل الرجال ويشربون مما معهم من الماء ، ثم يشقون بطون عدد من هذه الإبل التي اتخذوها صهاريج ويخرجون الماء منها ويسقونه الخيل . فلما كان اليوم الخامس نادى خالد دليله : « ويحك يا رافع ! ما عندك ؟ » قال رافع : « خير . . . أدركتم الرىّ إن شاء الله ، وأنتم على الماء » . وكان رافع أرمداً فأدار رأسه يمنة ويسرة ثم قال : « أيها الناس ، انظروا علمين كأنهما ثديان » . فلما أتوهما وقف عليهما وقال : « انظروا ، هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ » قالوا : ما نراها . قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون . هلكتم إذن والله وهلكت لا أبا لكم ! اضربوا يمنة ويسرة » . فنظروا فوجدوا الشجرة قد قطعت وبقيت منها بقية . فلما رآها المسلمون كبروا وكبر رافع ، ثم قال : « احفروا في أصلها » ، فحفروا فنبع الماء من عين فشرب الناس حتى رويوا . فلما اطمأنوا إلى السلامة قال رافع : « والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة مع أبي وأنا غلام » .

خالد يبلغ الشام
ويعسكر بجندته
إلى جوار زملائه

أدرك خالد وجيشه الرىّ حين بلغوا هذا المكان ، وأدركوا عنده مفاتيح الشام . ودخل خالد سوى قبيل الصبح فأغار على أهلها من بهراء . وفزع الناس حين رأوا المسلمين ، ولم يطيقوا مقاومتهم فأذعنوا طوعاً أو كرهاً . وسام أهل تدمر بعد مقاومة يسيرة . ولم ير خالد أن يهاجم دمشق وهو إنما جاء مدداً لجيوش المسلمين المقيمة على اليرموك . فسلك غير بعيد طريق حواريين ، حتى إذا أتى قصم صالح أهلها قضاة ، ومنها انحدر إلى أذرعاء ، وأغار على غسان بمرج راهيط ، ثم سار حتى نزل على قناة بصرى وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل ابن حسنة ويزيد بن أبي سفيان . وتقدمهم خالد فاقتحموا بصرى وفتحها الله عليهم . ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمر بن العاص بالعربات عند الغور . وعسكر خالد بجنوده إلى جوار زملائه ، وبذلك اكتمل جمع المسلمين على اليرموك .

هذه هي الرواية المشهورة عن سير خالد من العراق إلى الشام . وأنت ترى أنها أقرب إلى القصص الروائي وإن تضافرت روايات المؤرخين عليها . واجتياز

المفازة بدلالة رافع بن عميرة أعجب ما فيها . على أن هذا العجب لم يمنع من تصديقها ، أن كان لخالد ما هو أعجب منها ؛ فأنحدره من عين التمر لغيث عياض بن غنم أمام دومة بعض هذا العجب . وحجّة خالد في سرّ من الناس عجب أيضاً . وحروب خالد باليمامة وفتح العراق عجب كل العجب . وهو إنما كان يختار أقرب الطرق إلى الظفر وأدناها إلى بلوغ النصر . وهذه المفازة التي اجتازها قد بعدت به عن مخاطر أراد اتقاءها ، وأدنته من لقاء جيش المسلمين . فلا عجب أن تصدق الرواية عنها ، ولا عجب أن يتخذ خالد هذا الطريق طريقه ، وإن حيّر ذلك ألبابنا وأذهل أذهاننا .

عدد القوات التي
سارت مع خالد
من العراق

أراد بعض المؤلفين الذين أقرأوا هذه الرواية أن ينقوا عنها كل ما يبعد بها عن مقتضى العقل . اختلف في عدد الجيش الذي سار به خالد من العراق ، فقليل كان تسعة آلاف ، وقيل ستة آلاف ، وذهب بعضهم إلى أنه ثمانمائة ، أو ستمائة ، أو خمسمائة . وأصحاب الرواية الأولى يذكرون أن خالداً سار بنصف الجيش الذي كان بالعراق تنفيذاً لأمر أبي بكر ، وكان هذا الجيش ثمانية عشر ألفاً أو نحوها . أما الذين يذكرون أن هذا الجيش كان دون الألف فيؤيدون رأيهم بأن القصد من مسيرة خالد إلى الشام إنما كان لعبقريته في القيادة ؛ أما الجيوش التي كانت تواجه الروم فلم تكن قليلة العدد ، وكان المدد يحىء لها من المدينة متصلاً ؛ فمسيرة خالد في عدد قليل مقصودة حتى لا تحول ضخامة العدد بينه وبين السرعة في نجدة من رآهم الخليفة في حاجة إلى نجدته .

ويتوسط بعضهم فيذهب إلى أن خالداً فصل من العراق في النصف من جيشه ، فلما بلغ قُراقر وعزم اجتياز المفازة سار خلالها في بضع مئات ، وتابع سائر الجيش مسيرته بوادي سرحان حتى اتصل بجيوش المسلمين عند بُصرى . وليس هذا الرأي بالمستحيل وإن اعترض عليه بأن مخافة خالد أن تستقبله جموع الروم فتحبسه عن غياث المسلمين تطعن على خالد أنه عرض القسم الأكبر من جيشه لأمر لم يرد أن يتعرض له هو ومن اختارهم للسير معه .

وأياً كان الرأي في مسيرة خالد وفي الجيش الذي صحبه من العراق فإنه الصديق أبو بكر

أدرك المسلمين باليرموك وقام معهم لقتال الروم . ولقد صادف مجيئه أن عزز
 هـِرقل جيشه بباهان القائد القادر الذي هزم خالد بن سعيد . واغتبط الروم
 بباهان اغتباط المسلمين بخالد بن الوليد . وأقام الجيشان يتحين كل منهما فرصة
 النزال يريدان مواتية ليتم له بها النصر على عدوه .

خالد وباهان
 يصلان إلى
 اليرموك في وقت
 واحد

والحق أنه كان موقفًا بالغًا غاية الدقة . ولم تكن كل دقته في فرق ما بين
 الجيشين في العدد ، إذ كان المسلمون لا يزيدون على أربعين ألفًا ، في حين كان
 الروم أربعين ومائتي ألف ؛ بل كانت دقته كذلك في تفوق عُدّة الروم على
 عُدّة المسلمين . لم يكن هذا التفوق مما نعهده بين الجيوش في عصرنا الحاضر ،
 فلم يكن الروم بأعلم من العرب بأساليب الحرب ؛ لكنه كان تفوقًا يضاف
 إلى العدد فيزيده بأسًا وإن لم يظهر له أثر طيلة الشهرين اللذين انقضيا منذ
 جمع المسلمون وجمع الروم قواتهم على اليرموك . وعلة ذلك أن المسلمين كانوا
 يتفوقون على الروم بقوتهم المعنوية . كانت جموع الروم خليطًا من البدو
 المقيمين بالشام ومن جيوش هرقل التي غزت الفرس من قبل . ولم تكن بين
 هؤلاء وأولئك رابطة تجمعهم ، ولم يكن لهم مثلٌ أعلى يجاهدون في سبيله .
 أما المسلمون فكانوا جميعًا من العرب ، وكانوا جميعًا يؤمنون بأنهم في غزوهم
 الروم يجاهدون في سبيل الله حق جهاده ، فمن استشهد منهم فله الجنة فيها نعيم
 مقيم ومغفرة من الله ورضوان ، ومن لم يؤت الشهادة كُتِب له جهاده عند الله ،
 ثم كان له من مغنم الحرب ما يزيده حبًّا فيها وإقبالًا عليها . ترى لأى القوتين
 في هذا الموقف يكون الغلب : قوة العدد أم قوة الإيمان ؟ ! قوة المادة أم قوة
 الروح ؟ ! .

وتعاقبت الأيام وانقضى أسبوع وأسابيع وثلاثة أسابيع والجيشان في
 موقفهما لا تحين لأيهما فرصة النزال . كيف أطاق خالد بن الوليد هذا الموقف
 وما صبر قط لمثله من قبل ؟ أفراسته كثرة جيوش الروم فهابها كما هابها زملاؤه ؟
 أم كان يدرس الموقف ويفكر في أسباب النصر ؟ ! أم أن عوامل أخرى كان
 لها في نفسه من الأثر ما قعد به كل هذا الزمن عن القيام بهجوم ؟ كل ما تذكره
 الروايات أن جيش المسلمين لم يكن موحد القيادة ، وأن خالدًا جاء من العراق

مدداً لزملائه ولم يحى أميراً عليهم . بل لقد كان الأذان للصلاة ينادى به في كل معسكر على حدة ، وكان كل أمير من أمراء الجند ينظم خطته بما يكفل عدم تراجعهم . لذلك لم يستطع خالد أن يقوم بهجوم وحده ، وليس في إمرته على أكثر تقدير غير تسعة الآلاف الذين جاءوا معه من العراق . وقد أدى هذا التفرق في القيادة إلى هجمات من جانب الروم ردها المسلمون ثم قعد بهم تفرق القيادة عن القيام بمثلها .

ماذا يستطيع خالد أن يفعل في مثل هذا الموقف ؟ إن أبا بكر لم يولّه إمارة الجيش حين كتب إليه بالسير من العراق إلى الشام . فلو أنه طلب أن يتولاها لأوغر صدر زملائه ولأقام بالمدينة قيامة خصومه وعلى رأسهم عمر بن الخطاب . لكن البقاء في هذا الموقف على ضفة اليرموك يُزرى به ويذهب عزم المسلمين . والروم ينشطون كل يوم وينظمون صفوفهم ، وتدل أنباؤهم على أنهم يتجهزون لموقعة حاسمة . وقد عرف أمراء الجند من زملاء خالد هذه الأنباء . أفلا يستطيع أن يُقنعهم برأيه في وحدة القيادة ؟ ! لكنه لا يثق بأحد منهم ما يثق بنفسه . وهو إن دعا إلى أبي عبيدة أو إلى عمرو مثلاً أغضب سائر الأمراء . فماذا عساه يصنع ؟ ! .

تواترت الأنباء بتجهز الروم وحماستهم لقتال المسلمين بعد أن جاءهم باهان بعدد كبير من القسيسين أقاموا شهراً يحرضونهم وينعون لهم النصرانية إذا لم يقض على هؤلاء العرب البُغاة القضاء الأخير . بل لقد ترمى إلى أمراء الجند على المسلمين أن الروم سينازلونهم في غدهم . وأن باهان صفهم للقتال صفّاً لم يسمع أحد من قبل بمثله . عند ذلك ريعوا واجتمعوا يتشاورون ما يصنعون .

خطاب خالد بن الوليد في زملائه عن الموقف

وبدعوا الحديث عن كل أمير منهم ووجهته للقاء العدو . أما تعبئة الجيش فلم يتناولها البحث إذ كان كل أمير صاحب الرأي في صف جنوده . فلما آن لابن الوليد أن يتكلم حميد الله وأثنى عليه وقال : « إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغى . أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فهذا يوم له ما بعده . ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك

لا يحل ولا ينبغي . وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا . فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبتة . أمسك - الأمراء عن القول هنيهة بعد الذي سمعوا من خالد . إنه على حق . وآية ذلك بقاؤهم شهرين قبل مجيئه وشهراً بعده وهم لا يقدرّون من أمر الروم على شيء . وقد تجهز الروم فعبثوا ، تُرى لو أنهم ظفروا بالمسلمين وردوهم ، فلمن تكون الإمارات التي وعد أبو بكر بها هؤلاء الأمراء ؟ لمن تكون حصص إذا لم يدركها أبو عبيدة ، ولمن تكون اللقاء إذا لم يُقم بها يزيد ؟ ولمن تكون الأردن إذا جلا عنها سُرحبيل ، والعربة إذا أخلاها ابن العاص ؟ وإذا ظفر الروم بالمسلمين فكيف يرجع هؤلاء الأمراء إلى المدينة وقد فصلوا عنها مدداً لعكرمة بعد أن أصاب خالد بن سعيد من خزي الهزيمة ما أصابه ؟ ! .

مرّ ذلك كله بخاطر الأمراء حين سمعوا خالداً ، فقالوا له بعد هنيهة : « هات ! فما الرأي ؟ » قال : « إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر . ولو علم بالذي كان ويكون لقد صحبكم . إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيه ، وأنفع للمشرّكين من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله ! فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه إن دان لغيره من الأمراء ، ولا يزيده عليه إن دانوا له . إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ، هلموا ! فإن هؤلاء قد تهيّئوا ، وإن هذا يوم له ما بعده ؛ إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردّهم ، وإن هزمونا لم نُفلج بعدها . هلموا فانتعاور الإمارة ، فليكن بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غد ، حتى تتأمروا كلكم ، ودعوني أتأمر اليوم » .

ولم يتردد القوم في إجابة خالد إلى ما طلب بعد أن سمعوا كلامه . وما لهم لا يؤمّرونه اليوم الأول وهذه المعركة لا ريب تطول ، وإن هي إلا واحدة من المعارك التي تطاولت ثلاثة أشهر والتي توشك أن تمتد حتى يتداول كل واحد منهم إمارة الجيش مرات ! وهون عليهم ما بلغهم من تجهز الروم أن يدعوا خالداً يتلقى الصدمة الأولى لأنه قد عرض نفسه لها . وما كان لأحدهم أن ينكر مقدرة عليها وهو غازي اليمامة وفاتح العراق .

خالد يتولى إمارة
الجيش العامة أول
يوم للمعركة

وكان خالد أثناء هذا الشهر الذي أقامه بالشام قد عرف من أسرار قيادة الروم ما طوع لعبقريته أن ترسم الخطة للملاقاتهم والظفر بهم . لذلك عبأ الجيش فرقاً ، أو كراديس على تعبير المؤرخين ، كل كُردوس منها ألف رجل ، وجعل على كراديس القلب أبا عبيدة ، وعلى كراديس الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة ، وعلى كراديس الميسرة يزيد بن أبي سفيان ، وجعل على كل كردوس رجلاً من القادة الشجعان أمثال القعقاع وعكرمة وصفوان ابن أمية ومن إليهم . وهذه تعبئة لم تعبئها العرب من قبل ؛ وإنما سوغها خالد بقوله لأصحابه : « إن عدوكم قد كثر وطغى ، وليس أكثر في رأى العين من الكراديس » .

وعهد خالد إلى أبي سفيان في مهمة القاص ، فكان ينتقل بين الكراديس فيقول : « الله ، الله ! إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا اليوم من أيامك ؟ أنزل نصرك على عبادك ! » .

إنما تكثر الجيوش
بالنصر وتقل
بالخذلان

وسمع خالد رجلاً يقول : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » فغضب حين سمعها وصاح : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال . والله لوددت أن الأشقر برئ من تَوَجَّيْهِ وأنهم أضعفوا في العدد » . والأشقر فرسه ، وكان حَفَفي في مسيره بالمفازة . وانتشرت عبارات خالد هذه في المعسكر ، وجعل الجند يتناقلونها من كردوس إلى كردوس ، فتلهب النفوس حمية وتوقظ في القلوب الشوق إلى الاستشهاد . بل لقد تكررت على كل الألسنة كلمته : « إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان » . وذكروا جميعاً غزواته وذكروا قبلها غزوات الرسول . وكيف لا يذكرونها وبينهم ألف رجل من أصحاب رسول الله ، منهم مائة من أهل بدر ! . وخالد بن الوليد هذا ، أليس هو الذى دوخ الفرس وحطم جيوشهم ، وكانوا بالنسبة لجيشه بالعراق كجيوش الروم بالنسبة لهم عدداً ! النصر إذن آت لا محالة . وإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم .

وسرت إلى قلوب المسلمين قوة لم يكن لهم بمثلها عهد منذ نزلوا الشام .

فقد أيقنوا أن خالد أأراد لهذا اليوم أن يكون يوم الفصل . وهم يعلمون أن خالد إذا أراد لم تردّه قوة عن عزمه . ثم لأنهم رأوا الروم تهيئوا من جانبهم إلى موقعة حاسمة فليس إلى اتقائها سبيل . صدق إذن والله خالد : هذا يوم من أيام الله ، يستحب فيه الاستشهاد ، وتفتح فيه أبواب الجنة ، وتوهب فيه الحياة لمن حرص على الموت . لذلك تقدم القادة صفوفهم ، هذا يرتجز ، وذلك يرتجل ، والثالث يتمثل ، وكلهم ينتظر الأمر بالهجوم بصبر نافذ وعزم ثابت على النصر أو الموت .

اتصلت بالروم أنباء عن تجهز المسلمين كما اتصل بالمسلمين نبأ تجهزهم ، أن كان بعض البدو من تلك الأصقاع ينقلون الأنباء متجسسين بين العسكرين . وقد عرف خالد من هؤلاء البدو أسرار قيادة الروم ، كما عرف فزع بعض أمرائهم حين علموا بمقدمه من العراق . وكان چرچة أكثر هؤلاء الأمراء فزعاً . ولعل چرچة هذا كان عربياً ، أو رومياً أقام بالشام السنين الطوال ، فعرف العربية وسمع بأنباء المسلمين . ولقد مال قلبه إلى خالد حين نقل له المتجسسون أنباء نصره ، وعرف خالد ذلك عنه . فلما صدرت أوامر باهان إلى جيوش الروم بالزحف على المسلمين كان چرچة بجيشه في الطليعة ، فتلقاه خالد وفسح له ولعسكره طريقاً . وظن فيلق من الروم أن چرچة في حاجة إلى المدد فانقضوا على المسلمين فأزاحوهم عن مواقعهم وحملوهم على التراجع .

غزوة اليرموك

كان عكرمة بن أبي جهل على كردوسه أمام فسطاط خالد بن الوليد . وقد رأى تسليم چرچة وجنوده فاستراح له . فلما رأى هجمة فيلق الروم وتراجع المسلمين أمامهم ثار في عروقه دمه وصاح في وجه الروم : « قاتلتُ رسول الله في كل موطن وأفر منكم اليوم ! » ، ثم انقلب إلى أصحابه ينادي : « من يبايع على الموت ؟ ! » ، وبايعه ضرار بن الأزور والحارث بن هشام في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم بينهم عمرو بن عكرمة ولده . واندفع هؤلاء أربع المائة الذين بايعوا على الموت على فيلق الروم هجمة رجل واحد ، مستميتين في سبيل ربهم ، وقد تجلى لهم وجهه الأكرم ، وقد أضاء لهم بنوره سبيل الاستشهاد والجنة . وزلزلت الهجمة الروم ، وزادهم زلزالاً أن انضم چرچة وجنوده

الذين بايعوا
عكرمة على الموت

للمسلمين في مهاجمتهم ، مما ثبت في نفوسهم اليقين بغدر بني وطنهم وانضمامهم
لأعدائهم .

ورأى خالد فيلق الروم يرتد فأمر الجيش كله بالتقدم ، فإذا الروم يلقونه
بهجوم ليس دون هجومه عنفاً . هنالك أيقن المسلمون أن لا مفر لهم من
الفناء إلا بالنصر ، فازدادوا بالله إيماناً ، وزاد الإيمان هجومهم قوة ، واندفع
ابن الوليد في مقدمتهم يهوى بسيفه على عدوه فيخطف أرواحهم خطفاً .
وبلغت الحماسة بالمسلمين حتى شارك النساء الرجال ، فكانت لجويرية ابنة
أبي سفيان مواقف تعيد إلى الذاكرة موقف أمها هند في غزوة أحد .

وقاتل الروم مستميتين ، واندفعوا يقتلون من المسلمين كل من وقع في يدهم ،
ولذا ترجحت المعركة واستمر ترجحها طيلة النهار . ووقف عكرمة والذين بايعوه
على الموت لا يتراجع أحد منهم قيد أنملة بعد أن وهب كل منهم لله نفسه ،
وبذلك حملوا وطيس المعركة من بداعتها إلى منتهاها . فلما كانت الشمس في
المغيب بدأت قوات الروم تهن ، وبدا الإعياء على وجوه فرسانهم ، ورأى خالد
أنهم يلتمسون إلى الهرب الوسيلة . أما الهاوية من ورائهم والمسلمون من أمامهم ،
فليس لهم إلى مهرب من سبيل ..

وقدر خالد أن فرارهم يزيد أصحابهم ضعفاً ، فأمر رجاله ففسحوا
طريقاً يؤدي بهم إلى الوادي . ولم يلبث هؤلاء الفرسان حين رأوا وسيلة النجاة
تهيأت لهم أن فروا هاربين وتفرقوا في البلاد . عند ذلك انقضَّ خالد بفرسانه
ومشاته على مشاة الروم فاقتحموا عليهم خندقهم فتراجعوا ؛ وكانت وراءهم
هاوية الواقوسة فتردوا فيها وكأنهم جدار دك من أساسه . وشدد المسلمون
الضغط عليهم فجعلوا يتراجعون فيتردى في الهاوية منهم فريق بعد فريق .
وظلوا كذلك يتلاحقون ، حتى قيل إنه قتل منهم يومئذ مائة ألف ، وقيل مائة
وعشرون ألفاً .

وقُتل يومئذ تذارق أخو هرقل ، كما قتل عدد كبير من أمراء الجيش
على الروم . وكان الفيقر وطائفة معه من أشرف الروم قد نجوا من الموت .

استماتة الروم في القتال

الروم يفرّون وقوادهم يقتلون

فلما رأوا ما حل بأصحابهم تجلّلوا برانسهم ونكسوا رؤوسهم وجلسوا حيث كانوا فقتلوا ، وكان الموت منجاتهم من العار . أما باهان ففر ونجا ليقف أمام المسلمين من بعدُ في مواقع لا يكون حظه فيها خيراً من حظه في في اليرموك .

تمت هزيمة الروم ، فدخل المسلمون عسكرهم ، واستقر خالد في رواق تذارق ، وغنم المسلمون كل ما في عسكر الروم ، فكان نفلُ الفارس منه ألفاً وخمسة دراهم . ومن الرواق الذي أقام به شقيق قيصر خلال ثلاثة الأشهر التي انقضت مذ وقف المسلمون والروم وجهها لوجه ، مدّ خالد بصره إلى الميدان الذي فر منه الروم فأصبح خلاء ليس لهم فيه نبأ ولا هسيس ، ثم رفعه إلى السماء شكراً لله على نعمائه .

خالد في رواق
تذارق

ولم يكن عدد القتلى من المسلمين في وقعة اليرموك قليلاً ، إذ بلغ ثلاثة الآلاف ، من بينهم عدد من كبار الصحابة والفرسان ذوي المكانة والبلاء . وكان عكرمة ابن أبي جهل وابنه عمرو قد أصابتهما الجراح من كل جانب أثناء المعركة . فلما أصبح القوم جيء بهما إلى خالد برواق تذارق ، فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمرو بن عكرمة على ساقه وجعل يمسح عن وجهيهما ويقطر في حلقيهما الماء حتى استشهدا . وأصيب عينا أبي سفيان بسهم أخرجه منها أبو حشمة .

عكرمة بن أبي
جهل وابنه بين
قتلى المسلمين
باليرموك

قضت موقعة اليرموك على كل أمل للروم في استبقاء الشام . فلم يكدهم قتل يسمع بهزيمة جيشه حتى جلا عن معسكره بجمّص وجعلها بينه وبين المسلمين ، وأقام عليها أميراً كما أقام من قبل على دمشق أميراً . أما المسلمون فما لبثوا حين فرغوا من أمر اليرموك أن ساروا إلى أرض الأردن فطهروها من رافضة الروم ، ثم لاحقوهم إلى دمشق وحاصروهم بها .

جلاء هرقل عن
حصص

وحصار دمشق وتغلّب المسلمين عليها وما تلا ذلك إلى أن تم فتح الشام قد حدث في خلافة عمر ، على رواية الطبري ومن إليه .

لم نقف من قصصنا أنباء اليرموك عند نبأ تواترت روايته واختلف مع

ذلك فيه . ذلك النبأ أن محمّية بن زنيّم قدم بريداً من المدينة بعد ما بدأت الموقعة ، فأخذه الفرسان وسألوه ما وراءه ، فأخبرهم بأن الأمداد في طريقها إليهم ؛ فجاءوا به إلى خالد فأسرّ إليه أن أبا بكر قبض ، ودفع إليه كتاباً أخذه خالد فجعله في كِنَانَتِهِ مخافة أن ينتشر الخبر في الجند . وكان هذا الكتاب يحوى استخلاف عمر بن الخطاب وأمرًا بعزل خالد عن إمارة الجيش ، وبتأثيره أبا عبيدة بن الجراح . فلما أتم خالد واجبه وظفر بالروم تنحى عن القيادة وتولاها أبو عبيدة مكانه .

وفاة أبي بكر
واستخلاف عمر

عمر يعزل خالدًا
عن إمارة الجيش

هذا نبأ تختلف الروايات فيه مع تواتره . وليس يقع الخلاف على عزل خالد ، فهذا أمر مسلم به ؛ إنما يقع على تصويره في هذه الصورة التي روينها . فالأكثرون يؤيدونها ، وبعضهم يذكر أن الأمر بعزل خالد لم يسلم إليه ، وإنما أخذه أبو عبيدة فأخفاه حتى تمت المعركة ؛ ولم يطالع به خالدًا حتى حاصروا دمشق . ويذهب غير هؤلاء إلى أن أبا عبيدة أمسك عن ذكره حتى فتحت دمشق ، فلما تم فتحها أظهر إمارته وعزل خالد .

وعزلُ ابن الخطاب خالدًا عن إمارة الجند بالشام على النحو الذي رواه الطبرى ومن إليه يثير الدهشة ؛ فلم يكن خالد أميراً على جيش بالشام غير جيشه الذى جاء معه من العراق . ولم يكن أبو عبيدة في هذه الرواية أميراً إلا على جيشه ، شأنه في ذلك شأن عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وشُرَحْبِيل ابن حَسَنَة . وإنما قام خالد على إمارة الجيش عامة يوم اليرموك بالاتفاق بينه وبين سائر القواد . ولو أن النصر لم يتم له في اليوم الأول لكانت القيادة لغيره في اليوم الثانى ، ولغيرهما في اليوم الذى يليه . والدهشة لعزل ابن الخطاب خالدًا تدعونا أن نتلمّس في غير رواية الطبرى وأصحابه ما يزيلها .

الرواية الثانية
في فتح الشام

وسنرى أن الأزدي والواقدي والبلاذري يخالفون الطبرى كذلك في الترتيب التاريخي لوقائع الفتح في الشام ، ويختلفون على هذا الترتيب فيما بينهم . فقد قيل إن أجنادين ودمشق وغيرهما كانت قبل اليرموك ، وقيل إن اليرموك كانت آخر الوقائع . وسنقص هذه الروايات في إيجاز لا ينجى عليها ويصور ما تنطوى عليه وما تتفق أو تختلف مع الطبرى فيه .

هذه الروايات تذهب إلى أن الله عزم لأبي بكر فتح الشام بعد أن تمت حروب الردّة ولم يكن على تخومه من المسلمين أحد . ثم إنه أصبح يوماً ودعا إليه أهل الرأى بالمدينة وأفضى إليهم بما استقرّ عليه رأيه . فلما اطمأنوا إليه على ما ذكرنا في الفصل السابق ، بعث إلى أهل اليمن وإلى غيرهم من المسلمين يستنفرهم لغزو الروم بالشام . وفي انتظار مجيئهم جعل يُعِدّ جيوشه من أهل المدينة ومكة والطائف وما جاورها . وقد عيّن من هؤلاء أربعة ألوية جعل عليها يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح ومُعَاذ بن جبل وشُرْحَبِيل بن حسنة . وفي رواية أنه عيّن لكل أمير من هؤلاء مِنطَاقَة من فلسطين أو الشام ، ثم تكون القيادة العامة على الجيوش لمن يقع القتال في مِنطَاقَتِهِ . وفي رواية أخرى أنه جعل أبا عبيدة أميراً على هذه الجيوش جميعاً ، وجعل يزيد بن أبي سفيان خلفه في الإمارة^(١) . وتمّ تجهيز هذه الجيوش للسير حين أقبل ذو الكلاع الحميري وسائر أمراء اليمن على قبائلهم من مَذْحِج وطيء وأسد وغيرهم . هنالك ودّع أبو بكر يزيد بن أبي سفيان وجيشه إلى الشام وأردفه بـزَمْعَة بن الأسود وأوصاه بما سبق أن ذكرناه .

وضاقت المدينة بالقادمين من أرجاء شبه الجزيرة ، فخرج أبو بكر إلى ثنية الدواع فوجّه الجيوش منها إلى الشام . وقد انضم خالد بن سعيد بن العاص إلى جيش أبي عبيدة الجراح مفضلاً لإيَّاه على ابن عمه يزيد بن أبي سفيان ؛ لأنه أسبق في الإسلام ، ولأنه أمين الأمة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وخرجت جيوش اليمن ومعها نساؤها وأبنائها تسير مع المهاجرين والأنصار فيمتلئ بهم فضاء الصحراء . وجاء إلى المدينة بعد مسيرهم جند من اليمن ومن سائر العرب بعثهم الخليفة في أثر من تقدّموهم لينضموا إلى أي الأمراء شاءوا .

ضيق المدينة
بجيوش المسلمين
إلى الشام

وكان هيرقل بفلسطين حين بلغت أنباء المسلمين ومسيرتهم لغزو

(١) وفي رواية البلاذري أن أبا عبيدة استغنى أبا بكر حين أراد أن يعقد له على لواء إلى الشام ، وأن عمر بن الخطاب هو الذي ولاه على الشام كله حين استخلف .

بلاده عند ذلك جمع رءوس المدن وحرّضهم على قتال هؤلاء « الحفّاة العُراة الجياع » الذين خرجوا إلى بلادهم ، وقال لهم : « وأنا شاخص عنكم وممدكم بالخيول والرجال . وقد أمّرت عليكم أمراء فاسمعوا لهم وأطيعوا » . ثم إنه خرج من فلسطين إلى دمشق فأبى حمص فأبى أنطاكية ، وجعل يحرّض الناس ويقول لهم مثل ما قال لأهل فلسطين ، وأقام بأنطاكية يتخذ لمواجهة المسلمين عدته .

وبلغ أبو عبيدة أرض الشام ماراً بوادي القرى وبالبحر . فلما دخل مآب قاومه جند من الروم لم يلبث أن شتّتهم . ولما بلغ أبو عبيدة الجابية جاءته أنباء هيرقل تصف تجهز الروم للقاء المسلمين بجيش لم يسمع بمثله عدداً وعدة . عند ذلك كتب إلى أبي بكر يستشير ويستمدّه . وكتب يزيد بن أبي سفيان كذلك يذكر أن انسحاب هرقل إلى أنطاكية آية خوفه وانزعاجه . ورضى أبو بكر عن كتاب يزيد وأجابه يشجعه . أما جوابه إلى أبي عبيدة فلم يخل من بعض اللوم . وفي الكتابين ذكر أبو بكر أنه ممدّ المسلمين بأضعاف ما يمدّ هرقل به أمراء جنده .

هل مكة وفتح
الشام

وكتب الخليفة إلى أهل مكة يشاورهم ، فغضب عمر ورأى في استشارتهم تسوية لهم بالسابقين الأولين من المسلمين . وعتب أهل مكة على ابن الخطاب ، وكان مما قاله عكرمة بن أبي جهل : « أما إنكم إن كنتم تجدون قبل اليوم في عداوتنا عقالا فلستم اليوم بأشدّ على من ترك هذا الدين وعادى المسلمين منا » .

كانت العرب في هذه الأثناء تنسل من كل صوب وحتدّب إلى المدينة تريد أن يكون لها في غزو الشام نصيب . وجمعهم أبو بكر ، وجعل عمرو ابن العاص عليهم وعلى من جاء من أهل مكة . وسأل عمرو : « أأست أنا الوالى على الناس ؟ » وأجابه الخليفة : « أنت الوالى على من معك من ها هنا . فإن جمعتكم حرب فأمرىكم أبو عبيدة بن الجراح » . ولما آن لعمر أن يسير توجه إلى عمر بن الخطاب فسأله أن يكلم أبا بكر ليجعله أميراً على المسلمين بالشام قال عمر : « لا أكذبك ، ما كنت لأكلمه في ذلك أبداً وأبو عبيدة

أفضل منزلة عندنا منك» . وألح ابن العاص يقول : « إنه لا ينقص أبا عبيدة شيئاً من فضله أن أليّ عليه » . ولم يغير هذا الكلام من رأى ابن الخطاب ، بل أجابه : « ويحك يا عمرو ! إنك لتحب الإمارة . والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا . فاتق الله يا عمرو ولا تطلب بشيء من سعيك إلا وجه الله . فاخرج إلى هذا الجيش ؛ فإنك إن لم تكن أميراً هذه المرة فما أسرع ما تكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد » . ورضى عمرو وسار بجيشه إلى الشام بعد أن ودّعه أبو بكر ونصح إليه .

وكتب أبو بكر إلى أبي عبيدة يستحثه على الغزو . لكن تقدّم المسلمين بالشام كان بطيئاً لم يغير من بطئه وصول الأمداد ثم وصول عمرو بن العاص إليهم . بل لقد ظل أبو عبيدة يكتب إلى الخليفة يذكر له : « إن الروم وأهل البلد ومن كان على دينهم من العرب قد اجتمعوا على حرب المسلمين » ويطلب إليه رأيه . عند ذلك ضاق أبو بكر ذرعاً ، فرأى أن يُنسى الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ، فكتب إليه بالعراق يقول : « إذا جاءك كتابي هذا فدع العراق وخلف فيه أهله الذين قدِمَت عليهم وهم فيه ، وامض متخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدِموا العراق معك من اليمامة وصحبوك من الطريق وقدِموا عليك من الحجاز حتى تأتى الشام فتلقى أبا عبيدة ابن الجراح ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك » .

أبو بكر يبعث
خالداً إلى العراق
وكتابه إليه في
ذلك

غضب خالد حين بلغه الخبر فقال قبل أن يقرأ كتاب الخليفة : « هذا عمل عمر . نفس على أن يفتح الله العراق على يدي » . فلما قرأ كتاب الخليفة ورآه قد ولاّه على أبي عبيدة وعلى الشام كله اطمأن وقال : « أمّا إذ ولّاني فإن في الشام خلفاً من العراق » .

يذهب المؤرخون الذين يروون الحوادث على هذا النحو إلى أن خالد كان بالحيرة ولم يكن قد فتح الأنبار ولا عين التمر حين جاءه كتاب أبي بكر . فلما تجهّز للخروج إلى الشام سار إليهما ففتحهما وانحدر منهما إلى قراقر ،

ومن هناك اجتاز المفازة ودليله رافع بن عَمِيرَةَ الطائي حتى بلغ سُوى من أرض الشام .

وفي هذه الأثناء كان أبو بكر قد كتب إلى أبي عبيدة يقول له : « أما بعد ، فإنني قد وليت خالد بن الوليد قتال الروم في الشام فلا تخالفه ، واسمع له وأطع أمره ، فإنني وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد » . وكتب خالد إلى أبي عبيدة يقول له : « أما بعد ، فإنني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة في دار الدنيا . فقد أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني بالمسير إلى الشام وبالمقام على جندها والتولي لأمرها . والله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه . وأنت - رحمك الله - على حالك التي كنت بها لا يُعصى أمرك ، ولا يُخالف رأيك ، ولا يُقطع أمر دونك ؛ فإنك سيد من سادات المسلمين لا ينكر فضلك ، ولا يستغنى عن رأيك . تتم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحمنا وإياك من عذاب النار . والسلام عليك ورحمة الله » .

كتاب خالد إلى
أبي عبيدة
ابن الجراح

وسار خالد من سُوى إلى اللّوى ، ثم إلى قُصم حيث صالح بني مَشْجَعَةَ ، ومن هناك انحدر إلى الغُوَيْرِ وذات الصنمين حتى بلغ غُوطَةَ دِمَشْقَ بعد أن بث الفرع والرعب حيث سار ، وبعد أن دانت له تدمير وصالحه^(١) أهلها .

ومن الغُوطَةِ سار خالد إلى ثَنِيَّةِ الْعُقَابِ يريد دمشق . وإنما سميت هذه الثنية « ثنية العقاب » بعد غارة خالد لأنه نشر بها العقاب راية رسول الله . وعلى ميل من الباب الشرقي لدمشق نزل ديراً عُرف بعده باسم دير خالد . ويروى أن أبا عبيدة أدركه هناك ، وأن أول حصار لدمشق بدأ يومئذ .

والراجح في الروايات جميعاً أن خالد لم يقم أمام دمشق ، بل تخطاها إلى قناة بُصْرَى حيث اجتمعت قوات المسلمين . وأما الروايتين صححت فقد نُمِيَ إلى المسلمين أن هرقل جمع جيشاً عظيماً بأجنادين ليهاجمهم ، فساروا لقتاله من

(١) وروى البلاذري أنه سار من تدمر إلى حواريين فمرج راهط ومنها إلى غُوطَةِ دِمَشْقَ .

بُصرى، أو أنهم فكوا حصار دمشق وساروا لقتاله منها^(١). والتقى الروم والمسلمون بأجنادين قبل أربعة وعشرين يوماً من وفاة الصديق .

وبأجنادين اجتمع المسلمون جميعاً لإجابة لكتاب وجهه خالد إلى
اجتماع المسلمين جميعاً بأجنادين
أمرأء الجند : يزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة . وعمرو بن العاص .
وعباً خالد هذه الجنود فجعل أبا عبيدة على المشاة ، ومعاذ بن جبل على
الميمنة ، وسعيد بن عامر بن حَزِيم الجُمُحَى على الميسرة، وسعيد بن زيد بن
عمرو على الفرسان ، وطفق هو يحرّض الناس متنقلاً بين الصفوف لا يستقر
في مكان .

وبادر الروم المسلمين بالقتال . وكان خالد قد أمر رجاله أن يؤخروه إلى
صلاة الظهر . ورأى سعيد بن زيد كثرة القتلى من المسلمين فنادى يستعجل
المعركة . هنالك تقدم خالد الفرسان وأمرهم أن يحملوا معه ، ثم حمل الناس
بأجمعهم ، فانهزم الروم وأنصارهم وقتلهم المسلمون كيف شاءوا وأصابوا
عسكرهم وما فيه .

وارتدَّ خالد بالمسلمين فحاصروا دمشق ، فنزل هو دير خالد مما يلي الباب
الشرقي ، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية ، ونزل عمرو بن العاص على باب
تُوماء ، ونزل سُرحبيل على باب الفراديس ، ونزل يزيد على الباب الصغير الذي
يعرف بكُيسان . وأحاط المسلمون بالمدينة وضيقوا عليها الحصار ، ولا يخامرهم
الريب في أنها ستفتح لهم أبوابها وتسلمهم مفاتيحها .

وكتب أهل دمشق إلى هرقل يستنصرونه ويذكرون له تضيق المسلمين
عليهم وشدتهم في محاصرتهم ، فأرسل هرقل إليهم جيشاً لقيه خالد والمسلمون

(١) وفي رواية الأزدى أن خالداً مر بدمشق ولم يقف عندها إلا ريثما شن هو وأبو عبيدة
الغارات على الغوطة وغير الغوطة . فبينما هما كذلك إذ أتاهما النبأ أن صاحب حمص أقبل في جمع
عظيم من الروم يريد أن يقطع شرحبيل بن حسنة ببصرى . ثم علم خالد وأبو عبيدة أن جموعاً عظيمة
من الروم قد نزلت أجنادين وأن أهل البلد وجموعاً من العرب أسرعت إليهم ، فخرجوا عن دمشق يقصدان
مواجهة هذا الجمع من الروم ، وكان أبو عبيدة على الساقة . وإنه ليسير إذ أدركه أهل دمشق يريدون
قتاله ، فارتد خالد إليهم وقاتلهم ففروا راجعين يتحصنون بالمدينة ثم سار خالد وأبو عبيدة ومن معهما من
المسلمين إلى أجنادين .

بمرج الصُّفَرَّ فهزموه فارتد مدبراً ، وعادوا إلى حصار دمشق .

حصار دمشق
والدفاع عنها

ودافع أهل دمشق عن مدينتهم ما استطاعوا . تحصنوا بأسوارها ، ورموا المسلمين بالنبل من أعلاها ، وبالغوا في تحصين أبوابها ؛ لكن ذلك كله لم يصد المسلمين عن الشدة في الحصار . وعاد أمراء دمشق فكتبوا إلى هرقل يذكرّون أنه إن لم يُسجدهم فلا سبيل لهم إلا مصالحة عدوه وعدوهم . وكتب هرقل إليهم يحرضهم ويشجّعهم ويذكر لهم أنه مرسل المدد وراء رسوله إليهم . لكن المدد طال غيابه عنهم ، فلم يكن لهم بدٌّ من التسليم .

صلح أهل دمشق
مع المسلمين

وصالح أهل دمشق المسلمين . تجرى بعض الروايات بأن أبا عبيدة صالح أهل دمشق القريبيين من باب الجابية ، فلما دخل المدينة بعد توقيع الصالح كان خالد قد فتح الباب الشرقي عنوة . والتقى الأميران ، هذا يقول إنه صالح أهل المدينة ، وهذا يقول إنه فتحها بقوة الجند ، ثم أجاز الصالح . وتجرى بعض الروايات بأن خالداً هو الذي صالح أهل دمشق القريبيين من الباب الشرقي ، وأن أبا عبيدة دخل من باب الجابية عنوة . والمتفق عليه أن الأمر انتهى بالصلح بين الفريقين .

والروايات تجرى كذلك بأن أبا بكر قبض وتولى عمر بن الخطاب أمر المسلمين وجيوشهم لا تزال على حصار دمشق ، وأن ابن الخطاب بعث إلى أبي عبيدة بوفاة أبي بكر وبولايته وب عزل خالد بن الوليد ، فلم يُفَضَّ أبو عبيدة إلى خالد بعزله حتى فتحت دمشق أبوابها . وقيل بل أفضى إليه بأمر العزل فلم يغير ذلك من نشاط خالد ، وأن خالداً صالح أهل دمشق حين دخل أبو عبيدة من باب الجابية عنوة ، فلما قيل لأبي عبيدة : والله ما خالد بأمر فكيف يجوز صلحه ، قال إنه يُجيز على المسلمين أدناهم ، وأجاز صلحه .

هذه رواية الأزديّ والبلاذريّ والواقديّ عن فتح الشام أوجزنا تفاصيلها ولم نُطل الوقوف عند اختلاف الروايات فيها . وهي تختلف كما رأيت عن رواية الطبري في الترتيب التاريخي للوقائع ، وتختلف كذلك معه في أمر خالد بن الوليد وإمارته على الجند وعزله عن هذه الإمارة .

على أن أمرين أساسيين لا يقع عليهما خلاف : أولهما أن أبا بكر هو الذي

أبو بكر وابن الوليد ومكانهما في فتح العراق والشام

قرر غزو الشام كما قرر غزو العراق ، وهو الذى جيَّش الجيوش وسيَّر الأمداد إليهما ، وأن ما تم للمسلمين من نصر على الروم وعلى الفرس فى عهده كان أساس الإمبراطورية الإسلامية . والثانى أن سيف الله خالد بن الوليد كان القائد المظفر فى فتح الشام ، كما كان القائد المظفر فى فتح العراق ، وأن عزل عمر إياه عن إمارة الجند لم يغض من مكانته ولا من عبقريته فى الحرب ، هذه العبقرية التى عرفها رسول الله فيه فسمَّاه سيف الله ، وأقرها له أبو بكر فقال : « ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين » .

تعدر التحقيق التاريخي لوقائع الفتح فى الشام

أما اختلاف المؤرخين فى ترتيب الوقائع فليس يسيراً تحقيقه . لقد رأيت من رواية الطبرى ومن إليه أن خالد بن سعيد ما لبث حين أمره أبو بكر بالتقدم فى الشام أن اجتاز حدوده فانسحب الروم وأنصارهم من العرب أمامه دون قتال ، وأن باهان قائد الروم جعل يتراجع بجيوشه نحو دمشق فيتبعه خالد حتى كانا على مقربة من مرج الصفر ؛ هنالك ارتد باهان فأحاط به وقطع عليه خط رجعتة وقتل فرقة من عسكره فيها ابنه سعيد بن خالد بن سعيد . عند ذلك فر خالد فى كتيبة من أصحابه حتى بلغ ذا المروة على مقربة من المدينة . أما سائر قوات المسلمين فتقهقر بها عكرمة بن أبى جهل إلى حدود الشام ، وهناك أقام حتى أمده أبو بكر بالأمراء والجيوش الذين تقدموا إلى اليرموك دون أن يلقوا الروم . وعسكر الروم على ضفة اليرموك الأخرى . ولم يقع بين القوتين قتال طيأة شهرين سُم الخليفة جمود الموقف أثناءهما فأمد المسلمين بخالد بن الوليد . وأقام خالد مع القوم حتى هزم جيوش هرقل هزيمة نكراء . ويوم تم لخالد هذا النصر قدم حميَّة بن زئيم بريداً من المدينة يحمل النبأ بأن أبا بكر قبض وأن عمر استخلف وأنه عزل خالداً عن إمارة الجيش .

هذه رواية الطبرى ومن إليه . أما البلاذرى ومن شاكلة فيذكرون أن اليرموك حدثت فى عهد عمر ، وهى فى رأى بعضهم آخر الوقائع فى فتح الشام ، كما يذكرون أن أبا بكر جعل أبا عبيدة أميراً على المسلمين لفتح الشام ، وأنه أمده بجيوش كان خالد بن سعيد فى بعضها . وقد فتح أبو عبيدة الجابية ثم أبطأ فى تقدمه وألح على الخليفة بالكتب يستمده ويذكر له من بأس الروم وقوتهم

ما جعل أبا بكر يوفد خالد بن الوليد من العراق أميراً على جيوش المسلمين بالشام ، ويعزل أبا عبيدة عن هذه الإمارة . وسار ابن الوليد حتى انضم إلى قوات المسلمين على قناة بصرى ، ومن هناك التقى المسلمون بقوات الروم العظيمة التي اجتمعت بأجنادين فغلبوها . ثم إنهم حاصروا دمشق وطال حصارهم إياها قبل أن تفتح أبوابها . ويوم فتحت هذه الأبواب جاء بريد المدينة بوفاة أبي بكر واستخلاف عمر وعزل خالد .

تعادل رواية
الطبرى
والبلاذرى في
وقائع الفتح

أكانت اليرموك في عهد أبي بكر كرواية الطبرى ومن إليه ، أم في عهد عمر كرواية البلاذرى ومن شاكلة ؟ ! ربما أيد رأى الطبرى أن واقوصه الواقعة على اليرموك والتي حدثت المعركة عندها ، قريبة من بادية الشام ، ومن تخوم العرب ، ومن طريق وادى سرحان ، وأنها كانت لذلك أدنى الأرض إلى جيوش المسلمين حين التقائها بعد أن جاءت من المدينة تغزو هرقل وإمبراطوريته . وربما أيد رواية البلاذرى ومن شاكلة ما ذكره الطبرى نفسه من أن الروم تراجعوا منذ بدأت الحرب نحو دمشق ، مطمئنين إلى حصونها وإلى قوة المدن الحصينة المحيطة بها ، وأنهم أرادوا بتراجعهم أن يستدرجوا العرب إلى المواقع القوية ليقعوا بهم ويردوهم منهزمين إلى بلادهم فلا تحدثهم أنفسهم بالعود إلى غزو الشام كرة أخرى .

الرأى في عزل
ابن الخطاب
خالد

من العسير ، والأمر ما ترى ، أن نقطع كيف كان ترتيب الوقائع في فتح الشام . أما عزل ابن الخطاب خالداً عن إمارة الجيش فالأمر فيه يسير . فالطبرى والبلاذرى والمؤرخون جميعاً متفقون على أن أبا بكر بعث خالداً من العراق إلى الشام لينسى الروم وساوس الشيطان ، وذلك بعد أن سُمّ جمود قوات المسلمين هناك . وإنما يقع الخلاف على مكان خالد من زملائه الأمراء : أذهب أميراً عليهم جميعاً ، أم ذهب أميراً على القوة التي فصل بها من العراق دون سواها ؟ فإذا انحسم هذا الخلاف تيسر لنا أن نفهم أمر ابن الخطاب بعزل خالد .

يذهب الطبرى ومن إليه إلى أن ابن الوليد ذهب إلى الشام أميراً على القوة التي فصل بها من العراق ، وأنه لم يتول الإمارة العامة إلا يوم اليرموك ،

وذلك حين اتفق مع زملائه أن يتعاوروا الإمارة بينهم ، وأن يتأمر هو اليوم الأول . أما البلاذرى ومن شاكلة فيذكرون أن أبا بكر بعثه أميراً على قوات المسلمين كلها بالشام ، ويثبتون نص الكتابين اللذين بعث بهما الخليفة إلى خالد وإلى أبي عبيدة متضمنين أمره هذا . ولسنا نتردد في الأخذ برواية البلاذرى . فليس طبيعياً أن تقف جيوش دولة بعضها إلى جانب بعض ولا تسند القيادة العامة على القوات كلها إلى أحد أمراء هذه الجيوش . والطبرى نفسه يثبت أن أبا بكر بعث إلى أمراء الجند بالشام أن يجتمعوا عسكرياً واحداً وأن يلقوا زحف المشركين بزحفهم . وهذا أمر لا سبيل إلى نفاذه إذا تفرقت القيادة . وقد أصدر الخليفة هذا الأمر قبل أن يبعث ابن الوليد إلى الشام . فلا بد أن إمارة الجيش العامة كانت لأبي عبيدة أو ليزيد بن أبي سفيان أو لغيرهما من سائر الأمراء . والراجح أنها كانت لأبي عبيدة وإن ذكر بعضهم أنه استعفى أبا بكر منها . أما ذلك ما لا نتردد في القطع به ، فلا شبهة في أن أبا بكر أوفد خالداً من العراق إلى الشام أميراً على جيوش المسلمين كلها ، على نحو ما رواه البلاذرى ومن شاكلة .

ولولا أن خالداً كان الأمير على جيوش المسلمين لما عزله عمر بن الخطاب عن هذه الإمارة أول ما استخلف . فالثابت في كتاب الطبرى وغيره من المؤرخين أن خالداً ظل بعد عزله هذا أميراً على القوات التى كان يباشر قيادتها ، وأنه ظل كذلك حتى عزله عمر عن إمارة قنسرين وعن عمله في الجيش ، وذلك في السنة السابعة عشرة من الهجرة ، وهى السنة الخامسة من خلافة عمر . فالعزل الأول كان إذن عن القيادة العامة ، أما العزل الذى حدث بعد ذلك بما يزيد على أربع سنوات فكان عن عمله كله .

هذا ما نقطع به ، وما لا شبهة عندنا فيه . وهو وحده الذى يفسر تصرف عمر أول ما استخلف . فلو أن خالداً كان أميراً على القوات التى فصل بها من العراق دون سواها لما احتاج عزله إلى أمر من الخليفة ، ولأسترد أبو عبيدة إمارته على جيوش المسلمين بعد يوم اليرموك في رواية الطبرى ، أو بعد دمشق في رواية البلاذرى .

وهذا اليوم الذى عزل ابن الخطاب فيه خالداً عن إمارة الجيش العامة
 إثر معركة من أكبر المعارك فى فتح الشام هو فى حياة خالد من أمجد أيامه .
 وليس يقف مجده فى ذلك اليوم عند انتصاره على عدوه ، فقد كان هذا النصر
 واحداً من عشرات . إنما أكبر مجده يومذاك أنه انتصر على نفسه ، فلم يضعف
 عزل الخليفة إياه من حماسته لله ولدين الله ، ولم ينهه من قوة بأسه وعظيم
 شعوره بواجبه ؛ فقد رضى إمارة أبى عبيدة وسلم بها طائِعاً ، وسار على رأس
 لوائه يخوض غمار المعارك واحدة بعد أخرى فإذا هو هو ، وإذا النصر يسير فى
 ركابه ، وإذا المسلمون والروم يتحدثون بفعاله ، وكأنه القائد الأول ، وكأنه
 النصر تجسم رجلاً ، وكيف لا يكونه وهو سيف الله فلا غالب له ! .

قصة چرچہ
 وإسلامه

لا جناح علينا ونحن نختم الآن حديث خالد فى عهد أبى بكر أن نقص
 رواية أثبتها الطبرى وأثبتها ابن الأثير . وإنما نقصها على علاتها لا نحمل
 تبعتها ولا نطلب إلى القارئ تصديقها . فقد ذكر أن چرچة القائد الرومى خرج
 صبح يوم اليرموك حتى كان بين الجيشين ونادى : ليخرج إلى خالد . فخرج
 خالد حتى اختلفت أعناق دابتيهما وقد أمن كل منهما صاحبه . عند ذلك قال
 چرچة : يا خالد اصدقنى ، ولا تكذبنى فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى
 فإن الكريم لا يخادع . هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا
 تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ وأجابه خالد بالنفى . فقال : فبم سميت سيف الله ؟
 وأجابه خالد فحدثه عن بعث الله رسوله ، وأن الله هداه للإيمان به والذود عن
 دينه ، ولذلك قال رسول الله له : « أنت سيف من سيوف الله سله الله على
 المشركين » . ودعا له بالنصر ، فسمى « سيف الله » بذلك . ثم دار بين الرجلين
 حوار حول رسالة محمد انتهى بإسلام چرچة وصلاته ركعتين وإلى قتاله فى صف
 خالد ومقتله مع المسلمين الذين قتلوا فى الموقعة .

قصص هذه الرواية على علاتها لأنها تصور ما لخالد وعبقريته فى النفوس
 من أثر جعل الطبرى وابن الأثير وغيرهما من المؤرخين لا يرون بأساً فى تصديق
 كل ما يتصل بهذا القائد النابغة البطل صاحب المعجزات فى الحرب . وهو
 فى الحق جدير أن يبلغ إعجابنا به غاية ما نعجب ببطل من أبطال العالم فى

تاريخ العالم كله ، وإن لم يسوغ لنا الإعجاب أن نقبل إلا ما يثبت أمام النقد
وما يقره المنطق السليم .

والآن ، وداعاً خالداً ! وداعاً فاتح العراق وسورية ، وموطد القواعد من
الإمبراطورية الإسلامية ! وداعاً سيف الله البتار ! ولعل الأقدار تجمعنا يوماً
في عهد الفاروق عمر ! .

وداعاً موطد
القواعد من
الإمبراطورية
الإسلامية

الفصل الخامس عشر

المثنى فى العراق

ودع المثنى خالد بن الوليد حين سفره من العراق إلى الشام حتى تخوم البادية . فلما رجع إلى الحيرة بدأ ينظم الدفاع عن البلاد التى فتحها المسلمون بما بقى له من قوات بعد الذين ارتحلوا مع خالد . ولم يكن المثنى فى ريب من أن الفرس سيتحرشون به متى علموا بسفر خالد ، وأنهم سيحاولون طرده وطرده المسلمين من الحيرة ومن أرض العراق جميعاً .

والحق أنه كان فى موقف بالغ غاية الدقة ؛ فقد بطش خالد بالبدا والمقيمين المثنى ودقة موقفه
بجزيرة العراق بطشاً جعلهم جميعاً خصوماً للمسلمين ، يترصدون بهم الدوائر ويحرصون على مناصرة أعدائهم . وقد تنبه الفرس إلى أن دولتهم مؤذنة بالزوال إذا ظل هؤلاء العرب الغزاة فى العراق سلطان . وشعور خالد بن الوليد بدقة الموقف هو الذى دفعه فبعث بالنساء والصبيان والضعفاء من الرجال إلى المدينة قبل سفره إلى الشام . طبيعى أن يفكر المثنى فى هذا كله وأن يطول تفكيره فيه . فهو الذى دفع أبا بكر إلى غزو العراق ، وهو الذى تقدم خالداً والمسلمين جميعاً إلى مفاتيحه بالسير إلى دلتا النهرين . فليس من الهين على نفسه أن يهزم فى بلد كان الطليعة فى غزوه . وأشد من ذلك عليه أن تبلغ به الهزيمة حتى يجلو عن هذا البلد بعد فتحه .

وزاد الموقف دقة أن هداً الاضطراب الذى ساد بلاط فارس سنوات متتالية . فقد اتفق أهل فارس فلكوا عليهم شهريران^(١) ابن أردشير بن سابور . فلما اطمأن له الأمر كان إجلاء المسلمين عن العراق أول ما استقر عليه عزمه . وما له ينتظر والفرصة سانحة وخالد بن الوليد غائب بالنصف من جيش هؤلاء الغزاة ! . لذلك وجه هُرمز جاذويه فى عشرة آلاف لمحاربة المثنى . وجعل هُرمز فى مقدمة جيشه فيلاً من فيلة الحرب يخوف به المسلمين ويشتت صفوفهم .

(١) وقيل شهر بازان ، أو شهر بازار ، أو شهر براز .

الكتب المتبادلة
بين شهريران
والمنى

وبلغت المنى أنباء هذه التجهيز ، ثم بلغت أنباء تحرك هرمز وجيشه . أتراه ينتظر حتى يجيء إليه بالحيرة متخطياً حدود البلاد التي فتحها المسلمون ؟ ! كلا ! بل خرج هو كذلك بجنوده وجعل أخويه المعنّى ومسعوداً على ميمنته وميسرته وسار حتى بلغ أطلال بابل . وإنه لنى مسيرته إذ جاءت رسالته من شهريران يقول فيها : « إني قد بعثت إليك جنداً من أهل فارس . وإنما هم رعاة الدجاج والخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم » . وتناول المنى الرسالة وتلاها ، فلم يلبث أن رد عليها مع الرسول الذي جاء بها برسالة يقول فيها : « من المنى إلى شهريران ، إنما أنت أحد رجلين ، إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفي الناس الملوك . وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطرتتم إليهم . فالحمد لله الذي رد كيدهم إلى رعاة الدجاج والخنازير » .

بُهِت أهل فارس حينما عرفوا رسالة المنى وعرفوا مسيرته . فلم يكن أحد منهم يتوقع أن تكون في المسلمين هذه القوة بعد انصراف خالد عنهم ؛ بل لقد أخذ بعضهم ملكهم أن يخاطب قائد جيش باللهجة التي أفرغ فيها رسالته ، وقالوا له : « جرأت علينا عدونا بالذي كتبت به إليهم ؛ فإذا كاتبت أحداً فاستشر » .

عسكر المنى بجيشه على مرتفع من أطلال بابل على خمسين ميلاً من المدائن ، وأقام بين شبكة من جداول تتصل بدجلة ينتظر هُرمز جاذويه وهجومه عليه . وأقبل هرمز بجيشه يتقدمه الفيل وكله الاطمئنان إلى أنه مشيت شمل المسلمين لا محالة . وسار الفيل يضرب بخرطومه يمنة ويسرة ، ويفرق صفوف المنى ويوقع الرعب فيهم . وأيقن المنى أن انتصاره رهن بالقضاء على الفيل ، فخرج في جماعة من رجاله فهاجموه فأصابوا منه مقتلاً فهوى جسمه على الأرض سريعاً ، هنالك التأمت صفوف المسلمين وقويت روحهم ، فهاجموا الفرس فهزموهم شر هزيمة . واحتل فريق من رجال المنى معاقل الفرس وتعقب سائرهم المنهزمين حتى انتهوا بهم إلى أبواب المدائن .

قتل الفيل
وانتصار المسلمين

ونزلت أنباء الهزيمة بشهريران نزول الصاعقة فحُم فئات ، وأراد الفرس

عود الاضطراب
إلى بلاط فارس

أن يملكوا عليهم ابنة كسرى ليفرغوا إلى تنظيم شئونهم كرة أخرى . ولم يُنفذ لها أمر فخلعت ، وخلفها على العرش سابور بن شهريران . واستوزر سابور الفرخزاد وأراد أن يزوجه آزرُميدخت ابنة كسرى ، فغضبت ألا يكون زوجها من بيت الملك ، وقالت لسابور : « يا بن عم » ، أتزوجني عبيد ! » . لكن سابور لم يسمع لقلوبها وأغلظ لها في الخطاب ، فاستعانت بسيانوخش الرازي أحد فُتاك الأعاجم . فلما كانت ليلة العرس ودخل الفرخزاد مخدع آزرُميدخت ثار به الفاتك فقتله ومن معه ، ثم سار بابنة كسرى وأعوانها إلى سابور فحاصروه ودخلوا عليه فقتلوه ، وجلست آزرُميدخت على العرش مكانه .

المثنى يستعين
الصديق بالتائبين
من أهل الردة

ترامت هذه الأنباء إلى المثنى فاطمأن ؛ وما خوفه من بلاط عاد إليه الاضطراب والغدر واختلاف الجالسين على العرش ! ! لكنه إن أمن يومه فالحذر يقتضيه الحساب لغده . وسار بجيشه يطارد الفرس حتى بلغ أبواب المدائن ، فهو يطمع في أن يفتحها . ولا بد له ليفتحها من مدد يقوى جيشه . وما كان أبو بكر ليمدّه وجيوش المسلمين كلها بالشام . لذلك كتب المثنى يخبر الصديق بانتصاره على الفرس ويستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة . وإذا كان يعلم أن أبا بكر لا يطيب نفساً بهذا الرأي فقد أيده بأن التائبين من أهل الردة يطمعون في مغنم الغزو ، وأنه لا يرى أحداً أنشط إلى معاونته في محاربة فارس منهم . وفي انتظار المدد أقام يدبّر خطته . ويحكم تدبيره .

لكن انتظاره طال وأبطأ عليه رد الخليفة . هنالك انسحب في الجيش إلى أدنى أرض العراق من حدود البادية ، واستخلف بشير بن الحصاصية على من بالعراق من المسلمين ، وذهب بنفسه إلى المدينة يدافع عن رأيه . وألنى أبا بكر اشتد به المرض حتى أشفى على الموت . مع ذلك استقبله الخليفة وسمع إليه واقتنع برأيه وقال : علىّ بعمر ، وكان قد استخلفه ؛ فلما جاء قال له :

وصية أبي بكر
لعمر في أمر
العراق

« اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به . إني لأرجو أن أموت من يومى هذا . فإن مت فلا تُمسّين حتى تنلّب الناس مع المثنى . وإن تأخرت إلى الليل

فلا تُصبحن حتى تندب الناس مع المثنى . ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت
عن أمر دينكم ووصية ربكم . وقد رأيتني مُتوفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم
وما صنعتُ ، ولم يُصب الخلقُ بمثله . وبالله لو أننى أنبى عن أمر الله وأمر رسوله
لخذلنا ولعاقبنا فاضطربت المدينة ناراً . وإن فتح الله على أمراء الشام فاردُّ
أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهل ولاة أمره وحده ، وهم أهل الضراوة بهم
والحرارة عليهم .

ووعده عمر أن ينفذ أمر أبى بكر . وكان يقول من بعدُ : « قد علم أبو بكر
أنه يسوعنى أن أؤمر خالداً ، فلهذا أمرنى أن أرد أصحاب خالد وترك
ذكره معهم » .

وعاد المثنى إلى العراق أول ما استخلف عمر . ورفع عمر الحظر عن عادوا
إلى الإسلام من المرتدين لينهضوا إلى حرب فارس . وما لهم لا يفعلون وقد
فتح الله على المسلمين ! ثم ما لهم لا يسارعون إلى الخيرات يتطهرون بجهادهم من
حوبة ردّتهم ، فإن استشهدوا فلهم الجنة ، وإن أقاموا بعد النصر فلهم من
النّى ما يجعل الحياة جنة أمامهم ! .

ولقد استفتح عمر عهده بمتابعة حروب فارس ؛ فكان لهؤلاء الذين عادوا
إلى الإسلام من حسن البلاء ما أرجو أن أقص نبأه فى خلافة الفاروق .

الفصل السادس عشر جمع القرآن

يقتضينا الحديث عن جمع القرآن أن نعود بالذاكرة إلى غزوة اليمامة . فعلى أثرها بدأت فكرة هذا الجمع ، ثم نُفذت ، واستغرق التنفيذ ما بقى بعد اليمامة من خلافة الصديق . وفي رواية أنه استغرق زمناً من عهد عمر . وإنما أرجأنا الحديث في هذا الموضوع لثلا نقطع حديث الحرب والفتح ، وليكون حديثنا عن جمع القرآن متصلاً حتى وفاة أبي بكر .

غزوة اليمامة
وأثرها في حياة
المسلمين

كانت غزوة اليمامة أعظم الغزوات في حروب الردة ، كما كانت أجملها خطراً وأبعدها أثراً . قضى مقتل مُسيلمة بن حبيب قضاء حاسماً على المتنبيين في بلاد العرب ، وأذن عود بني حنيفة إلى الإسلام بالقضاء على الردة بالبحرين . والقضاء على ردة البحرين هو الذي طوع للمثنى بن حارثة الشيباني أن يسير إلى مصب دجلة والفرات ، وأن يكون الطليعة الميمونة لفتح العراق وإقامة بناء الإمبراطورية الإسلامية . غزاة ذلك شأنها لم يخطيء خالد بن الوليد حين دفع إليها جيوش المسلمين يقاتلون ويقتلون ويقضون على مسيلمة وأصحابه عند احتمائهم بحديقة الموت ، ولم يبالغ المهاجرون والأنصار حين اندفعوا إلى وطيسها مستميتين يبتغون الشهادة . استشهد من المسلمين يومئذ مائتان وألف ، بينهم تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن .

وقد جزع أهل المدينة لمن استشهد من المسلمين باليمامة واشتد حزنهم ، وإن اختلفت البواعث لهذا الحزن والجزع . فأواصر القربى وروابط الود والصداقة وتقدير ما كان لكبار الصحابة وحفاظ القرآن الذين استشهدوا من مكانة سامية عند الرسول عليه السلام ، كل هذه كانت دوافع تحزُّ في النفوس . لقي عمر بن الخطاب ابنه عبد الله بعد أن أبلى في اليمامة أحسن البلاء . وكان عمر شديد الجزع لمقتل أخيه زيد بها ، فكان أول ما واجه به ابنه ما أسلفنا ذكره من قوله : « ما جاء بك وقد هلك زيد ! . ألا وارىت وجهك عنى ! » وكان

جواب عبد الله : « سأل الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق إلى فلم أعطيها » .

على أن جزع ابن الخطاب لمقتل أخيه زيد وأصحابه الذين استشهدوا باليَمامة لم يَشْنِه عن التفكير في أمر خطير ، هو لا ريب أجل الأمور في حياة الإسلام والمسلمين خطراً . لقد استشهد من حفاظ القرآن في هذه الغزاة من استشهد . واليَمامة ليست إلا واحدة من الغزوات التي واجهت المسلمين بعد وفاة الرسول . فما عسى أن يكون الأمر إذا تلاحقت الغزوات فقتل فيها من الحفاظ مثل من قتل باليَمامة ؟ ! فكر عمر في هذا وطال تفكيره . فلما استقر به الرأي ذهب إلى أبي بكر وهو بمجلسه من المسجد فقال له : « إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بالناس . وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه . وإني لأرى أن تجمع القرآن » (٢) .

عمر يشير على أبي بكر بجمع القرآن

لم يكن أبو بكر قد فكر في هذا الأمر . لذلك لم يلبث حين سمعه أن قال : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ! » . عند ذلك دار بين الرجلين حوار طويل لم يورد المؤرخون تفصيله . واقتنع أبو بكر بعد هذا الحوار برأى عمر ، فدعا زيد بن ثابت . جاء في البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال : « أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر . فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال إن القتل استحرَّ يوم اليمامة بالناس وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه . وإني لأرى أن تجمع القرآن . قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ فقال : هو والله خير . فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لي أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله (ص) ، فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ »

رواية البخاري عما دار بين أبي بكر وعمر وزيد ابن ثابت

(١) بين الروايات التي أوردت عبارة عمر خلاف في اللفظ ولكنها متفقة كلها في المعنى . ومن هذه الروايات أنه قال : « إن القتل قد استحرَّ بقراء القرآن يوم اليمامة ، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن كلها فيذهب قرآن كثير ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن » .

مما أمرني به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله (ص) ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فقامت فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسب^(١) وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » .

فلما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب ، كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ . فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ » فألحقها في سورتها . فكانت الصحف التى اجتمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر .

هذا حديث زيد بن ثابت فيما رواه البخارى . وقد أجمعت الروايات على صحته . وذكر القرطبي أن زيدا جمع القرآن غير مرتب السور بعد تعب شديد ، وأن الصحف حفظت بعد جمعها عند أبي بكر ، ثم عند عمر ، ثم عند حفصة أم المؤمنين .

الروايات عن
جمع عمر وعثمان
القرآن

وتذهب رواية إلى أن عمر بن الخطاب أول من جمع القرآن في المصحف^(٢) . ذلك أنه سأل يوماً عن آية من كتاب الله ، فقبل كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة . فقال إنا لله ! وأمر بالقرآن فجمع . وأصحاب الرواية المتواترة يردون هذا القول بأن عمر كان أول من رأى جمع القرآن لأنه أشار على أبي بكر بذلك وأقنعه به ، أما الجمع فتم في عهد الصديق . وهذا رأى هو الصحيح . يؤيد

(١) العُسب : جمع عسيب . وهو هنا : ما لم ينبت عليه الخوص من جريد النخل .

(٢) راجع صفحة ٢٠ من كتاب المصاحف لابن أبي داود ، صفحة ٥٩ من كتاب

الإتقان في علوم القرآن للسيوطي .

ذلك ما روى عن عليّ بن أبي طالب أنه قال : « رحمة الله على أبي بكر ! كان أعظم الناس أجراً في جمع المصاحف . وهو أول من جمع بين اللوحين » . وقد تواترت بذلك شهادة عدد كبير من أصحاب رسول الله .

والذين قالوا إن عمر أول من جمع القرآن يذكرون أنه حين أراد أن يجمعه قام في الناس فقال : « من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فليأتنا به » . وكانوا كتبوا ما تلقوه من ذلك في الصحف والألواح والعُسب . وكان عمر لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد عليه شاهدان . وقُتل وهو يجمع ذلك إليه ؛ فقام عثمان بن عفان فقال ما قال عمر وصنع صنيعة ، وعهد إلى زيد بن ثابت بجمع القرآن ، وضم إليه نفرأ من الحفاظ وقال لهم : « إذا اختلفتم فاكتبوا لغة مُضَرَّ فإن القرآن نزل على رجل من مضر » .

أما والثابت المقطوع به أن أبا بكر هو الذي أُمِر بجمع القرآن بعد حواره مع ابن الخطاب ، فيجمل بي قبل أن أفصل كيف كان هذا الجمع أن أقف عند قول الصديق : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فقد نزل الوحي بالقرآن على رسول الله خلال ثلاث وعشرين سنة ، منذ بعثه الله نبياً وهو بمكة إلى أن قبضه إليه وهو بالمدينة . وكان الوحي ينزل ببعض الآيات أحياناً ، وبالسورة كاملة أحياناً أخرى . ولقد كان أول ما نزل من الوحي قوله تعالى : « إقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، أقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

هل جمعت
الآيات سوراً في
حياة رسول الله

أما بقية هذه السورة على ما نتلوها اليوم في المصاحف فنزلت بعد ذلك ، وبعد أن نزل غيرها من الوحي قبل نزولها . أفيعني قول أبي بكر وقول زيد بن ثابت من بعده « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ » أن القرآن بقي إلى وفاة الرسول لم يجمع سوراً ، ولم ينتظم كتاباً ، فبقيت الآيات التي نزلت فرادى لم تضم إلى غيرها على الصورة التي نراها اليوم بها ، فلما كان الجمع رتبت السور ونظمت في كتاب ؟ .

هذا ما يقول به بعض المؤرخين ، وترجحه طائفة من المستشرقين . بل لقد نسب إلى زيد بن ثابت أنه قال : « قبض النبي ولم يكن القرآن جمع في

رأى لبعض
المؤرخين يؤيده
المستشرقون

شيء . والمستشرق الإنجليزي سير وليم موير يسوق هذا القول في مقدمة كتابه عن سيرة الرسول حجة من الحجج على الدقة والصدق في جمع القرآن فيقول : « إن القرآن بمحتوياته ونظامه ينطق في قوة بدقة جمعه ؛ فقد ضمت الأجزاء المختلفة بعضها إلى بعض ببساطة تامة لا تعمل ولا تكلف فيها . وهذا الجمع لا أثر فيه ليد تحاول المهارة أو التنسيق . وهو يشهد بإيمان الجامع وإخلاصه لما يجمع ؛ فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات المقدسة ووضع بعضها إلى جانب بعض » . والمستشرقون المؤيدون لهذا الرأي يؤخذون زيد بن ثابت والذين عاونوه في جمع القرآن بأنهم لم يراعوا في ترتيب القرآن أوقات نزوله ولم يقدموا ما نزل منه بمكة على ما نزل منه بالمدينة ، بل وضعوا آيات مدنية خلال السور المكية دون أن يقتضيه الموضع هذا الصنيع . ولو أنهم راعوا الدقة التاريخية في الترتيب لكان ذلك أدنى في نظر هؤلاء المستشرقين إلى التحقيق العلمي ، وأجدي في كتابة السيرة وفي تتبع أحوال النبي العربي من يوم بعثه إلى يوم وفاته .

ويزيد المستشرقون أن جامعي القرآن لم يعنوا كذلك بتأليف آياته حسب موضوعاتها . فأنت ترى في السورة الواحدة شؤوناً مختلفة من القصص والتاريخ ، ومن الإيمان والعبادات ، ومن الأحكام التشريعية ، ومن قواعد الخلق . وأنت ترى الموضوع الواحد من هذه الشؤون جميعاً مذكوراً في سور مختلفة على صور تتقارب أو تتفاوت في اللفظ وفي قوة العبارة . أما وقد كان الجامعون أحراراً في ترتيب الآيات في السور فهم جديرون ، في رأى هؤلاء المستشرقين ، بالترتيب من الناحية العلمية ؛ لأنهم لم يراعوا الموضوعات ، وكان حقاً عليهم أن يراعوها وبخاصة لأنهم لم يتقيدوا بمواقيت الوحي ونزوله .

نقد هذا الرأي
والدليل على أن
القرآن جمع سوراً
في عهد الرسول

هذه ملاحظات يبدونها المستشرقون على جمع القرآن مستنديين فيها إلى قول أبي بكر : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » . وهم مخطئون في تحميل عبارة أبي بكر هذا المعنى ، وفي ظنهم أن الآيات ظلت مبعثرة منذ نزولها إلى أن جُمعت في عهد الخليفة الأول ، ثم في عهد عثمان . فالأمر الذي لا ريب فيه أن الآيات قد جمعت سوراً في عهد رسول الله وبتوقيفه .

ولقد كان مالك يقول: « إنما أُلِّفَ القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ». وكان عبد الله بن مسعود يقول: قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة. وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى: « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ».

ولقد قرأ زيد بن ثابت القرآن كله على رسول الله . وفي مسلم والبخاري عن أنس بن مالك أنه قال: « جَمَعَ القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ». وقول أنس لا يراد به أن هؤلاء الأربعة هم الذين حفظوا القرآن في عهد النبي دون سواهم . يقول القرطبي: « فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان ، وعلي ، وتميم الداري ، وعُباد بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، فقول أنس: لم يجمع القرآن غير أربعة ، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقيناً من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير تلك الجماعة ؛ فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه عن غيره. وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الإسلام ، وإعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ».

الذين جمعوا
القرآن في عهد
الرسول تلقيناً منه

وروايات السلف متواترة على أن رسول الله كان يعرض القرآن على جبريل في كل عام مرة ، فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين . ومن هذا العرض في عام الوفاة عرف عبد الله بن عباس ما نسخ من القرآن وما بُلِّل .

وما ورد في سيرة النبي يؤيد الروايات التي قلنا . من ذلك ما روى عن إسلام عمر بن الخطاب بعد عشر سنين أو نحوها من بعث محمد . فقد هال عمر ما أحدثه الدين الجديد من فرقة بين أهل مكة اضطرت كثيرين منهم أن يهاجروا إلى الحبشة ، فرأى أن يقتل محمداً لتعود إلى قريش وحدتها . فلما ذكر له نَعَيْسَم بن عبد الله أن فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد أسلما ذهب إليهما ودخل البيت عليهما ، فسمع عندهما من يقرأ القرآن ، فبطش بهما حتى شجَّ أخته ، وندم لما صنع ، وطلب إليهما أن تعطيه الصحيفة التي كانوا يقرءون

قراءة عمر بن
الخطاب سورة طه
في صحيفة يوم
إسلامه

فإذا بها سورة طه . فلما قرأها أخذته إعجازها وجلالها وسمو الدعوة التي تدعو إليها ، فذهب إلى محمد فأسلم بين يديه .

لم تكن الصحيفة التي سجّلت سورة طه إلا واحدة من صحف كثيرة كانت متداولة بين أيدي الذين أسلموا من أهل مكة سجّلت سوراً أخرى من القرآن . ولقد ظل رسول الله بين المسلمين بمكة وبالمدينة ثلاث عشرة سنة بعد إسلام عمر ، كان يقول خلالها لأصحابه : « لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عنى شيئاً سوى القرآن فليمحّهُ » . وكان طبعياً أن يكتب الصحابة كل ما يستطيعون كتابته من القرآن لتلاوته في الصلاة ، ولمعرفة أحكام الدين الذي يؤمنون به . وكان يكتبه الذين يوفدهم النبي إلى القبائل لتعليم أهلها القرآن وتنقيتهم في الدين . وهم لم يكونوا يكتبونه آيات متقطعة ، بل سوراً متصلة يملئها رسول الله .

ونصوص القرآن تؤيد ما سبق . من ذلك قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » .

وآيات المزمّل هذه نزلت في الفترة الأولى من بعث الرسول . فطالبة النبي فيها أن يقوم الليل يرتل القرآن ترجح أن الآيات لم تكن مبعثرة من غير ترتيب ، وتؤكد ما قلّمنا من أن ما كان يوحى إلى النبي متصلاً بوحى سبق إليه كان الوحي يلحقه به . وذلك قولهم إن جبريل قال للنبي حين أوحى إليه قوله تعالى « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » : « يا محمد ضعها في رأس ثمانين مائتين من البقرة » .

ولقد تكرر في القرآن نعتُه بأنه الكتاب . وسورة البقرة أولى سور القرآن بعد الفاتحة تبدأ بقوله تعالى : « الَمْ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » . وهذا المعنى وارد في مواضع كثيرة من سور مختلفة . والكتاب هو ما كتب منسقاً . وقد كُتب القرآن في عهد النبي كما أسلفنا من قول أنس بن مالك

نصوص القرآن
تؤيد جمعه سوراً
في عهد الرسول

وقول غيره من أصحاب رسول الله . بل إن زيد بن ثابت نفسه ، وهو الذى قال كما قلنا : « قبض النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع فى شيء » قد قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع » ، يريد بذلك تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة فى سورها وجمعها فيها بإشارة رسول الله . وكثيراً ما كان رسول الله يتلو فى الصلاة وفى غير الصلاة سوراً كاملة منها البقرة وآل عمران والنساء والأعراف والجن والنجم والرحمن والقمر وغيرها . وهذا كله صريح فى الدلالة على أن ترتيب الآيات فى السور قد تم بتوقيف النبي ، وأزه قبض وهذا الجمع تام معروف للمسلمين ، ثابت فى صدور القراء والحفاظ .

رسول الله يتلو
الصلاة سوراً
كامله

ولقد رأيت كثيرين من الصحابة جمعوا القرآن على عهد النبي ، منهم أربعة جمعوه بإملائه . واتفاق المؤرخين منعقد على أن ترتيب الآيات فى السور كان واحداً فى كل المصاحف التى جمعت قبل وفاة الرسول ، وفى المصاحف التى جمعت عقب وفاته وقبل أن يأمر أبو بكر بجمع القرآن . أما ترتيب السور والابتداء بالفاتحة فالبقرة فالآل عمران فالنساء فالمائدة والانتها بالمعوذتين ، فذلك ما اختلف فيه ، وما قيل إن رسول الله تركه كله أو بعضه لأمته .

ماذا أراد أبو بكر إذن بقوله ردّاً على عمر حين أشار عليه أن يجمع القرآن : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ! » . وما هى الحجج التى شرحت صدر أبي بكر ثم صدر زيد بن ثابت لجمع القرآن والأخذ برأى ابن الخطاب ؟ .

لما تمت البيعة لأبي بكر لزم على بن أبي طالب بيته ، وتحدث الناس إلى أبي بكر فى أمره ، فأرسل إليه يقول : « أكرهت بيعتى فقعدت عني ؟ ! » فكان جواب على : « لا والله ، ولكن رأيت كتاب الله يزداد فيه ، فحدثت نفسى ألا ألبس ردائى إلا لصلاة حتى أجمعه »^(١).

على بن أبي طالب
وجمع القرآن

(١) قول على « رأيت كتاب الله يزداد فيه » أورده السيوطى بإسناده فى كتاب الإتيان . وقد اقتصر كثير من المؤلفين فيما رواه عن على أنه قال : آليت ألا ألبس ردائى إلا لصلاة حتى أجمع =

السبب في تردد
أبي بكر في جمع
القرآن أول
ما عرض عمر
عليه جمعه

ولم يكن عليٌّ وحده هو الذي دأب على جمع القرآن بعد وفاة الرسول ، بل دأب على ذلك كثيرون جعلوا يتلقونه عن يطمثون إليهم من أصحاب رسول الله . وكما حمد أبو بكر لعلي بن أبي طالب حديثه عن جمع القرآن حمد لغيره من المسلمين سعيهم في جمعه ورأى في عملهم تأسيساً بالسابقين الأولين الذين جمعوه في عهد رسول الله . ولم يدُرْ بخاطره أن يصد أحداً دون هذا العمل الجليل ، مطمئناً إلى أن الله نزل الذكر وهو حافظه ، وإلى أن المسلمين لن تحدث أحداً منهم نفسه بأن يدخل عليه ما ليس منه . فإذا أقدم أحد على ما قاله علي بن أبي طالب من زيادة على القرآن ردَّ الله كيده في نحره ، ورد الصالحون من المسلمين كلام الله إلى مواضعه . وذلك كان سبب ترده حين عرض عليه عمر أن يجمع القرآن . فقد كانت سنته ألا يصنع إلا ما كان يصنع رسول الله ، وألا يدع شيئاً كان رسول الله يصنعه . أما وقد ترك رسول الله كتابة القرآن للمسلمين ، وقد كتب بعضهم القرآن بإملائه عليه السلام ، ونقل آخرون عن هؤلاء الكتابين وعمن وعت ذاكرتهم القرآن ، فليجر الأمر في خلافته كما جرى في عهد الرسول ، وليمسك خليفته فلا يُقدم على ما لم يقم هو به .

حجة عمر التي
شرحت صدر
أبي بكر لجمع
القرآن

كانت هذه حجة أبي بكر وحجة زيد بن ثابت ، فلما راجع عمر الخليفة عدل عن رأيه . ولئن لم يورد المؤرخون تفصيل ما دار بين الرجلين من حوار ، إن فيما أورده الرواة عن تاريخ القرآن لما يُفصح لنا عن حجة عمر وما يؤيدها ويجلو لنا اقتناع أبي بكر وزيد بن ثابت بها .

روى الترمذي قال : « لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : يا جبريل إني بعثت إلى أمة أمية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لا يقرأ كتاباً قط . فقال لي : يا محمد ، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف »^(١) . وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة وأوردوا فيها خمسة

أنزل القرآن على
سبعة أحرف

= القرآن . ورواية ابن أبي داود في كتاب المصاحف أن أبا بكر أرسل إلى علي بعد أيام يقول : أكرهت إمارتي يا أبا الحسن ؟ قال : لا والله ، إلا أني أقسمت ألا ارتدي بردائي إلا الجمعة ، فبايعه ثم رجع . ويضيف ابن أبي داود . وإنما روي : حتى أجمع القرآن ، يعني أتم حفظه ؛ فإنه يقال للذي حفظ القرآن قد جمع القرآن .

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، جزء أول ، ص ٣٦ وما بعدها .

الصديق أبو بكر

الأقوال في
الأحرف التي نزل
عليها القرآن

وثلاثين قولاً ؛ من هذه الأقوال أنه رخص للمسلمين أول العهد بالإسلام أن يحلوا المترادف محل بعضه إلا أن يخلطوا آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة . وذلك في نحو هلّم وتعال وأقبل وأسرع وعجل . وعن أبي بن كعب أنه كان يقرأ « للذين آمنوا انظرونا » : « للذين آمنوا أمهلونا » ، « للذين آمنوا آخرونا » ، « للذين آمنوا ارقبونا » وكان يقرأ « كلما أضاء لهم مشوا فيه » : « مروا فيه » ، « سعوا فيه » . ذلك أن أهل القبائل كان يُعجزهم أن يأخذوا القرآن على غير لغاتهم ، ولو راموا ذلك لم يتهياً لهم إلا بمشقة عظيمة ، فوسّع لهم في اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقاً . فلما كثر اتصالهم برسول الله حفظوا القرآن بألفاظه ولم يسعهم أن يقرءوا بخلافها . وفي رأى أن الإباحة في هذا كانت مطلقة أول العهد ثم نسخت .

صحيح أن بعض الأقوال في تأويل نزول القرآن على سبعة أحرف تخالف هذا القول ، فيذهب بعضها إلى أن في القرآن سبع لغات هي لغات العرب كلها وأن هذه اللغات متفرقة فيه ، أو أن هذه اللغات السبع في مصر . ويذهب بعض آخر إلى أن سبعة الأحرف تتصل بوجوه الاختلاف في القراءة ، أو تتصل بمعاني كتاب الله . لكن هذه الأقوال لا تنفي القول الأول ، على الأقل أول ما بدأ الإسلام ينتشر في القبائل . ويذكر بعضهم أن الأمر ظل كذلك سنين متعاقبة ، أو إلى أن قبض النبي ؛ لكنهم يقيّدونه بأن ذلك كان بالوحي لا بالاختيار . يقول القرطبي : « إنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي صلى الله عليه وسلم ليوسع بها على أمته ، فأقرأ مرة لأبي بما عارضه به جبريل ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً . وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَصْوَبُ قِيلًا » . ف قيل له إنما نقرأ : « وأقوم قِيلاً » ، فقال أنس : « وأصوب قِيلاً وأقوم قِيلاً وأهياً واحداً » . فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإلا فلو كان هذا لأحد

قراءات الصحابة
وعرضها على
رسول الله

الذين احتكوا
إلى رسول الله
لخلافهم في القراءة

من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِذَا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب أنه قال : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فكدت أن أعجل عليه ثم أمهلت حتى انصرف ثم لببته بردائه ، فجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله ، اقرأ ؛ فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . ثم قال لى : اقرأ ، فقرأت ، فقال : هكذا أنزلت إن هذا القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » .

وأضاف القرطبي قصة أبي بن كعب إذ سمع رجلين بالمسجد يقرآن آيات بعينها في الصلاة ، كل يقرأ غير قراءة صاحبه وغير قراءة أبي ، فذهب بهما إلى رسول الله فحسن النبي قراءتهما جميعاً . قال أبي : « فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما قد غشيتني ، ضرب في صدري ففيضت عرقاً ، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فرقاً ، فقال : يا أبي ، أرسل إلى أن اقرأ القرآن على حرف ، فرددت إليه أن هوّن على أمتي ، فرد إلى الثانية اقرأه على حرفين ، فرددت إليه أن هوّن على أمتي ، فرد إلى الثالثة اقرأه على سبعة أحرف » .

نشأ عن ذلك خلاف في بعض الألفاظ مما دوّن أو حفظ في عهد رسول الله . روى ابن أبي داود في كتاب المصاحف أن عمر بن الخطاب كان يقرأ : « صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ » ، في حين يقرأ غيره : « صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » ، وأنه رضى الله عنه قرأ : « أَلَمْ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » بدل « القيوم » . وكان على بن أبي طالب يقرأ : « آمن الرسول بما أنزل إليه وءامن المؤمنون كلٌّ ءامن بالله » بدل « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ ءامن بالله »^(١) . وكان أبي بن كعب

يقرأ : « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فآتوهنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً » بدل « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فآتوهنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً »^(١) ، وأثبت أبي بن كعب في جمعه القرآن نصوصاً تخالف في بعض لفظها مصحف عثمان . من ذلك « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُّتَتَابِعَاتٍ » في كفارة اليمين بدل « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ »^(٢) .

وشأن عبد الله بن مسعود كشأن أبي بن كعب في قراءته وفي مصحفه . فقد روى أنه كان يقرأ « وَالْعَصْرُ » ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، وَإِنَّهُ فِيهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ . فيضيف « وإِنَّهُ فِيهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ » ويحذف « وتواصوا بالحق » الوسطى قبل « وتواصوا بالصبر » كما ثبت في مصحف عثمان . وكان يقرأ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ نَمْلَةٍ » بدل « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ »^(٣) ، وكان يقرأ : « وَتَزَوَّدُوا وَخَيْرُ الزَّادِ التَّقْوَى » بدل « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى »^(٤) .

وقد أورد ابن أبي داود تفصيل هذا الخلاف في الألفاظ ونسبه إلى أصحابه ومنهم عائشة أم المؤمنين . فقد روى أنه كان مكتوباً في مصحفها : « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى و صلاة العصر » بإضافة « و صلاة العصر » إلى ما في مصحف عثمان . وذكر عن ابن يونس مولى عائشة أنه قال : كتبت لعائشة مصحفاً فقالت : إذا مررت بآية الصلاة فلا تكتبها حتى أملئها عليك ، فأملتها على : « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى و صلاة العصر » . وقد وردت مثل هذه الرواية عن هذه الآية في مصحف حفصة وفي مصحف أم سلمة زوجي النبي . وقيل بل أملت أم سلمة : « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى صلاة العصر » .

سورة العصر
في مصحف عائشة
أم المؤمنين

أنت لا ريب قد رأيت مما قدمنا أن الاختلاف في القراءات وفي مصاحف الصحابة لم يعد الألفاظ ، وأنه لم يجعل من نهى أمراً ، ولا من أمر نهياً ،

(٢) س ٨٩٢٥ .

(١) س ٢٤٢٤ .

(٤) س ١٩٧٢٢ .

(٣) س ٤٠٢٤ .

ولا من آية رحمة آية عذاب ، ولا من آية عذاب آية رحمة ، والشأن كذلك في كل ما روى عن قراءات الصحابة وعن مصاحفهم ومصاحف التابعين . ولقد قدم المستشرق « آرثر جفرى » لكتاب المصاحف لابن أبى داود وأورد كل ما روى عن هذا الاختلاف في القراءات والمصاحف ، فلم يزد الأمر على ما قدمت من الأمثلة . وعلة ذلك راجعة إلى ما ذكرنا عن الحديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » .

وما كان الخلاف ليزيد على هذا في حياة الذين تلقوا القرآن عن رسول الله فكتبوه أو وعته صدورهم في تقديس لكلام الله وإيمان به يحولان دون الزيادة فيه أو النقص منه أو تحريفه . لكن هؤلاء القراء رجال كتب عليهم الموت كما كتب على الذين من قبلهم . ولقد استحر القتل في طائفة منهم في حياة النبي ببئر معونة ، ثم استحر القتل فيهم في اليمامة . فإذا ذهب أكثرهم أو ذهبوا جميعاً لم يكن عجباً أن يقوم من يزيد في القرآن أو ينقص منه ، ومن يحرف كلام الله عن مواضعه . ثم لا عجب أن يختلف الناس على هذا وأن ينتهى اختلافهم إلى الثورة يصلى المسلمون ناراها ويصيب الإسلام منها ضرراً كبيراً .

الذين ارتدوا
وزعموا أنهم
يزيفون الوحي

كان لعمر ولأبى بكر ولزيد بن ثابت مما حدث في بلاد العرب نذير يعظم أن يتقوا هذا اليوم . فقد ارتد في حياة الرسول بعض الذين أسلموا وكانوا يكتبون الوحي ، ثم زعموا أنهم كانوا يزيفون ما يكتبون ويلقونه على المسلمين زائفاً . وروايات المنافقين وما كانوا يصنعون من ذلك ومن مثله واردة في كتب السيرة . وفي قصة مسيلمة بعض هذا النذير . فهو إنما استغلظ أمره بعد أن ذهب نهار الرحال بن عنفة من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمامة يُقرىء أهلها القرآن ويفقههم في الدين ، فلم يلبث حين رأى السواد من أهل اليمامة يتبع مسيلمة أن أقر بنبوته ، وشهد بأن محمداً يقول إن مسيلمة قد أشرك في الرسالة معه . وكان نهار فقيهاً يتلو على الملأ القرآن الذى أوحى إلى محمد ويقص عليهم تعاليمه ويفقههم في دينه . هذا وما حدث من مثله إثر وفاة الرسول ، إذ نجم النفاق واشترأت الأعناق ، يشهد بما لحجة عمر في جمع القرآن بعد اليمامة من قوة تذهب بكل تردد .

وماذا بعد في جمع القرآن مما لم يصنعه رسول الله حتى يتردد أبو بكر أو يتردد زيد بن ثابت بسببه ؟ ! لقد أمر عايه السلام أن يكتب الوحي وأن تكتب الآيات مرتبة في السور . وما منعه أن يأمر بجمع القرآن قبل أن يختاره الله إليه إلا أن الوحي كان يتتابع وأن بعض الآيات كانت تُنسخ . أما وقد قُبض فانتهى نزول الوحي وتم كتاب الله وكمل دينه ، فالخير في أن يجمع القرآن حتى لا يتعرض لما خشى على بن أبي طالب أن يتعرض له من زيادة فيه أو نقص منه ، وبخاصة بعد أن قُتل من القراء باليمامة من قُتل ؛ ويخشى أن يقتل منهم آخرون في مواطن غير اليمامة .

أحسب هذه وأمثالها من الحجج هي ما ساقه عمر حين ناقش أبا بكر في جمع القرآن . وهي كما ترى حجج تحسم كل ريبة وتقطع بما في الجمع من خير للإسلام والمسلمين . لهذا اقتنع أبو بكر برأى عمر ، ثم اقتنع به زيد بن ثابت (١) .

ويجمل بي قبل أن أفصل ما حدث بعد اجتماع الصديق والفاروق وكتاب الوحي لرسول الله أن أذكر أن ما حدث في عهد عثمان قد أيد ما رآه عمر من جمع القرآن ودل على صدق نظره فيه . فقد اتسعت رقعة الفتح في عهد عمر وعثمان . وكان أصحاب رسول الله يقرءون القرآن ويعلمونه من أسلم من أهل البلاد المفتوحة ؛ فاختلف الناس في القراءة وعظم اختلافهم وتشتتهم ؛ حتى إن الرجل ليقول لصاحبه : إن قراءتي خير من قراءتك ، وأفضل من قراءتك . وبلغ الأمر من ذلك حتى كاد يكون فتنة . اختلفوا وتنازعوا ، وأظهر بعضهم لكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ، ورأى حذيفة بن اليمان خلافتهم وتلاعنهم إذ كان يقاتل مع المسلمين على أرمينية وأذربيجان ، ففرع وكرَّ راجعاً إلى المدينة ودخل على عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال له : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك . قال عثمان : فيماذا ؟ قال : في كتاب الله . إني حضرت هذه الغزوة وقد

جمع القرآن أيام
عثمان وسببه

(١) يذكر أبو عبد الله الزنجاني في كتابه تاريخ القرآن (طبع في مصر في سنة ١٩٣٥ م) أن « التأمل الصادق والشواهد يعطى أن اقتراح عمر جمع القرآن إنما كان لجمعه في الورق ، حتى إن الصحابة لشدة احتياطهم وخضوعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم خافوا أن يكون ذلك من البدع » .

جمعت ناساً من العراق والشام والحجاز ، ثم وصف له ما تقدم من اختلافهم في القراءة ، وأردف : وإني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى^(١). ورأى عثمان الخطر ، فجمع الناس فعرض عليهم الأمر ، فسأله رأيه فقال : الرأي عندي أن يجمع الناس على قراءة ؛ فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافاً : وأقره أهل الرأي ، فأرسل إلى حفصة يسألها أن ترسل إليه مصحف أبي بكر لنسخه في المصاحف . وكان ذلك أول ما حدث في جمع مصحف عثمان وتوحيد قراءة القرآن .

عمر وصدق نظره
في المشورة بجمع
القرآن

هذا الخلاف في عهد عثمان بالغ الدلالة على أن عمر كان صادق النظر حين أشار على أبي بكر بجمع القرآن . وقد اتخذ عثمان مصحف أبي بكر إماماً لهم في توحيد القراءة . فلو أن أبا بكر لم يجمع القرآن لتفاقم الخلاف ، ولأصاب المسلمين من ذلك شرّ أنجاهم عمل الصديق منه . من ثم لم يغلُ على بن أبي طالب حين قال : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع بين اللوحين » .

غضب ابن مسعود
لعزله عن جمع
القرآن

شرح الله صدر أبي بكر بجمع القرآن بعد حواره مع عمر ، فعهده إلى زيد ابن ثابت أن يتبعه فيجمعه . روى أن عبد الله بن مسعود غضب لذلك وقال : يا معشر المسلمين ! أعزّل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسامت وإنه لفي صلب رجل كافر ! . يريد زيد بن ثابت . وقد نسب هذا القول إلى ابن مسعود حين أمر عثمان زيداً بجمع القرآن وأردفه بمن أردفه بهم من الصحابة . ولعل عبد الله غضب في المرتين لما ذكره القرطبي حين قال : « قال أبو بكر

(١) وفي رواية أثبتّها ابن أبي داود في كتاب المصاحف بإسناد مختلف أن عبد الله بن مسعود كان يقرأ في المسجد ، فجاء حذيفة فقال : يقول أهل الكوفة قراءة عبد الله بن مسعود ويقول أهل البصرة قراءة أبي موسى الأشعري . والله لئن قدمت على أمير المؤمنين لأمرته أن يغرقها . فرد عليه ابن مسعود . أما والله لئن فعلت ليغرقنك الله في غير ماء . وروى أن حذيفة قالها في غير حضرة عبد الله بن مسعود ، ثم اجتمع عبد الله وحذيفة وأبو موسى فوق بيت أبي موسى فقال عبد الله لحذيفة : أما إنه قد بلغني أنك صاحب الحديث - يعني قوله أما والله أن لو قد أتيت أمير المؤمنين لقد أمرته يفرق هذه المصاحف . وأجابه حذيفة : أجل ! كرهت أن يقال قراءة فلان ، فيختلفوا كما اختلف أهل الكتاب .

الأنباري : ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبي بكر وعثمان على عبد الله بن مسعود في جمع القرآن ، وعبد الله أفضل من زيد وأقدم في الإسلام وأكثر سوابق وأعظم فضائل ، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله . وهذه العبارة ترجح غضب ابن مسعود في المرتين .

وقد بلغ غضب ابن مسعود لهذا الأمر أمداً بعيداً ، حتى كان يقول : « لقد قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وإن لزيد بن ثابت ذؤابتين يلعب مع الصبيان » . بل لقد حرّض أهل العراق في عهد عثمان على ألا يعاونوا في هذا العمل ، وكان يقول لهم : « إني غالٌ مصحفي ، فمن استطاع منكم أن يغُلَّ مصحفاً فليفعل ؛ فإن الله يقول : « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وخطب الناس يوماً فقال : « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . غُلُّوا مصاحفكم . وكيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعةً وسبعين سورة وإن زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤابتان . والله ما نزل القرآن إلا وأنا أعلم متى وفي أي شيء نزل . ما أحدٌ أعلم بكتاب الله مني . وما أنا بخبركم ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تُبْلِغُنِيهِ الْإِبِلُ لِأُتَيْتَهُ » .

كره رجال أفاضل من أصحاب النبي مقالة ابن مسعود ، ورأوا فيها تحريضاً على الفتنة لا مسوّغ له . روى عن أبي اللرداء أنه قال : « كنا نعد عبد الله حناناً فما باله يُؤايب الأمراء » . صحيح أن عبد الله بن مسعود بلريٌّ وزيد بن ثابت ليس بلريّاً . ولعبد الله سابقة في الإسلام على زيد وعلى أبيه ثابت بن زيد وهو قد تلقى عن رسول الله نيفاً وسبعين سورة من القرآن ، لكن زيدا كان كاتب رسول الله ، وقد تلقى عنه القرآن كله إلى وفاته . يقول القرطبي : « الشائع الذائع المتعالم عند أهل الرواية والنقل أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن » . وقد جاء مصحف ابن مسعود خلواً من المعوذتين .

صقنا حديث عبد الله بن مسعود وغضبه حُجَّةً على حسن اختيار أبي بكر

زيد بن ثابت لجمع القرآن . وذلك قول الصديق لزيد بعد أن أقنعه برأى عمر : « إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك . كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فأجمعه » . ويضيف القرطبي على العبارة التي نقلناها في تفضيل زيد على عبد الله قول أبي بكر الأنباري : « إن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كله ورسول الله حتى ، والذي حفظ منه عبد الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نيف وسبعون سورة ، ثم تعلم الباقي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أولى بجمع المصحف وأحق بالإثارة والاختيار » .

ولعل أبا بكر قد اختار زيدا وآثره على غيره من أصحاب رسول الله لأنه شاب ، فهو أقدر على العمل منهم ، وهو لشبابه أقل تعصبا لرأيه واعتزازاً بعلمه وذلك يدعوه إلى الاستماع لكبار الصحابة من القراء والحفاظ ، والتدقيق في الجمع دون إثارة لما حفظه هو ، وإن كان المتواتر أنه حضر العرضة الأخيرة للقرآن حين عرضه رسول الله على جبريل للمرة الثانية في السنة التي كانت فيها وفاته .

كيف أثبت زيد القرآن في مصحفه

شعر زيد بحسامة التبعة التي ألقاها الخليفة على عاتقه وقد رها قد رها ؛ وذلك قوله : « فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن » . وكيف لا يشعر بحسامة التبعة وهو يعلم أن أبا بكر يحفظ القرآن ، وعمر يحفظه ، وعليّ يحفظه ، وعثمان يحفظه ، وكبار الصحابة يحفظونه أو يحفظون منه أجزاء كثيرة . بل إن أربعة قد تلقوا القرآن عن رسول الله وكتبوه مرتب الآيات في السور ، وكتب غيرهم ، ومنهم عبد الله بن مسعود ، مصاحف بعضها كامل وبعضها غير كامل ، وهؤلاء جميعاً رقباء عليه يحاسبونه أدق الحساب .

والرقابة الكبرى ! رقابة صاحب القرآن من أوحاه إلى رسوله ، أعظم من كل رقابة . وهي التي جعلت زيدا يشعر بأن نقل جبل من الجبال أيسر مما كلفه الخليفة إياه . وإيمان زيد بن ثابت بأن الله رقيب عليه في جمع كلامه جل شأنه هو الذي سما به ليقدر ما لهذا الأمر من جلال ، وليبذل فيه كل جهد ويستهن بكل مشقة ، وألا يدخر وسعاً في جمع كل ما سطر القرآن

فيه من الرقاع والأكتاف واللخاف^(١) والعُسب ومن صدور الرجال ، وفي موازنة ذلك كله بعضه ببعض ، وموازنته بما حفظ هو عن رسول الله في السنة الأخيرة من حياته ، والوصول من الجمع إلى الغاية التي يبتغيها خليفة رسول الله والتي ترضى الله ورسوله . بذلك صار هذا المصحف المجموع إماماً استراح إليه المسلمون . فلما أراد عثمان توحيد القراءات جعله إمامه .

ولست في حاجة إلى القول بأن زيداً لم يثبت القرآن في مصحفه على تاريخ نزوله بعد أن رتبت الآيات في السور بأمر رسول الله ، فوضع بعض ما نزل منها بالمدينة في السور المكية . إنما تتبع زيد السور كما رتبها رسول الله ، ثم نسخها في الورق أو في الأديم ، فلما تم له نسخها كانت عند أبي بكر ، ثم عند عمر ، ثم عند حفصة .

أية طريقة اتبع زيد في الجمع ؟ تستطيع أن تقول في غير تردد إنه اتبع طريقة التحقيق العلمي المألوفة في عهدنا الحاضر . وقد اتبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة . فقد طلب أبو بكر إلى كل من عنده من القرآن شيء مكتوب أن يحىء به إلى زيد ، وإلى كل من يحفظ القرآن أن يُدلى إليه بما يحفظه . واجتمع لزيد من الرقاع والعظام وجريد النخل ورقيق الحجارة وكل ما كتب أصحاب رسول الله القرآن عليه الشيء الكثير . عند ذلك جعل يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه ، ولا يثبت آية إلا إذا اطمأن إلى إثباتها كما أوحيت إلى رسول الله روى أن عمر بن الخطاب قرأ : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » ، برفع كلمة « الأنصار » ومن غير واو العطف بينها وبين « الذين » ، فقال له زيد بن ثابت : « وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » . واختلفا . فدعا عمر أبي بن كعب وسأله عن ذلك فأقر قراءة زيد . وليزيل كل ريبة من نفس عمر قال : « والله » ، أقرانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تبيع الحنطة . فاذا ذكر عمر وقال : نعم ! وتابع أبي وأقر قراءة زيد . وكذلك كان يصنع زيد كلما خالفه من الصحابة أحد ، وكلما وجد في المكتوب في

طريقة زيد في الجمع هي الطريقة العلمية المألوفة اليوم

(١) اللخاف : حجارة بيض عريضة رقاق .

الرقاع والعظام وغيرها خلافاً ، يستشهد ويستقصي ، ولا يمنعه من ذلك أنه يحفظ القرآن ، وأنه حضر قراءة رسول الله إياه قبيل وفاته . وهذا الخلاف على حرف الواو في الآية السابقة يدل على مبالغ هذه الدقة ، ويشهد بأن زيداً لم يضمن بمجهود في القيام بالعمل العظيم الذي عهد فيه أبو بكر إليه .

وقد كانت هذه الدقة في جمع القرآن متصلة بإيمان زيد بالله . فالقرآن كلام الله جل شأنه . فكل تهاون في أمره أو إغفال للدقة في جمعه وزر ما كان أحرص زيداً في حسن إسلامه ، وجميل صحبته لرسول الله أن يتنزه عنه . ولقد شهد المنصفون من المستشرقين جميعاً بهذه الدقة ، حتى يقول سير وليم موير : « والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثني عشر قرناً كاملاً بنص هذا مبلغ صفائه ودقته »^(١).

نظام تتابع السور
في المصحف

على أن زيداً لم يأخذ مع الدقة في جمع السور مرتبة الآيات بتنسيق السور في المصحف واحدة تلو الأخرى ، وإنما كان التنسيق على النحو الذي نعرفه اليوم في عهد عثمان . وقد اختلف فيما كان منه في عهد النبي ، قال بعضهم : إنه صلى الله عليه وسلم تركه لأئمة ، وقال بعض : بل ذكر الرسول نظام التتابع لبعض السور وترك بعضها . وقال غيرهم : بل ذكر نظامها جميعاً . ذكر ابن وهب في جامعه قال : سمعت سائبان بن بلال يقول سمعت ربيعة يسأل : لم قدّمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال ربيعة : « قد قدّمتا وألّف القرآن على علم ممن ألّفه . وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما تنتهي إليه ، ولا نسأل عنه » . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه في مصحفنا كان عن توقيف من النبي صلى الله عليه وسلم . وأما ما روى من اختلاف مصحف أبي وعليّ وعبد الله ، فإنما كان

(١) طعن الرافضة على جمع القرآن واحتجوا بقول زيد بن ثابت : وجدت آيتين من سورة التوبة مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر السورة . وبأنهم وجدوا آية من سورة الأحزاب « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه إلخ » مع خزيمة كذلك . وهذا الاعتراض ساقط لأن زيد بن ثابت كان يحفظ هذه الآيات ، وقد وافق الصحابة خزيمة على أنهم سمعوا من رسول الله . هذا على أنها من أسلوب القرآن ونسجه ، وأنها متصلة تمام الاتصال بسياق القول . ما وهذه الأسانيد كلها متواترة مجتمعة فاعتراض الرافضة غير ناهض .

قبل العرض الأخير ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رتب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك^(١) .

يخالف بعضهم هذا الرأي ، ويرى أن ترتيب السور لم يكن بتوقيف من رسول الله ، ويحتج بأن علي بن أبي طالب لم يجمع مصحفه إلا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، وكذلك فعل عبد الله بن عباس . فلو أن رسول الله قد رتب السور لكان علي وابن عباس أجدر بأن يصنعا ذلك وأن يرتباها كما أمر رسول الله . ولم يرتب زيد بن ثابت السور حين جمع القرآن في عهد أبي بكر . فترتيب السور قد كان كله أو بعضه اجتهاداً من الصحابة ولم يكن مما أمر به رسول الله^(٢) .

والرأي بأنه صلى الله عليه وسلم لم يرتب السور كلها أو بعضها ووكل أمر ذلك إلى الأمة بعده يأخذ به كثيرون^(٣) . روى عن ابن عباس أنه قال : « قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من الميثين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة . وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فن أجل ذلك قرنتم بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتهما في السبع الطوال » .

لماذا قرن عثمان بن عفان بين سورتي الأنفال وبراءة

لم يكن القول في ترتيب السور في المصحف مما يدخل في نطاق هذا الفصل وإنما أدى إليه الاستطراد إيضاحاً لقول القرطبي عن زيد بن ثابت وجمعه القرآن في عهد أبي بكر : « جمعه غير مرتب السور بعد تعب شديد ، رضى الله عنه » .

(١) راجع ص ٥٢ من الجزء الأول من تفسير القرطبي « الجامع لأحكام القرآن » .

(٢) راجع تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني ، ص ٤٧ - ٥٨ .

(٣) راجع الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي ، ج ١ ، ص ١٣ - ١٤ .

أتم زيد جمع القرآن في عهد أبي بكر أم استغرق عمله هذا زمناً من عهد عمر ؟ ذلك أمر مختلف فيه . وقد رأينا في رواية البخارى أن الصحف التي جمع زيد فيها القرآن كانت عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين . وهذا القول يؤدي إلى أن الجمع تم في عهد أبي بكر ويذهب بعض الرواة إلى أن الجمع استغرق زمناً من عهد عمر . وليس يتيسر القطع بأي الروايتين أصح ، وإن أمكن التوفيق بينهما بأن زيداً أتم جانباً كبيراً من الجمع في عهد أبي بكر وجعل صحف هذا الجانب عند الخليفة ، وقبض الصدّيق فأخذ عمر ما كان عنده من هذه الصحف فلما أتم زيد جمع ما بقي من القرآن أضيفت صحفه إلى الصحف الأولى ثم كانت كلها عند عمر . وهذه الصحف هي التي كانت المصحف الإمام في عهد عثمان وهي التي نتلوها اليوم ، وسيتلوها من بعدنا من المسلمين وغير المسلمين حتى يوم الدين .

« رحمة الله على أبي بكر ! كان أعظم الناس أجراً في جمع المصاحف » ، كذلك قال عليّ بن أبي طالب ، وذلك ما يقوله كل مسلم . ولقد طالما سألت نفسي وأنا أكتب هذا الكتاب : أي أعمال الصدّيق أعظم : قضاؤه على الردة والمرتدين في بلاد العرب ، أم فتحه العراق والشام وتمهيدته بذلك للإمبراطورية الإسلامية العظيمة التي حملت عبء الحضارة الإنسانية قروناً متعاقبة ، أم جمعه القرآن كتاب الله إلى رسوله محمد النبي الأمي هدى ورحمة للعالمين ؟ طالما سألت نفسي وفكرت أتلّمس الجواب . ولم أتردد قط في الإجابة . فجمع القرآن أعظم أعمال أبي بكر لا ريب ، وأكثرها بركة على الإسلام والمسلمين والناس أجمعين . لقد اضمحلت جزيرة العرب وتقلصت منها أسباب القوة والحياة بعد عهد نبي أمية . وقد تداعت الإمبراطورية الإسلامية وخضع المسلمون في أرجاء الأرض لغير المسلمين ولسلطان حكمهم . ولقد نسي الناس هذه الإمبراطورية وكادوا ينسون بلاد العرب . ولو لا مناسك الحج لضمّت شبه الجزيرة إلى مجاهل الأرض فلا يصل إليها إلا المستكشفون . أما كتاب الله الكريم فإنه خالد باق على الدهر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم .

كان أبو بكر
أعظم الناس أجراً
في جمع المصاحف

جمع القرآن أعظم
ما تم في عهد
أبي بكر

ولا يحسبن أحد أنى بما أذكر من ذلك أهون من أمر حروب الردة أو من أمر الإمبراطورية الإسلامية . فكل من هذين الأمرين عظيم أى عظيم ، وكل عمل منهما كاف وحده ليخلد حياة من يقوم به . ولو أن أبا بكر وقف من خلافته عند القضاء على الردة لشهد الناس جميعاً له بعظمة ما قام به وبجلاله . ولو أنه لم يصنع أكثر من أن وضع القواعد للإمبراطورية الإسلامية لأقروا كلهم له بالعظمة وخلود الذكر على صفحات الدهر . فإذا حفل عهده بهذين الأمرين البالغين كل هذا الجلال وكل هذه العظمة ، ثم كان فيه جمع القرآن ، وهو أبقى منهما جميعاً وأعظم ، فذلك الخلد الذى لا يخلد بعده ، والرضا من الله لا يؤتاه إلا الصديقون الذين سما إيمانهم فيسر الله لهم كل عظيم وهياً لهم من أمرهم رشداً .

رحم الله أبا بكر ، وأجزل له الأجر ، إنه كان من عباده المخلصين .

الفصل السابع عشر حكومة أبي بكر

لما بويج أبو بكر خاطبه رجل من المسلمين بقوله : « يا خليفة الله » ، فلم يدعه أبو بكر يَمْضِي في حديثه ، بل قال له : « لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله » .

كيف تصور
أبو بكر الخلافة

هذه عبارة أوردتها المؤرخون حجة على تواضع أبي بكر وصدق تقديره . وهي في رأيي تستوقف النظر لمعنى أعمق في دلالة من هذا المعنى المتصل بشخص أبي بكر وخُلُقِه ؛ ذلك ما فيها من قوة الإبانة عن تصور المسلمين الأولين لفكرة الحكم . فقد خلت قرون قبل عهد رسول الله ، وتعاقبت قرون بعده ، قام أثنائها في كثير من الأمم ملوك وحكام زعم دعائهم وزعموا لأنفسهم أنهم خلفاء الله على الأرض ، وأن لهم بذلك قدسية ليست لغيرهم من الناس . كذلك كان الأمر في مصر أيام الفراعنة الأولين ، ومن هؤلاء الفراعنة من كان يقول لقومه : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى » . وكان سواد المصريين في ذلك العهد يؤمنون بما للملوكهم من صفات الربوبية ، ثم تزيدهم دعايات الكهنة إيماناً بهذه الصفات . وكذلك كان الأمر في آشور وإيران والهند وغيرها من الأمم التي عاصرت الفراعنة . وكان أكثر الملوك تواضعاً في ذلك العهد أولئك الذين يرون أنفسهم خلفاء الله على الأرض .

ولقد قام في عصور أوربا الوسطى دعاة من العلماء زعموا للملوك حقاً مقدساً مستمدّاً من الله يجعل لهم على الناس سلطاناً لا يعرف حداً ، وعدوهم لذلك خلفاءه جل شأنه ، فكانت كلماتهم منزلة كالوحي ، وكان حكمهم كحكم الله لا مردّ له . وظلت هذه الآراء مقبولة في أوربا إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، وإلى القرن السابع عشر في بعض الأمم . ولم تستطع الشعوب أن تغلب عليها ، مع انتشار العلم وتقدم الحضارة ، إلا بالثورات العنيفة ذهبت

ففيها الألوف وعشرات الألوف من الأرواح ضحايا للمبادئ التي ثارت لها ،
مبادئ الحرية والإخاء والمساواة بين الناس .

هذه المبادئ التي سادت العالم دهرًا طويلًا ، والتي كانت تسود أوروبا إلى
عهد قريب منا ، هي التي أنكرها أبو بكر بقوله : « لست خليفة الله ولكني
خليفة رسول الله » .

ولم يرد أبو بكر بأنه خليفة رسول الله إلا أنه خلفه صلى الله عليه وسلم على
قيادة المسلمين وسياسة أمورهم في حدود ما أمر الله به وما نهى عنه . أما
ما اختص الله به رسوله فيما وراء ذلك فلم يدُر بخاطر الصديق أنه خليفة فيه .
وكيف يدور ذلك بخاطره ورسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، لا يخلفه في
نبوته أحد ، ولا في رسالته أحد ! ! اصطفاه الله وأنزل عليه الكتاب بالحق
فأكمل للمؤمنين دينهم وأتم عليهم نعمته . وهذا ما خطب به أبو بكر لإثريبعته
إذ قال : « إني وليت هذا الأمر وأنا له كاره . والله لوددت أن بعضكم كفانيه .
ألا وإنكم إن كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم
لم أقم به . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً أكرمه الله بالوحي وعصمه
به . ألا وإنما أنا بشر واست بخير من أحد منكم . فراعوني ، فإن رأيتموني
استقمت فاتبعوني ، وإن رأيتموني زغت فقوموني » . وقد رأيت أبا بكر
كيف قاتل الذين ادَّعوا النبوة ، والذين ارتدوا عن دين الله وعن الإيمان به
وبرسوله ، وكيف كان صليباً في حرب هؤلاء جميعاً ، حتى ردَّهم إلى الهدى
ودين الحق .

هو خليفة رسول
الله في قيادة
المسلمين
وسياستهم فقط

ولقد تولى أبو بكر قيادة المسلمين وسياسة أمورهم بعد رسول الله باختيار
المسلمين ورضاهم . لم يبعثه الله خليفة عليهم كما بعث محمداً رسولاً إليهم ،
ولم يجعل له فضلاً على أحد منهم إلا بالتقوى . وهو لم يكن يرى لنفسه حقاً في
حكم المسلمين إلا في حدود كتاب الله وسنة رسوله . وذلك قوله رضى الله عنه حين
خطب الناس يوم بيعته : « أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة
لي عليكم » .

وهو خليفة باختيار
المسلمين ورضاهم

ولقد خلف عمر بن الخطاب أبا بكر ، فلم يتخذ لنفسه لقباً خليفة

رسول الله ، بل طلب إلى الناس فلقبوه : أمير المؤمنين . ذلك أنه أراد اتقاء التكرار في تلقيبه خليفة خليفة رسول الله . وهو تكرار يطول إلى غير حد لما إذا اتخذ عمر بن الخطاب لقب أمير المؤمنين بتعاقب الخلفاء . فلو أنه لُقب خليفة خليفة رسول الله للقب عثمان من بعده خليفة خليفة خليفة رسول الله ، ولكان عليّ بن أبي طالب خليفة خليفة خليفة خليفة رسول الله .

واتخاذ عمر لقب أمير المؤمنين اتقاء لهذا التكرار يجعل عبارة أبي بكر ، لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ، أكثر قوة في دلالتها وإبانة عن المعنى الذي قصده الصديق منها ، ويشهد بأنه قصد معناها اللغوي من حيث تعاقب الزمن . فهو الرجل الذي خلف رسول الله على سياسة المسلمين بعد وفاته . ولو أن لقب الخليفة أريد به يومئذ غير هذا المعنى اللغوي للقب عمر كما لقب أبو بكر خليفة رسول الله ، ولما اقتضى الأمر تغيير هذا اللقب بلقب أمير المؤمنين .

ولعل سبباً آخر دعا عمر لیتخذ إمارة المؤمنين لقباً له ؛ ذلك أنه رأى نظام الحكم تطور في بلاد العرب وفي البلاد التي تم فتحها في عهد أبي بكر ، مع بقاء هذا الحكم في حدود ما أمر الله به وما نهى عنه . وكان هذا التطور سريعاً في شبه الجزيرة وفيما وراءها سرعة أذهلت العالم وأدهشت المؤرخين . ولم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسوله تفصيل لنظام الحكم كيف يكون ، وإن جعل الكتاب الشورى أساس الحكم ، فقال تعالى مخاطباً نبيه : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » ، وقال « وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » .

فلم يكن لعمر بدٌّ من أن يَنظر في تفصيل هذا النظام بما يتفق واتساع رقعة الفتح ، وما يكفل طمأنينة المحكومين ، شأنه في ذلك شأن أمير الجيوش إذ يصفها وينظم تعبثها بما يقضى به تطور المعارك وما يقتضيه موقف جنوده وموقف خصومه ، غير مقيد برأى سلف ما دام في طاعة الله متأسياً برسوله .

وأنت إذا رجعت البصر إلى هذا التطور السريع ازددت إعجاباً بأبي بكر وبمقدرته على مواجهته في لين ومرونة كانا مصدر قوته والسبب في نجاح سياسته . العلاقات السياسية بين بلاد العرب إلى عهد رسول الله كانت بلاد العرب إلى عهد الرسول موزعة بين حياة الحضر وحياة البادية ،

مقسمة بين شتى الأديان ، يكاد شمالها وجنوبها لا يتعارفان . كانت اليمن خاضعة لسلطان فارس ، تتجاور فيها المسيحية واليهودية وعبادة الأصنام ، وتتكلم لغة حمير التي تختلف في لهجتها عن لغة قريش كافة ، وعن لغة مُضَرَ خاصة . ثم إن اليمن كانت مستقر حضارة تعاقبت على الأجيال . أما الحجاز فكان أدنى إلى البداوة ، وكانت مدنه ، مكة ويثرب والطائف تستقل كل واحدة بنفسها وبنظامها ، كاستقلال كل قبيلة من قبائله بنفسها وبنظامها ، ولا يحول هذا الاستقلال دون تجاور اليهودية والوثنية بيثرب ، ولا دون تجاور تجاور النصرانية والوثنية بمكة . فلما انتشرت دعوة النَّبِيِّ العربي إلى التوحيد في أرجاء شبه الجزيرة وأذن الله لدينه القيم أن يعم ربوعها ، خاضعت اليمن نير الفرس ، وبقيت مستقلة بنفسها وبنظامها كما كانت من قبل ؛ وكذلك بقيت سائر مدن الحجاز وقبائله مع إسلامها لله وللدين الذي أوحاه إلى رسوله . بذلك أصبحت بلاد العرب أشبه بعصبة أم عربية تجمع بينها عقيدة واحدة ، تدين كلها برسالة محمد وتؤمن بتعاليمه ، ثم لا تنزل من استقلالها عن شيء إلا إيتاء الزكاة أداء لفرض الله وقياماً بركن من أركان دينه الذي آمنت به .

على أن هذه الوحدة الدينية كانت بدء تطور في نظام البلاد السياسي لم يُلْقِ العرب بالهم إليه . لقد تحالفت القبائل والمدن على أن تدفع عن حرية العقيدة وتقاتل المشركين الذين يصدّون عن سبيل الله . فلما سار جيش المدينة تحت راية الرسول ليغزو مكة بعثت القبائل من سُلَيْمٍ ومُزَيْنَةٍ وَغَطَفَانٍ وغيرها من انضم إلى المهاجرين والأنصار لفتح البلاد الحرام . وفتحت مكة أبوابها وأسلم أهلها ، فسار أبناؤها مع جيش الرسول إلى حُنَيْنٍ والطائف . ثم إن رسول الله كان يبعث عمّاله إلى البلاد التي تدين بالإسلام ليعلموا الناس القرآن ويفقهوهم في الدين . وهؤلاء العمال هم الذين كانوا ينظمون الزكاة وتحصيلها فيرسلونها إلى المدينة أو يوزعونها بين الفقراء من أهل البلاد التي دخلت في دين الله . طبعي أن يحدث ما صاحب الانقلاب الديني من هذه الأحداث تطوراً في النظام السياسي يميل ببلاد العرب إلى وحدة لم تألفها من قبل . لكن أهل هذه البلاد في اليمن وفي غير اليمن لم يقدرُوا لهذا التطور ، ولم يدر بخالد أحد

كانت الوحدة الدينية بدء تطور في نظام العرب السياسي

منهم أن يكون له بعد رسول الله أثر ، بل كان ظنهم أن هذه التعاليم التي يذيعها رسول الله بينهم ستصبح أصيلة فيهم ، ثم يعودون إلى حالهم السياسية الأولى ، وتظل كل أمة وكل قبيلة منهم مستقلة بنفسها وبنظامها كما كانت من قبل .

وهذا هو السبب في ثورة تلك البلاد إثر وفاة الرسول ، وفيما ترتب على ذلك من حروب الردة . فقد أراد أبو بكر أن تظل هذه البلاد كما كانت في عهد الرسول ، وأرادت هذه البلاد أن تسترد حريتها السياسية كاملة ، وكان لأبي بكر من إيمانه بالله ورسوله أباح العذر عن الإصرار على أن يؤدي من أسلم كل ما فرض الله مما كان يؤدي لرسول الله . وكانت هذه البلاد ترى لنفسها حقاً في الاستقلال وتقرير المصير كحق أهل المدينة ، ونأبى لذلك أن يفرض المهاجرون والأنصار رأيهم عليها بعد أن لم يبق بينهم رسول الله يوحى إليه فيؤمن الناس بكلمته لأنها كلمة الله جل شأنه .

وما حدث من بيعة أبي بكر بالمدينة جدير بأن يقف نظرننا كما وقف نظر بيعة أبي بكر ودلالاتها في تطور النظام السياسي العرب في ذلك العهد . فما بال المهاجرين والأنصار قد استأثروا باختيار الخليفة دون سائر العرب ؟ ! وما دلالة ذلك في تطور النظام السياسي يومئذ ؟ أتراهم استأثروا باختيار أبي بكر لأنهم رأوا في سبقهم إلى الإسلام وفي تقدمهم الصفوف للدفاع عنه ما يجعلهم أصحاب الأمر في شؤون العرب ، وما يقدمهم في ولاية السلطان عليهم ؟ ! لعلك تذكر اعتراض عمر بن الخطاب على أبي بكر حين أرسل إلى أهل مكة يشاورهم في فتح الشام ويستمددهم إليه ، بعد أن قاتل أهل مكة المرتدين كما قاتلهم المهاجرون والأنصار . ثم لعلك تذكر كلمة سهيل بن عمرو لعمر في هذا المقام وإجابة عمر إياه . فقد قال سهيل : « ألسنا إخوانكم في الإسلام وبنى أبيكم في النسب ! أفننكم أن كان الله قدّم لكم في هذا الأمر قدماً صالحاً لم نؤت مثله قاطعو أرحامنا ومستهيئون بحقنا ! » . وكان جواب عمر : « إني والله ما قلت ما باغكم إلا نصيحة لمن سبقكم بالإسلام وتحرياً للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين » . فإن يكن ذلك رأى عمر ومن وافقه في أمر مكة وأهلها فما أحراه أن يكون رأيهم في أمر سائر العرب . أما كلمة سهيل فصريحة في إنكار رأى عمر ، وفي تمسك أهل مكة بما لهم من

حق في المشورة يعدل ما لأهل المدينة فيها .

هذا الحوار واضح الدلالة في تصوير العوامل التي كانت تتجاذب لتكيف النظام السياسي في الدولة الناشئة . فلئن قضت ضرورة المحافظة على كيان الدولة أن يسارع المهاجرون والأنصار بالمدينة إلى اختيار الخليفة ومبايعته ، لقد انقضت هذه الضرورة أول ما تمت بيعة أبي بكر واطمأن المسلمون لها ، ولقد أقامت مكة والطائف على الإسلام وشاركتا في حروب الردة ، وصار لهما بذلك من حق الرأي في الحكم ما لأهل المدينة . أف يكون سبق المهاجرين والأنصار إلى الإسلام سبباً في تقدمهم على جميع المسلمين ومسوغاً لاستئثارهم بالأمر على العرب كلها ؟ ذلك ما رآه ابن الخطاب ، مستنداً إلى ما دار في سقيفة بني ساعدة من حوار بين المهاجرين والأنصار . أما أهل مكة فبرموا به ، وأنكروا باسمهم عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو .

العوامل التي كانت تتجاذب لتكيف النظام في الدولة الناشئة

لم يذهب أبو بكر في هذا الأمر إلى المدى الذي ذهب إليه عمر ، مع أنه في سقيفة بني ساعدة ، هو الذي أيد بحجته البالغة حق المهاجرين في الإمارة لسبقهم الأنصار إلى الإسلام واحتمالهم الأذى في سبيله . ذلك أنه رأى سائر الذين أقاموا على إسلامهم من غير أهل المدينة قد شاركوا في حروب الردة ، وذهب منهم من ذهب لغزو العراق ؛ فمن العدل أن يكون لهم ما لأهل المدينة من حق في الرأي والمشورة . لهذا دعا أهل مكة يشاورهم في غزو الشام ويستمدهم إليه ، كما أنه سوى في قسمة الذهب الذي كان يجيء من المنجم الذي فتح على مقربة من المدينة في عهده بين المسلمين . فلما قيل له في تفضيل السابقين إلى الإسلام كان جوابه : « إنما أسلموا لله ووجب أجركم عليه ، يُؤفّيهم ذلك في الآخرة ؛ وإنما هذه الدنيا بلاغ » . وبهذا التصرف الحكيم مهّدت لتطور السياسي في بلاد العرب في لين ومرونة .

أبو بكر يذهب في هذا الأمر غير مذهب عمر

وقد تجدد الخلاف على هذا الرأي في عهد عمر فأصر على رأيه الأول فيه ، مخالفاً مذهب الصديق وسياسته . ثم إنه حاول في آخر عهده أن يعود إلى رأي سلفه فعاجلته المنية دون أن يتم ما عزم .

أدت سياسة الصديق إلى تطور العرب نحو الوحدة السياسية ، وجعلتهم

ينظرون إلى المدينة على أنها عاصمة دولتهم ومصدر سياستهم . لذلك اتجهت أنظارهم إليها فانضوا تحت سلطانها واستظلوا برايتها .

ما لون هذا السلطان ؟ أكان ثيُقْراطياً (دينياً) ، أم أرسْثُقراطياً (حكم الخاصة) ، أم ديمْقراطياً (حكم الشعب) (١) ؟

نظام الحكم في الإسلام

الحكم الإسلامي ليس ثيُقراطياً

لقد رأينا أنه لم يكن من نوع السلطان الديني الذي عرفته مصر الفراعنة ، ولا الذي عرفته عصور أوربا الوسطى . لم يكن أبو بكر يستمد سلطة الحكم من الله ، بل من الدين بايعوه . وقد انقضى نزول الوحي منذ اختار الله رسوله إليه ، وبقي كتاب الله بين المسلمين هدى لهم جميعاً ، وحجة عليهم جميعاً ؛ فهو ميثاقهم الذي آمنوا به وارتضوه ، وهو دستور الحكم ، يسير الحاكم في حدوده لا يتعداه . فإن فعل وجبت طاعته ، وإلا فلا طاعة له على مسلم . هذه الصورة الدقيقة للحكم الإسلامي تنأى به عن الفكرة الثيُقراطية . فهو كما ترى حكم مقيد لا سبيل للقائم به إلى السلطان المطلق . وفي طبيعة الحكم

(١) لست أدعى أن كلمة (الحكومة الدينية) تؤدي معنى الحكومة « الثيُقراطية » أداه دقيقاً . والأمر كذلك في كلمتي « حكم الخاصة » و « حكم الشعب » من حيث دقة أدائهما لمعنى الأرستقراطية والديمقراطية . وعدم الدقة أكثر وضوحاً في هذا العصر الذي تطورت فيه نظم الحكم وتعددت ، فالحكومة اللادينية توصف بها اليوم كل حكومة لا تعترف بطبقة الكهنة أو القساوسة من رجال الدين ولا تقرر للدولة ديناً رسمياً . أما غير هذه الحكومة اللادينية فيعترف بوجود هذه الطبقات ويقرر ديناً رسمياً للدولة ، وإن كان النظام الذي يقوم على أساسه مدنياً بحتاً ، ينص على حرية العقيدة ويقررها بأوسع معانيها . وهذه الحكومة ليست في شيء من الحكومة الثيُقراطية . فالحاكم الثيُقراطي يستمد سلطانه من الله كما يستمد منه العصمة . وذلك كان شأن الفراعنة ومن شاكلهم ، وشأن ملوك أوربا إلى القرن الخامس عشر على ما بينا في أول هذا الفصل . وهذا نظام لم يبق له في عالمنا المتحضر وجود . أما الأرستقراطية فكانت طائفة الأشراف أو النبلاء ، وإن شئت فكانت طائفة رؤساء القبائل والعشائر التي ألقت الغزو والسلب . وقد آل أمر هذه الطائفة زمناً إلى أبناء هؤلاء النبلاء ؛ ثم نافسهم في الشرف والنبل غيرهم ، فصار الناس يتحدثون عن أرستقراطية المال وأربابه ، وعن أرستقراطية الثقافة ، حتى لم يبق لهذه الكلمة اليوم معناها القديم . أما الديمقراطية فقد تطورت في صور شتى من عهد أثينا القديم إلى أن سادت في عهدنا الحاضر ، والعالم اليوم يتخطى أزمة مبعثها نظام الحكم ، تدافع الديمقراطية فيه عن كيائها ؛ وتحاول نظم أخرى أن تحل محلها .

ولعل القارئ يرى في تصويرنا حكومة أبي بكر ، من حيث انطباقها على إحدى هذه الصور واقترابها منها أو ابتعادها عنها ، ما يؤدي المعنى الذي قصدنا إليه والصورة التي تحررنا رزماً .

الشيْقراطى أن يكون مطلقاً لا يعرف قيْداً إلا هوى الحاكم وحرصه على الاحتفاظ بسلطانه . وهذا الحرص هو مصدر الزعم بأن إرادة هذا الحاكم الشيْقراطى من إرادة الله ، وأنها لذلك هى القانون ، بل هى فوق القانون ؛ بيد صاحبها كل شىء ؛ بيده العذاب والرحمة ، والشقاء والنعمة ، والحياة والموت . شتان ما بين هذا وبين تقييد الحاكم بمشاورة الشعب ، وبما أنزل الله فى كتابه .

فالحكم الإسلامى
مقيد بإرادة
الشعب وبأمر
الله به وما نهى عنه

ويذهب قوم إلى أن التقييد بما أنزل الله فى كتابه يُهدر إرادة الشعب ويقضى عليها ، ويحول دون تطور التشريع مع تطورها ، وأنه يجعل الحكومة الإسلامية شيْقراطية فى أسها وجوهرها . وهذا الاعتراض لا مسوغ له . فما ورد فى القرآن من التشريع لا يعدو المبادئ العامة التى تقرها قواعد العدل مصورة فى مثلها الأعلى . أما ما جاء فيه من تفصيل لبعض هذه المبادئ العامة فإنما يتناول أموراً بذاتها محصورة العدد . والمبادئ العامة التى قررها القرآن ضرورية لحياة الجماعة الحرة ، فالخروج عايتها يفسد هذه الحياة . وقد ثبت على التاريخ أن ما يخالف هذه المبادئ قد استحال قيامه فى البلاد التى تلاثم بين حرية الفرد ونظام الجماعة ، التى تقر لذلك نظام الأسرة والملك والميراث ، ثم تفرض قدراً من الاشتراكية يقتضيه تضامن الجماعة ، وتدعو إليه مبادئ الرحمة الإنسانية التى تعد فى الإسلام قاعدة مقررة لا كمالاتاً نفسياً وكفى .

ولو أن تحديد ما جاء فى كتاب الله ترك لطائفة خُصت به ، كما خصت طائفة الكهنة فى بعض الأديان بإعلان إرادة الله ، لكان للخوف من إهدار إرادة الشعب موضع . أما والإسلام يأبى هذا التخصيص ويجعل الناس سواء فى الحرص على إدراك ما أمر الله به وما نهى عنه ؛ وفى محاسبة الحاكم على تصرفاته ، فالفكرة الشيْقراطية فى الحكم الإسلامى منتفية لا وجود لها على الإطلاق .

والحكم الإسلامى
خاضع لرقابة
المسلمين جميعاً

وهذا الحكم الإسلامى المقيد خاضع لرقابة المسلمين جميعاً . لكل فرد منهم أن يحاسب القائم به ، وليس لطائفة أن تستأثر لنفسها من أمور الحكم بما تمتاز به على غيرها من الطوائف . وقد رأيت فى تصرف أبى بكر شدة الحرص على التقييد بكتاب الله والتأسى برسوله فى التنزه عن كل مطامع الدنيا ، ثقة منه بأن من ساس أمور الناس فأفاد لنفسه منها ، كان ظالماً لنفسه وللناس .

ولقد بلغ أبو بكر من هذا التنزه حدًا يحسبه أهل جيلنا ممعناً في المبالغة .
لم تغير الخلافة ولا غيرت الإمارة على المؤمنين من حياته ، ولم تنتقل به من داره
إلى دار غيرها . وقد نسي منذ تولى أمور المسلمين نفسه ونسى أهله وأبناءه ،
وتجرد لله تجرداً مطلقاً ؛ وأوجب على نفسه أن يشعر بضعف الضعيف وحاجة
المحتاج ، تحقيقاً لمعنى الإخاء في أسمى صوره ، وإيذاناً بأنه ليس له في الحياة
هوى ، وأنه يقدر لذلك على أن يقيم بين الناس عدلاً منزهاً لا يعرف محاباة ،
وإنما يعرف حدود الله في أن يعيش الناس جميعاً في ظل عدله ، جل شأنه ،
آمنين مطمئنين .

والحكومة
الإسلامية
ليست
أرستقراطية

حكومة ذلك شأنها ، لم تعرف السلطان المطاق ولم يكن للكهنة وجود
فيها ، لا يمكن أن تكون ثيوقراطية الأرمن . وهي لم تكن أرستقراطية ، ولم يكن
استئثار المهاجرين والأنصار باختيار الخليفة من الأرستقراطية في شيء . فقد
كان هؤلاء رجالاً من طبقات شتى . وهم إنما استأثروا بالأمر صوناً للنظام
القائم ودفاعاً عنه . ثم إنهم كانوا طبقة مؤتة تزول بزوال أفرادها . لا يرثها
أحد ، ولا تقوم مقامها طبقة أخرى . بل لقد نازعهم أهل مكة السبق كما رأيت .
وولاية بنى أمية ثم بنى العباس أمر المسلمين من بعد شاهد قوى على أن الفكرة
الأرستقراطية لم يكن لها بين المسلمين الأولين رجود .

حكومة أبي بكر
حكومة شورى

وإنما كانت حكومة أبي بكر حكومة شورى في منشئها وفي نزعها بوسع
الصديق بالانتخاب العام ، وبوسع لصفاته الذاتية ولكانته من رسول الله ،
لا لأسرته ولا لعصبية قبيلته . ولم يطالب أبو بكر البيعة لنفسه ، بل كان يرشح
عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح ليبايع المسلمون أيهما شاءوا ، وكان
يرشحهما والأنصار ينازعون المهاجرين الأمر ويتهمونهم بأنهم يريدون غصبه
منهم . ولقد تم ذلك كله في اجتماع عام ، هو اجتماع السقيفة ، أقيمت فيه
الخطب ، وكانت فيه المداورات الانتخابية أبرع ما تكون . فلما أقبل الناس
على البيعة لم يكن المهاجرون أسبق إليها من الأنصار ، وكان عمر وأبو عبيدة أول
من مهد لها ثم أتمها .

هذه بيعة أنشأتها الشورى ؛ فليس انتخاب رئيس الجمهورية في فرنسا ،

بل في أمريكا ، بأكثر حرية منها . فلما تولى أبو بكر الحكم كانت أول خطبة له موطدة أسس الشورى مُثبتة قواعدها . ألم يقل للناس إثر بيعته العامة : « لقد وليتُ عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني » ؟ أو لم يقل لهم : « أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ! » . هذا إقرار صريح بحق الرأي العام في مراقبته وإرشاده ، وبحق الناس في العصيان إذا عصى الخليفة الله وصدف عن أمره . والنتيجة المنطقية لتقرير مبدأ العصيان هي الإقرار للعصاة بحقوقهم في عزل من عصوه . ولا نحسب معنى أبلغ في تقرير مبادئ الشورى من هذا المعنى .

ومع أن الحرب امتدت طيلة عهد أبي بكر كما رأيت ، لقد قام حكمه على الشورى في الجليل والصغير من شؤونه . فهو لم يكن يبت في أمر قبل أن يشاور الناس فيه ، ولم يكن يميز طائفة من الناس على طائفة في القضاء أو في العطاء . وهو لم يعرف من أبهة الملك ومن جاه السلطان ما عرف أهل الملك والسلطان في أمم العالم جميعاً . وكان المسلمون أمامه سواء ، وللذين يدخلون في الإسلام من غير أهله ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وإنما أبي الصدّيق على الذين ارتدوا ثم عادوا إلى الإسلام أن يشتركوا في قتال الفرس لأنه حرص على أمن الدولة وسلامتها ؛ فلما زالت مخاوفه أوصى عمر أن يمدّ المثنى بهم في حروب العراق .

بذلك مهد أبو بكر للتطور الذي أشرنا إليه في نظام الحكم ، وهياً الأسباب لوحدة بلاد العرب السياسية بعد أن تمت لها وحدتها الدينية . وكانت مرونة أبي بكر وكان حكمه من أقوى العوامل في التمهيد لهذه الوحدة السياسية . وقد رأته كيف عفا عن زعماء الثائرين باليمن وغير اليمن من البلاد التي ارتدت في سبيل استقلالها . عفا عن قُرّة بن هبيرة ، وعن عمرو بن معبدى كرب ، وعن الأشعث بن قيس ، وعن غيرهم من سادات العرب ، فكان عفوه عنهم بعد الذي أبداه من الحزم والشدة مع غيرهم داعياً لهم ولأقوامهم أن يرتبطوا بالمدينة في وحدة لا تنقسم عُراها . وزادت الشورى التي أقام عليها أبو بكر حكمه هذه الوحدة قوة ، وزاد فتح العراق وفتح الشام جميع العرب عليها حرصاً . وكان طبيعياً أن يقوم الحكم في ذلك العهد على أساس الشورى ، فقد نشأ

حكومة أبي بكر
تمهد لوحدة
العرب السياسية

الإسلام في بلاد العرب ، وكان كتابه عربيًا ، وكان رسول الله به عربيًا ، وكانت بلاد العرب تعيش يومئذ في نظام بلغت الحرية فيه أقصى مداها . ذلك أن الحرية كانت أعز شيء على العربي ، بدويًا كان أو حضريًا . وفكرة المساواة متأصلة في النفس البدوية ، كذلك كانت ولن تزال . وقد زادت تعاليم الإسلام هذه الفكرة قوة إذ سمت بها إلى المساواة التامة أمام الخالق البارئ المعز المذل ، لا يتفاضل الناس أمامه جل شأنه إلا بأعمالهم ، ولا فضل لعربي على عجمي منهم إلا بالتقوى . فأما الإخاء الذي يُتِم مع الحرية والمساواة شعار الحكم الشعبي في عصرنا فقد بلغ به الإسلام مبلغًا ما أشده وضوحًا في قول رسول الله « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . لا غرو ، وهذه تعاليم الإسلام التي نشرها رسول الله بين الناس والتي تتفق مع أكرم ما في النفس العربية من سجايا ، أن تتوحد الوحدة العربية حول هذا النظام الذي ثبت أبو بكر قواعده ، وأن تؤدي سرعة التطور إلى تماسك هذه الوحدة وإلى استقرارها .

الإمبراطورية
الإسلامية
والأساس الذي
تقوم عليه

وقد امتدت حكومة أبي بكر إلى ما وراء بلاد العرب ، ومهدت للإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف . أفكان ذلك مصادفة محضة تضافرت العوامل على نجاحها ، أم أن التطور الذي صورناه وأدى الإسلام الناشئ إليه قد حتم هذا الفتح ، وبلغ به مداه حين بلغت الإمبراطورية الإسلامية مداها ؟

لا أتردد في القول بأن هذا التطور كان محتومًا ؛ لأن تعاليم الإسلام تنطوي بطبيعتها عليه . فالإسلام في جوهره إمبراطوري ، كما أنه في جوهره شعبي ، وإن اختلفت الفكرة الإمبراطورية فيه عن الفكرة الإمبراطورية في عهدنا الحاضر في أسسها وفي غاياتها .

ويرجع الخلاف إلى أن الإسلام يدعو إلى حرية العقيدة . ويفرض على المؤمنين به أن يدافعوا عنها بأموالهم وأنفسهم . وهو إذ يدعو إلى هذه الحرية في العقيدة لا يفرض على الناس أن يدينوا به على كره منهم ، فلا إكراه في الدين ، وإنما يريد لكل إنسان حرية النظر والتقدير حتى يستمع إلى القول فيتبع أحسنه . وهو مطمئن إلى أن الناس متى عرفوا تعاليمه اتبعوه لأنه يدعو إلى ما يرضاه العقل وما يتفق مع الفطرة السليمة في الإنسان .

حرية العقيدة
هى هذا الأساس

وحرية العقيدة كانت ولا تزال فى حاجة إلى الدفاع عنها وإلى الاستشهاد فى سبيلها . فالظالمون لا يطبقونها ، بل يعمقونها أشد المقته . والذين يريدون أن يستغلوا الشعوب يزينون للشعوب أسوأ ما فى عقائدهم وأشدّه فساداً ؛ وهم لذلك لُدُّ فى خصومة الأحرار المصلحين . أما والإسلام يريد الإصلاح ما استطاع ، يقيمه على أساس من الرأى الحر يقتنع به صاحبه فيؤمن به ، وللناس بعد ذلك أن يكتفوا مصالحهم فى هذه الحياة كما يرون لأنهم أعلم بأمور دنياهم ؛ فالفكرة الإمبراطورية فى الإسلام إنسانية روحية ، غايتها الأولى تحرير العقل إلى حيث يسمو على كل ضغط وكل اضطهاد .

والحجة القاطعة على ذلك أن المسلمين لم يفرضوا دينهم على البلاد التى فتحوها ، ولم يكرهوا الناس يوماً حتى يكونوا مؤمنين . بل إنهم كانوا إذا فتحوا بلاداً أباحوا لأهلها حرية العقيدة . فمن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن آثر ديناً غير الإسلام أدى الجزية . ولم تكن الجزية مغرماً يفرض أية ذلة أو خضوع ، وإنما كانت تقابل الزكاة المفروضة بحكم الدين على المسلمين ، لإقامة نظام الدولة والدفاع عن كيانها . ولقد رأيت فيما عقده المسلمون من معاهدات الصلح مع أهل العراق وأهل الشام أن الجزية كانت تؤدى لقاء دفاع المسلمين عن أموال من لم يسلموا ، وعن حريتهم فى عقيدتهم وإقامة شعائر دينهم . ولذلك كانت هذه المعاهدات تنص على حماية بيوتهم ، وكنائسهم ، ومعابدهم ، وأحبارهم ، ورهبانهم . فإذا لم يقيم المسلمون بالتزاماتهم المفروضة فى الصلح أغنى غير المسلمين من دفع الجزية بحكم العهود وبنصها الصريح .

إمبراطورية تقوم على هذه الأسس تختلف أغراضها عن أغراض الإمبراطورية كما فهمها الرومان ، وكما نفهمها فى العصر الحاضر ، اختلافًا جوهريًا . فهى لا تجعل خضوع الناس للعرب أو لشعب بذاته غايتها ، وإنما غايتها الأولى أن يعيش الناس أحراراً ، وأن تربط بينهم أواصر الرحمة والمودة والعدل ، وأن يكون للأمم المفتوحة من ذلك مال الأمة الفاتحة وكما يقوم الحكم فى مهد الإسلام على أساس الشورى ، يجب أن يقوم فى كل أمة فتحها المسلمون على أساس الشورى . وأهل هذه الأمم يتعاون بالحقوق التى يتمتع بها العرب ؛

اختلاف
الإمبراطورية
الإسلامية عن
الإمبراطوريات
الأخرى فى غرضها
وجوهرها

من أسلم فإله ما للعرب المسلمين وعاليه ما عاينهم ، ومن لم يسلم فإله ما للعرب غير المسلمين وعليه ما عليهم . فالذين احتفظوا بنصرانيتهم من أهل العراق أو من أهل الشام ، مثلهم كمثل الذين احتفظوا بنصرانيتهم في نجران وفي غير نجران من بلاد العرب . وإنما يربط بين هذه البلاد التي تدين بالإسلام رباط واحد ، ذلك رباط التوحيد والدعوة إليه والدفاع عن حرية هذه الدعوة . أما فيما وراء ذلك فأمر البلاد التي تؤلف الإمبراطورية الإسلامية كأمر بلاد العرب في عهد الرسول ؛ عصبه أم تسعى لغرض إنساني بالغ غاية السمو ، تجاهد في سبيله ، وتعمل لإعلاء كلمته . وسبيلها إلى هذه الغاية الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن » « فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَنِّي » ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ .

السبب في ترك
الحكم في عهد
أبي بكر بدون
تنظيم

لم ينفس الأمد لأبي بكر كي يقيم على هذا الأساس نظاماً للحكم في البلاد التي فتحها المسلمون في عهده . وقد ترك خالد بن الوليد لأهل المدن المفتوحة في العراق أن يتولوا إدارتها ، في حين احتفظ المسلمون بسياسة الدولة وتوجيه شؤونها العامة . ولم يكن ذلك تنظيماً للحكم ، وإنما كان ضرورة قضت بها الخطط الحربية في وقت كان القتال ناشباً فيه بين المسلمين والفرس ، فكان الأمر فيه للقيادة العسكرية .

وكان شأن الشام حين الفتح كشأن العراق . ولقد كان الحكم على أساس الشورى جديداً بين الشعوب التي فتحها المسلمون ، كما كان الإسلام جديداً بين الأديان التي أحاطت بشبه الجزيرة من كل جانب . وإنما كان حكم الفرد مطلقاً في ذلك العهد ، وكان الرهبان والكهنة وسائر رجال الدين يؤيدون هذا الحكم المطلق ، ويخلعون على أصحابه قدسية رهيبة تنخلع القلوب من هيبتها ، ويخر الناس سجداً أمامها . لذلك لم يلبث الناس حين رأوا هذا الحكم الجديد قائماً على الإنصاف والعدل ، متحريراً لإرادة الشعب في حدود ما أمر الله به وما نهى عنه ، أن أقبلوا عليه ورحبوا بأهله ؛ فكان إقبالهم سبباً من أسباب النصر الذي أفاءه الله على المسلمين ، فقد إمبراطوريتهم في سنوات محدودة لتحل محل الإمبراطوريتين الرومية والفارسية ، ولتتخطى حدودهما إلى الهند شرقاً وإلى شمال

إفريقية غرباً ، فتنشر حيثما ذهبت لواء الحق والعدل والإيمان الصادق ، وتُقر مبادئ الحرية والإخاء والمساواة في أسس صورها وأجدرها بالإنسانية الطامحة إلى الكمال .

لم ينفسح الأمد لأبي بكر كي يقيم نظاماً للحكم في البلاد التي فتحها المسلمون لعهد . ولم ينفسح له الأمد كذلك كي يقيم نظاماً ثابتاً للحكم في بلاد العرب نفسها . وكل ما تلوته في هذا الكتاب من خطب الخليفة الأول ، ومن تصرفاته في إقامة عمر بن الخطاب على القضاء ، وعثمان بن عفان وزيد ابن ثابت على الرسائل ، يشهد بأن الفكرة الإسلامية في نظام الحكم كانت إلى يومئذ في طور الاستجنان ، واضحة الأساس في كتاب الله وفي سنة رسوله ، مبهمة التفاصيل فلا يستطيع أحد أن يذكر عنها ما يستطيع أن يذكره عن الحكومة الإسلامية في العهد الأموي أو في العهد العباسي ، بل في عهد عمر وفي عهد عثمان . وذلك طبيعي في حكومة ألفت الأقدار عليها أن تكون حكومة انتقال من عهد إلى عهد جديد يختلف عن سابقه كل الاختلاف في لون الحضارة ، وفي العقيدة ، وفي طرائق التفكير ، وفي كل ما يتصل بنظم الحياة .

بقاء الحكم
في عهد أبي بكر
قائماً على الأسس
العربية لعهد النبي

وهو طبيعيٌ كذلك في عهد نضال وحرب ، حكومته أدنى إلى الحكومة العسكرية منها إلى الحكومة المدنية ، فالنظم المدنية تتقلص حين الحرب وتكاد تتفانى أمام النظم العسكرية ، وذلك في البلاد التي استوت النظم المدنية فيها أمداً طويلاً وأجيالاً متعاقبة . ما بالك وبلاد العرب لم يستقر فيها نظام مدني ثابت موحد قبل الإسلام ! لا جرم في هذه الحال أن تطغى نظم الحرب والجهاد متسلطة على كل النظم ، وأن تتأثر الحياة المدنية بتطورات الحرب أبلغ التأثير .

تأثر الحكم
بجال الحرب التي
كانت ناشئة طيلة
عهد أبي بكر

فإذا ذكرت أن هذه الحرب كانت حرباً أهلية في العام الأول من حكم أبي بكر ، وأنها كانت قائمة من أجل الحكم ونظامه ، ثم ذكرت أن مواجهة الفرس في العراق بدأت والحرب الأهلية ما تزال قائمة ، وأن مواجهة الروم في الشام كانت وحرب العراق في أدق أدوارها ، أيقنت أن التفكير في تنظيم حكم مستقر واضح التفاصيل لم يكن أمراً ميسوراً ، وأن أبا بكر كان في شغل بمواجهة الأسدين فارس والروم عن كل أمر سوى ما يحقق للمسلمين اجتماع

الكلمة فيما بينهم والظفر بعدو الله وعدوهم .

وكان نظام هذه الحكومة العسكرية أدنى إلى البداوة التي سادت بلاد العرب وقبائلها من قبل عهد الرسول . لم يكن هناك جيش نظامي ، بل كانت الفروسية تجعل من كل عربي جنديًا . فإذا دقت طبول الحرب ، ونادى المنادى للقتال ، خرجت القبائل والقرى وعلى رأس كل جماعة زعيمها . وقد رأيت كيف خرج العرب من أهل الجنوب حين دعوا لقتال الروم في الشام ومعهم نساؤهم وأبنائهم ، ومعهم ميرتهم وذخيرتهم ، لا يكلفون الحكومة المركزية شيئًا ، ويعتمدون في معاشهم على ما يغنمون في الحرب .

فقد كانوا يُسفلون أربعة أخماس الغنائم حين الحرب ، ويرسل الخمس إلى الخليفة ليرده على بيت المال ، ولينظم به الشؤون العامة القليلة التي يتولاها بصورة مباشرة . وكانت رعاية الفقراء من أهل المدينة ومن الوافدين عليها في مقدمة ما ينفق الخليفة هذا الخمس فيه . وكان أبو بكر حريصًا على أن يوزع الغنائم على هؤلاء وعلى كل ذي حق في بيت المال أول ما ترد إليه . لذلك كان بيت مال المسلمين في بيته بالسُّنح ، فلما انتقل إلى المدينة نقله معه . وقيل له في ذلك وطلب بعضهم إليه أن يجعل عليه حراسًا وخزنة فأبى ، لأنه لم يكن يحتفظ فيه بما يستوجب الحراسة ، ولم يكن يخزن ما يخشى عليه عدوان المعتدين .

تطور الحكومة
الإسلامية على
ذلك في عهد
الصديق

فهذه الصورة من حكومة أبي بكر تشهد بأنها كانت أدنى إلى بساطة البداوة ، وأنها كانت عربية صرفة ، لم تتأثر في قاييل ولا كثير بالنظم التي كانت قائمة ذلك العصر في بلاد الروم أو في بلاد الفرس . وهي مع هذه البساطة الحلقة القوية التي ربطت بين عهد الرسالة وعهد الإمبراطورية . واتصالها الزماني الوثيق بعهد الرسالة جعلها به أشبه . فلم يكن أبو بكر يصنع شيئًا كان رسول الله يدعه ، ولم يكن يدع شيئًا كان رسول الله يصنعه . لكنه لم يحمّد مع ذلك جمود المقلدين ، بل فتح له تأسيسه برسول الله باب الاجتهاد في سياسة المسلمين واسعًا ، فهداه اجتهاده إلى أن فتح الله له العراق والشام ، ثم مهد لحكومة العرب الموحدة أن تقوم من بعده على أساس من الشورى في حدود ما أمر الله به وما نهى عنه . لم يتزمت في أمر ولم يُفرط ، وإنما اهتدى بنور الله لمصلحة عباد

الله ، فكان أكثر ما هداه الصراط المستقيم إيمانه بأنه مُحاسب أمام الله ، كما أنه محاسب أمام عباده ، والله شديد الحساب .

مرت الحكومة الإسلامية من بعد أبي بكر في أطوار شتى . فقد بدأ ابن الخطاب ينشئ الديوان في عهده ، متخذاً من نظام الحكم في فارس وفي الروم مثالا ينسج عليه مع اعتصامه بكتاب الله وحدوده . ثم دنا عهد عثمان من الحكم المطلق دنواً لا يتفق وتقاليد العرب ؛ فكان ذلك مقدمة الثورة التي انتهت إلى مقتله . وانقلابت إمارة المؤمنين في عهد الأمويين منكماً عضواً ، يتوارثه أهل البيت المالك . وكذلك كان الأمر في عهد العباسيين . وفي أثناء هذه الأطوار كانت يد الأعاجم من الفرس والروم ذات أثر ، لعاه كان خفياً في عهد عمر وعثمان ، ثم بدأ يظهر واضحاً بعض الشيء في عهد الأمويين ، ليتجلى من بعد ذلك صريحاً كل الصراحة في عهد بني العباس .

ثم تطورها من بعد على القرون

وفي هذه الأثناء كان علماء المسلمين ، وجلهم من الأعاجم ، يضعون لنظام الحكم القواعد والتفاصيل يردونها إلى كتاب الله وسنة رسوله . وكان الخلاف يقع بين هؤلاء العلماء على هذا النظام ، فتقوم الثورات بسببه فتطيح بالحاكم حيناً ، وتُقمع بيد البأس والبطش فيستقر الأمر لصاحب السلطان حيناً آخر . ما أعظم الفرق بين حكومة أبي بكر في بساطتها العربية المتأثرة بحياة البادية ، وبين هذه الحكومات الأموية والعباسية التي وجدت من العلماء والفقهاء مَنْ شرع لها النظم المفصلة ، والقواعد المترامية الأطراف !

الأعاجم وأثرهم في تنظيم الحكم في العالم الإسلامي

كان إيمان أبي بكر بأنه محاسب أمام الله وأمام الناس هو الذي هداه سبيله . وخشية هذا الحساب جعلته لا يُقدم على أمر ولا يحجم عنه ، حتى يشاور ويروي في المشورة ويستخير الله ، فإذا خار له صح عزمه ، فكان الحزم الذي لا يعرف التردد ولا الهوادة ، لا يُعرض عليه أمر للمسلمين حتى يحسمه برأى قاطع . وقد رأيت ما كان من ذلك طيابة عهده ، ثم رأيت كيف استمع في مرضه للمثنى الشيباني حين جاء إليه من العراق يشير باستعمال الذين عادوا إلى الإسلام بعد ردتهم في حرب فارس ، وكيف أوصى عمر أن يمد

المنى بهؤلاء ليسيروا إلى الميدان معه . وفى هذا المرض كان الصديق أكثر ما يكون فى أمور المسلمين تفكيراً ، وأشد ما يكون على وحدتهم حرصاً ، وأعظم ما يكون من خلافهم إشفاقاً . لذلك أوصى ، فكانت وصيته آخر عمل له فى الحكم بخير الإسلام وخبير المسلمين .

الفصل الثامن عشر

مرض أبي بكر ووفاته

قضى أبو بكر على ردة العرب وعلى الثورة التي اندلعت إثر وفاة الرسول بسبب هذه الردة فأشعلت شبه الجزيرة نارا . ثم إنه فتح العراق وأوشكت جيوشه أن تدخل المدائن عاصمة فارس ، كما تقدم في فتح الشام وسائر النصر أعلامه فيها إلى دمشق . وبينما تبهر هذه الانتصارات أنظار العالم إذا أبو بكر يقيم الحكم في البلاد العربية المتحدة على أساس الشورى ، وإذا هو يجمع كتاب الله ، فيقر له الجميع بأنه أعظم المسلمين أجراً في جمعه بين اللوحين . هذه أعمال ضخمة عظيمة أقرت الدين الحنيف في منزل الوحي ، ومهدت لإقامة الإمبراطورية الإسلامية ولانتشار هذا الدين الحنيف فيها ، ولقيام الحكم بين أهلها على أساس متين من الإنصاف والعدل . وكان ذلك كله في سنتين وثلاثة أشهر .

ما تم في خلافة
أبي بكر

أليست هذه بعض معجزات التاريخ؟! في سنتين وثلاثة أشهر تطمئن أمة نائرة وتصبح أمة متحدة قوية مرهوبة الكلمة عزيزة الجانب ، حتى لتغزو الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تحكمان العالم وتوجهان حضارته ، لتنهض بعبء الحضارة في العالم قرونًا بعد ذلك . هذا أمر لم يسجل التاريخ مثله ، فلا عجب أن يقتضى من أبي بكر مجهوداً تنوء به العصابة أولو القوة . أما وقد تخطى أبو بكر الستين يوم بويج ، فطبيعى أن يهيض هذا المجهود قوته وأن يعجل به إلى لقاء ربه .

ولعلك بعد الذى تلوته من تفصيل هذه الأعمال الجسام أن تقدر هذا المجهود وما كان له من أثر . بل لعلك قد رأيت أن هذا المجهود لا يمكن أن ينهض به رجل إلا إذا أوتى من توفيق الله ومعونته ما لا يؤتاه إلا الصديقون . وهذا ما آمن به أبو بكر ، ولهذا نقش على خاتمه : « نعم القادر الله » .

الزعم بأنه مات
مسموماً

عجلت عظمة المجهود وتقدم السن وفاة الخليفة الأول ، وإن جرت رواية

أبو بكر الصديق

في تعاليل وفاته بأن اليهود دسوا له السم في طعام تناول منه عتّاب بن أسيد معه ، كما تناول منه الحارث بن كلدة لقيات ثم كف ، وأن هذا السم كان بطيء الأثر يقتل بعد عام من تناوله ، ولذلك مات عتّاب بمكة في اليوم الذي قبض فيه أبو بكر بالمدينة . وهذه الرواية لم تؤيد بسند جدير بالثقة . ومما يزيد من تهافتها أن أبا بكر لم يكن بينه وبين اليهود في خلافته نزاع ، وأن اليهود جلوا منذ عهد رسول الله عن المدينة .

رواية عائشة في مرضه وفاته والرواية الراجحة في مرض أبي بكر وفاته تسند إلى ابنته أم المؤمنين عائشة وإلى ابنه عبد الرحمن ، قالا : كان أول ما بدأ مرض أبي بكر أنه اغتسل في يوم بارد فحسّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة ؛ وكان يأمر عمر ابن الخطاب أن يصلي بالناس .

على أن أبا بكر لم يفتأ في الأسبوعين اللذين قضاهما في مرضه إلى وفاته دائم التفكير في شؤون المسلمين ، دائم الحساب لنفسه عما قدم مذ تولى أمرهم . فقد كان قوى الشعور منذ مرض بأن أجله جاء ، وأنه ملاق ربه . وقد كان مغتبطاً لذلك مطمئناً له ، لأنه كان في السن التي اختار فيها رسول الله الرفيق الأعلى ، ولأنه كان يشعر بأنه أدى لله حقه . قيل له يوماً : لو أرسلت إلى الطبيب ! فكان جوابه : قد رأيته . قيل : فما قال لك ؟ قال : إني أفعل ما أشاء . يشير إلى أنه وكل الأمر لله ، وأنه سعيد بقضاء الله ، وأن أكبر همه أن يضمه الله إليه .

تفكير أبي بكر في مصير المسلمين بعده وأكثر ما شغل به أبو بكر أثناء مرضه إشفاقه من مصير المسلمين بعده . لقد ذكر اختلاف المهاجرين والأنصار بسقيفة بني ساعدة حين مات النبي ، وذكر ما كان يوشك أن يحدث بين القوم لولا أن جمع الله كلمتهم على بيعته . ولئن اختلفوا حين وفاته ليكون اختلافهم أجسم خطراً . فلم يبق الأمر دائراً بين المهاجرين والأنصار دون سائر العرب ، بل لقد جاهد العرب جميعاً ولا يزالون يجاهدون في العراق والشام ، يواجهون فارس والروم . فإذا قبض واختلفوا لم يقف خلافهم في حدود سقيفة بني ساعدة ، بل يتخطاها إلى مكة والطائف ، وقد ينتقل إلى اليمن ، وعند ذلك تعود الثورة تتلظى في بلاد العرب . وهي

إن عادت لم يكن مدارها ركناً من أركان الدين ، بل السلطان وولاية الأمر .
واختلاف الناس على أمور الدنيا أشد إثارة للشر وإطارة لنار الفتنة . وما أجسم
الخطر من ذلك على الإسلام والمسلمين في وقت يواجهون فيه الأسدين فارس
والروم ! فكيف يتلافى أبو بكر هذا الخطر ، وكيف يجنب المسلمين ما ينشأ
عن الفتنة من شرٍّ مستطير ؟

لماذا استخلف
أبو بكر على حين
لم يستخلف
رسول الله

فكر في هذا أثناء مرضه وطال فيه تفكيره . وألهمه الله الرأي وعزم له
فلم يتردد . لا سبيل إلى ملافاة ما يشفق منه إلا أن يستخلف من يقوم بالأمر
من بعده ، وأن يجمع كلمة المسلمين عليه . هذا أمر لم يصنعه رسول الله ؛ فقد
قبض ولم يستخلف . ولكن ذلك كانت فيه لله حكمة ، وحكمته ألا يظن
الناس أن من استخلفه رسول الله قد استمد الأمر على المسلمين من عند الله ،
فأصبح خليفة الله . وقد أراد الله من فضله أن يجمع كلمة المسلمين من بعدُ على
أبي بكر وأن يهيئ له من التوفيق ما رأيت . فأما إن استخلف أبو بكر فإنما يستخلف
برأيه ، وبإرادة المسلمين . ولن يكون لخليفته على المسلمين إلا ما كان
لأبي بكر ، ولن تكون حكومته إلا كما كانت حكومة أبي بكر .

مشاورته أولى
الرأي في استخلاف
عمر بن الخطاب

من ذا تراه يستخلف ؟ لقد عجم عیدان من حوله من أولى الرأي جميعاً
في عهد النبي ، وقد عجم عیدانهم مدة خلافته . وهو اليوم أشد ثقة بأن عمر
ابن الخطاب خير من يخلفه . لكنه إن فرض ذلك على المسلمين فقد يثقل
أمره عليهم ، وقد يبرمون به . لذلك دعا عبد الرحمن بن عوف وقال له : أخبرني
عن عمر بن الخطاب . قال عبد الرحمن : ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلمنا
به . قال أبو بكر : وإن . فقال عبد الرحمن : يا خليفة رسول الله ، هو والله
أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة . قال أبو بكر : ذلك لأنه يراني
رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه . ويا أبا محمد قدر رمقته
فرأيت أنه إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه ، وإذا لنت له
أراني الشدة عليه . وسكت هنيهة ثم قال : لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك
شيئاً .

ودعا الصديق عثمان بن عفان بعد عبد الرحمن بن عوف ، وقال له :

يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر . قال عثمان : أنت أخبر به . فقال : على ذلك يا أبا عبد الله ! قال عثمان : اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله . قال أبو بكر ؛ يرحمك الله يا أبا عبد الله ! والله لو تركته ما عدوتك ! لا تذكرن مما قلت لك ولا مما دعوتك له شيئاً .

ولم يكتب أبو بكر بمشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، بل شاور كذلك سعيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار . وسمع بعض أصحاب النبي بمشاورات أبي بكر وأنه يريد استخلاف عمر ، فأشفقوا من شدة ابن الخطاب وغازطته أن يفرق ذلك كلمة المسلمين ، فاجتمع رأيهم على أن يهيبوا بأبي بكر ليرجع عن عزمه . واستأذنوا فدخلوا عليه ، فقال طلحة ابن عبيد الله : « ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمراً علينا ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقائك ربك ؟ ! » . هنالك غضب أبو بكر وصاح بقومه والمرض يهزه : أجلسوني ! فلما أجلسوه وجّه الحديث إلى القوم الذين دخلوا عليه فقال : « أبالله تخوفوني ! خاب من تزود من أمركم بظلم ! أقول ؛ اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك » ، ثم اتجه إلى طلحة فقال له : « أبلغ عني ما قلت لك من وراءك » .

اعتراض
المعترضين على
استخلاف عمر

واضطجع أبو بكر وقد هدّه هذا الحوار ، فانصرف عنه القوم لم يبق منهم إلا عبد الرحمن بن عوف ، وقيل بل خرج عبد الرحمن معهم ثم عاد إليه صبح اليوم التالي ، وقال يحيمه وقد جلس إلى جانب سريرته : « أصبحت والحمد لله بارئاً » . قال أبو بكر . « أترأه ؟ » . قال : نعم ! فسكت أبو بكر وسكت عبد الرحمن هنيهة ثم تحدث الصديق وكأنما عنّاه ما حدث بالأمس : « إني وليت أمركم خيركم في نفسي ، فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه » . واستطرد في حديث أحس معه عبد الرحمن بما يغص نفس الخليفة من ألم لحديث القوم ، فقال له : « خفّض عليك رحمتك الله فإن هذا يهيضك . إنما الناس في أمرك بين رجلين ؛ إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك . وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا خيراً ،

ولم تزل صالحاً مصلحاً .

كتاب أبي بكر
باستخلاف عمر

واطمأن أبو بكر إلى استخلاف عمر ، فدعا عثمان بن عفان ، وكان يكتب له فقال له اكتب ، وأملأه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر ابن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب . إني استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . وإني لم آله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً . فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه ، وإن بدّل فللكل امرئ ما اكتسب من الإثم . والخير أردت ، ولا أعلم الغيب . وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون . والسلام عليكم ورحمة الله » . ثم ختم الكتاب .

وتذهب بعض الروايات إلى أن أبا بكر أملى عثمان حتى إذا بلغ « إني استخلفت عليكم » أغمى عليه قبل أن يملى اسم عمر بن الخطاب ، فكتب عثمان في غيبوبة أبي بكر « إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً » ثم أفاق أبو بكر فقال : اقرأ على ، فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال : « أراك خفت أن يختلف الناس إن اختلفت نفسي في غشيتي » ! . قال عثمان : « نعم » وأقرّ الصديق ما كتب ، وقال له : « جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله » !

خشى أبو بكر مع ذلك كله أن يختلف الناس من بعده ، فأشرف من حجرة بداره على الناس بالمسجد وامرأته أسماء بنت عُمَيْس ممسكة موشومة اليدين ، وقال يخاطب من بالمسجد جميعاً : « أترضون بمن أستخاف عليكم ، فإنّي والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة ، وإني قد استخافت عمر ابن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا » : فقالوا . « سمعنا وأطعنا » .

وصية أبي بكر
لعمر بن الخطاب

وفي بعض الروايات أن عثمان خرج إلى الناس بعد أن أملى عليه أبو بكر وصيته وختمها ، فأبرز لهم الكتاب محتوهاً وقال لهم : أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ قالوا : نعم ، وبايعوا ابن الخطاب . فلما بايع الناس دعا أبو بكر

عمر فأوصاه بما أوصاه به ، على تعبير ابن سعد في الطبقات (١).

وإذ فرغ أبو بكر من استخلاف عمر واطمأنت نفسه على مصير المسلمين من بعده جعل يحاسب نفسه على ما قدّم . روى عن عبد الرحمن بن عوف أنه كان يهوّن على أبي بكر عِلَّتَهُ وما يدور بخاطره من أمر المسلمين ، ويذكر له أنه لا يأسى على شيء من الدنيا ، فقال أبو بكر : « أَجَلٌ إني لا آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتھن وَدِدْتُ أني تركتھن ، وثلاث تركتھن وددت أني فعلتھن ، وثلاث وددت أني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنھن . فأما الثلاث اللاتي وددت أني تركتھن ، فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء وإن كانوا قد غلّقوه على الحرب (٢) . ووددت أني لم

الصدیق يحاسب نفسه على ما فعل وما ترك وما نسي أن يسأل عنه رسول الله

(١) أوردت بعض الروايات نص هذه الوصية ، وهو ما يأتي : « إني مستخلفك من بعدى وموصيك بتقوى الله . إن الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل . وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة . فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً . وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً . إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرهم قلت إني أخاف ألا أكون من هؤلاء . وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرهم قلت إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء . وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، لا يتمنى على الله غير الحق ولا يلتقي بيده إلى التهلكة . فإذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله » . وقيل إن عمر لما خرج من عند أبي بكر رفع المديق يديه وقال : « اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت به أعلم ، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خیرهم وأقوامهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم . وقد حضر من أمرك ما حضر فاخلفني فيهم ، فهم عبادك ونواصيهم بيدك . أصلح اللهم واليهم ، واجعله من خلفائك الراشدين ، وأصلح له رعيته » !.

وليس يسيراً علينا أن نتثبت من صحة الرواية في الوصية ولا في الدعاء . بل لعل لمن شاء أن يرتاب في نسبة بعض ما انطويا عليه إلى الصدیق رضی الله عنه . وحسبنا أن نذكر عبارته الأخيرة في الوصية : « اجعله من خلفائك الراشدين » ونذكر إلى جانبها إنكاره على من دعاه « خليفة الله » وقوله : ولكني خليفة رسول الله ، لتبين وجه الحجة لمن يرتاب . فإذا أضفت إلى ذلك ما في تاريخ أبي بكر من اختلاف الروايات ومن ضعفها كان حقاً علينا أن نتلقى ما يروى عنه في شيء كثير من الحذر .

(٢) لا يذكر الذين ينكرون تخلف على عن البيعة هذه العبارة . ولا يذكر بعض الرواة ما يقال من أن أبا بكر ود أن يسأل رسول الله في أمور منها هل للأئصار حق في ولاية الأمر .

أكن حرقت الفجاءة السُّلَمي وأنى كنت قتلته سريحاً^(١) أو خليته نجيحاً .
 ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قذفت الأمر فى عنق أحد الرجلين
 — يريد عمراً وأبا عبيدة — فكان أحدهما أميراً وكنت وزيراً . وأما اللاتى تركتهن ،
 فوددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه فإنه تخيل
 إلى أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه . ووددت أنى حين سیرت خالد بن الوليد إلى
 أهل الردة كنت أقمت بذى القَصَصة ، فإن ظفر المسلمون ظفروا ، وإن هزموا
 كنت بصدد لقاء أو مدد . ووددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى
 الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يديَّ
 كليهما فى سبيل الله — ومد يديه . ووددت أنى كنت سألت رسول الله صلى الله
 عليه وسلم لمن هذا الأمر فلا ينازعه أحد . ووددت أنى كنت سألته : هل
 للأنصار فى هذا الأمر نصيب ؟ ووددت أنى كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ
 والعمة فإن فى نفسى منهما شيئاً .

نزول أبى بكر
 للمسلمين عما أخذ
 من بيت مال
 المسلمين

لم يكن ذلك كل ما اختلجت به نفس أبى بكر وما دار بخاطره أثناء
 مرضه . فأنت تذكر أنه قد ترك التجارة ليفرغ لما يُصلح شؤون المسلمين ،
 وأن أصحابه جعلوا له من بيت المال ما يُصلح به نفسه وعياله . فلما رأى أنه
 مشف على الموت لم تطب نفسه بما أخذ من بيت المال ، بل قال : « ردوا ما عندنا
 من مال المسلمين فإنى لم أصب من هذا المال شيئاً ، وإن أرضى التى بمكان
 كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم » . واستخلص عمر ثمن هذه الأرض
 ورده على بيت المال تنفيذاً لأمر أبى بكر ، وجعل يقول : « یرحم الله أباً بكر !
 لقد أحب ألا يدع لأحد بعده مقالا ! » .

وفى رواية أن عمر قال هذه العبارة لأهل أبى بكر حين أبلغوه مشيئته
 فى هذا الأمر ثم أردفها بقوله : « وأنا والى الأمر من بعده ، وقد رددتها
 عليكم » .

وتجرى رواية ثالثة بأن أباً بكر توفى وليس عنده دينار ولا درهم ،

(١) السريح ، السهل ، أو العجلة .

وإنما ترك عبداً كان يحمل صبيانه ، وناضحاً يستقى^(١) بستاناً له ، وقطيفة قيمتها خمسة دراهم ، وقد أمر بحملها إلى عمر بعد أن يُفرغ منه . فلما حملت إلى عمر بكى وقال : « لقد أتعب أبو بكر من بعده تعباً شديداً ! » .

ولسنا نثق بصحة هذه الرواية وإن كانت البينات قائمة على أن أبا بكر إن كان قد ترك شيئاً بعده فإنما ترك غير كثير . فقد أوصى بخمس ماله وقال : « آخذ من مالى ما آخذ الله من فئ المسلمين » ، أو قال : « لى من مالى ما رضى ربه من الغنيمة » . ولعل بعضهم ودّ لو أن أبا بكر أوصى بأكثر من الخمس ، فأجابه : « لأن أوصى بالخمسة أحب إلى من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحب إلى من أن أوصى بالثلث ، ومن أوصى بالثلث فلم يترك شيئاً » . فلو أن أبا بكر لم تكن له تركة وصح ما روى عن عائشة أنها قالت : « ما ترك أبو بكر ديناراً ولا درهماً ضرب الله سيكته » ، لما أوصى بالخمسة ، ولا بما دون الخمس ؛ فإنما يوصى من يملك شيئاً وإن قلّ .

وكان أبو بكر قد وهب لعائشة أرضاً بالعالية ، كان النبيّ أعطاه إياها ، فأصلحها وغرس فيها ثم جعلها لابنته أم المؤمنين . فلما حضر وعائشة تمرضه جلس فتشهد ثم قال : « يا بنية ، إن أحب الناس غنى إلى بعدى أنت ، وإن أعز الناس فقراً على بعدى أنت . وإني كنت نحلّك أرضى التي تعلمين ، وأنا أحب أن ترديها على فيكون ذلك قسمة بين ولدى على كتاب الله ؛ فإنما هو مال الوارث ، وهما أخواك وأختاك » . ولم يكن لعائشة غير أخت واحدة ، فسألت أباها في ذلك فقال : « ذو بطن ابنة خارجة فإني أظنها جارية » .

أبو بكر يسترد ما وهبه لعائشة ابنته ليكون قسمة بين ولديته وبنتيه

فكّر أبو بكر أثناء مرضه فيمن يخلفه على المسلمين ، وفكر في رد المال الذى جعلوه له حين خلافته ، وفكر فيما يوصى به من تركته ، ونكر فيما كان نحاه ابنته عائشة ليرده على ورثته . ففكر في هذا كله شديد الحرص على أن يدع هذه الدنيا بريئاً ، وعلى أن يلتقى الله وقد ألقى عن نفسه كل ما يخشى أن يؤاخذ به الله به . فلما اطمأن إلى ذلك بدأ يفكر في الموت وفي الأهبة له ، فأوصى أن

(١) الناضح : البعير أو الثور أو الحمار الذى يستقى عليه الماء . وفي بعض الروايات

« لقحة » بدل « ناضح » واللحمة : الناقة القريبة العهد بالتاج .

يَكْفَنُ فِي ثَوْبَيْنِ لَهُ كَانَ يَلْبَسُهُمَا وَقَالَ : « كَفَنُونِي فِيهِمَا فَإِنْ الْحَيَّ أَحْجَجَ لِلْجَدِيدِ مِنَ الْمَيِّتِ »^(١). وَأَوْصَى أَنْ تَغْسَلَهُ امْرَأَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمَيْسَ ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ اسْتَعَانَتْ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِهِ . وَإِنَّهُ لَفِي شُغْلٍ بِهَذِهِ الْأُمُورِ إِذْ أَقْبَلَ الْمَشْيَ مِنَ الْعِرَاقِ فَأَذِنَ الصَّدِيقُ لَهُ ، فَلَمَّا طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُسَمِّدَهُ بِمَنْ عَادَ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الرَّدَةِ أَوْصَى عُمَرَ أَنْ يَفْعَلَ وَلَا يُشْغَلَ بِوَفَاتِهِ عَنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ .

وصية أبي بكر
لكفنه

وَبَدَأَ أَبُو بَكْرٍ يَعَالِجُ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ وَعَائِشَةُ ابْنَتُهُ إِلَى جَانِبِهِ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ كَذَلِكَ تَمَثَّلَتْ بِهَذَا الْبَيْتِ مِنْ قَوْلِ حَاتِمٍ :

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَقْرِ

إِذَا حَشَرَجْتُ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فَنَظَرَ الصَّدِيقُ إِلَيْهَا كَالْغَضْبَانِ ثُمَّ قَالَ : لَيْسَ كَذَلِكَ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنْ : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » . وَلَمَّا ثَقُلَ جَلَسَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ وَتَمَثَّلَتْ :

وَكُلَّ ذِي إِبِلٍ مَوْرُوثٌ وَكُلَّ ذِي سَلْبٍ مَسْلُوبٌ

وَكُلَّ ذِي غَيْبَةٍ يُوْبُّ وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يُوْبُّ

وَقِيلَ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ هُوَ الَّذِي تَمَثَّلَ بِهِذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، وَأَنْ آخِرَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ « رَبِّ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ » .

رب توفني مسلماً
والحقني بالصالحين

وَقَبِضَ أَبُو بَكْرٍ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لِإِحْدَى وَعِشْرِينَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ جُمَادَى الْآخِرَةِ لِلسَّنَةِ الثَّلَاثَةِ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ (٢٢ أَوْغُسْطُسُ سَنَةِ ٦٣٤ م) ، وَهُوَ فِي الثَّلَاثَةِ وَالسِّتِينَ مِنْ عَمْرِهِ . تَوَفَّى مَسَاءً بَعْدَ مَا غَابَتِ الشَّمْسُ ، وَدُفِنَ لَيْلًا ، وَتَوَلَّى زَوْجُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمَيْسَ غَسْلَهُ وَعَاوَنَهَا ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِذْ كَانَ يَصُبُّ

(١) كَثُرَتْ الرِّوَايَاتُ فِي وَصِيَّةِ أَبِي بَكْرٍ بِتَكْفِينِهِ ، وَكُلُّهَا مَعَ ذَلِكَ مَنْسُوبَةٌ لِعَائِشَةَ ، فَهِيَ أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ ثَوْبٌ فَقَالَ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَاغْسِلُوا ثَوْبِي هَذَا وَضَمُّوا إِلَيْهِ ثَوْبَيْنِ جَدِيدَيْنِ وَكَفَنُونِي فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ قَالَتْ عَائِشَةُ : أَلَا نَجْعَلُهَا جَدِّدًا كُلِّهَا ؟ فَقَالَ : لَا ! إِنَّمَا هِيَ لِلْمَهَلَةِ ، الْحَيُّ أَحَقُّ بِالْجَدِيدِ مِنَ الْمَيِّتِ . وَمِنْهَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ سَأَلَ عَائِشَةَ فِي كَيْفِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَتْ : فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ . قَالَ اغْسِلُوا ثَوْبِي هَذَيْنِ وَابْتَاعُوا لِي ثَوْبًا آخَرَ . قَالَتْ : يَا أَبَتُ إِنَّا مُوسِرُونَ . قَالَ : أَيُّ بَنِيَّةٍ ! الْحَيُّ أَحَقُّ بِالْجَدِيدِ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَإِنَّمَا هِيَ لِلْمَهَلَةِ وَالصَّدِيدِ . وَثُمَّ رَوَايَاتُ أُخْرَى أَوْرَدَهَا ابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ . (الْمَهَلَةُ ، مَثَلَةُ الْمَيِّتِ : الْقَبِيحُ وَالصَّدِيدُ) .

الماء . ثم إنه حمّله على السرير الذي حُمِّل عليه رسول الله إلى المسجد ليدفن كما أوصى إلى جواره صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة .

ووضع الجثمان في المسجد بين القبر والمنبر ، وتولى عمر صلاة الجنازة فكبّر أربعاً ، ثم نُقل الجثمان إلى القبر ودخل معه عمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن ابن أبي بكر . وأراد عبد الله بن أبي بكر أن يدخل ، فقال له عمر : « كُفيت » . ودفن أبو بكر في حفرة حضرت له إلى جنب النبي ، وجعل رأسه إلى كتف رسول الله ، وألصق اللحد باللحد . فلما أهالوا عليه التراب خرجوا وقد دعوا خليل رسول الله وصفيّه بعد أن جمع بينهما الموت ، فودعوا أقرب الناس إلى قلب رسول الله وأحبهم إليه وآثرهم عنده ، وأشدّهم إيماناً بالله ورسوله . وقد ارتجّت المدينة لوفاة أبي بكر ، وتولّى الناس دهش كدهشهم يوم قبض رسول الله ، وأقبل على بن أبي طالب مسرعاً باكيّاً حتى وقف بالباب فقال :

« رحمك الله يا أبا بكر ! كنت والله أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدّهم يقيناً ، وأعظمهم غنى ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدثهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله خُلُقاً وفضلاً وهديّاً وسمّاً ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً . صدّقت رسول الله حين كذّبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وسمّاك الله في كتابه صدّيقاً فقال : « والتّذي جاء بالصّدق وصدّق به » . يريد محمداً ويريدك . كنت والله للإسلام حصناً ، وللكافرين ناكباً . ولم تتضليل حُجّتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبُن نفسك ، كالجليل لا تحرّكه العواصف ، ولا تزيله القواصف . كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً في بدنك ، قوياً في دينك ، متواضعاً في نفسك ، عظيماً عند الله ، جليلاً في الأرض ، كبيراً عند المؤمنين . لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ؛ فالضعيف عندك قوى ، والقوى عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوى ، وتأخذه للضعيف . فلا حرّمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك ! » .

تأبين علي بن أبي طالب أبا بكر

تأبين عائشة
أم المؤمنين
أباها

وأبنته ابنته عائشة أم المؤمنين فقالت : « نَصَّرَ الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ؛ فقد كنت للدنيا مذلاً بإدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها . ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزءك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ، إن كتاب الله عز وجلّ ليعيدُنَا بالصبر عنك حسنَ العوض . وأنا متنجزة من الله موعدة فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك . فسلم الله عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك » .

تأبين عمر
ابن الخطاب

وكان عمر بن الخطاب أوجز في القول ، وكأنا عقد الرزء لسانه . قال حين دخل على أبي بكر بعد موته : « يا خليفة رسول الله ! لقد كلفت القوم بعدك تعباً وليتهم نصّباً . فهيّئات من شقّ غُبارك ، فكيف اللحاقُ بك » . وتداولت أنباء الوفاة حواضر العرب وبواديها ، فهزت كل نفس وأسبلت الدمع من كل عين ؛ واضطرب أهل مكة لسماعها ، وبلغ اضطرابهم سمع أبي قحافة فسأل : ما هذا ؟ قيل : توفي ابنك . قال : رزء جليل ! من قام بالأمر بعده ؟ قالوا : عمر . فقال : صاحبه ، ولم يزد . وأرادوا أن يردوا عليه حقه مما ترك أبو بكر فأبى وقال : بنوه أحق به . وما كان لهذا الشيخ الفاني بعد هذا الرزء الجسيم إلا أن يلحق ابنه في جوار الله ، فتوفى بعد ستة أشهر من وفاته .

أفتدل هذه الكلمات الوجيزة التي نطق بها أبو قحافة على أنه كان أجمل العرب صبراً لقضاء الله في خليفة رسول الله ؟ ! أم أن جزعه لوفاة ابنه هو الذي أسكته ، كما أنه هو الذي عجل به إلى لقاء ربه ؟ ! ما نحسب أباً يتجملد للمصائب في ابنه إلا تجملاً ، وإن تقدّمت به السن وأدركه الهرم . لذلك كان حزن أبي قحافة غير حزن سائر العرب . لقد حزن العرب إشفاقاً مما يخبئه الغيب ، بعد أن غيبوا في التراب رجلاً كان البرّ بهم ، والعطفَ عليهم ، وإنكار الذات في سبيلهم ، وكان إلى ذلك موفقاً كل التوفيق في ولاية أمرهم وسياسة دولتهم . أما أبو قحافة فحزن لأن أعزّ أجواء نفسه عليه ذهب ، فانهدّ ركنه وتداغت حياته .

موقف عمر من
نوح آل أبي بكر
عليه

وفدَح الخطب أمّ المؤمنين عائشة ، فأقامت النوح على أبيها وشاركتها
أختها أمّ فروة وزوجتها أسماء بنت عميس وحبيبة ابنة حارثة ومن اجتمع إليهن
من نساء المدينة . فلما بلغ عمر ما يصنعن جاء إلى بيت عائشة ونهاهن عن النواح
فلم ينتهين . فقال هشام بن الوليد : ادْخُلْ عليهن فأخرج إلى أمّ فروة
ابنة أبي قحافة أخت أبي بكر . وسمعت عائشة قول عمر فقالت لهشام : إني
أخرج عليك بيتي . قال عمر : ادْخُلْ فقد أذنت لك . ودخل هشام فأخرج
أمّ فروة إلى عمر ، فعلاها بالدرة فضربها ضربات وهو يقول : تُردن أن
يعذب أبو بكر ببكائك ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت
يعذب ببكاء أهله عليه » . وتفرق النوائح حين رأين ما أصاب أمّ فروة ، ولم
تستطع عائشة أن تحول بين عمر وما أراد .

ولعل عمر قد أزعجه هذا النوح لشدة جزعه على أبي بكر . فليس أوجع
لنفوسنا من نوح النسوة على ميت نحبه ويحز الألم في قلوبنا لفراقه . وحقّ لعمر
ولكل مسلم أن يشتد يومئذ جزعه . بل إننا اليوم لنشاركهم في حزنهم
وفيما كان من مخاوفهم ، مع علمنا بما أفاء الله على المسلمين في عهد عمر من
نصر ، وما أراد من فضله أن يتوج به سياسة أبي بكر من نجاح وفوز . فلم
يمر الإسلام منذ هاجر النبي إلى المدينة بمثل ما مرّ به في عهد الصديق من
محنة ، ولم تسم نفوس المسلمين فوق البأساء والضراء وحين البأس سموها بفضل
إيمانه وعزمه . لقد امتحن الله المؤمنين في خلافته فأحسنوا البلاء ، واجتاز الدين
الناشئ بفضل إيمان الخليفة وعزمه مناطق الأعراف ، صُلُبًا قويّ الحياة ،
كفيلًا بأن يظل العالم بلواء التقدم والحرية ، وأن يرفعه إلى حضارة سامية هي
وحدها الجديرة بالإنسانية . وقد كانت روح أبي بكر من مصادر هذه القوة .
أفكان الإسلام لا يزال في حاجة إلى فيضها ؟ أم أنه قد تخطى خلال هاتين
الستين وثلاثة الأشهر مناطق الخطر ، فآن له أن يمتد في طمأنينة وأمن ، وأن
يمد إلى الإنسانية المضطربة يوم ذاك يد النجدة ليُقرّ بينها الإخاء والسلام ! ! .

أثر أبو بكر في
حياة الإسلام

لعلنا لا ندري ماذا كان يحدث لو لم يستخلف أبو بكر عمر ، ولو لم
يخرج على ما أخذ به نفسه ، ولم يصنع ما لم يصنعه رسول الله . فقد كان هذا

العمل الأخير في حياة الصديق حلقة قوية في السلسلة التي رفعت الإسلام مكاناً علياً ، والتي أراد الله أن يتم بها كلمته وينصر دينه . تُرى لو أن أبا بكر اختار عثمان أفكان الإسلام ينتشر ما انتشر في عهد عمر ، ثم يزداد في عهد خليفته انتشاره ؟ ! أم أن اختيار عمر كان توفيقاً من الله للصديق فكان الفاروق بطل الموقف ورجل الساعة ؟ ! .

لا غناء اليوم في أن نعرض لهذا الأمر بحكم . لكن الذي لا مزية فيه أن أبا بكر وعمر كانا يتفقان في جوهر النفس على تباين مظاهرها لنا وشدة . صَفَى الإيمان بالله نفسيهما فتنزَّهتا وطهَّرتا وسمَّتا فوق خباثت الدنيا وتجردتا لله ، فكانتا العدل والرحمة والإيثار والحرص على أن ينتصر الحق وتعلو كلمة الله . بذلك كان استخلاف عمر عملاً صالحاً أراد الله به أن يُعزَّز دينه ، وأن يُقر به في الأرض كلمة الحق ، وأن يعلى به منار البرِّ والتقوى .

رحم الله أبا بكر ورضى عنه وألحقه بالصالحين ! .

خاتمة

التنقل المحتوم
للحضارة

ذكرت في تقديم هذا الكتاب أن عهد أبي بكر له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام ، وأنه ينطوى على عظمة نفسية تثير الدهشة ، بل الإعجاب والإجلال . ولعل القارئ الذى بلغ من تلاوة الكتاب هذه الخاتمة ، ووقف على ما تمّ خلال هذا العهد القصير من جليل الأعمال ، يرى رأى فيما ذكرت ، ويقف لذلك معى ملياً يستخلص من هذا العهد عبرته البالغة ، ليرى كيف تنتقل حضارة الأمم من حال إلى حال بتفاعل عناصر الاجتماع خلال الأجيال والعصور ، فإذا جاء الأجل الذى خطه القدر فى لوحه لم يكن من هذا الانتقال بدءٌ ، ولم تستطع قوة فى العالم أن تقف فى سبيله أو تحول دونه .

مكانة فارس
والروم من عالم
يومئذ

إمبراطوريتان عظيمتان تمثل إحداهما حضارة الغرب ومقوماتها من عقائد ونظم ومن فن وعلم وتفكير ، وتمثّل الأخرى حضارة الشرق ومقوماتها من عقائد ونظم ومن فن وعلم وتفكير . يمثل الروم حضارة اللاتين واليونان والفينيقيين والفراعنة . وتمثّل فارس حضارة إيران والهند ومذاهب الشرق الأقصى مجتمعة . تمتد الأولى من أواسط أوروبا بل من غربها الأقصى إلى شرق بحر الروم ثم تتخطاه لتقف عند بادية الشام . وتمتد الأخرى من أواسط آسيا بل من شرقها الأقصى إلى حوض دجلة والفرات ، ثم تتخطاه لتقف عند بادية الشام . وهذه البادية التى تلتقى عندها الحضارتان تمتدّ بينهما جدباء جرداء إلا من قبائل نزحت من شبه جزيرة العرب ، تنتقل فى أرجائها ثم تأوى إلى الروم أو إلى الفرس حيثما يطيب لها العيش ، كما كانت تنتقل فى أرجاء شبه الجزيرة ثم تأوى حيثما يطيب لها المرعى . والإمبراطوريتان تقتتلان فتبهران الأنظار بقوتيهما وعظمتيهما ، لا يسكّن تعاقب القرون من حدثيهما ، ولا تجدان فى غير الحروب وسيلة لإرواء ظمئيهما إلى المجد ، واستكمال حظيهما من الترف والنعيم .

أفأعوزت إحداهما أسباب العيش فكان ذلك سبب ما اتصل بينهما من

حروب أفنت كليهما فيها على القرون ما لا يحصى من مهج ، وبيعت فيها الأرواح ببيع السماح ؟ كلا ! بل كانت الإمبراطوريتان مترعتين بخيرات البلاد التي تحكمانيها . كانت الروم تنعم بما تغل مصر وسائر ممتلكات قيصر من زراعة وما تنتج من صناعة ، وبما كان لمصر وسائر بلاد الإمبراطورية من تراث ضخمة في العلم والأدب والفن . وكانت فارس تنعم بخيرات البلاد الخاضعة لسلطان كسرى ، والتي كانت تمدّها بكل ثمراتها . لكن كل واحدة من الدولتين كانت تزعم لنفسها حقاً في المتاع من نعم الحياة بما لا ينعم به غيرها ، ولا ترى لذلك بأساً بأن تغصب غيرها ما في يده من أسباب هذا المتاع . أليست لها القوة وفي متناولها أسباب البطش ؟ ! وحق القوة بعض ما آمنت وتؤمن به الإنسانية أمماً وأفراداً . ألا يرى أحدنا مواد الترف حاجات ماسة لا غنى له عنها ، ثم لا يغير من رأيه هذا ألا يجد جاره الكفاف لنفسه ولذويه ! . والقوانين تُشرع دفاعاً عن حق القوة . ذلك بأن القوة هي قوام القانون تنفذه وتازم الناس احترامه . فباسم القانون ينال القوى ما يراه حاجة ماسة لحياته . وباسم القانون وباسم الحضارة تثير الدول الحروب لتبلغ من أسباب الترف ما يكفل المستوى الذي تراه لائقاً لمكانتها بين سائر الأمم .

لهذا ظلت الإمبراطوريتان تقتتلان سبعة قرون متوالية ، فتبهران العالم بقوة بأسهما وسمو حضارتهما . يحالف النصر إحداهما ، ويحالف الثانية تارة أخرى ، فلا تنهيه الهزيمة من هيبة أيهما ؛ لأن الأمم الصغيرة من حولهما كانت ترى دورة الدوائر بينهما ، وترى مغلوب اليوم منهما غالباً غداً ، فتحسب أن القدر فرضهما على الوجود فرضاً ، وأنها من القوى الثابتة في دورة الكون كالشمس والقمر والكواكب سواء .

وبينما لا تعرف الأمم إلا اسميهما ، ولا تتحدث إلا بفعالهما ، إذا أمة تنهض من حيث لم يكن أحد يتوقع أن تنهض . وأنّى لشبه جزيرة العرب ببواديها الماحلة وصحاريها الجرداء أن تبعث أمة أو تنشئ دولة ! وأنّى لقبائل هذه البادية ، وكل ما تعتمد عليه في حياتها الغزو والسلب ، أن تفكر في حضارة بله أن تقيمها ! ! لقد كان كسرى فارس يسميهم رعاة الإبل والغنم ، وكان قيصر

نهوض الأمة
العربية وتغلّبها
على فارس والروم

الروم يصفهم بالحفاة العُراة الجياع . أفن هؤلاء الرعاة الحفاة تنهض أمة يعبأ بها الروم أو يهتم لها الفرس ! .

مع ذلك نهضت هذه الأمة ، فواجهت الأسدین فارس والروم ، وحاربتهما وتغلبت عليهما . وقد رأيت من خلال هذا الكتاب أن العرب لم يتغلبوا على الأسدین بتفوق في العُدّة أو في العدد ، وإنما تغلبوا بالعقيدة الثابتة والإيمان الذي لا يتزعزع . وبهذا الغلب نشأت الإمبراطورية الإسلامية التي حملت عبء الحضارة في العالم عشرة قرون تباعاً ، والتي نشرت الإسلام في أنحاء الإمبراطوريتين وفيما وراءهما : في الهند والصين والتركستان وغيرها من ممالك آسيا ، وفي مصر وما وراءها إلى المحيط الأطلنطي من بلاد إفريقية ، وفي عاصمة قسطنطين وفي روسيا وأسبانيا وغيرها من أمم أوروبا .

كيف حدثت
هذه المعجزة

كيف حدثت هذه المعجزة ؟ ! كيف تغلب العرب مع قلة عددهم ، وضعف حضارتهم ، وتأخر علومهم وفنونهم ، على الفرس وعلى الروم ولهم من العدد ومن الحضارة ومن العلوم والفنون ما لا يزال التاريخ يحدث عنه في إكبار أي إكبار ؟ ! أهى المصادفة التي لا تفسير لها من سنن الكون ؟ ! كلا ! فلو أن ما حدث في عهد أبي بكر أثمرته المصادفة لما كتب له أن يبقى وأن يتصل على الزمان ، ولوقف الفرس والروم في وجه العرب فردوهم على أعقابهم . لكن ما حدث في عهد عمر وعثمان من توغل العرب في أراضى الإمبراطوريتين العظيمتين والقضاء عليهما ، لا يدع مجالاً للريب في أن ما حدث كان حتماً قضت به سنن الكون ، ولذلك اطردها كانت الحضارة الإسلامية ثمرته . وما كانت المصادفة لتتمخض عن مثل هذه الحضارة التي ازدهرت في ظل لوائها كل مقومات الحضارة ، فقد اجتمع للحضارة الإسلامية من العلم والأدب والفن وسائر ألوان الثقافة ما حل في العالم محل الثقافة اليونانية بعلمها وأدبها وفنّها وتفكيرها ، وذلك بعد أن كانت اليونان وارثة مصر وأشور والحضارة الإنسانية الأولى جميعاً . لا مفرّ إذن من أن نتلمس لهذه الظاهرة الكونية العظيمة تفسيراً من سنن الكون يكشف لنا عن السر في قيام هذه الحضارة ، وامتداد سلطانها في العالم ، واستقرارها فيه دهرًا طويلاً .

ومن سنن الكون أن الأمم والحضارات يصيبها الهـَـرمُ على نحو ما يصيب الأفراد . فإذا هـَـرمت وشاخت دب الفساد إلى كيانها ، فأدى إلى انحلالها ، وإلى قيام أمة شابة وحضارة شابة مقامها .

عوامل الفساد
في حياة فارس

أشرت غير مرة في غضون هذا الكتاب إلى عوامل الفساد والاضطراب التي كانت تظهر الحين بعد الحين في فارس وفي الروم . وقد استفحلت هذه العوامل في القرن السادس المسيحي واشتد خطرهما ، فكان من أثرهما في فارس أن اضطرب بلاطها ، وانتشرت الدسائس في جوها ، وتنازع الطامعون في عرشها ، واتخذ بعضهم الغدر سلاحه لتولى أمورهما . بذلك فسد الرأس ، فامتد الفساد منه إلى ما دونه ، فكثر مذاهبها وأحزابها ، وتبلبلت عقائد الناس فيها ، فانكمشوا يتوفرون على رزقهم يكثرونه ، ويلتمسون النبل والجاه عن طريقه . هذا إلى أن الطوائف في فارس كانت كثيرة العدد كثيرة المطامع ؛ تريد الحكم تستدل به رقاب السواد ، وتبلغ باستغلاله كل ما تصبو إليه من أسباب النعمة والمتاع . لذلك انحلت العصبية القومية في الفرس ، وانهارت القوة المعنوية في نفوسهم ، وتدهور مثلهم الأعلى إلى حيث لا يعدو مُتَع الحياة ولينها . طبيعيٌ وذلك شأنها أن يتداعى ركنها ، وأن تضعف مقاومتها ، وبخاصة إذا واجهتها قوة تسمو على الحياة وتتخذ المثل الأعلى شعارها .

وفي حياة الروم

ولم يكن أثر هذه العوامل في الإمبراطورية الرومية دونه في فارس . فقد نجمت الثورات فيها لأسباب تتصل بالنزاع بين الفرق المسيحية حينئذ ، وبالنزاع على العرش حينئذ آخر ، فكان ذلك سبب تدهورها وانحلالها . ومع أن جُسُتِنِيان استطاع أن يردَّ إليها أعظم الاعتبار في نظر العالم يومئذ ، بجلال حكمته ونزاهة عدله وقوة بأسه ، فقد كانت عوامل الانحلال أعمق أثراً من أن يتلافها خلفاؤه ولم يكونوا في مثل حكمته وبأسه . فلما كان أول القرن السابع المسيحي تولى فوكاس عرش الإمبراطورية وساسها بيد من حديد . عند ذلك قام هِرَقْلُ حاكم إفريقية الرومية بالثورة عليه ، ثم انتهى به الأمر إلى الظفر به وقتله واعتلاء العرش مكانه . وكان الفرس قد غلبوا الروم في نهاية عهد فوكاس وبدء عهد هِرَقْل فلما حانت الفرصة أخذ هِرَقْل بالثأر منهم ، فحاربهم وغلبهم

ووطد بذلك سلطانه في الإمبراطورية ، حتى لقد خيّل إلى الناس جميعاً أن عهد جستنيان عائد لامحالة . ثم إنه حاول أن يزيد سلطانه تثبيتاً بالقضاء على أسباب الضعف الناشئة عن اختلاف الفرق الدينية في أرجاء ملكه ، وذلك بتوحيد المذهب المسيحي وفرضه على الناس في جميع أنحاء الإمبراطورية . ولتيم غرضه بطش بخصوم المذهب الرسمي في مصر وفي غير مصر ؛ فكان ذلك سبباً في قيام الثورات واندلاع لهيبها ، ثم كان سبباً في ازدياد الضعف الذي حاول هرقل أن يُخلّص الإمبراطورية منه ^(١) .

كانت هذه العوامل تنخر في عظام الإمبراطوريتين العظيمتين وتنحدر بهما سراعاً إلى مهاوى الشيخوخة . فكان من مقتضيات سنن الكون أن تقوم أمة شابة مقامهما ، توجه العالم وتكيف مصايره . والنجاح مكفول لهذه الأمة ما حملت إلى العالم رسالة يشوق الناس سماعها ، ويرون فيها ما ينقذهم من شرور طالما ناءوا بها ورزحوا تحت أعبائها .

ما كان عالم يومئذ يتطلع إليه

لم يكن عالم يومئذ يشقى بأسباب الحياة المادية ؛ فلم يكن همه الأول رفع مستوى العيش . إنما كانت تُعوزُه الطمأنينة إلى الحياة والمتاع بالحرية فيها . فقد كان الناس لا يتحركون ولا يسكنون أحراراً في حركتهم وفي سكنهم ، بل كانت العقائد والقوانين السائدة يومئذ تكبّلهم بقيود شلّت حركتهم وأهدرت حريتهم . لم تقف هذه العقائد والقوانين عند المبادئ العامة التي تكفل للفرد حريته في ظل النظام ، وتكفل بذلك للجماعة أن تطوّر إلى ناحية الكمال بجهود أفرادها الأحرار وجماعاتها الطابقة ، بل دخلت القيود مع الفرد دارة ومخدّعه ، وآذته في يقظته وفي نومه ، فشلّت نشاطه وتفكيره ، وجعلت التحايل وسيلته إلى اتقاء الأذى والفرار من البطش ، وإلى اهتبال الرزق من كل طريق ، والتوسل بسعته وبسطته إلى مكان النبل والجاه ، نبل البطش وجاه الجبروت . وحيثما قضى على النشاط الحر للعقل الإنساني ، فذلك النذير بانحلال الأمة وتدهورها ، وبديبب الشيخوخة إلى كيانها .

فالحرية العقلية هي التي طوعت للإنسان منذ أقدم العصور أن ينظر وأن

(١) راجع كتاب فتح العرب لمصر ، الفصل الأول والفصل الثالث عشر .

يلاحظ وأن يعلم وأن يبتكر . أسلافنا الأولون الذين عاشوا في الغابات وحاربوا الحيوان ، إنما استطاعوا محاربته يوم هدتهم حرية الغريزة إلى ابتكار الأدوات التي استعملوها في حروبهم في العصر الحجري والعصور التي تلتها . فاما أقامت الجماعة الإنسانية الأولى على ضفاف النيل وعزنت الزراعة ، ثم عرفت حياة الاستقرار والحضارة أدركت بفطرتها أن لا مفر لها من نظام يكفل لها الأمن وحرية العمل ، وأن لا مفر لنظامها من قواعد ثابتة يقرها الجميع ويحترمونها . وقد هدتهم فطرة الاجتماع الغريزية في الإنسان إلى تجسيد هذه القواعد ، وتقديس ما ظنوه آلهتهم التي ترعاها وتحميها . ثم ما لبثت هذه الجماعة الأولى ، حين سما تفكير الموهوبين من أبنائها إلى ما فوق الغريزة الفطرية ، أن قدرت معاني العدل والحرية والكرامة الإنسانية . بذلك استيقظ الضمير ، فتفتحت للإنسان أبواب التفكير ، فاهتدى من سبيلها إلى العلم وإلى الأدب والفن ، كشف له أستارها من اختارتهم الأقدار لمعالجتها ووهبت لهم هبتها . وظل التطور الإنساني يتقدم في هذه الناحية حيناً ويتراجع حيناً آخر في جزر ومد . وفي كل حين كانت حرية العقل آية تقدم الإنسان ، وجموده آية تراجعه . فإذا تحرر العقل استطاع بقوة تفكيره أن يتحكم ولو بقدر في قوى الطبيعة . وأن يسخرها لأغراض الإنسان ، وأن يفيد بذلك من هذا التحكم جديداً أرقبه . وإذا جمد العقل وقف تقدم الإنسانية ، فاكتمت بغريزة حفظ النوع تستجن في كنفها حتى تبتعثها الحرية العقلية إلى التقدم كرة أخرى .

لم يكن بدُّ ، وقد جمدت الإمبراطوريتان فارس والروم فذب الفساد في كيانهما ، من أمة جديدة تنهض فتدفع العالم إلى الأمام . ترى في أية أمة تستكنُ هذه القوة الدافعة ، ومتى يتاح لها أن تظهر ؟ ! ذلك أمر كتبه القدر في لوحه ، أو هو ، على تعبيرنا العالمي في هذا العصر ، أمر ثابت في دورة الزمان والمكان للجماعة الإنسانية ثبوت كسوف الشمس وخسوف القمر وظهور المُنْدَنَبَات في دورة الفلك . وقد شاعت الأقدار فألقت على الأمة العربية في

(١) راجع كتاب « فجر الضمير » The Dawn of Conscience تأليف برستد وترجمة

الأستاذ سليم حسن .

قيام النبي العربي
في شبه الجزيرة

شبه الجزيرة عبء النهوض بالحضارة المتداعية ، وبعث الحياة في شتى نواحيها .
ولهذا اصطفى الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فأوحى إليه دين الحق يبلغه
للناس ويدعو إليه بالحجة والموعظة الحسنة ، عن طريق النظر في الكون ، نظراً
حرّاً من قيود الوثنية والمجوسية ومن الجدل العقيم الذي هوت إليه المذاهب
المتصاربة في بلاد الروم . وقد حوربت هذه الدعوة في منبتها حرباً اتصلت على
السنين ، فلم تعرف هودة ولا صلحاً ، حتى نصر الله دينه وأتم كلمته . وإنما
أراد الله لهذه الدعوة أن تنتصر ببساطتها وصفائها وسموها بالكرامة الإنسانية
وبالعقل الإنساني إلى المكان اللائق بهما . وبانتصارها قضى على الوثنية في
شبه الجزيرة كلها قبل أن يختار رسول الله ما عند الله .

لماذا يؤذى الناس
من يدعونهم إلى
الحق ؟

أما وقد قضت الدعوة إلى التوحيد وإلى مبادئ العدل وسمو الخلق على كل
ما يخالفها ، فلم يكن ازعماء الردة في بلاد العرب أن يحاولوا إعادة الوثنية .
وإنما حاول هؤلاء الزعماء استغلال التوحيد والمبادئ المترتبة عليه لينتشر سلطانهم
وتعظم فائدتهم في تجارة الحياة . ولهم من العذر عن ذلك أننا معشر الناس
لما نبلغ من سمو الإدراك ما يجعلنا نقيم الحد الفاصل بين الحق لذاته ، والمنافع
المادية التي نجنيها من استغلال اسمه والتذرّع لخداع الناس بسلطانه . والناس
يرون الحق فيبهرهم لألاؤه ، ويعشّون دون استجلائه في جلال كماله ؛ لأن
الضمير الإنساني لا يزال في طفولته ، والنفس الإنسانية لا يزال جوهرها العلوي
يختلط بجواهر النقص التي تغشى عليه وتفسد حكمه .

لذلك يؤذى الناس من يدعونهم إلى الحق . ويحتمل الدعاة الصادقون
هذا الأذى راضية نفوسهم ما أدى احتمالهم إلى ذبوع الحق وانتشار كآبته . وكلما
علا صوت الحق اشتد في حربه من يخشونه على بسطة رزقهم وسلطان بأسهم .
ذلك هو النزاع الذي اتصل على الزمان بين المنافع العاجلة والمبادئ الخالدة ،
والذي جعل الحرب مسوغة للقضاء على الباطل ورد كيده إلى نحره .

طفولة الضمير
الإنساني وآثارها

والضمير الإنساني لا يزال قريباً من طوره الذي كان عليه في القرن السادس
المسيحي . فهو لم يشب بعد عن الطوق . لذلك لا تفتأ الحرب تشب لأغراض
دون ما قامت حروب الردة وحروب الفتح في العراق والشام لتحقيقه . ترتفع

الصيحة للحرية وللعدل وللإخاء ، فيلقى الناس بكل سمعهم للمنادى بها ،
ويبدلون حياتهم فداء لها ، وتدوى آلات الدمار لنصرتها . فإذا وضعت الحرب
أوزارها ، توقع الناس أن تظلمهم المبادئ التي قاتلوا في سبيلها . لكن ما تحقق
من هذه المبادئ لم يزد يوماً على طيف تتبدى وراءه حقيقة نحيفة هي على
نحافتها مبهمة غير واضحة المعالم . ومن ثم بقيت الشرور التي شكا الناس منها تثقل
حتى اليوم كواهلهم ، ولم تفد مبادئ الحرية والعدل والإخاء من توضحيات
الإنسانية إلا قليلاً . أما الثمرة الكبرى للحروب الطاحنة فقد آل معظمها إلى
الذين يؤمنون بحق الجسد في النعمة والمتاع ، والذين يبتغون الجاه والمال ويكترزون
الذهب والفضة ، ولا يرون بأساً في أن يرووا غللتهم للمتاع وظمأهم للمال بما
أريق من دماء الإنسانية ، وما بذل من مهج وأرواح فداء للعدل والإخاء
والحرية .

وسبب ذلك ما قدمنا من أن الضمير الإنساني لا يزال أدنى إلى الطفولة .
والطفولة كثيرة العثرات . لكن عثرات الطفل لم تصده يوماً عن أن يعود فيمشي
ليعثر من جديد .

وهذه العثرات هي التي تعامله كيف يحفظ توازنه حتى تصل به إلى أن
يسير مستقيماً سوى القامة ، يسرع الخطأ إلى فتوة الشباب ثم إلى حكمة
الرجولة . ولعل عثرة قاسية تكسب الناشئ على وجهه تكون أجدى عليه وأقوى
أثراً في تقويم سيرته . ولقد كانت كبوة فارس والروم من العثرات القاسية التي
صادفت الإنسانية ! لذلك كان قيام الإسلام ونهوض الإمبراطورية الإسلامية
من أقوى البواعث على تقدم الضمير الإنساني إلى ناحية نضجه .

وآية ذلك أن الإسلام إنما استرعى سمع الناس فدانوا به لأنه يصور مشكل
الإنسانية الأعلى ، ويسمو بالحرية وبالكرامة الإنسانية إلى أرفع الذُّرَا . فهو
لا يجعل للناس إلهاً غير الله ، هم عباده وحده جل شأنه ، لا يملك لهم أحد غيره
نفعاً ولا ضرراً ، ولا مثوبة ولا عقاباً . وما يصيبهم في هذه الحياة أو يصيبون
فيها يجزيهم الله عنه الجزاء الأوفى . فليعملوا إذن مطمئنين إلى حریتهم ،
لا يريدون إلا وجهه . فإذا أصابهم ظالم بمكروه فالويل لظالمهم من ربه . وإذا

استرعى الإسلام
سمع الناس ؟

رأوا منكراً فليزيلوه ، وليعلموا أن الله من ورائهم محيط .

لماذا اصطفى الله
نبيه من شبه
الجزيرة ؟

لماذا كتب القدر الحكيم منذ الأزل في لوحه ، فاصطفى الله نبيه الكريم من شبه جزيرة العرب دون غيرها من أرجاء العالم ؟ ! .

ليس في مقدورنا ، ولا في مقدور غيرنا ، أن يقطع برأى حاسم في الجواب عن هذا السؤال . فنحن جميعاً لم نؤت من العلم إلا قليلاً . لكن ذلك لا يمنعنا من تلمّس سنن الكون والاجتهاد لإدراك ما يقع بمشيئة الله فيه . وما يقع في حياة الإنسانية وجماعاتها يخضع لهذه السنن الثابتة كما يخضع لها سائر ما في الكون مما برأ الله . فمن الحق علينا أن نحاول تفسير الظواهر الاجتماعية على ضوء هذه السنن ، وإن كنا لا نطمح اليوم ، وعلمنا الإنساني كما هو ، في أن نعرف ما يطويه غيب المستقبل للجماعات الإنسانية على النحو الذي نستطيع أن نعرف به ما سيكون من أمر الأفلاك ودوراتها .

والذي يهديننا إليه الاجتهاد جواباً عن هذا السؤال أن حضارة العالم استقرت في الأجيال الأولى من حياة الإنسانية ، وإلى القرن السادس المسيحي ، في مصر وأشور واليونان ورومية ، ثم امتدت منها إلى ما وراءها ؛ وأن العقل الإنساني بلغ من النضج في هذه المناطق ما لم يبلغه في غيرها ، مما يسّر للضمير الإنساني أن يستيقظ فيها ويبزغ فجره . ولذلك وجّهت الإمبراطوريتان فارس والروم مصابير العالم في ذلك العهد ، ونهضتا بعبء الحضارة فيه . فلما آن لهما أن الإمبراطوريتين أن تهرما كانت شبه جزيرة العرب هي المنطقة المستقلة عنهما ، المتصلة مع ذلك بهما ، المتداخلة فيهما . ومهما يكن من أمر هذا الهرم الذي أصابهما ، فالدعوة إلى المثل الأعلى أدنى إلى أن تستجاب فيهما ، وأن تمتد منهما إلى ما وراءهما . هذه كاهها أحداث كتبت منذ الأزل في لوح القدر ، فلا غرو أن يكتب معها منذ الأزل أن يقوم الداعي إلى المثل الأعلى في أدنى الأرض من الإمبراطوريتين وأكثرها مع ذلك استقلالاً عنهما . فالاستقلال هو الكفيل بحرية العقل ، وبأن يستجيب الناس آخر الأمر للدعوة إلى الحق .

وكذلك اصطفى الله للقيام بهذه الدعوة نبيّه من أهل شبه الجزيرة ، ومن

بلد هو أكثر بلاد شبه الجزيرة استقلالا ، وأوفر هذه البلاد لذلك العهد
عزة وكرامة .

ودعا محمد قومه إلى التوحيد وإلى المبادئ التي يتحقق بها مثل الإنسانية
الأعلى ، ثم بلغ دعوته إلى عاهلى الإمبراطوريتين فارس والروم ودعاهما إلى
ما جاء به من الحق . وبذلك أقام الحد الفاصل بين الحق والباطل ، وحذّر
الناس حين دعاهم إلى الحق ممن يخادعون الناس باسمه ، ثم ترك من بعده أصحابه
الذين عزّروه في حياته ونصروه ، والذين أدركوا ما جاء به وامثلوه .

وأنت قد رأيت كيف بلغ أبو بكر من سمو الإدراك لهذه المبادئ ما مكّنه
من أن يقيم في نفسه الحد بين الحق لذاته والمنافع العاجلة التي يسعى إليها
من يخادعون الناس باسم الحق ؛ ورأيت كيف أصرّ على أن ينصر الحق لذاته
ولو قام لنصرته وحده . وإذا بلغ سمو الإدراك من نفس هذا المبلغ ، فذلك
الدليل على نضج الضمير غاية النضج . ولو أن الإنسانية كلها بلغت يوماً هذا
النضج لما شبت الحرب بين بنيها ، ولا استجاب الله دعوة الذين يدعونه عند بيته
المحرّم : « ربّنا أنت السلام ومنك السلام ، أحيانا ربنا بالسلام ! » .

أبو بكر ونضج
ضميره

لا يزال الأمد بعيداً بيننا وبين اليوم الذي تستجاب فيه هذه الدعوة .
فالناس لا يزالون إذا دعوا بالحكمة والموعظة الحسنة إلى غير ما وجدوا عليه
آباءهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأبوا أن يجادلوا
بالتى هي أحسن ، وحسبوا أن القوة الغاشمة تخفت صوت الحق . ذلك أن
ضميرهم لا يزال في طفولته . والطفل يحسب أنه كلما ضج وعلا ضجيجيه
خضع أبواه لرغائبه وأهوائه . فإذا رأى أبويه يهذبانه ولا يزعمجهما ضجيجيه
أذعن وسكن . وذلك ما صنع أبو بكر مع أهل الردّة حين ضجوا وحاولوا
المقاومة . أخذهم بما يجب أن يؤخذوا به ، ففضى على مقاومتهم وعلى
ضجيجهم .

وشاءت الأقدار أن تمهّد لانتشار الإسلام في فارس والروم بانتشار العرب
في بادية الشام ؛ فقد يسّروا لأهل شبه الجزيرة أن ينفذوا إليهم ، وأن يتخطوهم

لغزو الفرس على شاطئ دجلة والفرات وما وراءهما ، ولغزو الروم في الشام وفي مصر إلى السودان .

أنت ترى من ذلك كله أن المعجزة التي حدثت في عهد أبي بكر لم تكن ثمرة المصادفة ، وإنما كانت أمراً محتوماً قضت به سنن الكون التي لا تبدل لها . فلو أن شبه الجزيرة لم تكن تجاور الشام والعراق ، ولو أن اللغة العربية لم تكن لغة القبائل التي استقرت ببادية الشام منذ قرون ، ولو أن الله لم يصطف نبيه في ذلك العهد الذي اشتد فيه ظمأ العالم لسماع كلمة الحق والاهتداء بنوره ، لو أن ذلك كله لم يكن بلحرت المقادير بغير ما جرت ، ولكان تاريخ الإنسانية غير ما نعرف اليوم ، ولما حدثت الحضارة الإسلامية محل حضارة فارس والروم ، بل لاتخذت الحضارة أطواراً أخرى غير التي عرفنا من يومئذ إلى عصرنا الحاضر .

إبراز الأقدار
ملكات الرجال

وإذ شئت الأقدار أن تتم على الأرض مثل هذه المعجزة مهّدت لها بما رأيت ، وهيأت لها أسباب الفوز ، فأبرزت من ملكات الرجال ومواهبهم ما يخطّون به في صحف الكون مشيئة القدير الحكيم . لقد رأيت ما صنعه أبو بكر وخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب وأمراء الجند المسلمين ، ورأيت كيف اضطلعوا لذلك العهد بأعباء ما كانوا ليضطلعوا بمثلها لولا أن أراد ربك لهذه المعجزة أن تتم وفاقاً لسنة . فلولاً هذه المشيئة لظل أبو بكر تاجراً ينمو ربحه ويكثر ماله ، ثم تنطوى صفحته ولم تزد مكانته في قومه على زعامة قبيلة تيم بن مرة ، وعلى احتمال الديات والمغارم . ولولا هذه المشيئة لظل خالد بن الوليد فارس بنى مخزوم وفارس قريش ، ولما سما اسمه فاقترن على التاريخ بأسماء الإسكندر الأكبر ، ويوليوس قيصر ، وهانيبال ، وجنكيزخان ، ونابليون ، ولولاها لما أصبح اسم الفاروق عمر بن الخطاب علماً للعدل والرحمة والبأس مجتمعاً . فإذا نحن أرخنا اليوم لهم وأشدنا بفعالهم ، وقرننا سمو الدعوة للحق إلى اسم القائد العبقري وجعلنا منهما وحدة على الزمان ، لم نَعُدْ بذلك أن نرسم صورة من مشيئة القدر والعوامل التي تهيأت لتنفيذها ، والتي أدّت إلى انتقال الحضارة هذا الانتقال الذي مهد لعهد جديد في حياة العالم .

الإسلام يدعو
للمثل الأعلى
والسلام

أما وقد ذكرت القائد العبقري خالد بن الوليد، فلأقف الآن وقفة قصيرة أتناول مسألة تناولتها في « حياة محمد ». لكني أتناولها هنا من غير الناحية التي تناولتها هناك . لقد طالما تحدثت من شاء عن انتشار الإسلام بالسيف . وقد بيّنت في « حياة محمد » أن القرآن ينكر حرب الاعتداء في مواضع كثيرة منه . يقول تعالى : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » . ويقول : « فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » . وهو يدعو إلى الصلح والصفح والتسامح دعوته لحرية الرأي ولدفاع المؤمن عن عقيدته إن حاول غيره أن يفتنه عنها .

فكيف دفع
أبو بكر المسلمين
للحرب

هذه مبادئ ثابتة في الإسلام يصور بها المثل الأعلى ويدعو الناس إليه . فما بال أبي بكر دفع المسلمين لحرب الردّة وافتتح العراق والشام ؟ وما بال أمراء المؤمنين بعده نهجوا في هذا الأمر نهجه وساروا فيه سيرته ؟ لقد كان الصديق أكثر المسلمين اتصالاً بالنبي وامتثالاً لما أمر الله به ونهى عنه . أفلا ينهض ذلك دليلاً على أن الإسلام ، وإن أقر مبادئ الرحمة والتسامح والصفح ، لم ينكر على الدعاة إليه أن ينشروه ببطش القوة ! ولذلك غزوا البلاد وحكموها ودعوا أهلها إلى دينهم .

الصديق ينفذ
ما جاء في كتاب
الله

لا شك أن الصديق قد نفذ في حروب الردّة ما جاء في كتاب الله من قوله تعالى في سورة براءة : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ، فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ » . وهو لم يعد ما أمر الله به حين وافق على غزو العراق وغزو الشام . وليس معنى ذلك أن هذا الغزو هو المثل الأعلى الذي دعا الإسلام إليه وجعل السلام غايته ، وإنما معناه أن ما حدث منه هو بعض إملاء الغرائز الإنسانية في ذلك الطور من طفولة الضمير الإنساني ، كما أنه بعض إملاء هذه الغرائز في عصرنا الحاضر حيث الضمير الإنساني لا يزال يتدرج إلى الصبا ، فله من الصبا طيشه ونزواته .

وإملاء الغرائز كثيراً ما أدى إلى عثرات كعثرات الطفل في سيره ، ترهقه وتؤله ، ثم تنتهى به ليسير مستقيماً سوى القامة يسرع الخطأ إلى فتوة الشباب وحكمة الرجولة .

الإسلام يقدر
الواقع من غرائز
الإنسانية

والإسلام لم يغفل ، حين صور المثل الأعلى للإنسانية ، أن بلوغ الغاية من هذا المثل إنما يكون حين يبلغ الضمير الإنسانى نُضْجَه . وذلك لا يتم إلا أن تتعاقب عشرات الأجيال ومثاتها حثيثة السعى إليه كما تدركه . لذلك قدر الإسلام الواقع من أمر الإنسانية وما تمليه عليها غرائزها ، ورسم السبيل التي تسلكها لتتقرب رويداً رويداً من غايتها . وكما أنك إذ تُربى ولدك ليبلغ ما تريده له من كمال الجسم والعقل لا تَحْمِلُه على أن يسير سيرة الرجال ، بل تُرضى أهواء طفولته وصباه حيناً وتكبح هذه الأهواء حيناً آخر ، وكما أنك تصادف أثناء ذلك من صلابة الطفولة والصبأ ما قد يقف تقدم ولدك تارة ، وتصادف من مرونته وذكائه ما يسرع بتقدمه تارة أخرى ؛ فإذا رأيته صلباً لم تكسره ، بل لنت له لتلين صلابته ، وإذا رأيته متقدماً أغريته ليتابع تقدمه ويزداد إسرعه فيه ، وربما دعاه هذا الإسراع إلى وقفات تجنى عليه وتؤذيه ؛ كذلك رأى الإسلام أن يساير الضمير الإنسانى في تدرجه من الطفولة إلى الصبا ، وجعل تهذيب هذا الضمير غايته الأولى ، كما جعلت أنت تهذيب طفلك غايتك الأولى . وهو لذلك يساير الغرائز ليُقَوِّمها . يلين لها حيناً ويقسو بها حيناً ، جاعلاً همه دائماً أن يتجه بها إلى الناحية التي تدنيها من الغاية التي أرادها ، والمثل الأعلى الذي صورها لها .

الضمير الإنسانى
وتقدمه إلى النضج

والضمير الإنسانى يجمد أحياناً حتى تخاله ارتد عن تقدمه ، ويسرع السير أحياناً أخرى إسرعاً يخشى معه العثار . وسيره قد يقف وقد يتغير اتجاهه فإذا القوى التي تدفعه إلى التقدم تضطرب بين أرجاء العالم المختلفة . وذلك ما حدث حين جمدت الأمم الإسلامية وجمدت المبادئ التي دعا الإسلام إليها ، لكن الحمود والوقفه ليسا في طبيعة الحياة ، لذلك يخفيان دائماً عوامل اندفاع تستكن دونهما ، ثم لا تلبث أن تظهر فإذا الإنسانية تستأنف تقدمها .

وهذا التقدم هو الذى يجعلنا نؤمن بأن الضمير الإنسانى لا بدءاً له يوماً من أن يبلغ الغاية من النضج . وإن اقتضى ذلك أن تتعاقب عليه مئات الأجيال . فإذا بلغ هذه الغاية بلغ المثل الأعلى كما صورّه الإسلام . عند ذلك يُظِلُّ الأرضَ سلامُ الله ، ويستجيب الله دعاء من يدعونه عند بيته المحرّم : « ربَّنَا منك السلام وإليك السلام ، أحيينَا ربَّنَا بالسلام » .

يجب أن يسمع الناس جميعاً دعوة الحق فى مختلف أرجاء الأرض خلال تعاقب الأجيال ليتقدّم الضمير الإنسانى رويداً رويداً إلى النضج . ولن يبلغ النضج مداه حتى يعم الإنسانية كلها . فأما إن نضج الضمير فى ناحية من العالم ثم ظلت غرائز الطفولة ونزوات الصبا تحركه فى سائر الأرجاء ، فسيتبقى لسلطان هذه الغرائز والنزوات من الحكم ما يديم النزاع ويديم الحرب ، وما يقتضى قوَّاداً عباقرّة من أمثال خالد بن الوليد أن يكونوا الأداة لتهذيب الشذوذ فى كل ناحية لم ينضج فيها الضمير ؛ شأنهم فى ذلك المربى إذ يهذب شذوذ تلاميذه .

ولما لنسجل فى كثير من الغبطة والرضا خطوات تقدمها ضمير الإنسانية من الطفولة إلى الصبا ، لا يصدّنا عن ذلك ضيق هذه الخطوات واضطرابها . ولقد كان للإسلام فى هذا التقدم أعظم الأثر . وسيكون له مثل هذا الأثر من بعد حتى تتم كلمة ربك ويؤمن الناس بالمثل الأعلى فى مشارق الأرض ومغاربها .

أثر الإسلام فى
تقدم الضمير
الإنسانى

ويسرنى وأنا بصدد هذا التسجيل أن أثبت هنا كلمة للكاتب الإنجليزى الكبير برنارد شو تؤيد رأى . قال :

« لقد كان دين محمد موضع تقديرى السامى دائماً لما ينطوى عليه من حيوية مدهشة ؛ لأنه ، على ما يلوح لى ، هو الدين الوحيد الذى له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، والذى يستطيع لذلك أن يجذب إليه كل جيل من الناس .

« لا مزية فى أن العالم يعلّق على نبوءات كبار الرجال قيمة كبيرة . وقد

تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا غداً ، وهو قد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم .

« لقد عمد رجال الإكليروس في العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام في أحلك الألوان ؛ وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم . والواقع أنهم كانوا يسرفون في كراهية محمد وكراهية دينه ويعدونه خصمًا للمسيح . أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الإنسانية . وأعتقد أن رجلاً مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث ، نجح في حل مشكلاته ، وأحل في العالم السلام والسعادة . وما أشد حاجة العالم اليوم إليهما ! .

« لقد أدرك مفكرون منصفون قاموا في القرن التاسع عشر ما لدين محمد من قيمة ذاتية . من هؤلاء كارليل ، وجوته ، وچييون . بذلك حدث تحول صالح في موقف أوروبا من الإسلام . وقد تقدمت أوروبا تقدماً كبيراً في هذا القرن المئتين ، فبدأت تحب عقيدة محمد . ولعلها تذهب في القرن التالي أبعد من ذلك فتعترف بجذوى هذه العقيدة لحل مشاكلها .

« وقد دان كثيرون من قومي ومن أهل أوروبا بدين محمد في الوقت الحاضر . وهذا يجعلنا قادرين على أن نقول إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ »^(١).

زعماء العالم
الحديث يرددون
مثل الإسلام
الأعلى

هذه الكلمات التي نقلت إلى العربية من عشر سنوات خلت تؤيد ما قدمت . وما نحن أولاء نسمع اليوم من زعماء العالم عبارات تردد مشكل الإسلام الأعلى وتدعو إليه وتستعين بالحرب في سبيله . ولا تزال الإنسانية تضطرب في هذه السبيل خلال طوفان جارف من الآلام والتضحيات والدموع . وهي تبذل اليوم منها أضعاف ما بذلت مجتمعاً على القرون التي خلت . أفقد لها أن تبلغ ما طالما أملت بلوغه ، وأن تعيش في ظلال الحرية والمحبة والسلام ؟ أفيكون النظام الجديد الذي يتحدث زعماء العالم اليوم عنه محققاً حرية الشعوب ، كما حققت الثورات فيما مضى حرية الأفراد ؟ وهل يؤدي ذلك إلى أن يتحرر الجميع صدقاً من قيود الخوف والفاقة ، وأن يتعاونوا تعاوناً خالصاً لوجه الله

يسعد به الناس في مختلف أرجاء العالم ؟ هذا أمل عذب ما أحبه إلى كل نفس ، وأقربه من كل قلب ؟ وما أشد الناس حرصاً على أن يتم فتم به على الأرض كلمة الحق والسلام ! .

وتحقيق هذا الأمل رهن بأن يبلغ الضمير الإنساني نضجه . ترى هل كتب القدر الرحيم في لوحه أن تتمخض الآلام والضحايا التي احتملها العالم في هذا القرن المتم للعشرين عن هذا النضج ؟ ! لا ريب عندي في أن الإنسانية ستخطو في هذه السبيل خطوة إن لم نستطع اليوم أن نقدر مداها فن حقنا على كل حال أن نغتنب بها ، وأن نرجو بعدها خطوات أفسح منها . فالعالم اليوم تتقارب أجزاؤه ، وتتزايد وسائل الاتصال بين أبنائه . كانت الصحافة تعدّ في القرن الماضي أعظم قوة لتيسير التفاهم بين الناس ، ثم كانت صحافة أمريكا لا تصل إلى هذا الشرق العربي قبل أسابيع من ظهورها . أما ما يجري اليوم في العالم فيتلقيه الناس في مختلف أرجائه بسرعة البرق على موج الأثير عن طريق الإذاعة . وهذه الإذاعة المشغولة اليوم بأنباء الحرب وأهوالها ودعاياتها ستشغل غداً بالدعوة إلى السلم وإلى السمو الإنساني وتصور الوسيلة التي تهيئ أسبابهما . وقد تهذب هذه الدعوة الضمير وتقربه من النضج ، وتجعله الحكم العدل المنزه عن الهوى ، والذي يستطيع لذلك أن يجنب الإنسانية الحرب ، فيجنبها الضحايا والآلام والدماء والدموع .

متى يبرز فجر هذا اليوم ومتى تشرق شمسُه ؟ إنا نراه بعيداً ، ويراه الله قريباً . فيومٌ عند ربك كألف سنة مما تعدون . وذلك اليوم الذي تشرق فيه الشمس على الإنسانية وقد نضج ضميرها ، هو اليوم الذي تبلغ فيه الكمال ، ويصبح فيه المثل الأعلى حقيقة واقعة . ويومئذ يصفو جوهر النفس من كل ما يخالطه من شوائب النقص ، فتسمو على إملاء الغرائز الدنيا ، وتمثل مبادئ العدل والرحمة والبر والتقوى في نقائها وطهرها ، ثم تصبح سر حياتها ، فإذا مرّ بها طيف يخالفها لفظته وعدته دخيلاً عليها وعرضاً يؤذيها ويتلفها . عند ذلك يكمل إيمان الناس جميعاً ، فيحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، وينظر كل منهم نظرة الإشفاق والتألم لكل من تبدو في نيته أو أعماله شائبة من

أثرة أو نزوة من هوى ، ويرون واجباً عليهم أن يلتمسوا له الطب وأن يسعفوه بالدواء ؛ فإن برىء فذاك ، وإلا عزلوه عنهم اتقاء عدواه ، ورجاء أن يسمع أثناء العزلة صوت الحكمة . فإذا سَمِعَ برىء وعاد إلى الناس وقد صار مثلهم ، وأصبح ضميره قاضيه الذى يحاسبه وينصف منه من ترد بخاطره خصومتهم ، وأصبحت نفسه التى برأت فلم تعد أمارة بالسوء هى التى تجعل الناس جميعاً أحب إليه من نفسه ، وأثر عنده منها .

ويومئذ يصبح ضمير الإنسانية ميزان العدل بالقسطاس المستقيم ، فلا تكون أمة خيراً من أمة ، ولا جنس خيراً من جنس ، ولا لون خيراً من لون ، بل تكون الأمم كالأفراد أخوة يربط بينها العدل والرحمة ويدعوانها للتعاون على البر والتقوى ، ويجعلان الأمم الصغيرة أثر عند الأمم الكبيرة من نفسها ، والأمم الضعيفة والأمم القوية سواء فى السعى إلى الخير ابتغاء وجه الله وحده .

حكم أبنائنا علينا
وعلى عهد أبى بكر

ويومئذ ينظر أبنائنا مطمئنين من عالمهم السعيد إلى عالمنا الذى انطوى فى صحف الماضى وطوانا معه . أتراهم يتحدثون بينهم مشفقين مما احتمل هؤلاء الآباء بحكم غرائزهم وشهواتهم ، باسمين سخراً من هذه الشهوات والغرائز ، ومن إذعان الناس لها وإسلامهم لحكمها ؟ ! أم تراهم ينصفوننا ، والضمير الناضج منصف بطبعه ، فيقدرون أن غرائزنا وشهواتنا وآلامنا وضحاياتنا هى التى أدت بهم إلى ما ينعمون به من سلام وسعادة ؟ ! ما نراهم إلا منصفين : وما نراهم ، إذا قرّ نظرهم خلال هذا الماضى عند عهد أبى بكر ورأوا ما تم فى خلافته القصيرة الأمد من جلائل الأعمال ألا يقولون : رحم الله الصديق صفيّ النبي وخليله ! لقد كان ضعيفاً فى بدنه ، قوياً فى إيمانه . وقد دفع العالم بقوة هذا الإيمان دفعة نشرت فيه لواء الحق وأقرت كلمته . والكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . والذين جاهدوا مؤمنين لإقرار كلمة الحق لهم عند ربهم جزاء الصديقين ، وحسن أولئك رفيقاً .

ستكون هذه كلمتهم . فهى كلمة التاريخ المنصف . ونحن نقولها اليوم وسيقولها من بعدنا أبداً الدهر . ومن أحسن قولاً ممن جعل الحق حجته ، والإنصاف غاية ! .

تقدير وشكر

الآن وقد أراد الله للطبعة الأولى من هذا الكتاب أن تتم ، فمن الحق على أن أقدر معاونة الذين عاونوني أثناء كتابته ، وأثناء طبعه ، وأن أشكر لهم هذه المعاونة أصدق الشكر .

لقد كتبت فصول هذا الكتاب بين شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ وشهر يونيو سنة ١٩٤٠ في الفترة التي انقضت بين وزارتي المغفور لهما محمد محمود « باشا » ، وحسن صبرى « باشا » . وكنت إذا فرغت من كتابة بعض فصوله دفعتها إلى الأستاذ سيد نوفل فأملأها على لبيب أفندى فكرى إبراهيم فكتبها على الآلة الكاتبة .

ثم إن الأحوال حالت دون مراجعة الكتاب وتهذيبه إلى شهر مارس سنة ١٩٤٢ . فلما تيسر لى من الفراغ ما مكنتى من إعادة النظر فيه جعلت أراجع ما كتبت . وفى منتصف يوليو دفعت ما أتممت مراجعته إلى مطبعة مصر وطلبت إليها أن تتخذ من كتابى « حياة محمد » نموذجاً للطبع فى القطع والطريقة ، ونقّشت الفصول التى رأيتها فى حاجة إلى التنقيح ، ثم دفعتها من جديد إلى الأستاذ سيد نوفل فأملأها على الآلة الكاتبة .

قد عاوننى الأستاذ سيد كذلك فى تصحيح تجارب الطبع وأبدى لى أثناءها كما أبدى لى أثناء إملاء الكتاب ملاحظات ذات قيمة . فله عن ملاحظاته ومعاونته وإخلاصه فيهما أجزل الشكر وأصدق .

ومنذ بدأت أطبع الكتاب تولى الأستاذ عبد الرحيم محمود من أمره مثل ما تولاه من أمر « حياة محمد » و « فى منزل الوحى » من قبل ، فجعل همه مع دقة التصحيح إلى الدقة اللغوية والتدقيق فى ضبط النصوص والأعلام والألفاظ التى تحتاج إلى الضبط . والأستاذ عبد الرحيم حجة ثقة يعتمد عليه . وقد بذل من الجهد فيما تولاه ما أشكره اليوم له ، كما شكرته من قبل ، مقدراً أصدق مودته وإخلاصه لعمله .

وما دمت بصدد التصحيح فلست أنسى جهد الأستاذ الشاعر محمود أبو الوفا
والأستاذ علي فوده ، فهو جهد جدير بالثناء .

أما الفهارس فوضعها الأستاذان الشيخ محمد البرهامي منصور والشيخ أحمد
عبد العليم البردوني ، فلهما خالص الشكر .

ولست في حاجة إلى التنويه بعناية مطبعة مصر بدقة الطبع وجماله ،
فالكتاب بين يدي القارئ شهيد عليهما . وأحسب القارئ يشاركني في شكرها
عليها بذلت من عناية دونها كل عناية .

والحمد الأكبر والثناء الأجل لله جل شأنه ، منه الهدى ، وبه التوفيق ،
ولإليه يرجع الأمر كله .

محمد حسين هيكل

فهارس الكتاب :

فهرس الأعلام

(١)

ابن وهب (عبد الله) : ٢٩٩
 ابن يونس (مولى عائشة) : ٢٩٢
 ابنة الجودي بن ربيعة : ٢٢٤
 ابنة مجاعة : ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ، ١٩٩
 ابنة النعمان بن الجون (أسماء) : ١٧٧
 أبوبكر الأنباري : ٢٩٦ ، ٢٩٧
 أبو حشمة (الحارثي الأنصاري) : ٢٦٤
 أبو حذيفة بن عتبة : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٠
 أبو الحسن البصري : ٢٠٩
 أبو الدرداء (عويمر) : ٢٩٦
 أبو ذر الغفاري : ٦٣
 أبو زيد (سعد بن عبيد) : ٢٨٦
 أبو سفيان (بن حرب) : ٦٦ ، ١٠٩ ،
 ٢٦١ ، ٢٦٤
 أبو شجرة بن عبد الغزي السلمي : ١٢٠ ،
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٥
 أبو عبد الله الزنجاني : ٢٩٤ ، ٣٠٠
 أبو عبيدة بن الجراح : ٢٣ ، ٣٠ ، ٥٤ ،
 ٥٥ ، ٥٩ - ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٩٥
 ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ - ٢٥١ ، ٢٥٤
 ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ - ٢٦١ ،
 ٢٦٥ - ٢٧٥ ، ٣١١ ، ٣٢٧
 أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين) :
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦
 أبو قابوس = النعمان بن المنذر
 أبو قتادة الأنصاري : ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
 ١٣٨ ، ١٤١
 أبو ثحافة عثمان بن عامر (والد أبي بكر) :
 ٢٨ ، ٣٣١
 أبوليلي (بن فديكي) : ٢٢٧

آزاد - امرأة شهر بن بازان : ٨٠ ، ١٦٧
 آزابه : ٢١٤ ، ٢١٥
 آزريدخت ابنة كسرى : ٢٧٩
 أبرهة : ٢٠٧
 ابن أبي داود (عبد الله بن سليمان السجستاني) :
 ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
 ٢٩٥
 ابن الأثير (أبو الحسين علي بن محمد) : ٢٢ ،
 ٨٠ ، ١١٨ ، ١٦٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ،
 ٢١٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ،
 ٢٤٤ ، ٢٥٤ ، ٢٧٥
 ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي) :
 ٢٠٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ،
 ٢٤٤ ، ٢٥٤
 ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد) :
 ١٣٥
 ابن اللغنة (ربيعة) : ٣٤
 ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر) : ١٨٨
 ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد) : ٢٢٥
 ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد) :
 ٥٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩
 ابن سلام = محمد بن سلام
 ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله) : ٢٢٥
 ابن عبادة = سعد بن عبادة
 ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) :
 ٦٤ ، ٢٥٤
 ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) : ٢٩ ،
 ٣٢ ، ٣٧

١٤١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ،
 ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ، ١٩٩
 أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر : ٢٨
 أم رومان بنت عامر بن عويمر : ٢٨ ، ٣٩
 أم زمل سلمى بنت مالك : ١٢٠ ، ١٢٣ -
 ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٤٤ ، ١٥٣
 أم سلمة أم المؤمنين (بنت أبي أمية) ١٧٤ ،
 ٢٩٢
 أم فروة (بنت أبي قحافة) أخت الصديق :
 ١٧٤ ، ١٧٧ ، ٣٣٢
 أم قرعة فاطمة بنت بدر : ١٢٤ ، ١٢٥
 أم كلثوم بنت أبي بكر : ٣٨
 امرؤ القيس بن حجر الكندي : ٢٧
 أنس بن مالك : ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠
 أنوشجان : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
 أوس بن خزيمه : ١٣٠
 إياس بن قبيصة : ١٩١ ، ٢١٥ ، ٢١٧
 الأيهم الثاني : ١٩٢

(ب)

بازان الفارسي : ١٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٤
 ٨٥ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٩٧
 باهان قائد الروم : ٢٤٥ ، ٢٥٨ - ٢٥٩ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧٢
 بهوفن : ٢٢٥
 البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) :
 ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٣٠١
 مختصر الثاني : ١٨٣
 بهان عامل الفرس : ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ١٢٨ ، ١٦٠
 البراء بن عازب : ٦٣
 البراء بن مالك : ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٥١ ،
 ١٥٢
 برناردشو : ٣٤٨ ، ٣٤٩

أبومسلم الخراساني : ٦٧
 أبوموسى الأشعري : ٢٩٥
 أبوهريرة : ١٦٣
 أبي بن كعب : ٦٣ ، ٢٣٣ ، ٢٨٦ ،
 ٢٩٠ - ٢٩٢ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩
 أحمد أمين : ١٨٨
 أحمد عبد العليم البردوني : ٣٥٤
 الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد) : ٢٣
 أذينة بن السمين : ١٨٤ ، ١٨٥
 أرثر جفري : ٢٩٣
 الأزدي (أبو إسماعيل محمد بن عبد الله) :
 ٢٠٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤
 ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧١
 أسامة بن زيد : ١٨ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٨ ،
 ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٧ - ٩٦ ، ٩٩ -
 ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦
 إسرائيل : ٥٣
 الإسكندر الأكبر : ١٠٨ ، ١٨٤ ، ٣٤٥
 أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين : ٢٨
 أسماء بنت عميس : ٢٨ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ،
 ٣٣٢
 الأسود بن عتبة الغنسي ذو الحمار : ١٤ ،
 ٧٢ ، ٧٥ - ٨٦ ، ٩٥ ، ١٠٢ ،
 ١٠٥ ، ١١٣ - ١١٥ ، ١٦٧ - ١٧٠ ،
 ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٩٥
 أسيد بن حضير : ٦٠ ، ٣٢٤
 الأشعث بن قيس : ١٠٦ ، ١٧٤ - ١٧٦ ،
 ٣١٢ ، ٣٢٧
 الأشقر : ٢٦١
 الأعشى ميمون بن قيس : ١٩١ ، ١٩٢
 الأعيسر بن أم سخله = عمر بن الخطاب
 الأقراع بن حابس : ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦
 أكيدر بن عبد الملك الكندي : ١٥٩ ، ٢٢٣
 أم تميم ليل (بنت المهلب) زوجة مالك
 ابن نوية : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٩ -

جذيمة الأبرش : ١٣٩ ، ١٨٤ ، ١٨٥

١٨٦

جذيمة الوضاح = جذيمة الأبرش

جرجة بن قنرا : ٢٤٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٥

جرير بن عبد الله : ٢٣٥

جستنيان : ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩

جستين الثاني : ١٨٩

جشنس : ١٦٩ ، ١٧٠

جعفر بن أبي طالب : ٨٧ ، ٩٢ ، ١٠٨

جندب بن عمرو النوسي : ٢٣٩

جندل : ٢١٣

جنگيز خان : ١٠٨ ، ٣٤٥

جوتة : ٣٤٩

الجودي بن ربيعة : ٢٢٣ ، ٢٢٤

جويرية ابنة أبي سفيان : ٢٦٣

جييون : ٣٤٩

جيفر (بن الجلنلي) : ١٦٥ ، ١٦٦

(ح)

حابس بن سعد الطائي : ٢٣٩

حاتم (الطائي) : ٣٢٩

الحارث الأعرج = الحارث بن جبلة

الحارث بن جبلة الغساني : ١٨٩ ، ١٩٠

الحارث بن كلثة : ٣٢٢

الحارث بن هشام : ٢٦٢

الحارث الوهاب = الحارث بن جبلة

الحباب بن المنذر بن الجموح : ٥٨ ، ٥٩

٦٠

حبال بن خويلد = حبال بن سلمة

حبال بن سلمة بن خويلد : ١١٨

حبيبة بنت خارجة : ٢٨ ، ٣٨ ، ١٠٧ ،

٣٣٢

حذيفة بن محسن الغلفاني : ١٠٦ ، ١٤٤ ،

١٦٥ ، ١٦٦

حذيفة بن اليمان : ٢٩٤ ، ٢٩٥

برسته : ٣٤٠

بشير بن الحصاصية : ٢٧٩

بشير بن سعد : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥

بقيلة = عمرو بن عبد المسيح بقيلة

البلاذري (أحمد بن يحيى) : ٢٢ ، ٢٠٤

٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٦٥

٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ - ٢٧٤

بلال الحبشي : ٣٢ ، ٤٦

بهرام جور (بن يزدجرد) : ١٨٦ ، ١٨٧ ،

٢١٩

بهرجان الفارسي : ١٩١

بهم بن جاذويه : ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢

٢١٤

(ت)

تبع الأول : ١٨٤

تذارق - أخو هرقل : ٢٤٩ ، ٢٦٣

الترمذي (أبو عبد محمد بن عيسى) : ٢٨٩

تميم الداري : ٢٨٦

(ث)

ثابت بن أكرم الأنصاري : ١١٨ ، ١١٩

ثابت بن زيد : ٢٩٦

ثابت بن قيس : ١٤٣ ، ١٤٩

ثمالة بن أثال : ١٦٢

(ج)

جابان : ٢١١

الجارود بن المعلب العبدلي : ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٣

جبريل عليه السلام : ١١٨ ، ٢٨٦ ،

٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧

جبلة بن الأيهم : ١٩١ ، ١٩٢

(د)

داذويه الفارسي : ٧٩ ، ٨٠ ، ١٦٨ - ١٧٠ ،
١٩١ ، ١٧٢
دحية الكلبي : ٩٣
الدراقص : ٢٤٩

(ذ)

ذات النطاقين = أسماء بنت أبي بكر
ذو التاج = لقيط بن مالك
ذو الحمار = الأسود بن عنزة العنسي
ذو الكلاع الحميري : ١٦٩ ، ٢٣٩ ،
٢٤١ ، ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ٢٦٦

(ر)

رافع بن عميرة الطائي : ٢٥٥ - ٢٥٧ ،
٢٦٩
ربيعة (ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن) :
٢٩٩
رحمان اليمامة = مسيلمة بن حبيب
رحمان اليمن = الأسود العنسي
رفائيل : ٢٢٥
رفيق العظم : ٢٥
الرقاش أخت جذيمة : ١٨٤
رقية بنت علي بن أبي طالب : ٢٢٧

(ز)

الزباء : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦
الزبرقان بن بدر : ١٠٠ ، ٢٢١
الزبير بن العوام بن العاص : ٣٠ ، ٦٣ ،
٦٤ ، ٦٦ ، ٩٧ ، ١٠٧ ، ٢٣٣ ،
٢٣٧
زردشت : ١٨٨
زعة بن الأسود : ٢٦٦

حسان بن ثابت : ١٩٢

الحسن بن أبي الحسن البصري : ٣٧

حسن صبري باشا : ٣٥٣

الحطيم بن ضبيعة : ١٠٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
١٦٤

حفصة (ابنة عمر بن الخطاب أم المؤمنين) :
٤٦ ، ٢٨٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨

٣٠١

حليمة بنت الحارث : ١٩٠

حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء : ٣١ ،

٣٤ ، ٣٥ ، ١٥٢

حيرى بن أكال : ٢١٧

حيى بن أخطب : ٤٤

(خ)

خارجة بن زيد : ٣٨

خالد بن سعيد بن العاص : ٦٣ ، ٧٧ ،

١٠٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ -

٢٤٨ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢

خالد بن الوليد : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٤٣ ،

٨٧ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،

١١٦ - ١٢٢ ، ١٢٤ - ١٢٦ ، ١٣٢ -

١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ - ١٥١ ،

١٥٣ - ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٧١ ،

١٧٧ ، ١٩٤ ، ١٩٩ - ٢٣٢ ،

٢٣٥ ، ٢٣٧ - ٢٤٠ ، ٢٤٢ ،

٢٤٤ ، ٢٤٥ - ٢٤٧ ، ٢٥١ - ٢٦٦

٢٦٨ - ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣١٥

٣٢٧ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦

خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين) : ١٨ ،

٢٩

خريسم : ٢١٧

خزيمة الأنصاري : ٢٨٣ ، ٢٩٩

الخنساء الشاعرة (بنت عمر) : ١٢٣

سيد نوفل : ٣٥٣
سيرين - أبو محمد بن سيرين : ٢٢٢
السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) : ٢٨٣ ،
٢٨٨ ، ٣٠٠

(ش)

شرحيل بن حسنة : ١٠٥ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ،
١٦٦ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،
٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ،
٢٦٦ ، ٢٧٠

شرحيل بن مسيلمة : ١٤٨ ، ١٥٤
شريك بن عمرو : ١٩٠
شقران مولى الرسول : ٨٩
شكشير : ٢٢٥
شهر بن بازان : ٧٧ - ٧٩ ، ١٦٧ ،
١٦٨ ، ١٧٣
شهر يازار = شهريران
شهر بازان = شهربران
شهربراز = شهربران
شهريران بن أردشير بن سابور : ٢٧٧ ،
٢٧٨
شوق (أحمد شوق بك) : ٢٢٥
شويل : ٢١٧ ، ٢١٨
شيرزاد الفارسي : ٢٢٠
شيرويه بن كسرى : ٧٦ ، ٢١٩

(ص)

صباحة بنت ربيعة بن بجير التغلبي : ٢٢٧
صخر (بن عمرو أخو الخنساء) : ١٢٣
صفوان بن أمية : ١٠٠ ، ٢٦١
صلوبا بن نسطونا : ٢١٨ ، ٢١٩

(ض)

ضرار بن الأزور : ١١٥ ، ٢٦٢

زياد بن ليبيد : ١٧٣ - ١٧٥ ، ١٧٧
زيد بن ثابت : ١٩٥ ، ٢٣٣ ، ٢٨٢ -
٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ - ٣٠١
٣١٦
زيد بن حارثة : ١٨ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ١٠٨
١٢٤
زيد بن الخطاب : ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٩
١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

(س)

سابور بن شهريران : ٢٧٩
سابور عاهل الفرس : ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧
سارية بن عامر : ١٤٧
سالم مولى أبي حذيفة : ١٤٨ ، ١٥٠
سجاح بنت الحارث : ٧٢ ، ١٢٧ -
١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٩٧ ،
٢٢١
سعد بن أبي وقاص : ٣٠ ، ٢٣٣
سعد بن عباد سيد الخزرج : ٥١ - ٥٥ ،
٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ،
سعد بن معاذ : ٤١
سعيد بن خالد بن سعيد : ٢٤٥ ، ٢٧٢
سعيد بن زيد بن عمرو : ٦٥ ، ٢٧٠ ،
٢٨٦ ، ٣٢٤
سعيد بن عامر بن حزم الجمحي : ٢٧٠ .
سلمان الفارسي : ١٨ ، ٦٣
سلمة بن خويلد : ١١٨
سلمة بن عمير الحنفي : ١٥٤
سليم حسن : ٣٤٠
سليمان بن بلال : ٢٩٩
سمنار (البناء) : ١٨٦ ، ٢١٦
سهيل بن عمرو : ٧١ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨
سويد بن قطبة الذهلي : ٢٠٤ ، ٢٠٦
سويد بن مقرن الأوسي : ١٠٦
سياوخش الرازي : ٢٧٩

٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،

٣٢٦

عبد الرحيم محمود : ٣٥٣

عبد بن عوف الحميري : ٢٠٤

عبد بن غوث = عبد بن عوف

عبد الله بن أبي بكر : ٢٨ ، ٣٣٠

عبد الله بن أبي قحافة = أبو بكر الصديق

عبد الله بن رواحة : ٨٧ ، ٩٢ ، ١٠٨

عبد الله بن عباس : ٢٨٦ ، ٣٠٠

عبد الله بن عمر بن الخطاب : ١٥٣ ، ١٥٥

٢٨١

عبد الله بن عمرو بن العاص : ٢٨٦

عبد الله بن محمد : ٥٣

عبد الله بن مسعود : ٩٧ ، ١٠٠ ، ٢٨٦

٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ - ٢٩٧ ، ٢٩٩

عبد الوهاب النجار : ٢٦

عبله = الأسود العنسي

عبيد الأبرص : ١٩٠

عتاب بن أسيد : ٧١ ، ١٩٥ ، ٣٢٢

عتيبة بن النحاس : ١٦٥

عثمان بن أبي العاص : ٧١

عثمان بن عفان : ١٥ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٦١

٦٩ ، ١٩٥ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧

٢٤١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢

٢٩٤ - ٣٠٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٣

٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧

عدنان (جد النبي عليه السلام) : ٢٧

عدى بن حاتم الطائي : ١٠٠ ، ١١٦ -

١١٨ ، ١٢١ ، ١٤٤ ، ٢٠٥

عدى بن ربيعة : ١٨٤

عدى بن زيد : ١٨٦

عدى بن عدى : ٢١٧

عرفجة بن هرثمة البارق : ١٠٦ ، ١٤٤ ،

١٦٦

العزى (صنم) : ١٠٩

عفين بن المنذر : ١٦٤

(ط)

الطاهر بن أبي هالة : ١٦٨ ، ١٧١ ،

الطبري (محمد بن جرير) : ٢٢ ، ٥٩ ،

٦٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١١٨ ، ١٣٤ ، ١٤٦ ،

١٥٦ ، ١٨٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ،

٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ،

٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ ،

٢٦٥ ، ٢٧١ - ٢٧٥

طريفة بن حاجز : ١٢٣

طلحة بن عبيد الله : ٣٠ ، ٩٧ ، ١٠٧ ،

٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٢٤ ، ٣٣٠

طليحة بن خويلد الأسدي : ٧٢ ، ٧٥ ،

٨٣ - ٨٦ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٢ ،

١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٣ - ١٢٢ ،

١٢٤ ، ١٢٦ - ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٤٤

١٥٣ ، ١٩٥

طليحة النمرى : ١٤٦

(ع)

عاصم بن على : ٥٥

عاصم (بن عمرو التميمي) : ٢٢٤

عامر بن فهيرة : ٣٢

عائشة أم المؤمنين : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٩ ،

٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ١٢٤ ،

٢٩٢ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ،

٣٣٢

عباد (بن الجندى) : ١٦٦

عبادة بن الصامت : ٢٨٦

العباس بن عبد المطلب : ١٦ ، ٦١ ، ٦٣ ،

٦٦ ، ٦٧

عبد الأسود العجلي : ٢١١

عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق : ٢٨ ،

١٥١ ، ١٥٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ،

عبد الرحمن بن عوف : ٣٠ ، ٩١ ، ٢٣٣

٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ - ٣٣٣
 ٣٣٧ ، ٣٤٥
 عمر بن علي بن أبي طالب : ٢٢٧
 عمر أبو النصر : ٢٥
 عمرو الأصغر : ١٩١
 عمرو بن حزم : ٧٧
 عمرو بن العاص : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٢ ،
 ١٤٦ ، ١٦٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ - ٢٥١
 ٢٥٦ ، ٢٥٩ - ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧
 ٢٦٨ ، ٢٧٠
 عمرو بن عبد المسيح : ٢١٧
 عمرو بن علي : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦
 ٢١٧
 عمرو بن عكرمة بن أبي جهل : ٢٦٢ ، ٢٦٤
 عمرو بن معديكرب الزبيلي : ١٠٥ ، ١٦٨
 ١٧١ - ١٧٣ ، ٣١٢
 عمرو بن هند : ١٩٠
 عمير الصحابي : ٢٢١
 العنسي = الأسود بن عتبة العنسي
 عويم بن ساعدة : ٥٥
 عويم بن الكاهل الأسلمي : ٢٢٣
 عياذ = عباد
 عياض بن غنم : ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ - ٢٢٧ ، ٢٣٣
 ٢٣٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧
 عيينة بن حصن الفزاري : ٩٥ ، ١١٣ ،
 ١١٥ ، ١١٧ - ١١٩ ، ١٢١ - ١٢٣
 ١٢٥ - ١٢٧ ، ١٢٩

(ف)

فاطمة (بنت الخطاب) : ٢٨٦
 فاطمة (الزهراء بنت الرسول) : ٦٥ ،
 ٦٧ ، ٩٠
 فالريان : ١٨٤

عقة بن أبي عقة : ٢٢١ ، ٢٢٦
 عكاشة بن محصن : ١١٧ ، ١١٩ ، ١٧٣
 عكرمة بن أبي جهل : ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٤٠
 ١٤٤ - ١٤٦ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧١ -
 ١٧٣ ، ١٧٥ - ١٧٨ ، ١٩٤ ، ٢٣٣
 ٢٤٠ ، ٢٤٤ - ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٤
 ٢٦٠ - ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٣٠٨
 العلاء بن الحضرمي : ١٠٦ ، ١٦١ - ١٦٥
 ١٩٦
 علقمة بن علاثة : ١٢٣
 علقمة الفحل : ١٩٠ ، ١٩٢
 علي بن أبي طالب : ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٥٤ ، ٤٤٧ ،
 ٥٤ ، ٦١ ، ٦٣ - ٦٩ ، ٨٩ ، ٩٠ ،
 ٩٧ ، ١٠٧ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨
 ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧
 ٢٩٩ - ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠
 علي فودة : ٣٥٤
 عمار بن ياسر : ٦٣
 عمر بن الخطاب : ٩ ، ١١ - ١٥ ، ١٨ ،
 ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٤ ،
 ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٢ - ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٩ ،
 ٥٠ - ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ - ٦٤ ،
 ٦٩ ، ٧١ ، ٨٨ - ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٩ ،
 ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ،
 ١٣٧ - ١٤٠ ، ١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٧١ ،
 ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣٣ - ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٢ - ٢٧٥ ، ٢٨٠ - ٢٨٤ ،
 ٢٨٦ - ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ - ٢٩٥ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٦

الفجاءة إياس بن عبد ياليل السلمي : ١٢٠ ،

١٢٣ ، ١٣٥ ، ٣٢٧

الفرخزاد : ٢٧٩

الفضل بن العباس : ٤٧ ، ٦٣

فكا - المستشرق : ٩٣

فنجاص (اليهودي) : ٣٩ ، ٤٠

فوكاس إمبراطور الروم : ١٩٣ ، ٣٣٨

فيروز الديلمي : ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١

١٦٧ - ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٧

الفيقار بن نسطوس : ٢٤٩ ، ٢٦٣

فيليب الروماني : ١٨٣ ، ١٨٤

(ق)

قارن بن قريانس : ٢٠٧ ، ٢٠٨

قباد : ١٨٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨

قتيلة بنت عبد العزى : ٢٨

القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري) :

٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١

٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠

قرة بن هيرة : ١٢٠ - ١٢٣ ، ١٣٥ ،

٣١٢

قسطنطين : ١٨٧ ، ٣٣٧

قصير بن عمرو : ١٨٥

القعقاع بن عمرو التميمي : ١٢٣ ، ٢٠٣

٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧

٢٦١

القيس بن عاصم المنقري : ١٦٢ ، ١٦٤ ،

١٩٦

قيس بن عبد يغوث بن مكشوح المرادي :

٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٠٥ ، ١٦٨ ،

١٦٩ - ١٧٣

قيس بن مكشوح المرادي = قيس بن عبد يغوث

قيس بن هيرة المرادي : ٢٣٩

قيصر الروم : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،

٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٤

٣٣٦

(ك)

كارليل : ٣٤٩

كرامة بنت عبد المسيح : ٢١٧ ، ٢١٨

كسرى أبرويز : ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢٠٨

٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٨

٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٥٢ ، ٣٣٦

كسرى أردشير (ابن شيرويه) : ٢٠٥ ،

٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٥

كسرى بن أردشير بن سابور ذو الأكتاف :

١٨٧

كسرى أنو شروان : ١٨٩ ، ١٩٠

كسرى عاهل الفرس : ٧٦ ، ١٢٨ ، ١٦٠

كوسان دبرسفال : ٢٥ ، ١٩٠

كيخسرو : ١٨٣

(ل)

لييب فكري إبراهيم : ٣٥٣

لقيط بن مالك الأزدي ذوالتاج : ٧٢ ، ٨٣ ،

١٠٦ ، ١٦٥ ، ١٦٦

اللات (صنم) : ١٠٩

ليل = أم تميم

(م)

الآب ماريني : ٢٥

مارية ذات القرطين : ١٨٩

مالك بن أنس : ٢٨٦

مالك بن حذيفة : ١٢٥

مالك بن قيس : ٢١١

مالك بن نويرة : ١٠٥ ، ١١٦ ، ١٢٧ -

١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧

٢٥٣

ماني : ١٨٨
 معاوية بنت الأرقم بن الحارث : ١٨٩
 المتجرودة : ١٩١
 متمم بن نويرة : ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩
 المعنى بن حارثة الشيباني : ٢٣ ، ١٦٥ ، ١٩٦ - ٢٠٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٧ - ٢٨١ ، ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٣٢٩ ، ٣١٩
 مجاعة بن مرارة : ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٢ - ١٥٦ ، ١٧٧ ، ١٩٩
 محكم بن الطليل : ١٥١ ، ١٥٣
 محمد (عليه السلام) : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ - ٢٧ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٧٠ - ٧١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٠ - ١١٢ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٩٦ - ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ، ١٩١ - ١٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ - ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ - ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ - ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ - ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥ - ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ - ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥١
 محمد بن أبي بكر : ٢٨
 محمد البرهامي منصور : ٣٥٤
 محمد الحضري بك : ٢٥
 محمد بن سلام أبو عبد الله : ١٣٥ ، ١٣٦
 محمد محمود باشا : ٣٥٣

محمود أبو الوفا : ٣٥٤
 محمية بن زعيم : ٢٦٥ ، ٢٧٢
 مزدك : ١٨٨
 مسروق الكلبي : ١٦٨
 مسعود بن حارثة : ٢٧٨
 المسمودي (أبو الحسين علي بن الحسين) : ١٨٣ ، ١٩١
 مسلم (ابن الحجاج القشيري) : ٢٨٦
 المسيح (عليه السلام) : ٣٤٩
 مسيلمة بن حبيب (الكذاب) : ١٣ ، ٧٢ ، ٧٥ - ٧٧ ، ٨٢ - ٨٦ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٣٠ - ١٣٢ ، ١٤٠ - ١٤٧ ، ١٤٩ - ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٨١ ، ٢٩٣
 معاذ بن جبل : ٧٧ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٢٣٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٨٦
 معاوية بن أبي سفيان : ٦١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ١٣١ ، ٢٤٦
 المعري (أبو العلاء) : ٢٢٥
 معقل بن مقرن المزني : ٢٠٦
 المعل التيمي : ٢٧
 معن بن حاجر السلمي : ١٠٦
 المعنى بن حارثة : ٢٠٦ ، ٢٧٨
 المغيرة بن شعبة : ٦٣
 المقداد بن عمرو : ٦٣
 المنخل اليشكري : ١٩١
 المنذر الأكبر : ١٨٧
 المنذر الثالث بن ماء السماء : ٢٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠
 المنذر بن ساوى العبلي : ١٦١
 المنذر بن النعمان بن المنذر الغرور : ١٦٢ ، ١٨٩
 المهاجر بن أبي أمية المخزومي : ١٠٥ ، ١٤٤ ، ١٦٧ ، ١٧٢ - ١٧٨ ، ١٩٤ ، ٢٣٣ ، ٢٤١

ماني : ١٨٨
 معاوية بنت الأرقم بن الحارث : ١٨٩
 المتجرودة : ١٩١
 متمم بن نويرة : ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩
 المعنى بن حارثة الشيباني : ٢٣ ، ١٦٥ ، ١٩٦ - ٢٠٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٧ - ٢٨١ ، ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٣٢٩ ، ٣١٩
 مجاعة بن مرارة : ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٢ - ١٥٦ ، ١٧٧ ، ١٩٩
 محكم بن الطليل : ١٥١ ، ١٥٣
 محمد (عليه السلام) : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ - ٢٧ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٧٠ - ٧١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٠ - ١١٢ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٩٦ - ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ، ١٩١ - ١٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ - ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ - ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ - ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ - ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥ - ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ - ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥١
 محمد بن أبي بكر : ٢٨
 محمد البرهامي منصور : ٣٥٤
 محمد الحضري بك : ٢٥
 محمد بن سلام أبو عبد الله : ١٣٥ ، ١٣٦
 محمد محمود باشا : ٣٥٣

مهران بن بهرام جور : ٢٢١
موسى بن عمران (عليه السلام) : ٤٩

(ن)

النايفة الذبياني : ١٩٠ - ١٩٢
نابليون : ١٠٨ ، ٣٤٥
نصير أبو موسى بن نصير : ٢٢٢
النعمان بن بشير : ٥٩
النعمان بن الجون : ١٧٧ ، ١٧٨
النعمان بن عوف الشيباني : ٢٢٧
النعمان بن مقرن : ٩٨
النعمان بن المنذر الرابع أبوقابوس : ١٨٦ ،
١٩١ ، ٢١٥ ، ٢١٦
النعمان السادس بن الحارث الأصغر أبوكرب :
١٩١
نعم بن عبد الله : ٢٨٦
نهار الرجال (الرجال) بن عنقوة : ٨٢ ،
١٤٥ ، ١٤٨ ، ٢٩٣
النوار - امرأة طليحة : ١١٨

(هـ)

هاشم جد النبي : ٢٧
هاني بن قبيصة : ١٩١
هانبيال : ١٠٨ ، ٣٤٥
الحنبل : ٢٢١
هرقل : ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٩٣ ، ١٩٧
٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩
٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ،

٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣

٣٣٨

هرمز جاذويه : ٢٧٧ ، ٢٧٨
هرمز (عظيم القرس) : ٢٠٠ ، ٢٠٤ -
٢٠٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢
هشام بن حكيم : ٢٩١
هشام بن الوليد : ٣٣٢
هند (ابنة عتبة بن ربيعة) : ٢٦٣

(و)

الواقدي (محمد بن عمر) : ٢٣٠ ، ٢٤٠ ،
٢٤٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧١
وبر بن يحيى : ٧٨
وحشى الحبشى (مولى جبير بن مطعم) : ١٥٢
وكيع بن مالك : ١٣٠ ، ١٣٢
الوليد بن عقبة : ٢٢٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦
وليم ميور : ٢٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩

(ي)

يزدجرد : ١٨٦ ، ١٨٧
يزيد بن أبي سفيان : ٢٤١ ، ٢٤٦ - ٢٤٩ ،
٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ - ٢٦٧
٢٧٠ ، ٢٧٤
اليقطيني (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) :
٦٣ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ١٣٥
يوسف (عليه السلام) : ٤٦
يوليوس قيصر : ١٠٨ ، ٣٤٥
يونس (النحوى) : ١٣٦

فهرس الأمم والقبائل

٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ،

٣٢٧

أهل أبي بكر : ٣٢٧

أهل الأبله : ٢٠٤

أهل أليس : ٢١٨

أهل أوربا : ٣٤٩

أهل البحرين : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٢ ،

٢٤٧

أهل بدر : ١٤٣ ، ٢٣٣ ، ٢٤٧ ،

٢٦١ ، ٢٥٠

أهل البزاحة : ١٢١

أهل البصرة : ٢٩٥

أهل البيت : ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٨٩ ،

١٤٥

أهل تدمر : ٢٥٦ ، ٢٦٩

أهل الحجاز : ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ١٩٧ ،

١٩٨

أهل حضرموت : ١٧٣ ، ١٨٢

أهل الحيرة : ١٨٨ ، ٢١٥ - ٢١٧ ، ٢٢٠ ،

٢٢٦

أهل دمشق : ٢٧٠ ، ٢٧١

أهل دومة : ٢٢٤

أهل ذى القصة : ٩٨

أهل الربذة : ١٠١

أهل الردة : ١٤٣ ، ١٤٤

أهل السقيفة : ٥٧

أهل الشام : ١٧٩ ، ١٨٤ ، ٢٤٣ ، ٣١٤

٣١٥

أهل شبه الجزيرة = العرب

(١)

آل عبد مناف : ٦٦

آل المنذر بن ساوى العبلى : ١٦٢

الأبناء (طائفة فرس اليمن) : ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٩ - ١٧١

الأرثوذكس : ٢٤٣

الأزد : ٥٣ ، ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ،

١٨٤ ، ٢٣٩

أسد = بنو أسد

أسلم : ٧٢

أشجع : ٧٢

الأشعريون : ١٦٨

الأشوريون : ١٧٩ ، ١٩٨

أصحاب أحد : ٨٨

الأعاجم = الفرس

الأعراب = العرب

الإكليروس : ٣٤٩

الأمويون = بنو أمية

الأنصار : ١٦ ، ١٨ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ - ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ،

٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٧ - ٨٩ ،

٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،

١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٢٠ ،

١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،

١٥٢ ، ١٥٥ ، ٢٠٤ ، ٢٢١ ، ٢٣٣ ،

٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ،

٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،

١١٥ ، ١١٣ ، ١٠٥ ، ١٠٣ ، ١٠٢
 ، ١٣٢ ، ١٢١ ، ١١٩ ، ١١٨
 ٢٦٦ ، ١٥٩ ، ١٥٣
 بنو الأصفر = الروم : ٢٣٩ ، ٢٣٤ ، ٢٤٤
 بنو أمية : ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٣٠١ ، ٣١١ ، ٣١٨
 بنو بحرة : ٢٣١
 بنو بكر : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١٦١ ، ٢٣١
 بنو بكر بن وائل : ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٥
 بنو تغلب : ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٨٢ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ - ٢٢٨ ، ٢٣١
 بنو تميم : ٧٢ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٢٧ ، ١٢٩ - ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٩٧
 بنو ثعلبة : ١٠٢
 بنو جفنة : ١٨٥
 بنو الحارث : ٣٨
 بنو حمير : ١٠٦ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٣٠٦
 بنو حنظلة : ١٢٧
 بنو حنيفة : ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٤٣ - ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٥ - ١٦٢ ، ١٨٢ ، ٢٨١
 بنو خزاعة : ٧٢
 بنو خولان : ١٧٠
 بنو ذبيان : ٧٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ - ١٠٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦
 بنو ربيعة : ١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٦١ ، ٢٠٤ ، ٢٣٤

أهل الطائف : ٧٣ ، ٢٦٦
 أهل العراق : ١٧٩ ، ٢٢٦ ، ٢٩٦ ، ٣١٤ ، ٣١٥
 أهل عمان : ١٤٤ ، ١٨٢ ، ٢٤٧
 أهل عين التمر : ٢٢١
 أهل فلسطين : ٢٣٣ ، ٢٦٧
 أهل الكوفة : ٢٩٥
 أهل المدينة : ١٤ ، ٣٦ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٨١ ، ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢٤٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٢٨١ ، ٣٠٨ - ٣١٧
 أهل مكة : ١٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٧١ - ٧٣ ، ٨٤ ، ٩٨ ، ١٨١ ، ١٩٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٣١
 أهل مهرة : ١٤٤ ، ١٦٧
 أهل نجران : ٧٧
 أهل النجير : ١٧٥
 أهل يثرب = أهل المدينة
 أهل الإمامة : ٨٢ ، ١٣٠ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ٢٨٢ ، ٢٩٣
 أهل اليمن : ٧٢ ، ٧٤ - ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ١٤٤ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٨٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٦
 الأوس : ٣٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٠
 إيراد : ١٢٨ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ ، ٢٣١
 بلى : ٧٢
 بنو أسد : ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٥

(ب)

٢٣١

بنوهاشم : ٣٢ ، ٦٣ - ٦٩

بنو يربوع : ١٢٧ - ١٢٩ ، ١٣٣

بهراء : ٢٢٣ ، ٢٤٢ ، ٢٥٦

(ت)

تنوخ : ١٨٢ ، ٢٤٢

تيم بن مرة بن كعب : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٤٥

(ث)

ثقيف : ٤٤ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٤ ، ٩٥

٩٦

(ج)

جديلة : ١١٧

جذام : ١٨٤ ، ٢٤٢

جهينة : ٧٢

(ح)

حمير اليمن : ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٢

٣٠٦

(خ)

الخزرج : ٣٨ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤

٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠

(د)

دارم : ١٢٧

(ر)

الرافضة : ٢٩٩

رافضة الروم : ٢٦٤

بنو زبيد : ١٧١

بنو سليم : ١٠٦ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ١٢٣

١٢٤ ، ٢٣٦ ، ٣٠٦

بنو السميذع : ١٨٣ ، ١٨٥

بنو شيبان : ١٢٨ ، ١٩٧

بنو عامر : ١٢١ - ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٤٧

بنو العباس : ٦٦ ، ٦٧ ، ٣١١ ، ٣١٨

بنو عبد الدار : ٢٧

بنو عبد القيس : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦

بنو عبد مناف : ٢٧ ، ٢٤١

بنو عجل : ٢١٣

بنو عدوان : ٢٣١

بنو عذرة : ٢٣١

بنو عقيل بن ربيعة : ١٧١

بنو عك بن عدنان : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١

بنو عمرو بن معاوية : ١٧٤ ، ١٧٦

بنو العنبر : ١٢٧

بنو غسان : ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥

١٨٧ - ١٩٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٤٢

٢٥٦ ، ٢٤٢

بنو فزارة : ٧٢ ، ٩٧ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٤

١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤

بنو قريظة : ١١٧

بنو قيس بن ثعلبة : ١٠٦ ، ١٦٢

بنو قينقاع : ٤٣

بنو كلب : ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٨٢ ، ٢٢٣

٢٢٤ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥

بنو كنانة : ٧٢ ، ٩٧ ، ١٣٤

بنو مالك : ١٢٧

بنو مخزوم : ٢٧ ، ٣٤٥

بنو مشجعة : ٢٦٩

بنو المنذر : ١٩٠

بنو نصر : ١٨٥ ، ١٨٦

بنو النمر : ١٢٨ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٨

ربيعة = بنوربيعة

الروم : ١٢ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٣ ، ٤٩ ، ٤٥ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٢ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٧٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ - ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥

(س)

السكاسك : ١٧٣

السكون : ١٧٣ ، ١٧٤

(ط)

الطائيون : ١١٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، طي : ١٠٠ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ٢٣٩ ، ٢٦٦

(ع)

عاملة : ١٨٤

العباسيون = بنو العباس

عبس : ٧٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ - ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦

العجم = الفرس

العرب : ١٠ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٤٥ - ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨ - ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ - ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧

١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٩ - ١٨٣ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٨ - ١٩٥ ، ١٩٧ - ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ - ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤

عرب الحيرة : ١٨٨

عرب سوريا : ١٩٠

عرب الشام : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨

١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣

عرب العراق : ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١١ ، ٢٢١ ، ٢٣٠

عرب مآب : ٢٤٨

عرب اليمن : ١٦٩

(غ)

الفسانيون = بنو غسان

غطفان : ٧٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٢

١١٣ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٣٢

٣٠٦

غفار : ٧٢

الغووث : ١١٧

(ف)

الفراعنة : ٣٣٥

الفرس : ١٢ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦

(ل)

اللاتين = الروم

لحم : ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ،
 ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٧ ،
 ٢٠٠ ، ٢١٤ ، ٢٣١ ، ٢٤٢

(م)

المجوس = الفرس

مذبح : ٧٧ ، ٧٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٦
 مزينة : ٧٢ : ٣٠٦
 المشرقون : ١٣ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٣ ،
 ٧٧ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١٦٣ ، ٢٨٥ ،
 ٢٩٩

المصريون : ٣٠٣

مضر : ١٥ ، ١٤٦ ، ٢٠٤ ، ٢٣٤ ،
 ٢٨٤ ، ٢٩٠ ، ٣٠٦
 المهاجرون : ١٦ ، ١٨ ، ٣٤ ، ٣٧ ،
 ٣٩ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ،
 ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٨٧ -
 ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ،
 ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ،
 ٢٠٤ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ،
 ٢٦٦ ، ٢٨١ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،
 ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤

(ن)

النخع : ١٧٢

النصارى : ٤٥ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١٢٨ ،
 ١٧٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢١١ ،
 ٢٣١ ، ٢٩٥
 نصارى العرب : ٢١١

٩٣ ، ١٢٨ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ،
 ١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٧ - ١٩٣ ،
 ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ - ٢٠٨ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ،
 ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ - ٢٣٣ ،
 ٢٣٨ ، ٢٤٢ - ٢٤٤ ، ٢٤٧ -
 ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ،
 ٢٧٢ ، ٢٧٧ - ٢٧٩ ، ٣٠٦ ،
 ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ،
 ٣٢٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٥

فرس العراق : ٢٣٠

الفينيقيون : ١٧٩ ، ٣٣٥

(ق)

قريش : ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ،
 ٣٢ ، ٣٣ - ٣٦ ، ٤٢ - ٤٤ ، ٥٣ ،
 ٥٤ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٧١ ،
 ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٥ ،
 ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٦ ،
 ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٨٨ ،
 ٢٨٦ ، ٣٠٦ ، ٣٤٥
 قضاة : ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٤٦ ،
 ١٨٢ ، ١٨٤ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦
 القوط : ١٨٩
 قيس : ١١٨ ، ١٢١

(ك)

الكاثوليك : ٢٤٣

كندة : ١٠٦ ، ١٥٩ - ١٦١ ، ١٦٧ ،
 ١٧٣ - ١٧٥ ، ١٧٧ ، ٢٤٠ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٤
 كهلان اليمنى : ١٨٢

(هـ)

همدان : ١٦٨

الهندود : ٢٠٥

هوازن : ١٠٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤

هذيل : ٢٢٦

(ي)

اليهود : ١٢ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٥ — ٤٥٣

٥٤ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣

٩٤ ، ١٢٨ ، ١٩٣ ، ٢٣١ ، ٢٩٥

٣٢٢

اليمنيون = أهل اليمن

اليونان : ١٨٨ ، ٢٢٥ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧

فهرس الأماكن

(١)

آبل : ٩٢ ، ٩١
أسبانيا : ٣٣٧
آسيا : ٣٣٧ ، ٣٣٥ ، ٢٠١ ، ١٠٤ ، ٩٧
الأبرق : ١٠٥ ، ١٠١ ، ٩٧
الأبله : ٣١١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٤
أبن : ١٧٢
أثينا : ٣٠٩
أجا : ١١٦
أجنادين : ٢٧٣ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٥
أحد : ٢٦٣ ، ٢٤٧ ، ٨٨ ، ٤٣
الأحساء : ٧٧
أذربيجان : ٢٩٤
أذرعان : ٢٥٦
الأردن : ٢٦٠ ، ٢٤٨ ، ٢٤٤ ، ٢٦٤
أرض المعاد : ٢٤٩
أرمينية : ٢٩٤ ، ١٨٥
أشور : ٣٤٣ ، ٣٣٧ ، ٣٠٣
الأعلااب : ١٦٩
أفريقية : ٣٣٧ ، ٣١٦ ، ١٠ ، ٩ ، ٣٣٨
ألمانيا : ٢٥
أليس : ٢١١
— ٢٣٩ ، ٢١٥
أم القرى = مكة
أمريكا : ٣٥٠ ، ٣١٢
أمغيشيا : ٢١٥ ، ٢١٣ ، ٢١٢
الأنبار : ٢٢٤ — ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ١٨٣ ، ٢٦٨ ، ٢٤٢ ، ٢٣٠

(ب)

إنجلترا : ٢٥
الأندلس : ٢٢٢ ، ٩
الأنسر : ١١٧
إنطاكية : ٢٦٧
أور : ١٩٨
أوربا : ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ١٠ ، ٩ ، ٣٤٩ ، ٣٣٧ ، ٣٣٥ ، ٣٠٩
أوربا الوسطى : ٣٠٩ ، ٣٠٣
إيران : ٣٣٥ ، ٣٠٣
إيطاليا : ٢٥
إيوان كسرى : ٢٥٣
با توماء : ٢٧٠
باب الجابية : ٢٧١ ، ٢٧٠
باب الفراديس : ٢٧٠
بابل : ٢٧٨ ، ١٩٨
بادية السماوة : ٢٢٣ ، ١٧٩
بانقيا : ٢١٩
البحر الأحمر : ١٥٩
بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) : ٣٣٥
البحر الميت : ٢٥٠ ، ٢٤٣
البحرين : ١٤٧ ، ١٠٦ ، ٧٧ ، ٧٤ ، ١٨٤ ، ١٨٢ ، ١٦٦ ، ١٥٩
١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٨١
بحيرة طبرية : ٢٤٥
بدر : ١٤٣ ، ١٠٨ ، ١٠٢ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٢٤٧
برج بابل : ١٩٨

بيت أبي موسى الأشعري : ٢٩٥
 بيت بني هاشم : ٦٧
 البيت الحرام = المسجد الحرام
 بيت عائشة : ٤٦ - ٤٩ ، ٥٤ ، ٦٢ ،
 ٣٣٠ ، ٣٣٢
 البيت العتيق = المسجد الحرام
 بيت علي : ٦٤
 بيت فاطمة : ٣٢٦
 بيت المقدس : ٣٣ ، ٨٢ ، ١٩٣
 بئر معونة : ٢٩٣
 بيعة حصن عين التمر : ٢٢٢
 بين النهرين : ٢٣١

(ت)

تبوك : ٨٢ ، ٨٧ ، ١٧٤ ، ٢٢٣
 ٢٤٨
 تدمر : ١٩٢ ، ٢٦٩
 التركستان : ٣٣٧
 تهامة : ١٦٨
 تهامة اليمن : ١٠٦
 تونس : ١٠
 تيماء : ٤٤ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٥ ، ٢٤١ - ٢٤٣

(ث)

ثغر كاظمة : ٢٠٤
 ثنية العقاب : ٢٦٩
 ثنية الوداع : ٢٦٦
 ثنية اليمامة : ١٤٧

(ج)

الجابية : ١٩٢ ، ٢٤٨ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢
 جبال حوران : ٢٥٠
 جبل خولان : ١٧٠

البرازخة : ١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٥ - ١١٨ ،
 ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣
 بزطية = القسطنطينية
 بسما : ٢١٩
 البصرة : ٢٠٦ ، ٢٢٢
 بصرى : ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٧٠
 البطاح : ١٠٥ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣
 ١٤٠ - ١٤٣
 بغداد : ١٩١
 بلاد الحجاز = الحجاز
 بلاد الروم = الروم
 بلاد الشام = الشام

بلاد العرب : ١٢ ، ١٤ ، ٢٣ ، ٢٨ ،
 ٤٥ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ٧١
 ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣
 ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠١
 ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٣ ،
 ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
 ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧
 ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ،
 ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨
 ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ - ١٧٩ ،
 ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦
 ١٩٠ ، ١٩٢ - ١٩٧ ، ٢٠٥ -
 ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢١٩
 ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ - ٢٣٣
 ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٤
 ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ،
 ٢٩٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ - ٣١٧ ،
 ٣٢٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤

بلاد فارس = فارس

بلاد الفرس = فارس

بلاد قضاة : ٩١

بلاد مذبح : ٧٧

البلقاء : ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٢٤٨ ، ٢٦٠

الحفير : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ - ٢١١ ،
 ٢١٤
 حمراء الأسد : ١٦
 حمص : ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٧ ، ٢٧٠
 حنين : ١٦ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٨ ،
 ١٢٧ ، ٢٤٧ ، ٣٠٦
 حوارين : ٢٥٦ ، ٢٦٩
 الحيرة : ٤٥ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،
 ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٢٠٠
 ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،
 ٢١٤ - ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ - ٢٣٠
 ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢
 ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨

(خ)

خليج عدن : ١٤٧ ، ١٥٩ ، ١٨٥ ،
 ١٩٧
 خليج العقبة : ١٧٩
 خليج فارس : ٨١ ، ١٢٧ ، ١٥٩ ،
 ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٩ ، ١٨٢
 ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٤
 ٢٠٩ ، ٢١٩
 الخنافس : ٢٢٦
 خنلق سابور : ١٨٦
 الخورنق : ١٨٦ ، ٢١٥ ، ٢١٦
 خير : ٤٤ ، ٦٧ ، ٩٣ ، ١١٦

(د)

دائن : ٢٤٨
 دار أبي أيوب الأنصاري : ٣٩
 دار أبي بكر : ٣٦ ، ٥٦ ، ١٠٧ ، ٢٣٦
 ٣١٧
 دار خارجة بن زيد : ٣٩

الجرف : ٤٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ٢٤٦
 الجزائر : ١٠
 جزيرة ما بين النهرين = جزيرة العراق .
 جزيرة دارين : ١٦٤
 جزيرة العراق : ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٧٧
 جزيرة العرب = بلاد العرب
 الجسر الأعظم : ٢٠٨ ، ٢٠٩
 جلق : ١٩٢
 جواثي : ١٦٢
 الجوف : ١٧٩
 جولان : ١٩٢

(ح)

حبرون : ٢٤٨
 الحبشة : ٣٤ ، ٣٦ ، ٧٣ ، ٢٨٦
 الحجاز : ٧٦ - ١٣٧ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ،
 ١٧١ ، ١٧٩ - ١٨٢ ، ٢٦٨ ، ٢٩٥
 ٣٠٦
 الحجر : ٣٢ ، ٢٦٧
 الحديبية : ٤٤
 حديقة الرحمن = حديقة الموت
 حديقة الموت : ١٥١ - ١٥٣ ، ١٥٥ ،
 ٢٨١
 حراء : ٣٠
 حصن دومة : ٢٢٤
 حصن عين التمر : ٢٢١
 حصن المرأة : ٢٠٦
 حصن النجير : ١٧٥
 حصون اليمامة : ١٥٣
 الحصيد : ٢٢٦
 حضرموت : ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٠٦ ،
 ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٩ - ١٦١ ،
 ١٦٧ ، ١٧٣ - ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨٢
 ١٨٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤

دار سعد بن عبادة : ٥٢

دار فاطمة بنت الرسول : ٦٣

دار الندوة : ٢٧ ، ٣٦

الداروم : ٨٨ ، ٩٢

دارين : ١٦٤ ، ١٦٥

دبا : ١٦٦ ، ١٦٧

دجلة : ١٩١ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،

٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨١

٣٣٥ ، ٣٤٥

دستجرد : ١٩٧

دمشق : ٢٣ ، ١٩٢ ، ٢١٧ ، ٢٤٥ ،

٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥

٢٦٧ ، ٢٧٤ - ٣٢١

الدهناء : ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤

دومة (دومة عين التمر) : ٢٢٤

دومة الجندل : ٩٤ ، ١٥٩ ، ١٧٩ ،

٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ - ٢٢٧

٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥٥

٣٢٤

دير خالد : ٢٦٩ ، ٢٧٠

(ذ)

ذات الصنمين : ٢٦٩

ذوحسا : ٩٧ ، ٩٨

ذوقار : ١٩١ ، ٢١٥

ذوالقصة : ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،

١٠٥ ، ١١٥ ، ٣٢٧

ذوالمروة : ٢٤٥ ، ٢٧٢

(ر)

الربذة : ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٥

الربع الخالي : ١٦٠

رواق تذارق : ٢٦٤

روسيا : ٣٣٧

الروم : ١٠٠ - ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٦ ،

٣١٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،

٣٤٣ - ٣٤٥

رومية : ٣٤٣

(س)

الساحل : ١٦٩ ، ١٧٥

سد مأرب : ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢

السدير : ١٨٦

سقيفة بني ساعدة : ٥٤ ، ٥٦ - ٦٠ ،

٦٣ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ١٠٦ ، ٣٠٨ ،

٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧

سميراء : ١١٣ ، ١١٥

السنح : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ١٠٧ ، ١١٦

٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٣١٧

السند : ٢٠٤

السودان : ٣٤٥

سورية : ١٠ ، ٢٧٦

سوى : ٢٥٦ ، ٢٦٩

(ش)

الشام : ١٢ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٣

٢٩ ، ٣٣ ، ٤٦ ، ٧٣ ، ٩٤ ، ١٠٦

١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٣

١٣٨ ، ١٥٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ - ١٩٣

١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥

٢٢٧ ، ٢٣٠ - ٢٣٥ ، ٢٣٩ - ٢٤٨

٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ -

٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ - ٢٦٩

٢٧١ - ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠

٢٩٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢

٣١٥ - ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧

٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ - ٣٤٦

شبه الجزيرة = بلاد العرب

الشجرة (شجرة الرضوان) : ١٦

٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠
 ٢٨١ ، ٢٩٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ ،
 ٣١٢ ، ٣١٥ - ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢
 ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦

العراق العربي : ٢٣١ ، ٢٣٣

العربات : ٢٥٦

العربة : ٢٤٨ ، ٢٦٠

عرق الذهب : ٢٣٦

عقرباء : ١٠٥ ، ١٤٧ ، ١٦١ ، ١٩٩

العقيق : ٢١٥

عمان : ٧٢ ، ٨٣ ، ١٠٦ ، ١٢٢ ،

١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٥٩ - ١٦١ ،

١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٢

عين التمر : ٢٢٠ - ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢

٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٨

(غ)

غارثور : ٣٦ - ٣٨ ، ٦٠ ، ٦٢

الغور (غور فلسطين) : ٢٤٨ ، ٢٥٦

غور الأردن : ٢٥٠

غوطة دمشق : ٢٦٩ ، ٢٧٠

الغويز : ٢٦٩

(ف)

فارس : ١٢ ، ٤٥ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ٧٨ ،

٨٣ ، ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٧ ، ١٦٠ -

١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٨٢ ، ١٨٤ - ١٨٧

١٨٩ - ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ،

٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠

٢١١ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥

٢٣٦ ، ٢٤٧ - ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٧٧

٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٦ -

(ص)

صحار : ١٦٦

صحراء النفود = بادية السماوة

الصفاء : ٥٢

صنعاء : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١٦٧ -

١٧٥ ، ١٧٧

الصين : ٩ ، ٣٣٧

صيد : ١٧٥

(ط)

الطائف : ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٧١ -

٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٣ ،

٨٤ ، ٨٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٤٧ ،

١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ٢٣٥

٢٤٧ ، ٢٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٢

طبرية : ٢٤٨

طرابلس : ١٠

طريق الأخابث : ١٦٩

(ع)

العالية : ٣٢٨

عدن : ٧٧ ، ٧٩ ، ١٦١ ، ١٧٠ ، ١٧٥

١٧٨

العراق : ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ،

٢٣ ، ٦٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ ،

١١٩ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٥٦ ، ١٥٩

١٦٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ - ١٩٣ ، ١٩٧

٢٠٧ - ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،

٢١٧ ، ٢٢١ - ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩

٢٣٠ - ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ - ٢٤٢

٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ - ٢٥٤ ، ٢٥٦

٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ -

الكواظم : ٢٠٥

كيسان : ٢٧٠

(ل)

اللوى : ٢٦٩

(م)

مآب : ٢٦٧

مأرب : ١٧٨ ، ١٧٥

المحيط الأطلنطى : ٣٣٧

المدائن : ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٣

١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩

٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣٢١

المدينة : ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٣ ،

٢٨ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٤١ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٦ -

٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ - ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨

٨١ ، ٨٦ ، ٨٧ - ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٣

١٠٥ - ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٥

١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤

١٢٦ - ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣

١٣٦ - ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥

١٥٤ - ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٥

١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ -

١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ - ١٩٤ ، ١٩٥

١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٢١

٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ -

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ - ٢٤٧

٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠

٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧

٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ،

٢٩٤ ، ٢٩٨ - ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧

٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٧ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠

٣٣٢

٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٥

٣٣٦ - ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١

٣٤٢ - ٣٤٥

فسك : ٤٤ ، ٦٧ ، ٨٧ ، ٩٣

الفرات : ١٢٧ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٥ ،

١٧١ ، ١٨٠ ، ١٨٣ - ١٨٦ ، ١٩٦

١٩٧ - ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١١

٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧

٢٣٢ ، ٢٨١ ، ٣٣٥ ، ٣٤٥

الفراض : ٢٢٧ - ٢٣٠

فرنسا : ٢٥ ، ٣١١

الفلاحيج : ٢١٩

فلسطين : ١٠ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ،

٩٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦ ، ٢٦٦

٢٦٧

(ق)

قراقر : ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٨

قرية النجاج : ١٣٠

قس المقاطف : ٢١٨

القسطل : ٢٤٣

القسطنطينية : ١٢ ، ٤٥ ، ١٨٩ ، ٢٣١

قصر الحورنق = الحورنق

قصر النجف = النجف

قصر : ٢٥٦ ، ٢٦٩

القטיפ : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٩٦

قناطر الفرات : ٢١٥

قناة بصرى : ٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣

قنسرين : ٢٧٤

(ك)

كاظمة : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠

الكعبة : ٢٧ ، ٢٨ ، ٦٨ ، ٨٨ ، ٢٠٧

كهف خبان : ٧٧

مؤنة : ١٨ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ،
١٠٨ ، ١٠٩ ، ٢١٨ ،
الموصل : ١٨٥

(ن)

نجد : ٩٧
نجران : ١٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٦٨ ،
١٧٢ ، ٣١٥ ،
النجف : ٢١٥ ،
النجير : ١٧٥ ، ١٧٦ ،
النعمانية : ١٩١ ،
نهر الأردن : ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،
نهر الدم : ٢١٢ ،
نهرشير : ٢١٩ ،
نهر اليرموك : ٢٥٠ ،
نهر بادقلى : ٢١٢ ،
النيل : ٣٤٠ ،
نينوى : ١٩٧

(هـ)

هجر : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٩٦ ،
هرمزجرد : ٢١٩ ،
الهند : ٩ ، ١٦١ ، ٢٠٤ ، ٣٠٣ ، ٣١٥ ،
٣٣٥ ، ٣٣٧

(و)

وادي سرحان : ٢٢٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥٥ ،
٢٥٧ ، ٢٧٣ ،
وادي القرى : ١٢٤ ، ٢٦٧ ،
واردات : ١١٥ ،
واقوصه : ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ،
الوبر : ١٥٧ ،
الولجة : ٢٠٩ ، ٢١٠

المذار : ٢٠٨ - ٢١٠ ، ٢١٤ ،

مراكش : ١٠ ، ٩ ،
مرج راهط : ٢٥٦ ، ٢٦٩ ،
مرج الصفر : ٢٤٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،
المسجد الأقصى : ٣٣ ،

المسجد الحرام : ٣٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٣٤٤ ،
٣٤٨

المسجد (مسجد الرسول) : ٤٦ - ٤٩ ،
٥٤ ، ٦١ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠١ ،
١٢٧ ، ١٣٧ ، ١٩٤ ، ٢٣٧ ، ٢٨٢ ،
٢٩١ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ،

مشارف الشام : ١٠٦ ،

مصر : ١٠ ، ٢٥ ، ٤٥ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
١٩٠ ، ١٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣٣٦ ،
٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ،

مصلى البقيع : ١٢٣ ،

المصيخ : ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،

مطبعة مصر : ٣٥٣ ، ٣٥٤ ،

مكة : ٩ ، ١٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،
٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٢ -
٤٥ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٧١ -

٧٣ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ،
٨٨ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١١٩ ،
١٢٦ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ،
١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٢ ،

١٩٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ،
٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ ، ٢٨٤ ،
٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،
٣٠٨ ، ٣٢٢ ،

منازل بنى تميم : ١٢٧ ،

منازل هذيل : ٢٢٦ ،

منيشيا : ٢١٢ ،

مهرة : ١٠٦ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ،
١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ،

٢٣٨ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،
 ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،
 ٢٨٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

اليمن : ١٤ ، ٢٩ ، ١٨ ، ٤٥ ، ٧٤ -
 ٨٦ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،
 ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٥٩ -
 ١٦١ ، ١٦٧ - ١٧٧ ، ١٨٢ ،
 ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
 ١٩٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٦٦ ، ٣٠٦ ،
 ٣١٢ ، ٣٢٢
 اليونان : ٣٤٣

(٢)

يُثرب = المدينة

اليرموك : ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ،
 ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٥ ، ٢٧٢ - ٢٧٥
 اليمامة : ١٣ ، ٧٢ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ،
 ٨٥ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ -
 ١٣٢ ، ١٣٨ - ١٤٧ ، ١٥٢ ،
 ١٥٣ ، ١٥٧ - ١٥٥ ، ١٥٩ ،
 ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٩٤ ،
 ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٢٨ ،

فهرس الأيام والغزوات والوقائع

غزوة عقرباء : ١٠٥ ، ١٦١ ، ١٩٩

غزوة القادسية : ١٧١

غزوة كاظمة = غزوة ذات السلاسل

غزوة مؤتة : ١٨ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٨٨

٢١٨

غزوة اليمامة : ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٦

١٥٧ ، ٢٥٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣

(ف)

فتح الأنبار : ٢٢٢

فتح الحيرة : ٢٣٠

فتح الشام : ٢٢١ ، ٢٤٣

فتح العراق : ٢٣٠

فتح عين التمر : ٢٢٢

فتح مكة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٧٣

(و)

وقعة أليس : ٢١٤ ، ٢٣٩

وقعة أمغيشيا : ٢١٥

وقعة بعاث : ٥٣

وقعة الفراض : ٢٢٨ ، ٢٢٩

وقعة المذار : ٢١٤

(ي)

يوم حليمة : ١٩٠

يوم ذي قار : ١٩١

يوم سقيفة بني ساعدة : ٦١ ، ٦٥ ، ٣١١

٣٢٧

يوم اليرموك : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣-٢٧٥

(ب)

بيعة العقبة الصغرى : ٣٦

بيعة العقبة الكبرى : ٣٦ ، ٥٣ ، ٥٦

(ع)

عام تبوك : ٢٢٣

عام الحجاة : ١٣١

عام الوفود : ١٦٠ ، ١٧٤

عمرة القضاء : ١٠٨

عهد الحديبية : ٤٤ ، ١٠٨

(غ)

غزوة أحد : ١٦ ، ١٠٨ ، ١٥٢ ، ٢٤٧

٢٦٣

غزوة الأحزاب = غزوة الخندق

غزوة بدر : ٤٠ ، ٤٢ ، ٩٨ ، ١٠٢ ،

١٠٨ ، ١٤٣ ، ٢٤٧

غزوة البزاة : ١١٣

غزوة بني قريظة : ٤٤

غزوة بني النضير : ٤٤

غزوة تبوك : ٨٢ ، ٨٧ ، ١٧٤ ، ٢٤٨

غزوة الحفير : ٢٠٤ ، ٢١٤

غزوة حنين : ١٦ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،

٨٨ ، ١٢٧ ، ٢٤٧

غزوة الخندق : ٤٤ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٢٠

غزوة ذات السلاسل : ٢٠٦

غزوة ذي قرد : ١١٧

غزوة الطائف : ٤٥ ، ٥١ ، ٧٣

فهرس الموضوعات

صفحة	
٩	تقديم
	أبوبكر والإمبراطورية الإسلامية - موقفه من ردة العرب وقيامه بغزو العراق والشام - آثار انتصاره في حروب الردة وتمهيدته للفتح - مصدر قوة الصديق - اضطراب المراجع لعهد - الذين أرخوا له في العهد الحديث .
٢٧	الفصل الأول : « أبوبكر في حياة النبي »
	قبيلته وأبواه وصباه - صفاته وأخلاقه - اشتغاله بالتجارة ونجاحه فيها - صلته بمحمد - قبوله الإسلام ودعوته قريشاً له - حمايته ضعفاء المسلمين - دفعه الأذى عن رسول الله - حديث الإسراء والهجرة وموقفه منهما - مواقفه في غزوات الرسول .
٤٩	الفصل الثاني : « بيعة أبي بكر »
	موقف أبي بكر من وفاة النبي - تنافس المهاجرين والأنصار في حياة النبي - سقيفة بني ساعدة والمداورات الخطابية فيها - بيعة السقيفة ثم بيعة العامة - هل تخلف أحد عن البيعة - القول بتخلف علي بن أبي طالب عنها - إنكار هذا القول وحجة الذين أنكروه .
٧١	الفصل الثالث : « العرب حين وفاة النبي »
	تبليل عقائد العرب واضطرابهم لوفاة النبي - المدينة ومكة والطائف تبقى على إسلامها - انتفاض سائر العرب - العوامل التي أدت إلى الانتفاض والردة - فتنة العنسي باليمن - نجاحها ثم انقلابها على مثيريها - عوامل الفتنة في أنحاء شبه الجزيرة .
٨٧	الفصل الرابع : « بعث أسامة »
	تجهيز رسول الله جيش أسامة - موقف المسلمين من أسامة - سياسة أبي بكر أن يصنع ما كان رسول الله يصنعه - وصية أبي بكر لأسامة - جيش أسامة يغزو البلقاء ثم يعود ظافراً إلى المدينة .
٩٥	الفصل الخامس : « قتال من منعوا الزكاة »
	أبوبكر يشاور أصحابه لقتال من منعوا الزكاة - إصراره على قتالهم وإن خرج لهم وحده - دفاع المسلمين بإمرة أبي بكر عن المدينة وانتصارهم على من منعوا الزكاة - إقبال القبائل على إيتاء الزكاة - انحياز من أصروا على منعها إلى طليحة بن خويلد في بني أسد .

الفصل السادس : « التهيؤ لحروب الردة » . . . ١٠٥

توزيع جند المسلمين ألوية لقتال المرتدين - عبقرى الحرب خالد بن الوليد - كتاب
أبي بكر إلى المرتدين .

الفصل السابع : « طليحة وغزوة البزاحة » . . . ١١٣

تنبؤ طليحة بن خويلد الأسدي قبيل وفاة الرسول - عدى بن حاتم يعيد طيثاً إلى
الإسلام لتقاتل في صفوف المسلمين - فرار طليحة أمام خالد بن الوليد - عفو
أبي بكر عن زعماء الردة - أم زمل والفلول التي اجتمعت إليها ومقتلها .

الفصل الثامن : « سجاح ومالك بن نويرة » . . . ١٢٧

بنو تميم في حياة النبي - سجاح بنت الحارث تتنبأ وتنحدر من جزيره العراق لتحارب
أبا بكر - موادعتها مالك بن نويرة - قصتها مع مسيلمة متنبئ الإمامة - خالد بن
الوليد يسير إلى البطاح لقتال بني تميم - قتله مالك بن نويرة وزواجه ليل أم تميم -
ثورة عمر بن الخطاب بخالد ومطالبته أبا بكر بعزله - أبو بكر يستدعي خالداً ثم
يرده أميراً على الجيش لغزو الإمامة - الخلاف بين أبي بكر وعمر خلاف على سياسة
المسلمين .

الفصل التاسع : « غزوة اليمامة » . . . ١٤٣

مسيلمة وتنبؤه واستغلاظ أمره - عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة لايشبتان
لجيوش مسيلمة - خالد بن الوليد يسير إلى اليمامة - معركة عقرباء - اضطراب النصر
بين الفريقين - عبقرية خالد في القيادة - فرار مسيلمة وأصحابه - مقتل مسيلمة -
مجاعة بن مرة يعتقد الصلح مع خالد - خالد يتزوج بنت مجاعة فيثير غضب أبي بكر .

الفصل العاشر : « بقية حروب الردة » . . . ١٥٩

ثورة الجنوب في البحرين وعمان ومهرة واليمن وكندة وحضرموت - قتال المرتدين في
البحرين - قصتا الدهناء وجزيرة دارين - الردة في عمان والقضاء عليها - وكذلك في
مهرة - اليمن بعدمقتل العنسي وعوامل الثورة فيها - عكرمة بن أبي جهل والمهاجر بن
أبي أمية يقضيان على ردة اليمن - قتال المرتدين في كندة وحضرموت .

الفصل الحادي عشر : « التمهيد للفتح والإمبراطورية » . . . ١٧٩

العرب في بادية الشام - مملكة الحيرة ومملكة بني غسان - اتصاهما بالفرس والروم -
المملكتان في ذروة المجد - تمهيدهما للفتح العربي والإمبراطورية الإسلامية - تدهور
الإمارتين - موقف أبي بكر من فارس والروم - المشي بن حارثة الشيباني يتقدم في
العراق - أبو بكر يقره ويمده بخالد بن الوليد لفتح العراق .

صفحة

٢٠٣

الفصل الثاني عشر: « فتح العراق »

سياسة أبي بكر للفتح - غزاة كاظمة وقتل هرمز - غزوة المذار فالولجة - غزوة أليس ونهر الدم - فتح الحيرة واتخاذها مركز قيادة المسلمين - سنة النساء - فتح الأنبار وعين التمر - فتح دومة الجندل - غزوة الفراض - حج خالد .

٢٣١

الفصل الثالث عشر: « بين العراق والشام »

موقف العرب والروم على تخوم الشام - تفكير أبي بكر في غزو الشام واستمداده المسلمين له - كتابه إلى خالد بن سعيد بالتقدم في الشام .

٢٤٣

الفصل الرابع عشر: « فتح الشام »

خالد بن سعيد يتقدم في الشام ثم يهزم ويفر - أبو بكر يزداد حماسة للفتح فيبعث الجيوش للشام بإمرة أبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص - منازل هذه الجيوش بالشام - التقاؤها على اليرموك قبالة جيوش الروم - جمود الموقف شهرين كاملين - أبو بكر يمد جيوشه بالشام بخالد بن الوليد - مسيرة خالد من العراق إلى الشام - غزوة اليرموك - عزل خالد عن إمارة الجيش - رواية البلا ذرى تخالف رواية الطبرى - رأينا في الروايتين .

٢٧٧

الفصل الخامس عشر: « المثني في العراق »

المثني بعد مسيرة ابن الوليد إلى الشام - دقة موقفه - انتصاره مع ذلك على الفرس - ذهابه إلى المدينة في مرض أبي بكر يستمده بمن عادوا إلى الإسلام بعد ردتهم - وصية أبي بكر لعمر في أمر العراق .

٢٨١

الفصل السادس عشر: « جمع القرآن »

عمر بن الخطاب يشير على أبي بكر بعد غزوة اليمامة بجمع القرآن - أبو بكر يتردد ثم يكلف زيد بن ثابت بأن يجمع القرآن - القول في جمع الآيات سوراً في عهد الرسول - الحديث: « أنزل القرآن على سبعة أحرف » والأقوال فيه - موقف عبد الله ابن مسعود من جمع القرآن - طريقة زيد بن ثابت في جمع القرآن - هل رتب رسول الله تعاقب السور .

٣٠٣

الفصل السابع عشر: « حكومة أبي بكر »

لست خليفة الله - تطور بلاد العرب إلى الوحدة السياسية - حكومة أبي بكر حكومة شورى - أساس الإمبراطورية الإسلامية - حكم أبي بكر عربي متأثر بالحرب والفتح .

الفصل الثامن عشر : « مرض أبي بكر ووفاته » ٣٢١

بدء مرضه - استخلافه عمر بن الخطاب - حسابه نفسه - ردهما أخذ من بيت المال -
استرداده ما هب لعائشة - وصيته لكفنه - وفاته - تأبين علي بن أبي طالب وعائشة
وعمر بن الخطاب له - أثره في حياة الإسلام .

خاتمة ٣٣٥

التنقل المحتوم للحضارة - فارس والروم ومجدهما ثم تدهورها - لماذا اختار القدر
بلاد العرب لتحل محلها - طفولة الضمير الإنساني - الإسلام والمثل الأعلى -
الإسلام والحرب - أثر الإسلام في الضمير الإنساني - العالم الحديث والمثل الأعلى

٣٥٣	تقدير وشكر
٣٥٥	فهارس الكتب
٣٥٥	فهرس الأعلام
٣٦٥	فهرس الأمم والقبائل
٣٧١	فهرس الأماكن
٣٧٩	فهرس الأيام والغزوات والوقائع
٣٨٠	فهرس الموضوعات

رقم الإيداع	١٩٧٩/٣٧٧٧
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧ - ٧٨٦ - ١٧٧ - ١

١/٧٩/١٨٢

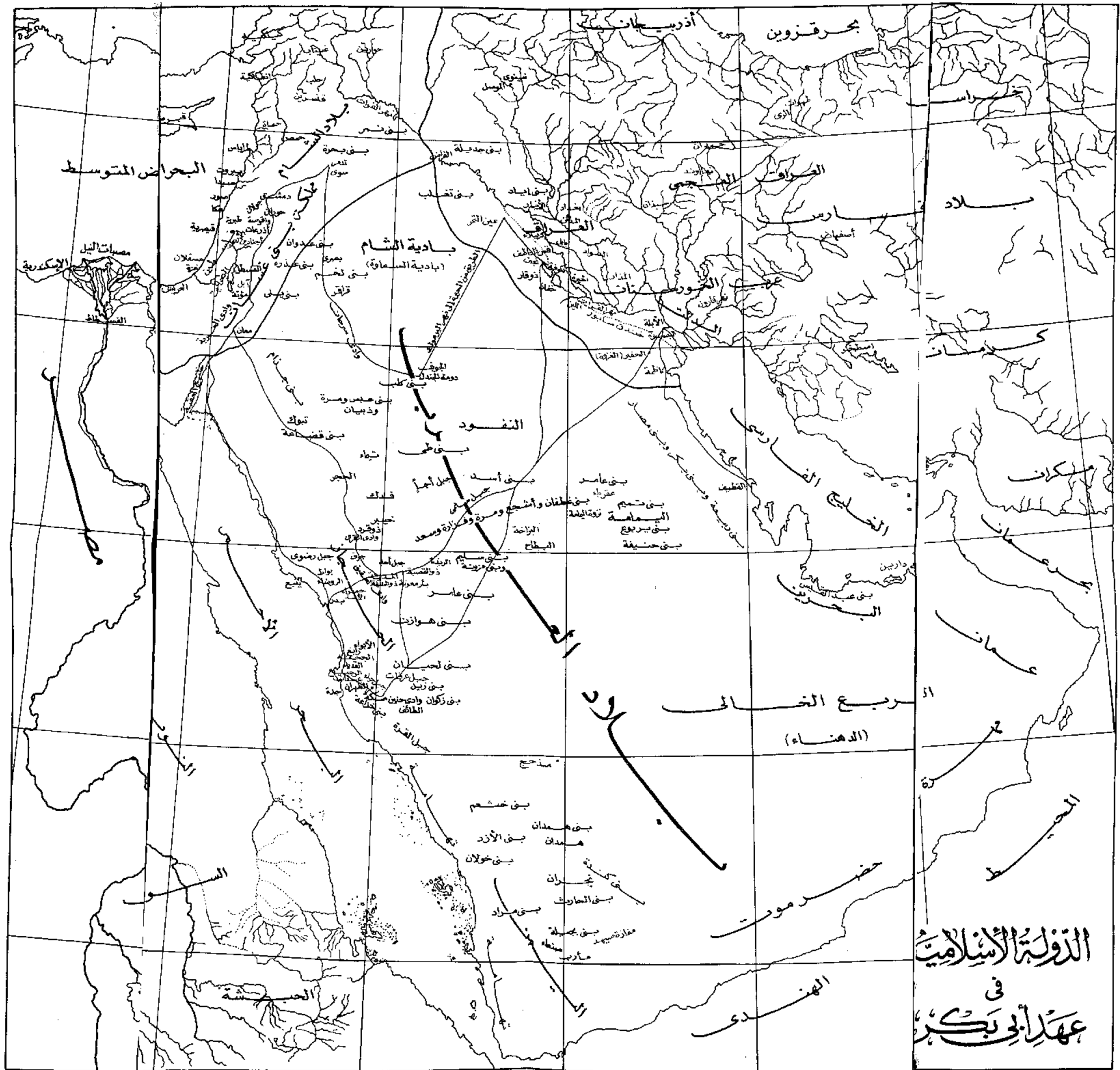
طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

As-šidīq
Abū Bakr

Par
Mohammad Hosyn Hikāl



DAR AL-MAAREF



الدولة الإسلامية
في
عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم

Bibliotheca Alexandrina



1523121